المهدي اللامنتظر

لا عند اليهود ولا عند الشيعة ولا عند السنة ولا عند البرتغال





د. محمد عمراني حنشي

الحــوار المحضر : أي إسـلام ؟

Der zivilisatorische Dialog : Welcher Islam ?

The civilizationist dialogue : what islam ?

يقول الشيخ الصدوق في كتاب الهداية :

ويجب أن يعتقد أن حجة الله في أرضه وخليفته على عباده في زماننا هذا هو : القائم المنتظر!، ابن الحسن، بن علي، بن محمد، بن علي، بن موسى، بن جعفر، بن محمد، بن علي، بن الحسين، بن علي، بن ابي طالب. وأنه هو الذي أخبر النبي! به عن الله عز وجل! باسمه! ونسبه!، وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً!. وأنه هو للذي يظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون. وأنه هو الذي يفتح الله عز وجل على يده مشارق الأرض ومغاربها!؟، حتى لا يبقى مكان لا ينادى فيه بالأذان، ويكون الدين كله لله.

فإنه هو المهدي، الذي إذا خرج نزل عيسى بن مريم ثم صلّى خلفه!؟. ويكون إذا صلى خلفه وصليا خلف الرسول، لأنه خليفته.

ويجب أن يعتقد أنه لا يجوز أن يكون القائم غيره!؟!؟، بقي في غيبته ما بقي!. ولو بقي في غيبته عز الدنيا، لم يكن القائم غيره!؟!، لأن النبي والأئمة! عرّفوا باسمه ونسبه ونصّوا به وبشّروا!
ويجب أن يتبرأ إلى الله عز وجل من الأوثان الأربعة(يعني بهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعائشة وحفصة أمي المؤمنين رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم!) والأناسي الأربعة (يعني بهم : رؤوس مذاهب السنة الراشدية الأربعة : أبا حنيفة النعمان ومالك بن انس ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل الشيباني رحمهم الله!) ومن جميع أشياعهم وأتباعهم، ويعتقد فيهم انهم أعداء الله وأعداء رسوله وأنهم أبغض خلق الله!؟؟!؟. ولا يتم الإقرار بجميع ما ذكرنا إلا بالتّبرّي منهم!؟.
ويجب أن يعتقد فيمن يعتقد ما وصفنا (أي في شيعتهم المتبرئين مما ذكر!) أنه على الهدى!؟ والطريقة المستقيمة!؟. وأنه أخ لنا في الدين، واجب علينا نصيحته ومؤامنته ومؤساته ومعاونته ومعاضدته. وأن نرضى له ما نرضى لأنفسنا ونكره ما نكره لأنفسنا، ونقبل شهادته ونجيز الصلاة خلفه ونُحَرّم غيبته.
ويعتقد فيمن يخالف ما وصفنا (وهم أهل السنة الراشدية) أو شيء منه أنه على غير الهدى!؟!!؟؟، وأنه ضال!؟ على الطريقة المستقيمة!؟؟ ونتبرأ منه كائناً من كان!، من أي قبيلة كان!، ولا نحبُّه! ولا نُعينه! ولا ندفع إليه زكاة أموالنا ولا حجّة يحِجُّ بها عنا وعن واحد منا، ولا زيارة! ولا نظرة! ولا لحْمَ أضْحِيّة ولا شيئاً نُخْرجه من أموالنا لنتقرب به إلى الله عز وجل.
ولا نرى قبول شهادته! ولا الصلاة خلفه!. هذا في حالة الاختيار!؟، فأما في حال التقيّة! فجائز لنا أن ندفع بعض ذلك إليهم! ونصلي خلفهم! إذا جاء الخوف!. أما أداء الأمانة، فإنا نرى أداءها للبرّ والفاجر: أدوا الأمانة ولو إلى قاتل الحسين بن عليّ!.

قلت : الرجل الذي سطر هذا السّم الرعاف، هو المسمى عند الإحدى عشرية ب " الصّدوق!؟" ، وهو ابن أبي الحسن، ابن بابويه القُمّي، الذي يطلق عليه هذا الحزب وعلى والده لقب : " الصّدوقان!؟!. فإذا علمت أن كل فرق المسلمين الآخرين و أحزابهم يعتبرون هذا المهدي خرافة مسلية، فماذا عن المهادي الأخرى ؟

الثمن : 35 درهم

Le Dialogue Civilisateur : Quel Islam ?

الحوار المحضر

المهدي اللامنتظر
لا عند اليهود ولا عند الشيعة
ولا عند السنة ولا عند البرتغال

الدكتور محمد عمراني حنشي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى دعاة القرن الحادي والعشرين وما بعده

1- تمهيد

لعبت الأسطورة في تشكيل الذهنية الدينية والسياسية للحضارات التي تعاقبت في السيطرة على منطقة الهلال الخصيب : العراق، سوريا، فلسطين ومصر، دور القالب المؤطر والرمز المصوغ وعين الرؤية إلى الذات والوجود وإلى العالم. وباكتشاف المكتبات الكبرى لهذه الممالك والإمبراطوريات الغابرة، التي ظلت دفينة الرمال والنسيان لعشرات القرون قبل أن تعريها الحفريات أخيرا في القرن التاسع عشر والعشرين، بدا واضحا، بعد أن استطاع العلماء فك شفرات لغاتها المختلفة، أن الأسطورة السياسية والدينية الشرقية تميزت بنيويا بثابتين : الثابت الأول : تجسد في استقرار الأنماط، والثابت الثاني في إعادة تدوير الإنتاج بالتهجين الملفق. فثبوت الأنماط كاستمرارية، تمثلت في تكريس نموذج "الحاكم المطلق"، الذي يتقمص دوره إما في صورة "إله" أو صورة مبتذلة ل"ملك" يحكم باسم الإله أو الآلهة. أما إعادة تدوير الإنتاج فتمثلت في التوظيفات الرمزية التي تكاد تكون ثابتة هي الأخرى في مضامينها الإيحائية أو أشكال الصياغة والتسويغ، مع الاستيعاب المستمر لكل الرموز الطارئة، التي تتولد إما بتحول الرموز السابقة لأداء أدوار لاحقة أو بالتهجين الملفق للرمز المحلي مع الرمز الطارئ الوارد الناتج عن المخالطة الخارجية، على شكل مثاقفة مفروضة أو مرغوبا فيها، والتي يعاد تدويرها بإعادة الحبك لتراكم في الذاكرة الجماعية كفلكلور وتراث وموروث، حسب ظرف المكان والزمان وجنسية الحاكم.

فالأسطورة السياسية الشرقية تمحورت بالأساس حول تسويغ هذا النوع من الحكم الذي يحتل فيه الحاكم "الإله!" أو من ينوب عنه قمة هرم السلطة، في حكومة إلهية كونية تحكم البشر إما مباشرة، أو كمندوبين أرضيين لمثل هذه الحكومة الإلهية وبالنيابة عنها. ثم تأتي بعد ذلك مباشرة في هذه التراتبية طبقة الكهان، إذ هي الواسطة بين الإله أو الملك وطبقة الشعب التي توجد في أسفل الهرم. والأخيرة باعتبارها قاعدة الهرم ودرك هذه التراتبية، في عداد العبيد والقن والسلعة وحقل التجارب التحكمية السلطوية لهذا الملك المؤله!، يتحكم في حياتهم وأرزاقهم كيف يشاء ومتى شاء. ثم هناك قطب رحى فيما يشبه تمحورية رمزانية تحاط بهالة من الأسرارية حول وجود برزخية روحانية متعالية تفصل دائما بين البشر المؤلهين كحكام وبين البشر العاديين كمحكومين. وعلى جانبي مهاوي هذا البرزخ وضفافه ودركاته، حددت الأسطورة بالمرموز تارة وبالواضح تارة أخرى، أدوار كل طرف، والتي تكاد تتلخص في جملتين : "الحاكم لا يُسأل لتعاليه والمحكوم لا يتساءل لمهانته". ولأن الحاكم محجوب دائما بحجب القداسة والسمو والتعالي، فلغة التواصل بينه وبين رعيته، لغة مشفرة يضطلع الكهنة وحدهم بإنتاجها ووضع قواعدها والترويج لها بالمرموز، على شكل طقوس وعبادات تتحول مع الزمن إلى عادات متوارثة. ثم هم وحدهم المخولون بحق، تأويل مدلولاتها للشعب إما كأسرار تستعصي على عقولهم فيتوجب القبول بغموضها والإيمان والتسليم الأعمى بها. وإما كإشارات وإيحاءات ورسائل مشفرة متواضع عليها من كثرة الإلقاء والتلقي والضخ والنفث المستمر، إلى أن ترسخت في الذاكرة كممارسة تلقائية من كثرة العرض والاستعراض، على شكل مسرحيات في الاحتفالات والمهرجانات أو من خلال الطقوس التعبدية المبتكرة لتكريس سلوكيات معينة أو إحداث استجابات مرغوبا فيها.

ففي الأسطورة المؤسسة المصرية نجدهم يقولون بأن المياه الأولية كانت مأوى لثمانية مخلوقات : أربع ضفادع وأربع أفاع، ذكور وإناث[1]، ولدت الإله الشمس الخالق " آتوم ". كان في بادئ الأمر يحكم العالم مباشرة، إلا أنه عندما أعيته حروب البشر التي لا تنتهي، قرر الانسحاب إلى السماء ولم يعد يتمظهر لأعين البشر، سوى على صورة "الشمس" أو " رع " في حركتها الدائبة شروقا وغروبا. التصرف في مصير البشر عهد به إلى أبنائه

[1] هذه الثمانية لم تكن جزءاً من النظام المخلوق، بل من " الهيولي " ذاتها، كما يتضح من أسمائها. فكان الزوج الأول " نون " و " ناوْنت "، وهما " البحر " الأول العديم الشكل و " المادة " الأولى. وكان الزوج الثاني: " حوح " و " حاوْحِت " ، وهما " اللامحدود " و " اللامنتهي ". والثالث: " كوك " و " كاوْكِتْ "، " الظلام " و " العتمة ". والرابع: " آمون " و " آمونِتْ "، " الخفي " و " المحجوب ". أما الإله الخالق " آتوم " فولد " شو " الهواء و " تفنوت " الرطوبة وأنهما بدورهما ولدا " جب " الأرض و " نوت " السماء، وأن أولاد هؤلاء كونوا الآلهة الأربعة في حوليّة " أوزيريس " : الملِك الميّت والإله في آن.

الأرضيين، وهم على التوالي : الآلهة : "شو[1] " و " جب[2] " و " أوزيريس[3] " و " حورس[4]"، لينتهي مصيرهم أخيراً إلى عهدة " فراعنة بشر " كان أول ممثل لسلالتهم هو الفرعون " منيس " (~ 3000 ق.م) موحد البلد ومؤسس الأسرة الفرعونية الحاكمة الأولى في مصر. فالإله الشمس بانسحابه إلى السماء لم يتخل كلية عن خليقته! وإنما اختار أن يؤثر فيهم بواسطة ممثليه الأرضيين عن بعد، بتوكيل منه!. بعد فترة انتقل التحكم في مصيرهم إلى أنصاف آلهة أطلق عليهم اسم : " أتباع حورس ". يعتبر الملك الفرعون منحدراً من الإله "حورس"، الذي ينحدر بدوره من الإله " أوزيريس"، ف "الفرعون" إله! من هذه الحيثية، ويجب أن تقوم طقوس الدين والسياسة على هذه الخلفية. ثم هو أيضاً في نفس الوقت "الكاهن الأعظم" المسؤول عن الاحتفالات والمراسيم والطقوس التعبدية التي تقدم للآلهة الأخرى غيره. وعندما اتخذت الأسرة الخامسة (2532 ق.م ~ 2423 ق.م) الشمس إلهاً باسم الإله "رع"، الذي خلق كل الآلهة الأخرى، تراكمت على مهام "فرعون" هذه الخاصية الجديدة ليصبح ابن "رع[5] " وابن "حورس" في نفس الوقت!.

وطقوس التتويج تشحن "الفرعون" بقوة سحرية ضرورية في نظرهم لتوازن قوى الطبيعة. وهي لم يطرأ عليها أي تغيير لمدة تنيف على الثلاث ألف سنة. فهي ترمز إلى توحيد مملكة الجنوب ومملكة الشمال تحت سلطة الجنوب. فيظهر الملك أولاً حاملاً للتاج الأبيض لمصر العليا المعلو بعقاب، رمز الربة "نخبت" وقصب. ثم يظهر ثانية

---

[1] كان" شو " حسب أسطورة قديمة قد صدر نفسا من مِنْخر إله أزلي. وهو باعتباره يمثل " الهواء " جسد القوة الضرورية للحياة. وقد نظروا إليه على أنه يحمل القبة السماوية على يديه المرفوعتين ليفصلها عن الأرض، فصارت مهمته هي حفظ السماء من أن تقع على الأرض. أنظر : علي فهمي خشَيم : " آلهة مصر العربية " (2: 471)، ط. أولى 1411 هـ/1990 م، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

[2] تقول الأسطورة : وقد ولد "شو" و " تفنوت"، أي الهواء والرطوبة، "جب" الإله الأرض و " نوت " الإله السماء. ولكن قصة أخرى تقول: إن الإله " شو " رفع الأرض والسماء وفصلهما. ثم تضاجع "جب" و "توت" بدورهما وولدا الإله " أوزيريس " و قرينته " إيزيس "، والإله " ست " الشرير وقرينته " نفتيس ". وهؤلاء يمثلون مخلوقات الدنيا، سواء أكانت إنسانية أم إلهية أم كونية.

[3] في نطاق الصراع بين الخير والشر الممثلين في الأساطير المصرية بين إله الخير " أوزيريس " وإله الشر " ست " ينتصر الأول على الثاني بان يبعث بعد قتله باعتباره الطبيعة الخالدة للإرادة الإلهية ونواميس الأزل. وتحقيقاً لفكرة الخلود هذه يرد في " كتاب الموتى " أن المتوفي يقول أثناء سؤاله يوم الحساب : { أنا الأمس (س ف) (s f) بالمصرية وأنا أعرف باليوم (دوء) (d w a) وحين يسأل : ماذا يعني هذا إذن؟، يجيب الميت : الأمس هو أوزيريس، واليوم هو رع }. لا حظ التشابه بين هذا الكلام وما ورد في الأثر في سؤال القبر من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير الآية 27 من سورة إبراهيم : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) . وقد أخرجه البخاري في كتاب التفسير عن شيخه أبي الوليد، عن شعبة، عن علقمَة بن مَرثد، عن سعد بن بن عبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : { نزلت في عذاب القبر. فيقال له : من رَبك ؟ فيقول : رَبِّيَ الله ونبيّي محمد صلى الله عليه سلم }. ووافقه فيه مسلم في كتاب " الجنة وصفة نعيمها وأهلها " الباب 17 ، الحديث رقم 2871 في روايته بسنده، عن شعبة فما فوق. وأتى مسلم بمتابع لسعيد بن عبيدة من طريق عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان بن مسروق الثوري، عن والده مسروق، عن خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الكوفي، عن البراء بن عازب بذكر عذاب القبر دون السؤال. فهذا يبعد شبهة تسرب هذا الخبر من تراث المصريين القديم الموروث إلى الرواية الإسلامية!. أنظر : آلهة مصر العربية (2 : 459).

[4] اعتبر المصريون منذ القدم " حورس " كأحد ملوك السماء، بل إلههم الأكبر وتخيلوه كصقر عملاق يرفرف بجناحيه ممتدين فوق الأرض، الشمس والقمر عيناه وسحب المشرق والمغيب الملوّنة صدره المرقط. وهو رغم كونه يمثل الإبن الخيِّر في التاريخ المصري كله، إلا انه في فورة غضب! على أمه "إيزيس" أطاح برأسها!. ثم هو ظل في صراع دائم مع أبيه " أوزيريس " وتغلب عليه في آخر المطاف وظفر بحكم أبيه الميت. لذلك ستنتقل هذه الأسطورة إلى ميدان حكم الفرعون المباشر : فكل فرعون حيّ هو في آن " حورس " وكل فرعون ميِّت هو تقمص للفرعون الميت " أوزيريس ".

[5] ولا بد لهذا النسب من تبريره بأسطورة بدوره!. وخير ما يمثل هذا التبرير نجده في الأسطورة المؤسسة للملكة " حتشبسوت (1479 ~ 1457 ق. م)، ابنة الفرعون " تحتموس الأول "(1584 ~ 1492 ق. م) فهي تقول : { بأن أباها الفعلي هو " آمون ~ رع ". فقد وقع اختيار الآلهة على الملكة أمها، وأوصوا آمون بزيارتها وفرعون في أوج شبابه وعنفوانه، واتخذ آمون شكل جلالة زوجها هذا، الملك (تحوتمس الأول).. ثم ذهب إليها فوراً، ثم جامعها.. وفعل جلالة الإله ما شاء له أن يفعله معها وبها. وهذه الكلمات فاه بها أمامها! آمون، سيد عروش المصرَيْن (مصر العليا ومصر السفلى) : إن اسم ابنتي التي وضعتها في جسدك هو (خنيمت ~ آمون ~ حتشبسوت) .. ولتقم بمهام الملك الفاضلة في هذا البلد بأجمعه.}. وفي هذا الدين المشمّس الذي يولد فيه الفراعنة من جسم الإله الشمس، فلا بد عند موتهم من أن يعودوا إليه كما يتضح من نص موت أحد الفراعنة كتبه الكاتب المصري الشهير سينوهي : { السنة 3 ، الشهر الثالث من الفصل الأول، اليوم التاسع : دخل الإله أفقه، وصعد ملك مصر العليا ومصر السفلى، سهيتبري { هو الفرعون أمنيمحات الأول (1963 ~ 1934 ق. م) مؤسس السلالة الثانية عشرة }، إلى السماء واتحد بقرص الشمس، فاندمج في ذلك الذي صنعه }. انظر : فرانكفورت : " ما قبل الفلسفة "، ص. 90

متوجا بتاج مصر السفلى المعلو بأفعى رمز الربة " وجدت" ونحلة. ثم يظهر أخيرا لابسا للتاج المزدوج "بشنت" الرامز لوحدة القطرين.

بعد إنهاء مراسيم التتويج هذه، يصبح الفرعون الوعاء الظاهر لكل القوى الحية التي تحرك العالم. فبه تنمو المحاصيل بفيضانات النيل المباركة!، وبه يكثر نسل النساء وقطعان الماشية!..الخ. فإذا ما اعترى الملك مرض أو توعك صحي مهما قل شأنه أو كبر، فإن هذه القوة الحية الكامنة فيه يمكن أن يعتريها بدورها نقصان. ولذلك فإنهم يجددون هذه المراسيم التتويجية دوريا، لتشبيب الفرعون روحيا! وتجديد قواه!.

ولأن شخصه مقدس، فلا يستطيع البشر مخاطبته مباشرة. فمن كان من البشر العادي!، فهو لا يستطيع التكلم مع " الفرعون " أو يخاطبه متوجها إليه، وإنما يتكلم " في حضرة الفرعون " وابتكر بروتوكولا خاصا لمخاطبته دون الإشارة إليه، فهو لا ينادى أبدا باسمه ولا يخاطب ب " اسمع يا ملك ! " وإنما " فلتسمع جلالتكم! "، بل إن اسم " فرعون " نفسه وليد هذه الصيغ المجازية والتعريضية، فهو مشتق من " فر" أو " بر" : بيت و " عا" : الكبير، فهو " بر ~ عا "، البيت الكبير!. بل إن جسد الفرعون المشحون بالقداسة!، يمثل خطورة على كل من يقترب منه، لذلك فالمقربون من الملك أو خدمه يتم اختيارهم من أرفع طبقات الأسرة المشاركين للفرعون في دمه!. والأفراد القلائل الذين يمكن لهم الاتصال بالفرعون وهم في مأمن من محق القداسة، ينعم عليهم الفرعون بألقاب : " الجليس الخاص لبيت الصباح! "، " المرافق الأوحد!"، و" الكائن قرب الملك! ". وتمثل الأفعى على تاج الفرعون قوة ساحرة تنفث اللهب وتقي شخص الفرعون من اقتراب من لم يخول له بذلك!.

وكما أن الفرعون مشحون بمثل تلك الطاقة الماحقة!، فكذلك هو لا يعزب عنه شيء، على ما سنجده يتكرر في التاريخ!، فأحد الوزراء الكبار خاطب فرعون وقته[1] :

إن جلالته عليم بما يحدث وبما يقع، ليس في الدنيا شيء لا يعلم به إنه " تحوتي "[2] في كل شيء، وما من معرفة إلا وقد أحاط بها[3] !.

ويلعب السحر في هذه المراسيم كما في غيرها من أمور حياة المصري القديم دورا كبيرا حتى في أمور السياسة الخارجية، حيث عثرت الحفريات المعاصرة على نصوص سحرية للأسرة الثانية عشرة، بها تعاويذ موجهة ضد البلاد التي يراد مد نفوذ مصر إليها أو عليها[4]. والقرآن لم يهمل هذا الجانب من مقومات من سماه "فرعون ذا الأوتاد"، أي رعمسيس (ابن رع) الثاني[5] ونجى بدنه ليكون آية للعالمين، عندما قص واقعة السحرة مع موسى

---

[1] أنظر: هـ. فرانكفورت والجماعة، 1954 م : " ما قبل الفلسفة " ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة ~ فرع بغداد، ص. 95 ؛(Pelican books).(Frankfort, H.A.G. Frankfort, J. A , Wilson & T. Jacobson, 1954: Before Philosophy.,3d ed.)

[2] هو " تحوتي (Tehuti) إله "الكتبة " وكاتب الآلهة ويرمز له بالطائر المائي " أبو منجل "، الطويل القائمتين والمنقار، أو " قردوح "، نوع من السعادين من فصلة كلبيات الرأس. أسطورته من خلال التاريخ المصري القديم ترجع به إلى الكاتب والمهندس المعماري " إيمحوتب " الذي عاش في فترة حكم الفرعون " زوزر " (2680 ~ 2660 ق.م) مع بداية الأسرة الثالثة، والثاني " أمنحتب بن حبو "، وهو أيضا كان كاتبا ومهندسا معماريا عاش في فترة حكم الفرعون " أمنحتب الثالث " من الأسرة الثامنة عشرة. بلغ من سمو مكانة " أمحتب بن حبو " لدى " أمحتب الثالث " أن حصل على موافقته لوضع تماثيل تمثل شخصه حتى بداخل المعابد الكبرى لمصر ومنها معبد " آمون ~ رع " في الكرنك وحفظ تمثالا له كتب تحته : { الأمير، الحاكم، كاتب الملك، كاتب المجندين، أمحتب، المبرأ : أيها الزائر للكرنك، المتطلع لرؤية آمون، أقدم علي حتى أوصل أدعيتك، لأنني أنا من يبلغها إلى هذا الإله. " نصبني نبمناتري (لقب للملك) لتبليغ كلام البلد المزدوج.} فهو بهذه الصفة أصبح الوسيط بين الشعب والإله والشفيع لهم عنده!. أما " إمحتب " فهو مهندس أول هرم في التاريخ المصري (هرم السقارة). ولذلك سوف يؤلههم الشعب المصري وينسب إليهم كل أنواع المعارف. وعندما احتل الإغريق مصر هجنوه وتبنوه بدورهم ليصبح " هرمس " (Hermès)المثلث العظمة او الحكمة. ولفقه اليهود وجعلوه " أخنوخ " وجاء الملفقة المتأخرون، المحسوبين على الإسلام، أمثال إخوان الصفا الشاربين من هذا المنبع العرفاني وقرنوه باسم النبي " إدريس "!. أنظر : غيوميت اندريو في : مصر زمن الأهرامات. الألفي الثالث قبل المسيح" في :

Guillemette, A.,1994: L`Égypte au temps des pyramides. Troisième millenaire avant J - C, Hachette, Coll. " La Vie quotidienne ", Paris, p. 63 - 83 (Scribes et savants)

[3] قارن هذا بما سوف تدعيه كل فرق الشيعة، عدا الزيدية في أئمتهم أو مهديهم، عندما نعرض لهم في أوانهم!.

[4] وهذا سنجد له استمرارية في التاريخ، وحتى ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين لدى بعض الأمم!.

[5] رمسيس الثاني (1300 ~ 1233 ق.م) من الأسرة التاسعة عشرة، عمر 67 في الحكم وتزوج أخته " حنوتمير" و ثلاثة من بناته وأربعة أخريات، من ضمنهن ابنة الملك الحيثي حاتوشيلي الثالث وولد له أكثر من مائة ولد، اكتشفت بعثة أمريكية مقبرة ل 52 من أبنائه في وادي

عليه السلام. وكطاغوت من نسل الآلهة!، فكلامه بمثابة تشريع! بل لا شرع في البلاد غير ما شرع هو كما أن لا حد لسلطته !. وكل الطواغيت عبر التاريخ ، تلامذة رديئين لهذا النموذج المستبد، حتى ضرب الله به المثل!.

ومن خلال هذا الإنتاج المجتمعي وإعادة تدويره لمئات القرون تشكلت بالتنشئة قابلية سياسية مبررة دينيا، لا تنصاع سوى لهذا النوع من الحكم الأسطوري المستبد العالي في الأرض، سواء أكان على صورة فراعنة مصر، الذين تختزل نمطيتهم قولة فرعون موسى لقومه : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ !. أو ﴿ يا أيها الملأ، ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ! أو على شاكلة ملوك سومر وأكاد وجودي وعيلام وبابل وآشور.. وفارس المتجبرين الدمويين. بل والأدهى والأمر، هو أن خلفاء الإسكندر المقدوني (ت: 323 ق.م) وهم إغريق، قد تأثروا قبلا بالشرق، بعد أن عمل بعض مواطنيهم لقرون، إما كجنود مرتزقة لدى هذه الحضارات[1]، أو تجارا في حواضرها[2]، أو زوارا مشدوهين معجبين بحضارتها[3]، لما آل إليهم الدور لحكم الشرق، وأقاموا لهم دولة في مصر تحت حكم البطالمة (322 ~ 30 ق.م) وأخرى في سوريا والعراق تحت حكم السلوقيين (322 ~ 64 ق.م)، تناسوا تماما العمل بديمقراطية! أثينا حتى في مظهرها الإمبريالي أيام المترف بريكليس (495 ~ 429 ق.م)، الذي قصرها على الأعيان الأغنياء الذكور فقط، دون النساء والعبيد. وسوف يلاحظ الفيلسوف الإنجليزي ثوماس هوبز (996 هـ/1588 م ~ 1090 هـ/1679 م) لاحقا هذه المفارقة بقوله :

{إن ثيوسيديدس[4] أشاد بحكومة أثينا، عندما كانت ديمقراطية بالإسم، لكنها كانت بالفعل ملكية في ظل بريكليس}

بل حكموا كشرقيين مستبدين شرعيين، على ما ألفوا من الحكم الاستبدادي المعسكر للسبارتيين، نسبة إلى مدينة سبارتا في اليونان. فالبطالمة الذين حكموا مصر لمدة ثلاثة قرون متوالية وصنفوا ضمن الأسرتين 32 و 33 ممن تداولت حكم مصر من مصريين وأجانب، (مما يكرس مقولة عمرو بن العاص، فاتحها لاحقا : مصر لمن غلب !). إنما حكموها بصفتهم فراعنة شرعيين!. ثم هم لم يختلفوا في شيء عن حكم الهكسوس الأعراب (1785 ~ 1570 ق.م) لها في الأسرة السابعة عشرة كملوك كما ينعتهم القرآن، أو حكم الليبيين (950 ق.م ~ 750 ق.م) في الأسرتين الثانية والثالثة والعشرين، أو حكم السودانيين (715 ~ 664 ق.م)، في الأسرتين الرابعة والخامسة والعشرين، أو

الملوك سنة 1995 م.. ولا ينطبق نعت القرآن لذي الأوتاد على أحد سواه. فهو وسع أو بنى معابد في كل من أبي سنبل وطيبة والأقصر والكرنك. وينسب بهو الأوتاد الذي ترجمته العرب من الإنجليزية (Hall of Column)، بهو الأعمدة. فهو كما يصف القرآن المعجز: الفرعون ذو الأوتاد. مما لا يترك مجالاً للشك في كونه هو، المحفوظ في متحف القاهرة عبرة للعالمين.. وسمى القرآن حاكم الهكسوس الذي حكم مصر أيام يوسف عليه السلام "ملك" في سورة يوسف. وهذا أيضا من إعجازه، لأن لقب "فرعون" لم يستحدث في الأسر الحاكمة لمصر إلا بقدوم الأسرة التاسعة عشرة. ولا يتميز ضمنها تجبراً وطول عمر وبناية وامتداداً خارجياً وراء حدود مصر سوى هذا الفرعون.

1 كما هو الحال مع الأسرة السادسة والعشرين السيتية (663 ~ 525 ق.م)، التي دشن عهدها بساميتيك الأول (663 ~ 609 ق.م) بتجنيد مرتزقة إغريق من أيونيا ومن مستعمرتهم في ليبيا لطرد الآشوريين من مصر وكما فعل خلفه بساميتيك الثاني (594 ~ 588 ق.م) عندما استعان بهم للقضاء على ملك نباتا السوداني الذي كان يستعد لغزو مصر. بل أصبحوا مكونا رئيسا من جيش هذه الأسرة. وحتى حكم الأخمينيين الفرس الذي دشنه قمبيز كفرعون لمصر في الأسرة السابعة والعشرين، لم يستغن عن خدماتهم، فنجد خلفه داريوس الأول (522 ~ 485 ق.م) يطلب سنة 510 ق.م من الإغريقي سيلاكس التعرف على الطريق البحري من الهند إلى مصر، فيقوم برحلة تدوم سنتين ونصف . وسوف ننتظر قدوم الأسرة المصرية الثلاثين، التي أسسها نكتانيبو الأول (378 ~ 360 ق.م) ليحكم دون الاستعانة بمرتزقة إغريق، إلا أن هذا لن يدوم طويلاً، إذ لن يجد حفيده نكتابو الثاني (359 ~ 341 ق.م) بدأ من الاستعانة بهم من جديد ضد الفرس، إلا أن أرتكسركسيس الثالث سوف يتغلب عليه ليبدأ الحكم الثاني للفرس كفراعنة لمصر (341 ~ 333 ق.م) باسم الأسرة الثالثة والثلاثين، التي سيقضي عليها بدورها الإسكندر المقدوني سنة 333 ق.م ليبدأ حكم الإغريق راساً كفراعنة في أسرة البطالمة (332 ~ 30 ق.م).فهذه ثلاثة قرون من الدُّرْبة العسكرية في الشرق، تعلموا فيها كل شيء عنه.وأصبحوا فعلاً مؤهلين لحكمه، كما سيتجدد ذلك مع أمم أخرى سلكت ذات المسالك في السابقين واللاحقين.

2 أسس تجار مدينة ميليت الواقعة على شاطئ آسيا الصغرى أول مستعمرة تجارية لهم على ضفة النيل الغربية شمال مدينة ممفيس مع بداية العصر السيتي. تسمت "نوكراتوس" كما أسس الدوريون الإغريق المنطلقين من مدينة ثيرا مدينة قيرين على الشواطئ الليبية سنة 631 ق.م، بحيث أن ليبيا ستعرف لاحقا باسم قيرينيا!.

3 من بين من زاروا مصر وتتلمذوا لكهنتها من آباء المعرفة اليونانيين المشاهير : العرفاني فيثاغور (Pythagore) والرياضياتي طالس الميليتي (Thalès) والكاتب المسرحي أخيل (Eschyle) والرياضياتي يودوكس الكنيدي (Eudoxe) والفيلسوف أفلاطون (Platon) والمؤرخ هيرودوت (Hèrodote) وغيرهم. ومن ذكرنا آباء الفكر اليوناني كله.

4 (Thucydides) مؤرخ يوناني حلل الحروب البيلوبونيزية بين مدينتي سبارتا وأثينا وشرور الاستعمار المتولدة عنها في كتابه : "تاريخ الحرب البيلوبونيزية". والتي عاصرها إلى انهزام أثينا أمام سبارتا سنة 404 ق.م.

حكم الفرس الأول لها (525 ~ 404 ق.م) الممثل بالأسرة السابعة والعشرين، التي دشنها قمبيز (529 ~ 522 ق.م) وحمل اسم "فرعون" ولا عند حكمهم الثاني لها (341 ~ 322 ق.م) باسم الأسرة الحادية والثلاثين. ويمكن القول بأن المثاقفة، وإن لم تمس عمق الذهنيات الشعبية بقدر ما لامست بعض النخب المهجنة، إلا أنها تركت بصمتها المميزة التي لن يعفيها كر الدهور. فثقافة الإغريق مثلاً، سادت الشرق قرابة تسعة قرون (من زمن الإسكندر المقدوني إلى ظهور الإسلام) ومع ذلك، لم يجاريهم من الشرقيين المحليين من تمثل فلسفتهم أو منظورهم في الفنون أو الآداب أو العلوم بلغته الأم، ولا نازعهم السبق منهم أحد في هذه الميادين من خلال هذا التزاوج بين الشرق والغرب. فمثلا يتعذر العثور على مصري واحد من بين المشاهير الذين جعلوا من الإسكندرية العاصمة الثقافية الهلنستية للبحر الأبيض المتوسط !. إذ تسمية المدينة نفسها : " الإسكندرية المحاذية لمصر" (Alexandria ad Aegyptum) وليس "الإسكندرية بمصر"!، تنبئ عن الرمزانية المفارقة والأجنبية التي مثلتها هذه المدينة بالنسبة للمصريين الأقحاح ، أبناء النيل طوال فترة حكم البطالمة لها. فهي بالنسبة لعامة المصريين، مدينة اليهود والإغريق على أرض مصر. ونفس الشيء يمكن ملاحظته إبان الحكم الروماني لمصر (30 ق.م ~ 324 م) أو الحكم البيزنطي لها من سنة 324م إلى فتح عمرو بن العاص سنة 641 م. لأن ثقافتهما إنما كانت كلاً وعالة على الإغريق بالأساس، ومثلت هجيناً هزيلاً ملفقاً لها. فظهور بعض الأعلام الفينيقية، مثل زينون الرواقي (336 ~ 264 ق.م) المولود في قبرص والذي أخذ معارفه في أثينا التي قصدها سنة 314 ق.م، ثم أنشأ له رواقاً بها سنة 301 ق.م على عادة الإغريق، لينشر كتابه: "الجمهورية" باليونانية على غرار أفلاطون، إنما كان مقلداً لأفلاطون وللإغريق حتى في اسمه الإغريقي "زينون" الذي سماه به والداه. بل وإن سلمته الجمعية الأثينية مفاتيح الأسوار وأهدته تاجاً من الذهب وكتبت على قبره : "لن يضيرك منبتك في فينقيا ضيراً!..الخ، فلن يتعدى هذا أن يكون تنويهاً عنصرياً في حد ذاته!. أو أدريانوس الصوري (~القرن الثاني الميلادي) الذي تصدر كرسي البلاغة في أثينا واشتهر بعبارته المأثورة : " هاقد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقيا! " واستمع إليه كل من القيصرين الرومانيين هادريان (117 ~ 138 م) ومركوس أوريليوس (121~180م) وخلعا عليه الذهب والضيع والعبيد وانتهى أستاذاً للبلاغة في روما. لقد عادت الآداب، لكن بالإغريقية!. أو فورفوريوس الصوري (305 ق.م ~ 233 ق.م) الذي درس على أفلوطين السكندري (205 ~ 270 م) الأفلاطونية المحدثة وتنقل بين الإسكندرية وروما وأثينا، ونشر دروس شيخه أفلوطين بتقسيمه لها ستة أقسام، كل قسم منها تسعة فصول واشتهرت ب " التساعيات" ، التي ترجمت إلى السريانية لتترجم منها لا حقاً إلى العربية إبان الحكم العباسي بذلك العنوان الخطأ التاريخي الشهير، الذي لم يلتفتوا إليه! : "أثولوجيا أرسطوطاليس".

فكل هؤلاء إنما يشبهون أشباحهم من المعاصرين الذين يبرزون في ترجيع المعارف الوافدة التي تعلموها في المهجر، دون أصالة أو إبداع يذكر، كما نشاهد في عصرنا، من إغداق للجوائز على أمثالهم من طرف الدول التي استعمرت بلدانهم، ثم مسحت بالتنشئة ذاكرتهم التاريخية والمرجعية بتلك الطرق الفجّة[1]!. طواويس معرفة يصلحون

---

1 كانت بيزنطة تنعم على الخاضعين لها من ملوك الأمم ومنهم ملوك المغرب وملوك الغساسنة بالنعوت الرسمية: الصولجان الفضي المذهب، الرداء الأبيض بالإبزيم المذهب والتاج المزركش بعصيّات والسلهام الأبيض المصبوغ ومداس مطرز بالذهب. وسوف نجد أن المستعمرين الأوروبيين عندما أخضعوا دول إفريقيا وآسيا لسلطتهم تصرفوا تماماً كما فعل الأسلاف الرومان والبيزنطيون. فهذا ما فعلته بريطانيا مع مهرجاوات الهند. وهو ذاته ما قامت به ألمانيا في الطوغو قبل بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1914 م. حيث نجد الحاكم الألماني يسلم العصي والقبعات للرؤساء المحليين المعترف بسلطتهم.

لاحظ أننا هنا لسنا ضد الفرنسي أن يتحمس للغته أو ينشرها أو أن يعتز بها ولا أن يحذو حذوه الانجليزي أو الاسباني أو الألماني ..إلخ. فهذا مشروع كله، وداخل في باب ما وصف القرآن من كون اختلاف الألسن آية كما في الآية 22 من سورة الروم : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . ﴾ فالفرنسي المسلم لا ينتظر منه سوى ذلك كغيره من مواطنيه الفرنسيين. ولكن ما نحن بصدد شجبه هنا، هو أن تقوم سياسة إيديولوجية ضيقة النظر، تحارب الإسلام تحت هذا الغطاء المشروع !.

بل هم ليسوا أول من ابتكر هذا النوع من التهجين، لأن أول من سولت له نفسه ذلك كان الفرعون الفاتح " تحوتموسي مِنخفري" (1479 ~ 1425 ق. م) الذي قام بسبع عشرة حملة خارج مصر. ومن اجل ضمان عدم ثورة تلك الشعوب المحتلة أنشأ مؤسسة سمّاها " كب " عملت على تنشئة أبناء أعدائه وخصومه السابقين ضمن الثقافة المصرية. بل حتى الحملة الفرنسية على مصر أيام نابليون بونبارت بطاقمه العلمي لمسح تاريخ ومعارف مصر، ما هو في آخر المطاف سوى إعادة تمثيل لما قامت به عمّة تحوتمسي الفاتح، الفرعونة " حتشبسوت " (1479 ~ 1457 ق. م.) وبطريقة سلمية في رحلتها الشهيرة إلى بلاد " بونت " قرب باب المندب على البحر الأحمر. فحملتها وما صادفت فيها سجله الطاقم العلمي المصاحب لها بدقة مدهشة ولا زال معروضاً إلى يومنا هذا أمام زوار العالم!.

للزهو وطعُم صيد بقصد التهجين بتزيين نموذج المستعمِر أمام المستعمَرين لمحاكاته من خلال هذه النماذج المحلية المهجنة كمسوخ وليس لأي شيء آخر!. وأثر المثاقفة البارز والوحيد الذي سيصمد لعوادي الزمن، وينتقل عبر التاريخ والأجيال كأرضية وموروث خلفي لكل الأمم اللاحقة في المنطقة، سيتمظهر بالخصوص في الغنوص (العرفان) المتصوف المتفلسف الأسراري الشرقي، الذي يخلط ويعجن ويهجن ويجمع بين متنافرات حضارية ودينية مختلفة، لا يجمع بينها جامع!. بعض هذه الخلفية محلي متراكم لقرون وبعضها الآخر يدخل المنطقة مع الفاتحين ويتخلف من ورائهم بعد ذهابهم وأفول نجمهم كبقايا وآثار شاردة تخلط من جديد مع هذا الركام مكونة للموروث الجديد الذي سيُدَّور بدوره كثقافة ودين وخلفية تراثية للأجيال اللاحقة. المادة الخام لهذا العجين التلفيقي وجدت في : الإسراريات البابلية والمصرية والأورفية الإغريقية، والثنوية الزرادشتية والمانوية الفارسيتين، والنصرانية الهرطوقية، واليهودية التلمودية، والفلسفة الإغريقية في وجهها الأفلوطيني المبتذل، والحلولية الهندية بتناسخ الأرواح المستمر، والسحر المصري، والتنجيم البابلي، والخلاصيات النهائية المختلفة لدى كل من : الزرادشتيين والمسيحانيين (يهود أو نصارى) والسوتريين (المُخلّصين) الوثنيين، التي تبشر أتباعها بقدوم "مخلصين"، عند" أواخر الأيام"، عندما يستفحل الشر، ويتمنى الحي أن يكون مكان الميت، ليأت "المخلص"، الذي سيجتث الشر كله من جذوره، لتسود المحبة والرخاء ويعم السلام والسعادة الأبديين هذا العالم، بعد سؤدد الظلم!.

فالأسطورة السياسية في قولبتها لذهنيات المجتمعات الشرقية وتشكيلها لأفق تطلعاتهم وبلورتها لروح وجدانهم وتصوراتهم ومخيالهم ورؤياهم غدت صيرورة تحكمية طابعة، لا تختلف في شيء عما تفعله بعض الطفيليات بعائليها. بل هي أشبه من عدة وجوه بدورة حياة الدودة الشّصيّة التي تستعمر معي الإنسان لأغراضها الأنانية الصرفة كمحطة من محطات صيرورة حياتها العجائبية. إذ كلاهما تفتقران دوما إلى شرطي الوجود والديمومة معا. كما أنهما لا تحققان الوجود سوى بتوفر حامل ينقل الأسطورة أو الدودة، ثم عائل يوفر قابلية الاحتضان والثواء (وهو الإنسان في كليهما)، ثم الظرف الملائم. شروط تعجيزية لولا أن واقع الحال والتاريخ يثبتان عكس ذلك تماما[1]!.

وصيرورة الأسطورة السياسية الشرقية، لا تقل عن صيرورة الدودة الشصية غرابة أطوار ولا تقمص أدوار ولا حيوات. فهي أيضا وجدت دائما طريقها الملتوي المعوج إلى معتقدات البشر وعشعشت بداخل عقولهم، تكيفهم كيف تشاء. فالأسطورة وحدها هي التي حكمت مصر لمئات القرون في أشخاص الآلهة الخرافيين : "بتاح" و "حورس" و "إيزيس" و "أوزوريس" و "آمون" و "رع" و "نون" و "نوت" و "ست" و "جب" ومئات الآلهة الأخرى في شخوصهم وأدوارهم وتقمصاتهم المختلفة.

وهي التي حكمت حضارات الرافدين بمجلس آلهة كوني ومخترع تمثل في رئيسها "آنو" إله السماء مع ابنه "إنليل" إله الرعد والعواصف وآلهة أخرى. ثم صاغت الأسطورة كيف تولد الإله القمر "سين" من مضاجعة "إنليل" قسرا للإلهة "ننليل" ابنة الإلهة "ننشيباغونو" عندما رآها تسبح عارية في المياه الصافية، مخالفة لنصيحة أمها بأن لا تفعل!. وكيف من "سين" ، الإله القمر، تولد الإله الشمس "سمس"!.؟.

وعلى ذات المنوال نسج الإغريق أسيطرات وخرافات آلهتهم على صورتهم في كل شيء. فالإله "أبولو"

[1] أول ما يذهل له المرء في هذه الصيرورة، هو أن الدودة الشصية وجدت دائما طريقها المعوج والملتوي والمحفوف بالمخاطر إلى معي الإنسان، بعد أن تخترق جلده نافذة إلى قلبه، ثم منه إلى رئتيه قبل أن تستقر في أمعائه متغذية على دمه لتتزاوج وتتوالد وتبيض، ولينزل البيض مع فضلاته إلى التربة، لتتحول إلى يرقة تبحث لها عن ضحية جديدة كحامل وعائل، لإعادة إنتاج دورة أخرى لنوعها بتقمصاته وتحولاته المختلفة. فحياتها حيوات مبرمجة، محفوظة في الذاكرة، لا تحول عنها ولا تزيغ، وليست حياة واحدة!. بل هي لكي تحيا، لزمها أن تنجح في كل طور وفي كل تقمص وإلا توقف النوع أو بالأحرى الأنواع. ولآلاف السنين كتب للدودة البقاء رغم مخاطر وتعثرات الطريق. وكان سبقها للإنسان في سلم الوجود زودها بسابق خبرة وحنكة زائدة، في إدارة قوانين اللعبة الوجودية ضداً في الحامل العائل وجهاز مناعته. كيف استطاعت، حسم حربها هذه مع جهاز المناعة، ومنذ البداية، وبنجاح باهر!، باستنباط طرائق بارعة وذكية، تعيق كل بطاريات وسائله الدفاعية وتمنعه تماما من أية ردة فعل أو مبادرة، لهو لغز بحد ذاته، لولا المفتاح القرآني المعجز من سورة الأعلى :﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾؟. ولو شبهت كل دورة من دورات حياتها بعملية يانصيب أو ضربة نرد، لظهر وكأن الحظ كان حليفها في كل مرة. وهاهي إلى اليوم، وعلى أعتاب القرن الحادي والعشرين، ورغم تقدم العلم ووقوفنا على تفاصيل الصيرورة، لا زال الآلاف من البشر موزعين على القارات الخمس، ينزفون ويؤدون ضريبة الموت، يساقون إلى حتفهم وقدرهم، كنصيب مفروض لهذه الدودة المهينة التي لا زالت تتحكم بكل قواعد اللعبة، رغم لحاق العلم المتأخر بها وبطرائقها.

يغازل العذراء "دافني". و "زوس" ملك الآلهة ورب الأرباب، لا يفتأ يغوي العذارى بحيث يستعصي على المرء تتبع كل وقائعه معهن مولدا آلهة أخرى!. كما أن الإلهة "أفروديت" المقابلة ل "عشتار[1]" البابلية تزوجها الأسطورة من الحداد المشوه الخلقة. والربة "هيفستوس" تنتهز غياب زوجها لتدعو إله الحرب "أريس" إلى فراشها!. الآلهة الأرباب تخون كما يخون البشر!. ثم الربة "هيرا" زوجة "زوس" تستعير من "أفروديت" حليها ومجوهراتها لتشغل باله عن مساعدة الطرواديين!..

أما التهجين الأجنبي فنراه فيما حصل للإسكندر الأكبر المقدوني. فقد بشره الكاهن الأكبر في معبد ممفيس في (كانون أول) ديسمبر سنة 332 ق.م، بعد انتصاره على الفرس، بأنه ذو أصل ألوهي!. وهكذا نجده يتوجه إلى واحة سيوة في الصحراء الغربية المصرية، ويتجشم قطع مسافة 600 كلم، لكي يتأكد بنفسه من هذه النسب الألوهي، بسماعه رأسا من الإله الذي يتكلم من خلال وسيط الوحي هناك!. ومما يؤسف له أنه لم ينقل لنا ما سمعه من رب الواحة هناك!. أما خليفته بطليموس الأول (323 ~ 285 ق.م)، فقد ابتدع عبادة جديدة هجينة لإله جديد سماه "سيرابيس" يجمع ما بين صفات كل من الإلهين "زوس" الإغريقي و "رع" المصري، وكذا "هادس" الإغريقي و "أوزيريس" المصري. إلا أن شكله الإغريقي المنحوت في الصخر، لم يحظ بقبول لدى المصريين! فأضيفت له صورة "إيزيس" كأم شابة تحمل بين ذراعيها ابنها الرب "حورس"!. ولن يقف بطليموس عند هذا الحد. إذ سيسبغ على نفسه سنة 305 ق.م لقب " الفرعون المحبب لآمون، ابن رع". ثم جاء بعده ابنه بطليموس فيلاديلفوس (285 ~ 247 ق.م) ونادى بأن أباه هو "إله منقذ" (Soter) بالإغريقية. ثم تماهى هو مع الأسطورة المصرية، روحا وقالبا، فتزوج أخته أرسينوي الثانية!، كما كان يفعل الفراعنة من قبل مع أخواتهم، ليثبت نسبه الإلهي في لقبه : "فيلادلفوس "(أي الذي يحب أخته!). ثم تلقب الذي جاء بعده ب "الإله الفاعل للخير" وهكذا حمل اسم بطليموس إيفرجت (Euergetai) الأول (247 ~ 221 ق.م) !.

ومع الحكم السلوقي لسوريا والعراق، تمثل تهجين الوافد الإغريقي مع الموروث المحلي في مزاوجة آلهة فارس والهند مع آلهة الإغريق في هجنة من الخرافة والأسماء على شاكلة : (زوس~ أهورامزدا)، (أبولو ~ ميثرا)، (هليوس ~ هرمس)، (أرتانيس ~ هرقل أريس)..الخ.

نمطية أسطورية خرافية سارت عليها كل الأمم الجاهلية في الهلال الخصيب وما جاوره من الأمم. وهكذا نرى الآلهة الرومانية تأخذ مكان الآلهة الفينيقية في الشمال الإفريقي بعد انتصار روما على قرطاجة سنة 146 ق.م، بعد حروب دامت 118 سنة (264 ~ 146 ق.م). ونجد هذه الهجنة أكثر ابتذالا عند جوبا الثاني (25 ق.م ~ 23 م) أحد ملوك الشمال الإفريقي الجاهلي، الذي سيعبد كوكبة مهجنة من آلهة الإغريق والرومان والمصريين والفينيقيين سواء[2]!.

[1] عشتار لها تاريخ طويل في حضارة الهلال الخصيب.، فهي اخت الإله "شمش" وبنت الإله "سين" القمر. وكانت طقوس عبادتها عرفت منذ عهد الملك الثاني في سلالة الوركاء الأولى "أنميركار" في حدود 2750 ق.م ، إلا أنها لن تتضح سوى بعد جيلين من وفاته، أيام الملك "دموزي"، رابع ملوك هذه السلالة. فكرة الزواج المقدس ابتدعها كهنة الوركاء، عندما جعلوا ملكهم "دموزي" يتزوج من إلهة مدينتهم "إنانا" أو "إننا" ، التي كانت مدينة الوركاء مركز عبادتها. وبذلك أضفى الكهنة على هذا الملك صفة "الألوهية". وهكذا انتقل "دموزي" إلهاً إلى باقي الأجيال. ثم جاء الساميون بعد أن تغلبوا على السومريين وتبنوا فكرة دموزي فزوجوه هم بعشتار. وجعلوها تنزل كل سنة إلى العالم السفلي، عالم الأموات لإنقاذ زوجها "دموزي". وتصوروا بأنها تستعيد ذكراه كل عام، فتذهب إلى ذلك العالم في محاولة لإنقاذه، تلك الرغبة ظلت لديها زمناً طويلاً بحيث كانت تهدد الآلهة الأخرى بأنها ستبعث الموتى كلهم ومن بينهم "دموزي" ليعود إليها من العالم السفلي الذي تحرسه الإلهة "أرشكيطال". وتصوروا بأن نزولها ذاك هو الذي يؤدي إلى ذبول وعقم الكائنات وجفاف الطبيعة التدريجي. وكانوا جعلوا نزولها في شهر آب (أغسطس شهر الحصاد)، ثم غيروا موعد النزول عند "دموزي" فجعلوه في شهر تموز(يوليو) الذي سمي "دموزي" باسمه من قبل البابليين. أنظر: د/ فاضل عبد الواحد، 1973 : عشتار - تموز ، جذور المعتقدات الخاصة بهما في حضارة وادي الرافدين . مجلة "سومر"، المجلد 29 ص. 53 - 83 . وكذلك :

كريمر : طقس الزواج المقدس" ، (Kramer,S., N., 1969: The Sacred Marriage Rite, pp. 53 – 58.)

وهذا أساس الخرافة التي انتقلت إلى الإغريق في أسطورة "أفروديت" عندما نزلت إلى هادس (الهاوية) لتجذب زوجها "أدونيس" من أيدي "برسيفونا".

[2] اعتنى بتربيته، وهو ابن خمس سنوات، الإمبراطور الروماني أوكتاف بعد انتحار والده جوبا الأول (60 ~ 46 ق.م) ملك نوميديا (الجزائر)، بعد وقعة فارسالوس سنة 48 ق.م ، ثم انتصاره على بقية الجمهوريين الرومان في موقعة ثابسوس سنة 46 ق.م ، التي انتصر

فالإمبراطور الروماني ذو السلطة المطلقة، التي لا يحول دونها رادع، والذي بوسعه أن يعدم ملايين العبيد ويقدمهم طعما سائغا للسباع في ملهاة جماهيرية، والذين يعاملون كمنقولات وأثاث هو ما كان يطلق عليه الرومان ويا للعجب! : مجتمع القانون!. وليس غريبا أن يكون السعيد في هذا المجتمع هو ذلك الذي جاء في وصف الشاعر الروماني هوراسيوس لذلك الدهري الجاهلي النموذجي :

إن السعيد هو ذلك المرء وحده
الذي يستطيع أن يقول إن اليوم يومه
والذي بوسعه أن يقول للغد ـ مطمئنا ـ
هات (أسوأ) ما عندك، فقد عشت يومي!

قد تتغير أسماء الآلهة، وقد تتغير حبكة الأسطورة أو تهجن، لتتقمص وتتمظهر في أشكال وأدوار أخرى وشتى، إلا أن الهيكلة العامة والقصد والمرمى والغاية فيها كلها تظل واحدة :

التحكم في وعي البشر وشل إرادتهم وتخدير ملكاتهم العقلية ومصادرة مصائرهم وأقدارهم، من أجل التحكم فيهم واستعبادهم.

وتلوح أسئلة محيرة ومحرجة، موجعة ومؤرقة في آن، تستجدي كلها إجابات شافية :

كيف أمكن لأسطورة كأسطورة " المهدي" أن تنبت في البيئة الإسلامية مع أن الإسلام إنما جاء بالأساس لاجتثاث الأساطير من تفكير البشر وتحرير عقولهم من الخرافة والأسطورة سواء؟.

كيف يمكن التوفيق بين المهدوية ك "خلاصية" مستقبلية! والرسالة الخاتمة ل "محمد الخاتم"؟

كيف أمكنها أن تحضن، لتعشش لأكثر من ثلاثمائة وألف من السنين، ويستمر إنتاج وإخراج مسرحياتها الرديئة على عتبات التاريخ (آخرها الإخراج العبثي بالحرم المكي سنة 1979 م، الذي تناقله الإعلام العالمي لأسابيع كمسلسل في اللامعقول والذي عايشه المؤلف عن كثب في عين الكان من خلال ممثليه وحابكيه ومؤطريه) وبآلاف الضحايا في كل مرة ؟.

ثم كيف نفسر في وقعة الحرم المكي، أن التحضين كله وما سبقه من كتابة سيناريو وتحضير وإخراج، ويا للمفارقة ! إنما تم من داخل فصول ومدرجات كليات الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، بمرأى ومسمع من شيوخها بتورط ظاهر من بعضهم وممالئ من طرف ثاني و خفي أو غبي عند طرف ثالث؟.

أيكمن ذلك في قابلية الذهنية البشرية بنيويا لتمثل الأسطورة كنوع من الواقع الافتراضي لا يقل أولية ولا واقعية عن الواقع ذاته، كما نشاهد ذلك اليوم في مخابر هندسة المجتمعات وصياغة الذاكرات من خلال النفث الموحي المشكل لكل رؤية بواسطة الثقافة الإيديولوجية ووسائل الإعلام؟

أمرد ذلك إلى البيئة الثقافية الشرقية وجذورها المتجذرة في الخرافة وتمثل الأسطورة كدين حاكم وناظم خارج الزمان والمكان؟.

فيها الإمبراطور "قيصر" على غريمه الإمبراطور بومبي الذي كان يقود معاركه سيبيون الروماني بتحالف مع جوبا الأول. بعد الهزيمة وبمراهنته على الفرس الخاسر!، فر جوبا الأول من المعركة، إلا أنه ربما أدرك ما سوف يدركه النابغة الذبياني لاحقا بأن الإمبراطور لا محالة مدركه! فأنهى حياته بالانتحار. بعد ذلك اقتيد ابنه الصغير "جوبا الثاني" في موكب نصر قيصر وتربى في إيطاليا، ثم زوجه القيصر أغسطس من كليوباترا سيلينه ابنة كليوباترا ومركوس أنطونيوس، التي اعتنت بتربيتها هي الأخرى أوكتافيا زوجة أوكتاف وأجلسهما على عرش نوميديا وأضاف لملكه "موريطانيا (المغرب)) لحكم الشمال الإفريقي وكالة عن روما!. فنجده ينقل عاصمته إلى مدينة "يول" التي بناها الفينيقيون، التي أعاد تسميتها باسم "قيصرية" (مدينة تشرشل بالقطر الجزائري) تعظيما لقيصر، ووضع فيها هجنته الإلهية. هذه كانت طريقة المسخ الرومانية في تهجين أبناء المستعمرات وحكمهم بعقل روماني وجسد محلي. إلا أنه يجب الاعتراف أن هذا لم يمنع وصول مثل هذه النماذج من مهجني المستعمرات إلى سدة الحكم الإمبراطوري. فقد حكم ثلاث أباطرة أصولهم من : سوريا وليبيا وإسبانيا هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف. وعندما احتلت فرنسا الجزائر، بدأت تنقب عن هؤلاء الملوك المهجنين، وتنسج حولهم القصص والأساطير في محاولتها إقصاء الشمال الإفريقي عن إسلامهم الذي رأوا أنه لا يتم لهم سوى باجتثاث العربية. فكان الظهير البربري في المغرب سنة 1930 المفرق بين البرابرة والعرب. وبعد خروج فرنسا من الشمال الإفريقي، تركت بعض فيارستها هناك زيادة على من محيت ذاكرته بالتنشئة في مدارسها العقائدية الإلحادية، حتى نبتت منهم نبتة سرطانية مسوخية ممن تتسمى جهلا وغباءا بأسماء أولئك الجاهليين! القدماء : جوبا، يوغرتن، مسينيسا، بكوس..الخ. ومن الجهل ما قتل!.

أم هو تنفيس عن حالة نفسية مرضية عندما تجابه الأمم بظروف قاهرة متغلبة لا طاقة لها بها، ولا بتحمل تبعاتها ونتائجها وعواقبها ؟

أم ترى أن الأسطورة كفكرانية وشيطنة، تطور باستمرار، على غرار الدودة الشصية، طرائق للتغلب على ملكات الإنسان العقلية ومناعاته المنطقية حتى غدت له قدرا مقدورا لا فكاك له منها، كما يشهد لذلك كثرة الأنبياء والرسل، التي أرسلت تترا ولكل الأمم وفي كل العصور، لفك أغلال وإصر الإنسان من أسر الأساطير والخرافة في كل مرة، إلا لتعود متبرقعة ومتبرجة تحت عباءات وتقمصات أخرى؟.

وإن كان هذا أو ذاك أو كلها جميعها، ألا يمكن لطرائقنا التي اكتشفنا بها صيرورة الدودة الشصية كطفيلية "بطن" أن تكون ذات نجاعة في الكشف عن دورة الدودة المهدوية كطفيلية "ذهن" في الإسلام التاريخي والجغرافي؟.

2- هل من بذور وجذور لأسطورة المهدي في شبه الجزيرة العربية؟

2-1- الحالة الاجتماعية والسياسية لعرب الجاهلية

انقسم العرب في جاهليتهم قبل البعثة الإسلامية إلى قسمين : بدو وحضر. فالبدو منهم شكلتهم وقولبتهم قسوة الطبيعة، فكيفوا حياتهم على وقعها في ترحال دائم، تتبعا لمساقط المطر ومنابت الكلأ لمواشيهم التي غدت بعد جفاف الصحراء قوام حياتهم الوحيد. فإن جدب عليهم موسم، أو أقفرت أمامهم سبل العيش، لم يتورعوا من الإغارة على من جاورهم من القبائل أو الحضائر، غزوا ونهبا وسلبا طلبا لما عندهم، وعملا بالقانون الطبيعي : البقاء للأقوى. فلا ينس لهم من أوقعوا بهم تلك الغارة، ذلك الثأر أبدا ما حيوا. لأنهم حسب اعتقادهم، يؤمنون بأن الميت إذا ما اغتيل أو قتل تخرج من رأسه هامة!. فإن لم يؤخذ بثأره، نادت الهامة على قبره: اسقوني اسقوني فإني صديـة!. وهكذا غدت حياتهم سلسلة موصولة من الغارات والثارات، كسبب يجر نتيجة لاحقة أو كنتيجة استلزمها سبب سابق، بمعزل عن مشيئة الفرد والقبيلة سواء، كما يقول الشاعر[1] :

يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر[2]

اقتصاد الموت، بعملة بشرية تسترد دائما بربا النسيئة المضاعف، مع ما يستتبع ذلك من عسر وأهوال كما في وصف للحارث بن حلزة[3] :

هل علمتم أيام ينتهب النا س غوارا لكل حي عواء[4]

أو كما يلخص زهير[5] :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[6]

فالظلم عندهم سمى إلى "أقنوم" ومعتقد ونظرة وجودية تبريرية مرادفة للحياة ذاتها. فتنازع البقاء وغلبة بعضهم لبعض إما غصباً للحّيز أو المعاش أو هما معاً، واستضعاف القوي منهم للضعيف، دفع بهم إلى معالجة قدرهم كشر لا بد منه. فحاولوا درء جميع خطوبه ومصائبه والتقليل من مخاطره ومهالكه باللجوء إلى نوع من الشراكة التعاضدية. فانضم الذليل منهم إلى القوي وتحالف قليل العدد مع كثيره إلى أن أفضى بهم ذلك كله إلى نتيجته المنطقية : التمزق والتشرذم. فتقطعت أواصر الاجتماع والألفة بينهم إلا ما كان من رابطة القرابة والدم وحدها، التي كرسوها عمليا بقولتهم الشهيرة : أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً !. وليس غريباً بعد ذلك أن ترجح كفة الظلم لتعلو على ما سواها. إذ لا منزلة بين المنزلتين، كما في قول زهير السابق أو وصف دريد[7] :

وهل أنا إلا من غَزية إن غَوت غويَتُ وإن تَرشُد غزية أرشد

---

[1] ابن الصمة الجشمي البكري (ت: 8 هـ/630 م)، بطل من ابطال هوازن المعمرين وشاعرها.

[2] ديوان دريد بن الصمة، دار صعب، 1981 ، بيروت ص. 64 .

[3] الحارث بن حلزة بن مكروه اليشكري (ت: 570 م) شاعر جاهلي اشتهر بالفخر

[4] معلقة الحارث بن حلزة في شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها بعناية أحمد بن الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت. ص. 124

[5] زهير بن أبي سُلمى، ربيعة بن رياح المزني (13 ق.هـ/609 م) أحد الشعراء الثلاثة الفحول المقدمين من شعراء الجاهلية.

[6] شرح المعلقات العشر، معلقة زهير بن أبي سلمى، ص. 68 .

[7] ديوان دريد، ص. 47 .

هذه إذن، نظرة البدوي إلى الحياة في جانبها العملي : غواية بشريعة الغاب، وغلبة بمنطق الجوارح والكواسر. نظام حياة لا مكان فيه للضعيف بمقابلة القوي، سوى لما بين آصرة التابع للمتبوع والعصفور في كماشة مخلب النسر الجسور. مالتوسية (نسبة إلى الراهب مالتوس) صرفة، لا يرضى بدنية تبعاتها سوى من لا حول له ولا قوة ولا عصبية ولا نصير.

على أطراف شبه الجزيرة، تكونت إمارات وممالك حضرية كإمارة الحيرة، التي تأسست على يد عمرو بن عدي، ابن أخت جذيمة الأبرش، آخر ملوك التنوخيين[1] (268 ~ 288 م)، حيث استغل ملوكها اللخميون، موقع منطقتهم الجغرافي على حدود العراق الغربية، الذي يؤلف حاجزا طبيعيا بين القوتين العظمتين المتنافستين على السلطة وبسط النفوذ على منطقة الهلال الخصيب آنذاك : دولة الأكاسرة الساسانية (224 ~ 637 م) في الشرق ودولة القياصرة من رومان وبيزنطيين في الغرب، للقيام بدور المرتزق والزبون، على نمطية ما تقوم به بعض دول الشرق في عصرنا الحاضر، سواء إبان الفترة الشبه استقلالية، بعد انفراط دولة آل عثمان، أو إبان الحرب الباردة بين القطبين، أو في إطار ما يسمى بالعولمة، التي هي استعارة لأشكال الهيمنة القديمة في لباس جديد، تعلمت من التاريخ ألا تسمي الأشياء بأسمائها!. اشتهر ملوك الحيرة باسم المناذرة ويذكر المورخون العرب من هذه السلالة عشرين ملكا ما بين سني 268م إلى 631 م، سنة فتح الإسلام لها. كان أغلب سكان الحيرة من العرب البدو، مع جاليات فارسية ويهودية ونبطية، ارتبطت سياسيا بالساسانيين كتابع وحليف، تدفع عن حدودهم هجمات وغارات الأعراب أو تشاركهم في حروبهم ضد الروم أو البيزنطيين (بعدهم) أو تغير على حلفاء الأخيرين من العرب من ملوك الغساسنة بالشام لقاء أتاوات ومغانم حرب[2]. ثم ما لبثت النصرانية أن وجدت لها موطئ قدم بعد تزوج الملك المنذر بن ماء السماء (513 ~ 562 م) من نصرانية اسمها هند، ولدت له النعمان (506 ~ 583 م) الذي تنصر وترك عبادة الأصنام. كان المذهب النسطوري[3] هو السائد بين من تنصروا، تحقيقا لمقولة : الناس على دين ملوكهم. ومثلتهم أسقفية تابعة لبطريركية

[1] استقرت القبائل العربية التنوخية في هذه المنطقة، منذ العهد الفرثي الفارسي (126 ق.م ~ 227 م) وأسسوا لهم إمارة في أواخر هذا العهد، حيث استغلوا ضعف الدولة الفرثية في أواخر ترهلها، مما مكنهم من نوع من الاستقلال الذاتي، جعلهم يعرضون خدماتهم الحمائية للقوافل المارة بوادي الفرات، لقاء أجور. وتنوخ فرع من فروع قضاعة الممتزجة بقبائل الأزد .أنظر جرجي زيدان، 1939 : العرب قبل الإسلام. (1: 173) القاهرة.

[2] في سنة 529 م ساعد الحارث بن جبلة الغساني (528 ~ 596 م) البيزنطيين في إخماد ثورة السامريين، فحصل الملك الغساني على عشرين ألف أسير باعها في فارس والحبشة.

[3] نسبة إلى نسطور أسقف القسطنطينية وتلميذ المدرسة الأنطاكية يقول بأن المسيح إنسان سكنه الله! وبالتالي فهو حامل لله (Théophore) وبتالي التوالي! فأمه لا يمكن أن يطلق عليها اسم أم الله! (Théotokos)، لكن فقط أم المسيح (Christotokos). قيريل أسقف الإسكندرية منذ سنة 412 م لا يرى الأمر من خلال عيون نسطور، ويظن مع مدرسة الإسكندرية اللاهوتية بأن الطبيعة الإلهية في المسيح تغلبت على طبيعته الإنسانية!. هذا ما لم يقبل به أساقفة الشرق الذين دعوا إلى مجمع مسكوني في مدينة أفسة سنة 431 لإدانة قيريل ، إلا أن الأخير استطاع رشوة الحاشية المحيطة بالإمبراطور البيزنطي، وقلب الطاولة على المجتمعين، بل وحصل منهم على إدانة لنسطور وعقيدته وأصدر المجمع اثنتي عشرة لعنة كنسية على نسطور تلخص المعتقد الرسمي الجديد وتأمر نسطور بالامتثال لها. وهكذا جرد نسطور من صلاحياته الأسقفية ونفي. وظهر قيريل يومها في أعين الناس ك "بابا" للشرق. خلف قيريل على البطريركية الإسكندرية بعد موته سنة 444 م ديسكورد . وهذا سوف يعمل على تحويل بابا الشرق إلى بابا العالم النصراني كله. في مجمع أفسة سنة 449 م ، المعروف لدى الكنائس الغربية باسم " لصوصية أفسة"، استطاع الإطاحة بأسقف القسطنطينية "فلافيان" وإقرار عقيدة "وحدة الطبيعة" التي تقرر: أن الطبيعة الإلهية في المسيح امتصت! الطبيعة الإنسانية!. ورفض الأخذ بالاعتبار رسالة للبابا فلافيان التي تأمر بالإيمان بطبيعتين للمسيح، الإلهية والبشرية موحدتين في شخص واحد!. لتتويج هذا الانتصار تسمى ديسكورد "أسقف كل الكنائس"!. انتصار مؤقت، لأن السنة التي تلت حملت مارسيان كإمبراطور جديد خلفا ل ثيودوز، الذي رأى خطرا في المنافس الاسكندراني، فتحالف مع البابا ليون، الذي وجدها فرصة للانتقام من "اللصوصية" أفسة. في سنة 451 م دعيا إلى مجمع مسكوني في خلقيونية، ثم فحضره ديسكورد وطبق عليه المجمع الجديد ما طبق هو على خصمه نسطور في المجمع القديم، فعزل ونفي إلى آسيا الوسطى. في خلقيدونية، ثم جرم مذهب المصريين القائلين بوحدة الطبيعة، وأخذ بعقيدة البابا ليون التي سوف يطلقون عليها من الآن فصاعدا : "العقيدة الخلقيدونية". هذا المجمع فصل نهائيا بين الكنيسة الرومية والكنيسة المصرية القبطية. الغريب في كل هذه المجامع الصانعة للعقائد بعيوننا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين، تظهر لنا مضحكة إن لم تكن مسلية!. لأن العقيدة التي أجازها قيريل في مجمع أفسة الأول سنة 431 م ضدا في نسطور تشبه عقيدة وحدة الطبيعة. فقيريل الذي يتابع في هذا الأسقف الإسكندري أتاسيوس (328 م ~ 373 م) الذي يقول: بأن المسيح إذا لم يكن هو نفسه الإله، فلا يستطيع إنقاذ البشر؟!؟. هذه العقيدة اعتبرت شرعية وساندها البابا سنة 431 م. لكن مرور عشرين سنة ولدواعي إنسانية صرفة من التغلب السياسي، فإن تأكيدات مماثلة اعتبرت هرطقية وحكم عليها وعلى صاحبها بالمروق والكفر!، من طرف روما والقسطنطينية معا، لسبب وحيد، هو كونها مسنودة من طرف

النساطرة بمدينة المدائن بفارس، زيادة على ممثلين لكل المذاهب المنشقة أو المضطهدة من طرف الكنيسة الرسمية البيزنطية أو الذين صنفتهم في عداد الهراطقة، إبان هذه الفترة الحرجة من نشوء العقائدية المسيحية، التي تتقرر في مجامع مسكونية بالاقتراع الأغلبي و تلعب فيها أحابيل السياسة وحب السيطرة الدور الموازي، إن لم يكن الدور الرئيس!.

في الطرف الغربي المرتفع من هضبة نجد، على حدود الحجاز الشرقية، قامت مملكة كندة، التي ساعد على قيامها ملوك اليمن في القرن الخامس الميلادي. اشتهر من ملوكها حجر بن عمرو ويلقب بآكل المرار. ثم أعقبه ابنه عمرو الذي كانت تربطه بالمناذرة روابط قربى، إلا أن علاقته مع الغساسنة شابتها حروب وغارات، لقي حتفه في إحداها. ثم خلفه ابنه الحارث، أقوى ملوك هذه الإمارة وأكثرهم مطمعا توسعيا وطموحا سياسيا. فانتهز توتر العلاقات بين قباد الأول (488 ~ 531 م) الساساني الذي أبعد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة عن الحكم، ليشن غارة على المناذرة ويستولي على مملكتهم وينصب نفسه ملكا عليها بتأييد من قباد. ثم عين أبناءه الأربعة ملوكا على قبائل العرب التي أخضعها واحتفظ لنفسه بملك كنده. من بين هؤلاء الأربعة اشتهر ابنه الأكبر حجر الذي توجه ملكا على قبائل أسد وغطفان وكنانة في الشمال الغربي من نجد عند واد الرمة بين جبل شمر وخيبر. وحجر هذا هو والد الشاعر الجاهلي الشهير امرئ القيس.

ملك الحارث هذا لم يعمر طويلا. إذ بمجرد موت قباد واعتلاء عرش فارس كسرى أنوشروان، أعاد الأخير المنذر إلى ملكه. ففر الحارث وتوفي في ظروف غامضة. وبموته انقرضت مملكة كندة ولم يبق من ملوكها سوى معدي كرب بن الحارث ملكا على قبيلة قيس عيلان، بينما هلك إخوته الثلاثة في الحروب الثأرية لوالدهم. عبدت كندة كباقي العرب الأصنام، وتنصر نفر منهم وتهود آخرون.

في الشمال الغربي لشبه الجزيرة، تكونت إمارة الغساسنة، من هجرات يمنية جنوبية بعد تصدع سد مأرب. فاستقروا على مشارف سوريا وتحضروا تدريجيا، ثم خضعوا للبيزنطيين وحاربوا حروبهم، ما خضع المناذرة للساسانيين وحاربوا حروبهم. وكونوا لدى الفريقين سلاح الفرسان السريع، الذي لا يستغني عنه الجانبان في أية معركة تنشب بينهما. اهتم الغساسنة بالتعمير على نمط البيزنطيين، واتخذوا من مدينة بصرى في حوران عاصمة لملكهم الذي امتد ليشمل البلقاء وحوران ومشارف الشام وتدمر. وعلى صعيد الاعتقاد، تنصر ملوكهم باحتكاكهم بالبيزنطيين، وغلب فيهم مذهب اليعاقبة[1]، المنافس للمذهب النسطوري الذي شاع لدى أعدائهم المناذرة والذي يحظى بالرضا والقبول لدى الساسانيين. والملاحظ هو أن ملوك العرب النصارى سواء من الغساسنة اليعاقبة أو من الحيرة النساطرة لم يكونوا بهذين المذهبين مخالفين للمذهب البيزنطي الرسمي الملكاني[2] المعلن في العقيدة الخلقيدونية[3] فحسب، بل كثيرا ما حاولوا الاستقلال أو إظهار الندية لحليفيهما القويين، وان كان مثل هذا التمرد ينتهي بهم عادة إما إلى القتل أو المنفى[4]، إلا أن هذا لم يحل بينهم وبين إعادة الكرة في كل مرة. إذ تحضرهم اللاحق لم يمح تماما بداوتهم

ديسكورد، الرجل الذي يتوجب الإطاحة به! وانت إلى هذا الانشقاق الذي لا رتق له!. وهي خاصية شرقية ~ غربية للحروب الدينية المتخفية تحت عباءة السياسة وللحروب السياسية التي تتخذ من الدين وسيلة للحكم لا زالت تصاحبهم إلى اليوم.

[1] تنسب إلى يعقوب البردعاني، راهب بالقسطنطينية. وهي تقول بأن المسيح المركب هو الله!.

[2] المذهب الملكاني هو مذهب الإمبراطورية، الذي يزعم طبيعتين تامتين للمسيح : إله تام و إنسان تام.، وليس أحدهما غير الآخر. وأن الذي صلب! وقتل! هو الإنسان!. وأن الإله منه لم يتدخل ولم يصبه شيء من ذلك. وأن مريم ولدت الاثنين معا! وقرروا ذلك كله في مجمع أفسوس سنة 431 م!.

[3] اجتماع كنسي حصل سنة 451 م ، حيث اعتبرت الكنيسة القبطية التي تقول بوحدة طبيعة المسيح هرطقة بالنسبة للمجتمعين المتخذين لهذا القرار.

[4] كان الفرس في القرنين الثالث والرابع الميلاديين يدفعون إتاوات لكل من ملوك الحيرة وملوك الغساسنة اتقاء غزواتهم وهكذا نجد أن رئيس عرب الصحراء السورية كان تابعا لهم سنة 328 م. وسوف يفعل القيصر البيزنطي جوستينيان نفس الشيء لاحقا في القرن السادس الميلادي. أما استقلالية بعض هؤلاء الملوك فتتجلى في موقف الملك النعمان بن الحارث الغساني الذي وقف مع البيزنطيين في كل حروبهم ضد فارس وانتصر في كثير من المعارك صحبة القائد البيزنطي موريس (ت: 602) الذي سوف يصبح قيصرا. النعمان باعتباره كملك لكل العرب، بدأ يتدخل لحمل فرقاء المذاهب النصرانية على نبذ خلافاتها العقائدية والتعايش في سلام. أي نظر إلى نفسه بالنسبة لدوره الديني، ما كان من اختصاص القيصر لذات الدور في العقيدة الخلقيدونية. في البداية قبلت القسطنطينية بهذا الدور لأنه يصب في صالحها. فأنعمت على النعمان بتاج الملك على كل العرب لأول مرة ، واستقبل بحفاوة من طرف القيصر تيبروس وتوجه. إلا أن كل هذا سوف يتبخر بين عشية

السابقة، التي لا ترضى بالدنية.

إلى الجنوب من شبه الجزيرة، تقع اليمن. وحكمها الحميريون لمدة 640 سنة (115 ق.م ~ 525 م) وبلغ عدد الملوك المتعاقبين منهم في هذه الفترة 28 ملكا، آخرهم ذو نواس (515 ~ 525 م). بدأت النصرانية تنتشر في اليمن في عهد مبكر، واعتمد الأحباش على النصارى منهم لغزو الدولة الحميرية سنة 340 م، إلا أن الحكم الحبشي لم يعمر طويلا، فقد تمكن اليمنيون من إخراجهم سنة 378 م. وكان لهذه الحملة هواجس ظلت تقض مضجع الحميريين، الذين رأوا في النصارى طابورا خامسا لأطماع بيزنطة بواسطة الحبشة. فلما جاء ذو نواس رأى أن لا مناص من اجتثاث النصرانية من اليمن، بعد أن كان قد اعتنق اليهودية من قبل. فبدأ سنة 517 م يكره النصارى على التهود ومن أبى حرقه. فكانت وقعة التحريق الشهيرة بمدينة نجران، المعروفة من خلال القرآن ب "الأخدود"[1] . فاستنجد النصارى ببيزنطة، فأوعز جوستينيان (527 ~ 565 م) إلى كالب ملك الحبشة (أكسوم) أن يقوم بالواجب، فدخل الأحباش اليمن وظلوا فيه 47 سنة، حاولوا بدورهم فرض عقيدتهم بالقوة على الجوار، كما سيتفتق بذلك عقل "أبرهة "، حين عزم على هدم الكعبة بالفيلة، قصد صد العرب عنها وتحويلهم إلى "القليس" الكنيس الذي بناه في مدينة صنعاء باليمن للقيام بذات الدور. فكان أن رد على أعقابه ك "عصف مأكول" حسب ما وصف القرآن، في الحادثة الشهيرة بعام "الفيل" سنة 571 م حيث مولد رسول الإسلام صلوات الله عليه. ثم استنجد اليمنيون بدورهم بالقوة العظمى الأخرى في المنطقة، وهي فارس. فأرسل خسرو الأول أسطولا بحريا نزل بمدينة عدن وتمكن من طرد الأحباش من اليمن سنة 572 م. ثم جاء خسرو الثاني (590 ~ 627 م) وغزى مصر سنة 618 م، مما قوى من جانب فارس في المنطقة. وإلى سنة 628 م تحكمت الدولة الساسانية في الملاحة بالبحر الأحمر دون منازع[2]. في شهر فبراير سنة 628 م انهزم الفرس نهائيا أمام بيزنطة على أرض فارس نفسها وأعادوا لهم "عود الصليب" الذي أخذوه منهم يوم جاسوا في أورشليم (القدس) ودمروا كنائسها. في هذه السنة كان قد مضى على هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سبع سنين. لكن، قبل هذا التاريخ بأربع عشرة سنة، أو بالضبط ما بين السنتين السابعة والسادسة قبل الهجرة (614 م ~ 615 م) قرأ محمد صلى الله عيه وسلم على أصحابه المضطهدين بمكة آيات من سورة الروم تتوقع بالأحداث المستقبلية التي لا زالت يومها طي الغيب، والتي تجسدت الآن كلها على مسرح الأحداث والتاريخ يقرأها الكل ككتاب مفتوح[3] :

﴿ الم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ﴾

لقد أبلغ الرسول بفحوى البرنامج، الذي سيكون ممثلا فيه وهو وصحبه على مسرح الأحداث، بينه وبين مضطهديه من قريش من جهة، وبين ما سيجري من أحداث كصراع أكبر، خلفية لصراعه مع قومه. سنة 614 م التي غلب فيها الروم في "أدنى الأرض"، كانت فاتحة الهزائم التي تلتها هزائم أخرى كحبات متتالية في سبحة تقطع خيطها. فيها دخل كسرى الثاني أبرويز (590 م ~ 628 م) سوريا وفلسطين، وخرب كنائس القدس واستولى على

وضحاها، بعد اتهام الجنرال موريس له بأنه ترك القائد الفارسي أدارهمون الذي كان قد نهب مدينة الرها يفلت من بين يده. ورغم دفاع النعمان عن نفسه لرد هذه التهمة، إلا أنها لم تجد آذانا صاغية لدى القيصر تيبروس. فنفاه إلى جزيرة صقلية. وعندما ثار أبناؤه الأربعة، حاولت بيزنطة القضاء عليهم بالاحتيال. فوعدت أكبر ابنائه الحارث بملك أبيه. فذهب إلى القسطنطينية مدافعا عن موقفه. إلا أنه سوف يقبض عليه ويرسل للمنفى مع والده. ثم نظرت بيزنطة أن تقسم ملك النعمان على خمسة عشر أمير، مما دفع بالكثير منهم إلى أن يلتجئوا إلى الفرس ويرتدوا عن دياناتهم. وسنجد أن أسقف مدينة حران تحت حكم القيصر موريس يعمل على تنصير العرب بالقوة ومن أبى قسمه نصفين وعلق أطرافه فوق معالم بساحات المدينة. فرصة ما كان ليضيعها الفرس، فهجموا على سوريا وأمنوا العرب ونادوا بأنهم لا يريدون سوى البيزنطيين ليستولوا عليها لفترة (604 ~ 620). في سنة 620 كان عمر رسول الإسلام 49 سنة وعلى مرمى سنتين من الهجرة إلى يثرب.أنظر : أخبار يوحنا الأسيوي المجلد الثالث، الفصل 40 والمجلد السادس الفصول 16 ~ 18 .

[1] سورة البروج الآيات 1 ~ 7 : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾

[2] جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام .(1: 381 ~ 411) و (3 : 136 ~ 209) المجمع العلمي العراقي، بغداد. و جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام.(1 : 103 ~ 163) .

[3] سورة الروم، الآيات 1 ~ 7 .

الصليب الذي يظن المسيحيون، حسب أسطورتهم المؤسسة أن المسيح صلب[1] عليه!. وتحت ضغط الفرس تراجع الروم إلى أسوار القسطنطينية وتحصنوا بداخلها. "البضع سنين " التي ستمر، قبل أن ينتصر الروم البيزنطيون على فارس في "أدنى الأرض"، ليعقبها مباشرة "فرح المؤمنين بنصر الله"، لن تصل إلى عشر سنوات. لأن بضع عند العرب، هي ما بين ثلاثة إلى تسعة. وهذا يعني أن النبوءة لن تتأخر عن التحقق قبل انقضاء سنة 624 م. والثابت تاريخيا، أن الروم ظلوا قابعين خلف أسوارهم إلى حدود سنة 622 م. في هذه السنة خرج هرقل بجيشه لملاقاة الفرس في أول حرب صليبية عرفها التاريخ. خرج هرقل مرتديا للمسوح وأمامه رفعت صورة للقديسة العذراء. وأجراس الكنائس يرتد صداها في كل أرجاء القسطنطينية. صلوات وترانيم تتبع الحشد العرمرم مبتهلة إلى المسيح أن يرد كيد فارس. أدعية خاشعة بدعوات النصر للقديس! هرقل (610 م ~ 641 م) الإمبراطور (الزاني بابنة أخته "مارتينا"، التي ولدها تسعة أولاد، يصحبونه وإياها في كل غزواته ضد المجوس الكفار!). كرة الروم جعلتهم ينتصرون بالقوقاز وأرمينيا والأناضول حتى نهر الفرات بالعراق. وفي فارس ذاتها حتى مدينة تبريز. إلا أن هذه الانتصارات الجانبية والمهمة، لم تعنيها النبوءة مباشرة، لأنها بعيدة كل البعد عن مسرح الأحداث القريب، الذي لقريش سابق عهد به في رحلتهم التجارية الصيفية إلى الشام. المفتاح هنا هو "أدنى الأرض". ويجب أن يتحقق في كل معانيه. وأدنى الأرض من معانيها : "اقرب الأرض"، وهذا متحقق، إلا أن القرب هنا نسبي. ومعناها الثاني : أسفل أو "أوطأ الأرض". وهو المقصود هنا قسرا. وأوطأ الأرض أو" الأرض الوطيئة" ما هي سوى الترجمة الحرفية القرآنية ل "أرض كنعان ": أي فلسطين. وفلسطين والقدس استعيدتا بالضبط أواخر سنة 623 م وأوائل سنة 624 م، ضمن البضع سنين التي حددها القرآن. لكن أين فرح المسلمين بنصر الله بعد ذلك مباشرة حسب النبوءة المبرمجة؟. فالمسلمون لا يعنيهم انتصار فارس على الروم ولا انتصار الروم على فارس. إذ الكفر ملة واحدة. سواء انتصر الشرك الثنوي بالهين، واحد للشر والآخر للخير، كما يؤمن بذلك المجوس. أو انتصر التثليث بثلاثة آلهة في واحد!، كما تؤمن بذلك بيزنطة. النصر الموعود به، والمؤكد في السورة ب ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ جاء فعلا وتحقق حسب الوعد. وهو الانتصار الفاصل بين المسلمين وكفرة قريش في "غزوة بدر" الكبرى في 17 رمضان من السنة الثانية للهجرة الموافقة لشهر أبريل سنة 624 م، والتي جاءت فعلا، وحسب الوعد، بعد انتصار الروم على فارس في فلسطين (الأرض المنخفضة). من كان سيصدق؟.

أما في غرب شبه الجزيرة فيقع الحجاز. وهذا إقليم لم يعرف سيطرة لقوة أجنبية قط. ويمتن القرآن على ساكنته :

﴿ أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء[2] ﴾

﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم[3] ﴾

وأهم ما في الحجاز مدينة "مكة"، حيث مقام إبراهيم عليه السلام، وأول بيت وضع للناس، تحج إليه العرب من كل فج عميق. كانت الزعامة في مكة لقبيلة قريش، التي اشتغلت في التجارة، في رحلتين سنويتين، الأولى في الشتاء نحو اليمن بالجنوب ربطا لتجارة الهند والصين التي تمر عبر جزيرة صيلان[4] في المحيط الهندي، والثانية في الصيف في رحلة إلى الشام النافذة على العالم البيزنطي والغربي . مكة كمدينة، أدارها مجلس أعيان للنظر في الشأن العام والتشاور سموه "دار الندوة". الدار هذه، أسسها قصي بن كلاب، الجد الخامس في نسب الرسول صلى الله عليه

---

[1] القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ينفي كون المسيح صلب.في سورة النساء، الآية 157 : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾. وما نفاه القرآن يستحيل أن يوجد. وما عورض القرآن بشي إلا صدق الواقع القرآن وخذل المعارض. وانظر تفصيل ذلك في كتابنا: "الأسس العلمية لدعاوى القرآن".

[2] سورة القصص، الآية 57 .

[3] سورة العنكبوت، الآية 67 .

[4] حاول الإمبراطور جوستينيان حوالي سنة 530 م الربط المباشر للتجارة مع الهند من مرفأ أدوليس الإيرثري على البحر الأحمر نحو صيلان، التي تحول دونها المنافسة التجارية والسياسية بين فارس وبيزنطة. أي تحكم وبسط نفوذ لأي من القوتين على البحر الأحمر، يحمل نذير شؤم لتجارة قريش المربحة المستفيدة من هذا الصراع. وهذا فعلا ما حمله لهم استيلاء خسرو الثاني على مصر وتحكمه في البحر الأحمر كله.

وسلم، وجمع بين الرئاسة لدار الندوة وسدانة الكعبة وسقاية الحجيج زيادة على إمساكه بلواء الحرب. ومكة بدار ندوتها ومواطنيها المتدربين على فنون القتال والتجارة، وموسم حجها الجامع لشتات العرب كل سنة، وسوقها الشعري، منتدى القبائل للتفاخر والتعارف في عكاظ، لأكثر حرية وأنفة، وشورية ندية، وكرامة نفس، وبطولة فردية ونجدة، من كل مؤسسات الحكم في مدينة أثينا تحت حكم بيركليس. وسيثبتون ذلك للعالمين الشرقي والغربي سواء عما قريب، مع حلول الرسالة التوحيدية الجديدة، التي حاربوها جهلا في البداية بكل ما أوتوا، (تقليدا للأسلاف وحفاظا على موروث الآباء)، كما قاتلوا من أجلها عندما اقتنعوا بها بكل ما أوتوا، (نبذا لكل موروث ولكل سلف) حتى قاتل الإبن أباه والأخ أخاه على العقيدة نسفا لأهم رابطة حكمت حياتهم وهي رابطة الدم!. انقلاب شامل لم يشهد له التاريخ مثيلا ولا نظيرا في فترة مخاض لا تزيد على العشرين سنة.

من التجارة تولدت طبقة من الأغنياء، اشتهر من بينهم مع البعثة المحمدية : أبو سفيان صخر بن حرب (57 ق.هـ ~ 31 هـ)[1]، الوليد بن المغيرة (95 ق.هـ ~ 1 هـ)[2] عبد الله بن جدعان التيمي القرشي (؟) وغيرهم. مقابل هذه الطبقة، ظهرت طبقة أخرى كالخدم والعبيد وممتهني الصنائع والحرف، لا يستشارون لا في المدلهمات ولا في أمور التجارة أو الحرب. الأغنياء وحدهم يقررون وإن كانت تبعات قراراتهم تصيب الجميع بدرجات متفاوتة، حسب النفع الذي يكون لهم منه النصيب الأوفر، أو الضرر الذي يكون منه للمستضعفين وزر مضاعف، نظرا لقلة الحيلة المصاحبة لهم كتبع في مجتمع لا يعترف بالوجود سوى للأغنياء أو أبطال الحرب.

2-2- اعتقادات العرب الجاهليين

رغم وجود جيوب لليهود والنصارى على أطراف شبه الجزيرة العربية، كيهود اليمن ويثرب وخيبر، أو نصارى الحيرة والشام ونجران، أو بعض الصابئة، عبدة الكواكب أو أتباع يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام، بعد تحريف رسالته) في حران، أو بعض الحنفاء المعاصرين للبعثة الإسلامية، مثل : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (127 ق.هـ ~ 45 ق.هـ) وقيس بن ساعدة الإيادي (ت: 23 ق.هـ/600 م) وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي (ت: 17 ق.هـ/606 م) وأمية بن عبد الله، أبو الصلت الثقفي (ت: 5 هـ/626 م) وقيس بن عاصم السهمي (20 هـ/640 م) وغيرهم، إلا أن غالبية العرب الجاهليين كانوا وثنيين مشركين، لا يؤمنون لا بأنبياء ولا برسل ولا بتوحيد كما يقص القرآن[3] :

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾

بل كانوا دهريين ماديين لا يؤمنون ببعث ولا نشور[4] :

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾

أو على لسان زهير[5] :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

أو عند مجمع بن هلال[6] :

شهدت وغنم هويت ولذة ... أتيت وماذا العيش إلا التمتع[7]

أو كما عند طرفة[8] :

ألا أيهذا اللائي أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟

[1] والد معاوية بن أبي سفيان، الولد الذي سيلعب دورا رئيسا في الانقلاب من الحكم الشوري الرشدي في صدر الإسلام إلى النمط القيصري العضوض.

[2] والد خالد بن الوليد، الذي سيلعب دورا رئيسا في حروب الردة والفتوح.

[3] سورة ص، الآيتين 4 و 5 .

[4] سورة الجاثية، الآية 24 .

[5] زهير بن أبي سلمى في معلقته، أنظر شرح المعلقات العشر للشنقيطي، ص. 86 .

[6] مجمع بن هلال بن خالد (؟) شاعر فارس جاهلي من بني تيم الله بن ثعلبة، من بكر بن وائل.

[7] ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي، (1: 303) .طبع بولاق، 1296 هـ/1878 م، مصر.

[8] طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي (86 ق.هـ ~ 60 ق.هـ) شاعر جاهلي قتل غدرا وهو يافع.

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي[1]

وكأنهم في نظرتهم الدهرية هذه صدى لنزع قديم تردد في المنطقة، كما نجد ذلك في أسطورة ملحمة "غلغامش" حاكم مدينة أور[2] (الوركاء) من بلاد سومر، الذي ذهب في سفرة مع صديقه "إنكيدوا" بحثا عن الخلود الذي لن يجده، إلا لتأخذه منه أفعى الصحراء!، وهاهو يسائل كل من يلقاه عن الحياة الأبدية فيجيبونه[3] :

غلغامش، أين رحت تجول؟ ... إن الحياة التي تبحث عنها، لن تجدها أبدا

لأن الآلهة عندما خلقت الإنسان، جعلت ... الموت نصيبه، وأمسكت

بأيديها عنه الحياة ... غلغامش املأ بطنك

امرح ليلك ونهارك ... واملأ أيامك باللذائذ،

وارقص واعزف الألحان ليلا ونهارا

فالعيش في الدنيا أقصى آمال وغاية الجاهلي كصنوه القديم السومري أو البابلي. فمن نصبهم القديمة التي كانوا يعظمونها : ذات أنواط ، وهي شجرة عظيمة على مقربة من مكة، تعظمها قريش ومن والاها من القبائل. ينحرون ويعتكفون بها ويعلقون أسلحتهم عليها يوما كل سنة. وكذلك ذو الخلصة وهو بيت في قرية ثرون، كان معظما عند قبائل بجيلة وخثعم وسراة الأزد وبطون هوازن يستقسمون عنده، له سدنة وحجاب يطاف حوله ويهدى، كما يطاف بالكعبة ويهدى لها. وبيت الخلصة يحتوي على نصبين : مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج وثانيها شجرة الخلصة. وهذا النوع من الشجر يسمى "العبلاء". كما أن المروة البيضاء من الحجر الأبيض يطلق عليها أيضا اسم "العبلاء". فهذه نوع عبادة للحجر والشجر، لا يدرى أيهما أسبق في الزمن، الحجر أم الشجر ولا كيف تحولت العبادة من شكل إلى آخر، وانتشرت عبادتها في تبالة، بين اليمن ومكة، وغير هذين مثل "سعد"، صخرة لبني كنانة، و "الحتمة" و "الحطيم" صخرتان بمكة[4]..الخ.

وانحدر إليهم من الجوار والتاريخ آلهة الحضارات الوثنية التي سبقتهم في الهلال الخصيب. فنجدهم يعبدون "اللات"، التي أثبتت الحفريات أنها كانت أختا ل "عشتار" البابلية. وهي في هذه الأسطورة تحكم على "الهاوية" التي سجنت فيها عشتار. و "اللات" تمثل فصل الصيف عند البابليين كما لدى العرب، كما ورد وصفها في ملحمة إزدوبار[5]:

إن عشتار سجنت فامحى الحب والحياة والخصب عن وجه الأرض، فسلط حكم "اللات" على الأرض، وهو حكم شدة الشمس المحرقة والعطش والبؤس والفقر والفساد، ثم بعث رب الأرباب (آنو) رسولا إلى "اللات" وأمره أن يرش الماء على وجه "اللات" الغضبى ويهدئ شدتها بتلقيبها بألقاب متعددة لكي تفرح "اللات" برؤيته.

وضمن تقمصات الآلهة، تحولت "اللات" عندما دخلت سوريا إلى "بابارجيتس" وزوجها المؤسطرون من "حداد"، إله الزوابع والعواصف السوري. بينما لم تكن مقترنة بإله العواصف البابلي "إنليل" كزوجة!. ثم انتقلت إلى النبطيين وسموها "ربة البيت" وبنوا لها معبدا مربع الشكل في مدينة تدمر[6]. الهيكل طول ضلعه 740 قدما ويحيط به

[1] شرح المعلقات العشر للشنقيطي، معلقة طرفة بن العبد، ص. 74 . في بعض النسخ ترد كلمة "الزاجري" بدل "اللائمي".

[2] موطن النبي إبراهيم عليه السلام حسب التوراة.

[3] فرنكفورت والجماعة، 1954 : ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة، فرع بغداد. ص. 49 .

[4] محمد عبد المعيد خان، 1980 : الأساطير والخرافات عند العرب، ط. ثانية، دار الحداثة، سلسلة العلوم الاجتماعية، ص. 112 ~ 113 . بيروت.

[5] المرجع السابق، ص. 127 .

[6] مدينة عربية قديمة تقع في واحة وسط الصحراء السورية، شمال شرق دمشق على بعد حوالي 300 كلم منها على الطريق بين وادي الفرات وساحل البحر المتوسط. ورد اسمها في الكتابات القديمة لعهد الملك الآشوري بيلسير الأول (1115 ~ 1077 ق.م) باسم "تدمر العموريين"، كما ورد ذكرها أيضا في حملات نبوخذنصر الثاني الآشوري (605 ~ 562 ق.م). وتدمر تمثل قصة مكرورة لتعامل فارس أو بيزنطة مع العرب. ففي سنة 242 م تقدم الفرس بقيادة شابور في حربهم السجالية مع بيزنطة حتى وصلوا أنطاكية واحتفظوا بكل العراق. في سنة 252 م دوخ شابور سوريا وأسر القيصر فاليريان (ت: 260 م) وهدد آسيا الصغرى. فأصاب الروم الهلع وتقدموا بإغراءات لملك تدمر أذينة من أجل الوقوف إلى جانبهم فأغدق عليه القيصر غاليان بلقب قنصل (Consularis Clarissimus) . لم يخيب أذينة ظن الرومان، إذ لم يهزم شابور فحسب، بل أسر جزءا من حريمه وذهب حتى إلى محاصرة عاصمته المدائن. تحت هالة هذا الشرف ، خلع وهب اللات ،الذي خلف أباه سنة 266 م تحت وصاية والدته زنوبيا اسم أغسطس وحمل ألقابا شرفية على طريقة الرومان وحكم لبضع سنين سوريا ومصر.إلى

سور يرتفع إلى 70 قدما وضم في الأصل ما يزيد على 400 أسطوانة، لا يزال قائما منها إلى يومنا هذا حوالي مائة. ومن النبط انتقلت إلى قبيلة ثقيف، وجعلوها صخرة مربعة الشكل سموها هم أيضا "ربة"!. فانتقلت من تمثيل فصل الصيف عند البابليين إلى زوجة حداد في سوريا ثم إلى إله الشمس عند النبط، بينما ظلت تحتفظ بوظيفتها البابلية لدى العرب الجاهليين في الحجاز رغم البعد الزمني: أكثر من ثلاث ألف سنة!.

وعبدوا "العزى"، وتمثل فصل الشتاء لمقولة عمرو بن لحي[1]، الذي قيل إنه أول من جلب الأصنام إلى مكة:

إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة

و"العزى" في مقولة عمرو بن لحي تكييف تقمصي ل "عشتار" البابلية أو "عشتروت" الكنعانية، وتمثل إلهة الخصب عند كليهما. وانتقلت إلى الإغريق تحت اسم "أفروديت"، وإلى الآراميين باسم "إستيرا"، وهي قرينة "مردوخ" عند البابليين. و دعيت "عشتار" في عصر المؤرخ اليوناني هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد :"ميليتا" أو "بيليتس". ثم تطورت بفعل التقمص الحكواتي الأسطوري من صفات أرضية إلى صفات سماوية، لتظهر باسم "الزهراء"، الكوكب المعروف بنجم الصباح، سواء عند العرب أو عند الإغريق.

وسميت "العزى" باسم "عوزي" عند قبائل طيء. و تكاد عبادة "عشتار"[2] لدى البابليين توافق عبادة "العزى" لدى العرب الجاهليين، مع تحويرات في الأدوار حسب البيئة والزمن. فالعزى عند العرب هي بنت "هبل" إله الخصب والرزق، الذي هو "بعل" كنعان المقابل ل "مردوخ" بابل المقترن بعشتار كزوج له بدل ابنة!، كما سوف تؤول حبكة الأسطورة عند متأخري العرب الوثنيين، بعد ثلاث ألف سنة من التحولات والتقمصات. ورد في الأدب البابلي أن البنات كانت تباع في عيد "عشتار" وسنجد أن ملك الحيرة، المنذر الثالث (505 ~ 554 م) يقدم القرابين

وفاة شابور. وبموت الأخير، تحرر الروم من خطر فارس ونظروا إلى تقويض مملكة تدمر. وهذا يذكرنا بأدوار تكاد تتكرر في التاريخ. وما حصل للعراق في حربه مع إيران التي مثلت هلعا خارج الطوق في عصرنا، وما تبع ذلك من مساعدة حربية للعراق لأنهاك إيران، ثم الانقلاب عليه لتفتيته لاحقا، سوى لعبة قديمة جديدة يعاد تمثيلها دون اتعاظ من التاريخ!. بلغت هذه المدينة الواقعة على طرق التجارة الصحراوية أكبر ازدهارها في عهد الملكة زنوبيا (الزباء)، حيث هزمت الرومان وبسطت نفوذها على جزء من آسيا الصغرى، إلا أن نفوذها لن يدوم طويلا، حيث سوف تستسلم بعد حرب طاحنة لأرليانوس الروماني سنة 274 م. فخربها وقتل وسبا أهلها وأخذ زنوبيا أسيرة إلى روما. وسوف يدخلها خالد بن الوليد ليصالح أهلها سنة 13 هجرية في طريقه من العراق إلى الشام.

[1] عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو الأزدي من قحطان (؟). أقيل هو أول من دعا العرب إلى عبادة الأوثان، ويوجد خلاف في نسبه

[2] عبدها الكنعانيون باسم "عشتاروت"، إلهة الخصب. وقد ورد ذكرها في التوراة، وعبدتها اليهود أيضا كما في كتاب القضاة الأول (2: 13) { نسوا الله وخدموا البعال (مجموع بعل) والعشتروتات، فاشتعل غضب الرب ضد بني إسرائيل } وكذلك في كتاب صمويل أول (7 : 3). بل إن كاتب سفر الملوك لا يتورع من اتهام نبي الله سليمان المبرأ في القرآن بعبادة عشتروت!. وهذا من جراتهم على أنبيائهم كما في سفر الملوك الأول (11 : 5) { لأن سليمان مشى وراء عشتاروت إلهة الصيدويين (نسبة إلى مدينة صيدا اللبنانية) ووراء ملكوم (ويسمى أيضا مولك) رجس العمونيين (الموآبيون) }.
ومجمع الأرباب الكنعاني، على غرار البابلي يتكون من الإله "إيل" وزوجه "عاشيرة" الإلهة الأم، إلهة البحر، ومن أولادها : الإله "بعل" إله الخصب والأمطار والرعود والعواصف. وهو الوارد في القرآن في سورة الصافات، الآيات 123 ~ 126 (وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون). أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين }. وهو "بعل" أو "البعليم" الذي لا يكاد يخلو إصحاح من إصحاحات سفر القضاة أو سفري الملوك وغيرها من الإشارة إلى عبادة اليهود له ارتدادا وقيافة للكنعانيين. وللبعل أخت اسمها "عانات". وعثر على ملحمة شعرية في حفريات أوغاريت (رأس شمرا) تعرض لموت بعل ثم عودته إلى الحياة في الربيع بعد سقوط الأمطار. وكيف تقوم الإلهة "عانات" بحمل جثمان "بعل" بعد أن قتله "موت" إله مملكة الموت، ثم كيف تتم مراسيم التشييع والدفن. ثم يصف الشاعر موجة الفرح بعودة "بعل" إلى الحياة المصحوبة بالأمطار وطغيان المياه، التي يشبهها الشاعر بالعسل.. أنظر :
Pritchard,J.B.,1957: Archeology of the Old Testament, Princeton university Press, pp. 110.
ودخلت عشتاروت، (التي تمثل في كنعان على صورة امرأة عارية تقف على أسد وبجانبيها حيتان) إلى مصر مع حكم الهكسوس الذين عرفوا بدولة البدو. وهم أعراب قدموا من فلسطين وحكموا مصر كفراعنة لمدة قرنين (1785 ~ 1570 ق.م).وحمل فرعونان من فراعنتهم اسمي: يعقوب إيل ويعقوب بعل. وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة، التي جاءت بعد أن استطاع الفرعون "أحموسة" طرد الهكسوس من مصر ،سنة 1570 ق.م.، ليبدأ عصر الإمبراطورية المصرية الجديدة الذي امتد لخمسة قرون (1570 ~ 1075 ق.م)، وشمل الأسر (18 إلى 20) سنجد مصر تنتصر على الهكسوس في عقر ديارهم بفلسطين في معركة "مجدو" سنة 1479 ق م ليشمل حكم الفراعنة مصر وسوريا وفلسطين. هنا نجد عبادة عشتار تهجن في مصر، باعتبارها ربة حرب وابنة اله الشمس "رع" أو ابنة "فتاح". وكانت تصور امرأة عارية تمتطي جوادا غير مسرج، تلبس تاجا وتلوح بسلاح. فهي عند المصريين أخذت دور عانات الكنعانية الحربي وأبدل الإله "إيل" بنظيره المصري "رع" أو " فتاح". أنظر : علي فهمي خشيم، 1990 : آلهة مصر العربية، (2: 476) دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

البشرية للعزى[1].

وعبدوا "مناة"، وهي صنم على ساحل البحر بين المدينة ومكة، ناحية المشلل بقديد. وهذه كانت لقبائل الأوس والخزرج، سكان "يثرب" (المدينة المنورة). وترد هذه أيضا في الأدب البابلي باسم "مامناتو"، إلهة الموت والقدر. وهي ترد باسم "مناواة" في أقدم النقوش النبطية. و"مناة" و "عشتار" و "اللات" هن بنات رب الأرباب "آنو" في مجمع الأرباب البابلي وانحدرن إلى العرب بذات الأدوار تقريبا. وتسمت العرب : ب "عبد اللات" و "وهب اللات" و "عبد العزى" و "عبد مناة" و "زيد مناة". فهي آلهة عندهم كما لدى البابليين.

وعبدوا "هبل "، وهو أكبر أصنام قريش. والاسم لا اشتقاق له في العربية، وهو يقوم مقام إله الخصوبة البابلي "تموز" أو "دموزي"، أو الكنعاني "بعل"، أو السوري "أدونيس". وعبدوا كذلك "ود"، وهو على ما وصف القرآن قديم قدم نوح[2] مع أربعة آلهة أخرى كلها بذات القدم. ومثل "ود" إله المحبة والوداد، وكان معظما لدى قبيلة بني عذرة، التي اشتهرت بشعرها العذري نسبة إليها، وهو شعر غزل وتشبيب. وهو أيضا بمثابة الإله القومي الأكبر لشعب معين باليمن. وعبدوا "نسر"، وهو على صورة النسر الجارح المعروف. فكان لحمير ومن والاها في مكان بأرض سبأ يقال له "بلخع". وعبدت همدان "يعوق"، وكان على صورة فرس، أقيم نصبه في قرية "خيوان". وعبدت قبيلة مذحج اليمنية ومن والاها "يغوث" على صورة أسد. زيادة على ما يزيد عن مائة إله عرت عنه الحفريات باليمن، منهم خمسون إلها توجد عنهم معرفة تفصيلية[3].

فهذه نبذة عن أصنام وأوثان العرب الجاهليين. أكثرها انحدر إليهم من الأقوام الحضارية القديمة، خصوصا حضارة الرافدين. وإن كانت دهرية العربي لها ما يماثلها في دهرية البابليين على ما أسلفنا، إلا أن خياله لم يكن بذات الجموح لينسج الأساطير على منوالهم. فهذا شعرهم واقعي كله، وصفي في مجمله، مادي في محتواه ومضامينه. لم يجنح قط إلى حبك الملاحم الأسطورية، على غرار ما حصل لدى جيرانهم الأقدمين، من رافديين ومصريين وفارس والإغريق، في أدبهم الملحمي أو العجائبي. بل لو قارنا ما بين أسطورة "مردوخ" إله العواصف والرعود في ملحمة "إينوما إيليش"، التي ترجع بأصولها إلى ثلاث آلاف سنة قبل المسيح، وما آل إليه أمره ك "هبل" عند قريش، لظهر البون الشاسع بين خيال البابليين وواقعية القرشيين. وهاهو نص كشفت عنه الحفريات يصف مجلس الآلهة أثناء اختيارهم لمردوخ (المقابل لهبل) ملكا كما جاء في ملحمة "إينوما إيليش[4]" :

وضعوا في الوسط منهم ثوبا ... وقالوا لبكرهم مردوخ:
ولتفن كلمة منكم هذا الثوب ... ثم انطق ثانية لتعيده كما كان
فنطق، وفنى الثوب من كلمته ... ونطق ثانية، وعاد الثوب مثلما كان
وإذ رأى آباؤه الآلهة (قوة) كلمته ... فرحوا وبايعوه قائلين : فليكن مردوخ ملكا.

هذا الأصل الملحمي الأسطوري للإله "هبل" لم تقف عليه قريش ولا عرفته. بل لما خاطبهم القرآن يقص عليهم من أخبار الغابرين ما كان جوابهم إلا أن قالوا : أساطير الأولين كما يقص القرآن[5].

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)

واقعية العربي الجاهلي هذه، تأتت من نمط حياته وحريته. فهو ليس بحاجة إلى خرافة لتبرير سلطة من يحكمه ما دام منطق القوة الملموسة هو المعيار والمحك. فهو ليس بحاجة إلى طقوس ولا أن نوعية حياته تحتمل أو

---

[1] في ربيع سنة 529 أغار المنذر على إمارة الغساسنة حلفاء بيزنطة فخرب سوريا وبلغ مشارف أنطاكية، فسبا وقتل ونهب. لدى عودته إلى الحيرة، قدم لإلهته "العزى" أربعمائة راهبة نصرانية سباها من دير سوري قربانا لها. ولأجل التصدي لغزواته هذه، اضطر القيصر البيزنطي جوستنيان (527 ~ 565 م) أن يجعل من الحارث بن جبلة الغساني (528 ~ 569 م) ملكا على كل العرب المنضويين تحت زبونية بيزنطة. فأعاد المنذر الثالث الكرة على سوريا سنة 531 م. ولما عجز الحارث من صده لجأ إلى فينيقيا المجاورة لاستجماع قواه، إلا أن حاكمها ديوميد طرده منها. فوقعت امرأة الحارث وأبناءه في أسر المنذر. فيقوم بذبح أحد أبناء الحارث قربانا للعزى!

[2] سورة نوح، الآية 23 . (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا }

[3] نيلسن ديتليف ورفاقه، 1956 : التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، القاهرة، ص.84 .

[4] ما قبل الفلسفة، ص. 211 .

[5] سورة الفرقان، الآية 5 .

تتطلب تلك الطقوس. ثم كيف يقبل بالأسطورة أن تحكمه وهو الظالم أبدا ؟

فبذرة "العودة"، كما تمثلها أسطورة "تموز"، التي كان البابليون والكنعانيون وغيرهم يمثلونها كل عام، بطقوس تتضمن عادة مواكب النواح على الإله الذي ضاع والبحث عنه للقياه، والعودة المظفرة برفقته، مثلت عودة الخصوبة والخضرة، التي تعود في فصل الربيع وتحتجب باقي فصول السنة. ف "العود" الذي يمثل البعث الدوري كل سنة، كانت الدولة البشرية تشرف على إقامة مهرجاناته وتمثيل مسرحياته في زواج سنوي مراسيمي. في هذا الزواج يقوم الملك الأرضي بدور "تموز" والكاهنة الكبرى للمعبد بدور "إنانا" أو "عشتار". وفي زواج هذين الإلهين، يشارك الشعب كضيف ومتفرج في آن، على تمثيل بعث الحياة أو تجديد الخلق في الطبيعة وخصبها.

هذا النوع من "العودة المتجددة" أو "العود الأبدي"، نجد جذوره في حضارة الرافدين ومن خضع لها أو لتأثيرها لأكثر من ثلاث آلاف من السنين. وورث العرب الجاهليون رمز هذا المأثور من خلال ما جلبوا من أصنام في صورة "هبل" و "العزى"، إلا أنهم لم يخرجوه في مسرحيات ولا أقاموا له مهرجانات. واختزلت عندهم هذه الطقوس إلى أبسط مظاهرها ورموزها العامة والمبتذلة، كما يحصل لأي دين عندما ينتقل إلى البادية، حيث تستغرق مطالب الحياة اليومية كل جهدهم، وتقل فرص التأمل أو التخيل عندهم. ومن ثم يعتمدون تقليد غيرهم على قدر ما يستطيعون. فما بالك بأعراب الصحراء، صقور الفيافي وشظف عيشهم وعشوائية سنتهم؟ فترحالهم قلما يخضع لروزنامة ثابتة، على غرار الروزنامة الزراعية التي ترتبط بالفصول ارتباطا عضويا. روزنامة البدوي الصحراوي يومية النبض على وقع عشوائية القطر الذي ينزل بصحرائهم ؟ فعالمهم تحكمه العشوائية والفوضى وليس الانتظام. عالم فجاءة وطوارئ وغارات، لا يحسب لها حساب ولا تخضع لمنطق ولا لنظام رتيب. لذلك لن يكون "للعود الأبدي" لدى البابليين أي تأثير على عرب الجاهلية الصحراويين.

وكل ما وصلنا من شعر الجاهليين ونمط حيواتهم، يبعد تماما إمكانية وجود التربة الخصبة لاستنبات أو تعهد نمو بذرة فكرانية من نمطية "المهدوية الخلاصية". وهذا شاعرهم امرؤ القيس، عندما قتلت قبيلة بني أسد أباه حجرا الثاني، ملك كندة وهددهم بأنه جامع لهم، للثأر من قتلة أبيه واسترجاع ملكه، فرسان قحطان وحمير، أجابه شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص متهكما[1] :

ياذا المعيرنا بقتل أبيه إذلالا وحينا — زعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا

هلا على حجر بن أم قطام تبكي لا علينا — إنا إذا عض الثقاف برأس عدتنا لوينا[2]

نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا — هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أينا

ولما لم يستطع لهم حيلة، ذهب يستعدي عليهم قيصر الروم، علّه يعيد له ملك أبيه، لكن دون جدوى. فلقبه العرب ب "الملك الضليل!". ومع ذلك، ومن خلال بينته، ما كنا لنتصور أن يخطر بباله، وهو الشاعر الفحل، أن يكتب ملحمة أو أن يسطر أسطورة، على غرار ما فعل آخرون في مثل ظرفه ضمن بيئات أخرى كما سنرى. بل بموت حجر مات ملك كندة، وبموت امرئ القيس خلد شعره. وفي هذا وحده تكمن المفارقة!.

2-3- الخلاصيات الشرقية بين الدين والسياسة

2-3-1- الخلاصية الوثنية التموزية

لئن لم يكن لفكرة "العود الأبدي" أي تأثير على خيال العربي الجاهلي في صحراء شبه الجزيرة العربية، فسوف نكتشف عكس ذلك تماما في جوارهم وبين ظهرانهم، سواء لدى الوثنيين أو لدى أصحاب الديانات. أول ما يثير الانتباه في حياة الهلال الخصيب، هو كثرة آلهتها الوثنية، التي تهجن كثيرها، وتعددت أوجه الشبه بينها إلى أن امتزجت في بعض الأحيان وتوحدت في بعض أدوارها. فدور "تموز" أو "مردوخ" في وادي الرافدين، لهو نفسه دور "أدونيس" في سوريا و "ملكارت" فينيقيا و "أوزيريس" مصر، و "بعل" كنعان. فكلها آلهة تموت لتبعث، ولها رابطة قوية ووثيقة بإلهة "أم" تمثل فيها الأرض أو الطبيعة الخصبة، التي في حضنها أو حجرها نموا وتربوا ومنحتهم

[1] عبيد بن الأبرص بن حنتم (أو ابن جشم) بن عامر الأسدي (ت: 25 ق.هـ/597 م)

[2] ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر، بيروت، ص. 141 .

عطفها ورعايتها، أو أحبتهم حب الرجل لزوجته. ف "الزهراء" بالنسبة لأدونيس، و "عشتار" بالنسبة لتموز و "إزيس" بالنسبة ل " أوزيريس".. الخ. وكلها تمثل في مسرحيات تكاد تتشابه مضامين رسائلها. تتعذب الآلهة كما يتعذب الإنسان، ثم تموت كما يموت الإنسان، ولكنها تتغلب على العذاب والموت بانبعاثها من جديد. والأتباع يمثلون كل عام هذا التجديد الرمزي المتماهي مع آلهتهم كمرآة لمأساة حياتهم فوق هذه الأرض. ف "النجاة" أو "الخلاص" لبني البشر، بعد أن شاركهم الإله في ظروفهم الإنسانية بعذابه، ثم موته، تتلخص في التماهي مع الإله للوصول إلى قمة المشاركة المصيرية التي تفضي بهم إلى البعث والحياة الأبدية. وهذا لا يتم عملياً سوى بالمرور رمزياً بمختلف التجارب التي مر منها الإله، من خلال تمثيل هذه الطقوس في مسرحية الموت والبعث. وبهذا النوع من الوحدة مع الإله، يظن الفرد أنه تغير كيانه الخاص و ضمن أن يصير إلى مصير الإله نفسه. ويصف الكاتب المسيحي فرميكوس ماترنوس من القرن الرابع الميلادي احتفالاً ليلياً لبعض "الآلهة المنقدين" الوثنيين[1] :

يبكي الناس، ويستسلمون للرعب من المصير المجهول الذي ينتظرهم في المستقبل اللانهائي ويدخل الرجل الساحة، ثم يمر بكل كاهن، ليلمس صدره حسب شعائر معينة، وهو يهمس إليه ببطء بالكلمات القدسية التالية : " لتعد الثقة إلى نفسك، فقد نجا الإله، ولسوف تصل أنت أيضاً إلى النجاة في نهاية طريق الآلام".

2-4- الخلاصية الزرادشتية الآرية

الهندوس والمجوس يشتركان في نفس الأرضية الشِّرْكية، من خلال كتبهم المقدسة. فبعض الآلهة في "الأفستا" الكتاب المقدس للعقيدة المجوسية نجد ذات الآلهة كما في الكتاب المقدس للهندوس المعروف ب "الفيدا".بل إن الآلهة الموروثة عن الهند الفيدية أكثرها من أصل إيراني. وعندما التقت بالآلهة المحلية تبنتها البراهمية وامتصتها وأدخلتها ضمن أربابها. ف الإله "مترا" الهندوسي هو ذاته "مترا" لدى المشركين المجوس. وعثرت الحفريات على نص اتفاقية دولية بين ملك الحيثيين[2] وملك ميتاني[3] سنة 1380 ق.م، به قائمة من أسماء الآلهة الآرية : "ميترا" و "فارونا" و "إندرا" و "ناهيثيا" و "النساتيانيان". وكل هذه الآلهة توجد في "الفيدا"، بينما الأول فقط "ميترا" يرد له ذكر في "الأفستا" وظهر "إندرا" و "ناهيثيا" في "الأفستا" كشياطين أو آلهة شريرة. ويشتركان أيضا في الطقوس النارية والقرابين الشَّرابية، بواسطة شراب مقدس هو "سوها" في الهند و "هاوما" في إيران.

الديانة الزرادشتية تنسب إلى زرادشت الذي كان كاهناً عند "أهورا"، المقابل السنسكريتي - الأفستي ل

[1] شارل جينيبير : المسيحية، نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط. ثالثة، ص. 96 .

[2] الموطن الأصلي للحيثيين هو بلاد الأناضول بتركيا الحالية. وهو إقليم مرتفع محاط بحدود طبيعية، تحدها من الجنوب سلسلة جبال طوروس ومن الغرب جبال مطلة على ساحل البحر الإيجي. ويرجح الخبراء أنهم جاءوا إلى هذه المنطقة من أوروبا الشرقية، من القفقاس والبلقان،على شكل هجرات متتالية منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.وتسمى ملوكهم باسم " كوسارا". وكانت عاصمتهم "حاتوشاش"، وهي بلد "بوغازكوي" الحالية الواقعة على بعد حوالي تسعين كيلومتراً من مدينة "أنقرة" التركية. واسمهم مشتق من منطقة "حاتو" ومنها جاءت تسميتهم "حيثيين"، أي سكان "حاتو". وقد تمكن الحيثيون في عهد ملكهم "شوبيلوليوما" حوالي 1370 ق.م من تدمير مملكة "ميتاني" التي كان يحكمها الحوريون في شمال العراق بين دجلة والفرات. وسوف يحتدم النزاع بينهم وبين المصريين أيام رعمسيس الثاني (1304 ~ 1237 ق.م) ، وملكهم "حاتوشيلي الثالث"، ينتهي بعقد اتفاقية صلح بينهما بعدم التعدي، وتثبيت حدود مملكتيهما عند نهر العاصي بسوريا. بل عقد الفرعون على ابنة الملك الحيثي واستمرت هذه العلاقات الوطيدة أيام الفرعون مرنفتاح بن رعمسيس الثاني (1237 ~ 1223 ق.م).ولغتهم لغة هند ~ أوروبية مع تهجين محلي. ويرد ذكرهم في التوراة، بل لا يتورع كاتب سفر صموئيل من نسبة الزنا إلى النبي داود عليه السلام بزوجة مولاه الحيثي أورياح!. أنظر سفر صموئيل ثاني (11 : 2 - 27) وكذلك صموئيل أول (26: 6) وسفر حزقيال (16 : 3) وسفر الخروج (10 : 15) الذي يجعلهم ضمن أبناء كنعان! . مما تتحقق به دعوى القرآن في تحريف اليهود للكتب التي بين أيديهم. كما في الآية 79 من سورة البقرة : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبو ن).

[3] الحوريون الذين أسسوا مملكة ميتاني، جماعات هند - أوروبية انحدروا للعراق من موطنهم الأصلي "اورارتو"، وهي أرمينيا الحالية. وبدأ تحركهم من موطنهم حوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وتمكنوا خلال منتصف الألف الثاني قبل المسيح من تأسيس مركز مهم في شمال سوريا في إقليم البليخ والخابور واتخذوا بلدة "واشوكاني" عاصمة لهم. بعد أعقاب طرد الهكسوس من مصر سنة 1580 ق.م اصطدم الحوريون مع المصريين أثناء ملاحقة تحوطمس الثالث (1504 ~ 1450 ق.م) لفلولهم في سوريا. فوقعت معركة بينهم سنة 1457 ق.م كان النصر فيها حليف المصريين ثم تصالحوا بعد ذلك.. وأثناء حروب الحيثيين مع الحوريين اغتنم ملك آشور أوبلط الأول الفرصة لاسترداد

"أسورا"، والأخير مثل الشر في السنسكريتية. أساس عقيدة "الأفستا" التي يدين بها المجوس، هي أن الكون تتحكم فيه قوتان : الخير والشر. والخير يمثله الإله "هورمزدا"، (أهورا = إله + مزدا = الخير) والشر يمثله إله آخر هو "أهرمن "، (أهري = روح + من = شر). ويرمز لأهورمزدا بالنور كما يرمز لأهرمن بالظلمة. وهما في حرب دائمة إلى آخر الزمان حيث سيتغلب إله الخير على إله الشر. ويطلق على كهان هذه الديانة اسم "ماجو" بالفارسية. وهذه اللفظة تعني في هذه اللغة " ذو الحول والحيلة"، وهو اسم غلب على هذه الطبقة من الكهان الزرادشتيين برعوا في الإتيان بالعجائب حتى نسبت إليهم الخوارق. ومنها أخذت اللغات الأوروبية كلمة (Magi) التي تعني السحر الذي يعتمد على الحيلة وخلب الألباب، وليس السحر الشيطاني الذي يعتمد على الأرواح الشريرة. واستعمل القرآن لفظة "مجوس"، التي كانت متداولة عند العرب قبل نزوله، على معهودهم. فهي تعني أهل هذه الملة : الكهنة وأتباعهم. فهي هنا بمثابة اسم عقيدة وليست، كما نقول : المصريون السوريون الفارسيون المغاربة..الخ، اسم جنس. ولذلك لا يجوز نعت سكان فارس اليوم، الذين تدين غالبيتهم بالإسلام ب "المجوس"[1]. إذ يجب أن لا ننسى أن آباء هؤلاء عندما دخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم، وقامت الكثير من علوم الإسلام الشرعية وغيرها على أكتافهم، إنما خرجوا من العقيدة الشركية المجوسية إلى عقيدة التوحيد الإسلامية وخدموها خير خدمة. فالمجوسية من هذه الحيثية عقيدة كالإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية..الخ. المجوس أتباع هذه الديانة لم يسموا أنفسهم بهذا الإسم، رغم فارسيته، وإنما عرب الحيرة، الذين كانوا مرتبطين بالساسانيين كحلفاء وأتباع، هم الذين سموهم قبل الإسلام بهذا الإسم : تسمية للديانة أو الملة باسم كهنوتها. فالمجوس إذن هم أتباع ديانة زرادشت، الذين جمعوا تعاليمه في كتاب "الأفستا". و"الأفستا" تعني الكتاب الأصلي. وكأصل!، فلم يجمع أو يكتب إلا بعد ثمانية قرون من وفاة زرادشت وشرعوا في تدوينها في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي ولم ينتهوا من ذلك إلا في القرن السابع الميلادي ، أي مواكبة لظهور الدعوة الإسلامية. ولذلك لا يمكن الجزم أن ما يرد بها يمكن نسبته إما إلى زرادشت وإما إلى الكهنوت الكتبة بأية درجة من اليقين!، على غرار ما حصل تماما مع التوراة، التي ضاعت أصولها من اليهود لتكتب بعد السبي البابلي من طرف الكاهن عزرا في عهد أرتحشتا (أرتكسركس) الثاني في القرن الرابع قبل الميلاد، بعد مرور ثمانية قرون على أحداثها بسيناء مصر، مما عرض الكثير منها إما إلى النسيان أو التحريف كما يصف القرآن.

فلا يمكن اعتبار إله الخير مقابلا لله وإله الشر مقابلا لإبليس، حتى يمكن القول بأن هذه الديانة تدخل ضمن ديانات التوحيد. بل على العكس، فالمجوسية شوك ثنوي بإلهين يتباريان على حلبة مسرح، الغلبة مرة لهذا والكرة مرة أخرى للآخر، في صراع أزلي لن ينتهي سوى في "أواخر الأيام" بالضربة القاضية من إله الخير!. ثم لا خالق ولا مخلوق في هذه الديانة. والمجوسية هي التي عناها القرآن بقوله[2] :

﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد، فإياي فارهبون ﴾

لا يعرف بالتحقيق متى وصلت الزرادشتية غرب إيران، إلا أن داريوس الأول الأخميني (522 ~ 485 ق.م) كان يعبد أهورمزدا كما أن أرسطو (382 ~ 322 ق.م) يشير إلى ثنوية أرتحشتا الثاني (404 ~ 358 ق.م) ونجد بهرام الأول (270 ~ 276 م) يسجن "ماني" ويقتله قربانا للزرادشتية.

وزرادشت ينتظر مخلصين للعالم هم كالصباح للأيام الجديدة، أي كالنور الذي يأتي بعد الظلمة، وتمنى أن يكون هو أحدهم. بعد موته انتشر الإيمان بقدوم " المخلص " وانتظره الناس أن يرجع، إن لم يكن بشخصه، فمن خلال أبنائه الثلاثة الذين سيولدون له لاحقا ويأتون على فترات ألف سنة تفصل بين كل واحد منهم، آخرهم هو "المخلص" (Astvat ereta) أو "العدل المجسد ". الذي سوف يملأ الأرض قسطا وعدلا في أيامه ما دام هو التجسيد الخالد للعدل!، كما ملئت ظلما وجورا أيام حكم الشر!. وفي الكتاب الفهلوي يسمى "المخلص" "ساوشيانس" (Saoshyans) . الزرادشتية من هذه الحيثية ديانة "عودانية" تقول بأن زرادشت افتتح الحقبة الرابعة الأخيرة للتاريخ المكونة من ثلاث

الأراضي الآشورية التي كانت قد استولت عليها دولة ميتاني سابقا. وورد في المدونات الآشورية أن الملك أداد نيراري الأول غزا بلاد ميتاني سنة 1300 ق.م وخرب عاصمتهم، كما ورد أن شلمنصر الأول الآشوري استولى على ميتاني سنة 1276 ق.م وضمها إلى الدولة الآشورية.

[1] كما حصل دعائيا أثناء الحرب العراقية الإيرانية.

[2] سورة النحل، الآية 51 .

ألف سنة لكل حقبة. وهي أيضا ديانة "ألفانية" لأنها تنتظر أن يأتي مخلصون في كل فترة ألف سنة من هذه الثلاث ألف سنة المتبقية لنهاية العالم. وتقول بأن البشر الأولون كان قوام تغذيتهم أولا على الماء، ثم على النبات، ثم على الحليب وأخيرأ على اللحم. والبشر في الألفيات المتأخرة سوف تنعكس تغذيتهم، لتقوم على اللحم أولا، ثم الحليب، ثم النبات وأخيرا على الماء، الذي سيظل زادهم الوحيد. ثم المقاتلون الأوائل سيوجد لهم في آخر الزمان محاربوهم، كما أن التنين الذي قتل لفك المياه المحجوزة الأولية سيظهر من جديد عند أواخر الأيام، ليقتله بطل جديد وينتصر الخير على الشر. الأشرار الذين سوف تلحق بهم الهزيمة في هذه المعركة النهائية، سيحرقون بنار وقطر ويدوم عذابهم ثلاثة أيام!. الشر المطلق : "أهرمن" سيذيب المعادن والجبال لتنساب كالأنهار محرقة للأشرار فقط، بينما تكون للأخيار بردا وسلاما وحلوة كالحليب. ثم يفنى إله الشر "أهرمن" في آخر المطاف أو يصير بدون حول ولا قوة. وبعدها يعم السلام السرمدي فوق الأرض التي تسطحت. كما لن يبقى للناس ظل لأنهم لا يذنبون!.

2-4-1- الخلاصية المانوية الملفقة

ظهر في عهد شابور الأول الساساني ماني (248 ~ 275 م)، الذي استحدث مذهبا مهجنا يجمع بين الزرادشتية والمسيحية. ولذلك فهو يجمع بين خلاصيات الاثنين بتخريج ملفق. فعنده أن آدم عندما ذاق من شجرة المعرفة، عرف مصيره فصرخ يقول : "الويل الويل وجسدي!" وقرر أن يكون آخر هذا النوع من المخلوقات، إلا أن "حواء" أغوته وولدت له "شيث"، الذي انحدرت منه كل الإنسانية المعذبة. وعلى هذا المسرح ظهر "المسيح المنقذ"، الذي استودع أرواح البشر للقمر. فالقمر عندما يبزغ منيرا يستقبل الأرواح، وعندما يأفل ويذهب نوره، فإنه يلقي بها في درب التبانة بالمجرة. وهذا أساس الغناء المانوي الذي مطلعه[1] :

أنت الإله والقمر الأكمل، يسوع المسيح

وعنده أن العالم سوف يحترق لمدة تصل إلى 1468 سنة!. هذا التلفيق استهوى الكثير من آباء الكنيسة المسيحية الأول. ويكفي أن نعلم أن القديس أغسطين (354 ~ 430 م) أحد أعلام الكنيسة كان من المتأثرين به، بحيث يظهر ذلك جليا في مؤلفه : "مدينة الله". وانتشرت أفكاره ليس فقط في منطقة الهلال الخصيب، بل وصلت إفريقيا الشمالية وأوروبا.

2-5- الخلاصية المسيحانية اليهودية

لا يمكن فك الارتباط ما بين الخلاصية اليهودية المؤسسة على كتب التوراة والخلفية الخلاصية الإيرانية، التي تأثر بها يهود السبي أثناء مكوثهم ومقامهم هناك. فاليهود أيضا يؤمنون بمخلص سياسي كملك لبني إسرائيل يأتي مباشرة، عقب فترة ملاحم وفتن سموها : "أواخر الأيام". أواخر الأيام هذه، هي بمثابة إغلاق لفترة النظام القديم، الذي سيبلغ فيه الشر أوجه وأعتى عنفوانه، حاملا مآسي كبرى للإنسانية وعذاب وأهوال للمختارين من بني إسرائيل. فعندما تظهر هذه العلامات ف "المسيح المخلص[2]" على أعقابها مباشرة ليقيم "ملكوت الله على الأرض"!.

---

[1] الطائفة النصيرية بسوريا مانوية المشرب في أصولها وطقوسها وعبادتها للقمر الملفق بيسوع.أنظر كتابنا : كيف تمت هندسة فيروس اسمه أدونيس؟.

[2] المسيح في القرآن اسم سماه الله به عندما بشر مريم به، بل سماه " عيسى" ونسبه إلى أمه كما يرد في سورة آل عمران ، الآية 45 : ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾. كما أن لقب "مسيح" الذي يستعمله اليهود (مشيح بالعبرية)، فمعناه عندهم الممسوح بزيت الزيتون المبارك وهي طقسية ترسيم وتنصيب عندهم. يرسم الكاهن بها كاهنا آخر، أو نبيا آخر بعده أو ينصبون بها ملكا من ملوكهم.فهي في طقسيتهم رمزا للرسامة والتنصيب في مهام النبوة والكهانة والملك. وصار لها استعمال مجازي في العبرية بمعنى "الصديق" . و"المسيح" عربية تقارب "مشيح" العبرية ـ الآرامية، لفتي عيسى عليه السلام لفظا فقط، وليس معنى. إذ المعنى المقصود أعجمي. وقد فسر القرآن الذي لا يعزب عنه الأولون والآخرون "المسيح" بمعنى المبارك، على لسان عيسى نفسه في سورة مريم، الآية 30 – 31 : ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾. وتسميته يوم البشرى به لمريم "مسيحا " تدل على أنه مسيح من الله، أي مبارك من عنده، لا يحتاج إلى مراسيم الكهان أو الملوك. ليمسحوه. والمسحاء في بني إسرائيل بالألوف.
ثم هو مخلص، مفعول به وليس مخلص فاعل. فقد خلصه الله من اليهود. ولذلك سماه القرآن "عيسى" على غير معهود اسمه العبراني " يشوع" الشائع في تسميات بني إسرائيل.على غرار فتى موسى يشوع بن نون، الذي أصله "يهوشوع" المكون من المقطعين (يهو = الله) + (شوع = سعة)، أي : سعة الله. ويرد في سفر العدد (13 : 8) { من قبيلة أفرايم هوشيع بن نون } الذي سيعيد موسى تسميته في سفر

انقسم اليهود ما قبل قدوم المسيح عليه السلام ثلاث فرق :

1) فريق الصدوقيين : وهؤلاء كيفوا حياتهم على حسب فلسفة أبيقور[1] القائلة :

فيما يخص الكفاية بالنسبة للطبيعة، فكل امتلاك غنى، ولكن بالنسبة للشهوات اللامتنهية، فكل غنى هو فقر[2] !.

لذلك فهم يبذلون قصارى جهدهم لتفادي القلاقل السياسية والفتن خوفا على مصالحهم المادية، ويتوجسون من فقدان امتيازاتهم. فهم يرفضون كل تقاليد شفوية خارج توراة موسى في الكتب الخمسة. وينكرون قيام الموتى.

2) فريق الفريسيين أو المنفصلين : هم فقهاء الشريعة، يتمسكون بتعاليم التوراة والتقاليد الموروثة ويرفضون تأثير الثقافة الأجنبية بقوة ويتحاشون الاتصال بالوثنيين. وعندهم أن "المخلص" كما ورد في شرح لهم لمزامير داود :

لذلك الجيل (في مصر) أرسلت نجاتك من خلال منقذين، كما ورد في مزامير (105 : 26) : } أرسل عبده موسى وهارون الذي ارتضى {. و كذلك هذا الجيل (أواخر الأيام) أرسل اثنين، يقابلان ذينك الاثنين : }أرسل نورك وحقيقتك{ مزامير (43 : 3). "نورك" يعني : النبي إيليا من بيت هارون.. و "حقيقتك" يعني: المسيح بن داود، كما ورد في مزامير (132 : 11) } أقسم الرب لداود بالحق، ولن يخلف وعده { وكذلك قيل في أشعيا (42 : 1) } أنظر عبدي الذي احتفظ به { مدراس التعاليم (43 :1). نبوءة عودة إيليا توجد في ملاخي[3] (4: 5– 6).

فالفارسيون من خلال قراءتهم التأويلية لهذه النصوص من سفري المزامير وأشعيا ينتظرون مخلصا شبيها بالنبي داود، أي ملك سياسي لمملكة الله الأرضية بملك كداود يسبقه النبي إلياس[4] يوطئ لقدومه.

3) فريق الإسينيين (المغتسلين) : هؤلاء كانوا يعيشون حياة زهد وتقشف في جماعات غربي البحر الميت، معتزلين للمجتمع ومنهمكين في دراسة التوراة ويرفضون المشاركة في التعبد بأورشليم المدنسة بكفرة الوثنيين الرومان الغير مختونين. تصوفهم فيه الكثير من الموروث المحلي القديم الذي توارثته المنطقة منذ

العدد (13 :16) { هذه أسماء الرجال الذين أرسلهم موسى للتجسس على الأرض. وسمى موسى هوشيع بن نون : يهوشوع }. ف "هوشيع" التي لم يرتضيها موسى لفتاه ـ تسمية بالمصدرية من "يشع" بعد تعديته بالعبرية بالهاء، التي تقابل التعدية بالعربية بالهمزة فتنقلب "يسع" إلى "إيساع"، أي خلاص ونجاة. فأراد موسى من إبدال اسم فتاه الإشارة إلى أن الله هو المخلص والمنجي، أي هو الفاعل. و "يشوع" المختصرة من "يهوشوع" لها نفس المعنى. ف "يشوع" عبريا : اسم المسيح عليه السلام : معناه : "الله مخلصك". وهي تسمية من الله على النبوءة وجاءت على معهود القرآن في الأسماء الأعجمية مشروحة في قوله تعالى في سورة آل عمران، الآية 55 : (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك (بمعنى مخلصك) ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا فاستيفاء الله لعيسى إنما كان على حاله حيا يرزق.، مادامو لم يقتلوه كما سوف تتباهى اليهود في سورة النساء، الآية 157 : (إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) ليرد عليهم القرآن (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه. ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه. وكان الله عزيزا حكيما). أنظر : رؤوف أبو سعدة، 1994 : من إعجاز القرآن، دار الهلال (2 :263)

[1] أبيقور (341 ~ 270 ق.م) ابن معلم من مدينة ساموس الإغريقية، ربما كان تلميذا للفيلسوف كسينوفان في أثينا. أنشأ هو بدوره مدرسة فلسفية اشتهرت باسمه في أثينا.نظريته في المعرفة تعتمد على الحسي والملموس. والأخلاق عنده تختزل إلى مبدأ اللذة كأساس للسعادة.

[2] أنظر : Usner,J.,1887 : Epicuria, trad Brun,J.,: Epicure et les Epicuriens. Coll. "Grands Textes. frag.202.

[3] النص هو { سوف أرسل لكم إيليا، النبي قبل أن يأتي اليوم الكبير المرعب وسوف يحول قلوب الآباء نحو أبنائهم وقلوب الأبناء نحو آبائهم، وإلا قدمت وضربت الأرض بلعنة }.

[4] النبي إلياس الوارد ذكره في القرآن في سورة الصافات، الآيات 123 – 130 : (وإن إلياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين.وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إل ياسين) هو إيليا الوارد في سفر الملوك الأول الفصل 17 وسفر الملوك الثاني الفصل عشرة.نبيا من أنبياء بني إسرائيل على عهد الملك آخاب الذي حكم مملكة إسرائيل في السامرة بعد إحدى وأربعين سنة من موت رحبعام بن سليمان. وآخاب عبد البعل وسجد له وأقام له مذبحا في السامرة كما في سفر ملوك أول (16 : 31 – 32) : { وعمل آخاب سواري وزاد آخاب في العمل لإغاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله} . وقد عرب القرآن "إيليا" العبرية على "إلياس" ناظرا إلى لفظها اليوناني الشائع عصر نزوله (Elias) أي بصورة المرفوع في تلك اللغة التي علامة التذكير عندهم إضافة السين. وأصله في العبرية (إيل + ي + يهو)، أي (إيلي يهوا) التي تعني إلهي الله أو الله ربي. وانظر إلى هذا الاشتقاق المفسر لاسمه في قوله تعالى السابق في سورة الصافات : الله ربكم ورب آبائكم الأولين. وبالتالي فالله ربه. ويرد في سفر الملوك الثاني (2: 1 – 25) أن إلياس رفعه الله إلى السماء أمام أعين النبي "اليسع". صلوات الله عليهما.

عهد بعيد، من جماعات الرخابيين[1] أو النازريين[2] أو القينيين، نسبة إلى مدينة قنا، الذين نشطوا في جوار بحر الجليل بداخل مناطق ائتلاف المدن العشرة، الإغريقية الساكنة في أغلبها، أوفي جليد وبسان وحوران والجولان باتجاه لبنان ودمشق. ثم الموروث الوافد إلى المنطقة مع حكم الفرس ثم حكم الإغريق، الممثل في كل من التعاليم الفيثاغورية[3] والزرادشتية. نظام حياتهم كله يقوم على الاكتفاء الذاتي. هذه الفرقة ظهرت قبل ميلاد المسيح بقرن ونصف القرن، ومثلث ظاهرة بارزة من الانبعاث اليهودي أيام حكم الأسرة المكابية التي تغلبت على السلوقيين الإغريق. وهم دون باقي الفرق، أخذوا بجد أمر إعداد الطريق إلى الرب، كما ورد في كتابهم "موجز التأديب" :

وعندما تحدث هذه الأشياء لجماعة إسرائيل، في هذه الأوقات المحددة، يجب عليهم أن يعتزلوا مساكنة الرجال الفاسدين ليرحلوا إلى البرية لإعداد الطريق هناك لذلك الذي كتب في حقه: "في الصحراء هيئوا الطريق للرب، وفي الصحراء عبدوا الطريق لإلهنا"، أشعيا (40 :3). هذه الطريق هي دراسة التوراة.. بحيث يكون العمل حسب ما ورد به الوحي مرة بعد مرة، وحسب ما

---

[1] الرخابيون طائفة دينية أسسها يونداب بن رخاب أيام حكم الملك يهو (842 ~ 815 ق.م) وهم يؤمنون بان حياة المدن في كنعان مكدرة لصفاء الإخلاص للرب. وبالتالي تركوا المدن وسكنوا البرية كبدو يعيشون حياة أهل الصحراء تحت الخيم كأهل وبر حرموا على أنفسهم شرب الخمر.. النبي يراميا أرسل إليهم.انظر سفر يراميا (35 :1 - 19).

[2] النازريون من فعل "نزر" المقابل للجذر الثلاثي العربي "نذر" كما في العربية بإبدال "الزاي" ب "الذال" كما في فعل "زكر" العبري المقابل للفعل العربي "ذكر". ومنه جاء اسم النبي "زكريا" (زكر) = ذكر + (يا) ، من (يلهو) = الله ، أي ذكر الله على معنى : الذي يذكر الله. وهو ما يفسر القرآن معناه الأعجمي، على عادته في العلم مع هذه الأسماء، التي لم تألفها العرب، كما جانس ذلك في سورة مريم ، الآيتين 1 – 3 : (كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداءا خفيا) أي أن الله يذكر برحمته ذاكر الله (زكريا). وينطق عبريا "زخريا"، وجاء في لسان العرب (5 :200) : النذر : النحب، وهو ما ينذره الإنسان فيجعله على نفسه نحبا واجبا. وجمعه نذور. وهو من قولك : نذرت، أنذر و أنذر نذرا على نفسي : أي أوجبت عليها.شيئا من عبادة أو صدقة أو غير ذلك. والنذيرة : ما يعطيه. والنذيرة : الابن يجعله أبواه قيما أو خادما للمعبد. ومنه ما جاء في التنزيل العزيز على لسان أم مريم، امرأة عمران في سورة آل عمران، الآية 35 (إذ قالت امرأة عمران : ربي إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) ومثله على لسان أم مريم عليهما السلام في سورة مريم الآية 26 : (فكلي واشربي وقري عينا. فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا). والنازري عند بني إسرائيل هو الذي أخذ على نفسه نذرا بعزل نفسه عن الناس إخلاصا واعتكافا لله. فهو يمتنع عن أكل الفواكه واحتساء الخمرة أو الخل أو أي شراب قوي ولا يحلق شعره ولا يقرب جسد ميت ولو كان لأبويه طالما هو في مدة نذره.. وكل ما يخصه مسطر في سفر العدد (6 : 1 -21).

[3] نسبة إلى فيثاغورث الساموسي حوالي القرن السادس ما بين (572 ق.م ~ 497 ق.م). كان معاصرا للطاغية " بوليكراتس، الذي قتله الفرس سنة 523 ق.م. معرفته الشرقية جاءته من مصدرين. أولا : زيارته للشرق وتعرفه على العديد من رجالات الدين، لا سيما المصريين، الذين أعجب بمعرفتهم إلى الحد الذي اعتبر الكثير من المؤرخين أنه مدين لهم في الرياضيات. ويكفي أن تعلم أن القانون المنسوب إلى فيثاغورس في المثلث القائم الزاوية كان معروفا لدى المصريين والبابليين لقرون.. وما يعزز هذا هو تحالف الطاغية بوليكراتس مع أمازيس (568 ~ 536 ق.م) فرعون مصر في الفترة ذاتها، والذي اشتهر كسائر فراعنة هذه الأسرة البساميتية، أي الأسرة السادسة والعشرين بالاستعانة بالمرتزقة الإغريق.. وسوف ينتصر قمبيز الفارسي على تحالف مكون من الإغريق والمصريين في سيناء في معركة فيلوسا، حيث سينتحر آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين بساميتي الثالث، ليبدأ حكم الفرس ممثلا في قمبيز كفرعون أول في الأسرة السابعة والعشرين. وهو سنة 525 ق.م. ثانيا : تعرف على بعض الأطباء الذين كانوا في حاشية بعض ملوك الفرس. فمعرفته من هذه الناحية شرقية بالجملة. وهو واضع كلمة "فلسفة" معتبرا أن الإنسان لا يمكن أن يكون حكيما، إذ الحكمة " سوفيا" لا تنسب سوى للإله. أما الإنسان فلا يمكن أن يتسمى بها ، وإنما يمكن نعته فقط بأنه محب للحكمة أي فيلو (محب) + سوفيا (حكمة) = فيلسوفا. وفيثاغورس أنشأ مدرسته في مدينة كروتون الإيطالية سنة 530 ق.م، ينتظم بها الطلاب تنظيما سياسيا ودينيا وفلسفيا. كامتداد للطقوس الأورفية التي كانت تزخر بها حياة الإغريق. وتعاليم المعلم لا تدرك سوى بالانتظام والتدرج في المعرفة على شكل حلقات يلجها المريد بعد أن يكون قد نجح في اجتياز المراحل السابقة. وهي أساس كل الطرقيات اللاحقة في التاريخ الشرقي. ومن قواعدهم، التي سوف تستمر بعدهم : امتناعهم عن أكل اللحوم، وذلك لتناسخ الأرواح في اعتقادهم. لكي لا يأكلوا إنسانا متحولا في ذلك الحيوان. وهو مشترك مع الهنود. وروي فورفوريوس الصوري (233 ~ 304 م رواية تقول بأن فيثاغورس رأى كلبا معذبا وأنه عاين روح صديق له فيه يعذب!. وامتنع الفيثاغورسيون من الزواج سابقين رهبنة مصر بكثير. كما لبسوا زيا أبيض موحدا. وساروا حفاة لا ينتعلون. ويذكر المؤرخون اشتغال الفيثاغورسيين بالسياسة حين احتجوا على الفساد الأخلاقي السائد في مدينة كروتون وقادها صهر فيثاغورس وقتل فيها أزيد من ثلاثمائة من الشبان أتباعه. وأله الفيثاغورسيون "أبولو" وعبدوه، بينما ألهت الأورفية الإغريقية " ديونيزوس". ثم تدرج الأتباع إلى اعتباره إلها كما نقل ذلك ديوجين اللايرتي (412 ~ 323 ق.م). وعده أريستوكسين من أتباع زرادشت، بل هو في رأيه أحد الأنبياء!. و طورت الفيثاغورسية فكرة للخلاص تتمحور على غرار الأورفيات بالتطهر من الشق الدنيوي في الإنسان ، الذي يمثله الجسد والعمل على الارتباط بالجزء الإلهي. وهذا أساس الأفلاطونية المحدثة التي سوف تنتشر في مصر لاحقا وأساس كل الطرق العرفانية والصوفية والغنوصية، التي ستجعل من التأمل طريق الخلاص الوحيد..

أوحي للأنبياء بواسطة روح قدسه.

فهم مقتنعون باقتراب "أواخر الأيام" وظهور المخلص "المسيح بن داود " الذي سيعيد إقامة ملكوت الله، الذي تحدثت به أسفار أشعيا ودانيال وأخنوخ (النبي إدريس[1]). فهم أبناء الساعة الحادية عشرة، وكل شيء، كما تنبأت به الأنبياء سوف يحدث بعد ساعة فقط، الساعة الأخيرة. لقد استقرءوا أوصافه كلها. وعندما يحضر، لن يصعب عليهم التعرف عليه. فهو الذي وصفه أشعيا[2] :

لكن باستقامة سيحاكم الفقير ويقضي بالقسط للضعيف. وسيضرب الأرض بقضيب فمه، وبنفس شفتيه سيقتل الأشرار.

فسيف المسيح المزدوج الصفيحتين، ليس ماديا ولكن سلاح العدل والاستقامة. ثم قرءوا في مزامير سليمان[3]:

وملك مستقيم علمه الرب هو الذي يحكمهم، ولن يكون ظلم في وسطهم، لأنهم كلهم سيكونون مقدسين وملكهم هو السيد المسيح. لأنه لن يضع ثقته في الجياد والفرسان والسهام، ولن يكدس لنفسه الذهب والفضة للحرب، ولا بالسفن سوف يجمع الثقة ليوم المعركة..لأنه سوف يضرب الأرض بكلمة من فيه عادلة إلى الأبد..هو نفسه بريئ من كل ذنب، لكي يحكم أمة قوية ويؤنب الأمراء ويطيح بالمذنبين بقوة كلمته. ولن يضعف في كل أيامه، لأنه يعتمد على إلهه.: لأن الله سوف يجعله قويا من خلال الروح القدس، وحكيما من خلال مجمع الفهم، بقوة واستقامة.

فالمسيح بن داود، الذي سوف يأتي سيكون مقدسا وعادلا. لذلك سماه المغتسلون " مسيح الاستقامة"، الذي يحيا بالرب ويخضع لمشيئته. وكلمته وحدها كافية لقهر الأعداء وإزاحتهم من طريقه. ولبلوغ هذا الهدف من إقامة مملكة العدل والاستقامة، توجب على شعب بني إسرائيل أن يتحول مسبقا إلى مملكة عباد وإلى أمة من الأولياء. فإذا كان للشعب أن يتحول، فكم بالحري ينتظر الناس من المسيح القادم أن يكون، إن لم يكن قد عرفوه بكل أوصافه[4] :

لقد أحببت الاستقامة و كرهت الشر، ولهذا فالله ربك مسحك بزيت السعادة فوق أصحابك.

وأيضا[5] :

ثم قلت : رباه أنا قادم؛ في لفيفة الكتاب، كتبت عني: أسعد لعمل مشيئتك، يا إلهي؛ شريعتك بداخل قلبي.

فهذه صورة المسيح الذي كانوا ينتظرونه والذي قيل في حقه[6] :

سوف يجمع شعبا قديسا، يقوده إلى الاستقامة: وسوف يحكم لقبائل الشعب التي زكيت من طرف الرب، إلهه. ولن يصبر على الظلم أن يسكن في وسطهم. ولا لأحد ممن عرف الشر بمجاورتهم. لأنه ستكون له معرفة بهم، ليصيروا كلهم أبناء الله، وسوف يوزعهم في الأرض حسب قبائلهم..سوف يحكم الأمم والشعوب بحكمة استقامته.

تتحدث وثيقة دمشق التي اكتشفت في قمران عن بداية تكوين "الجماعة" وكيف كان التوابون يخرجون من أرض يهوذا ويستقرون في جوار دمشق. هنا يدخلون في" العهد الجديد" الذي تكلم عليه النبي يراميا[7]، بأن يبتعدوا

---

[1] اكتشفت كتب هذه الفرقة سنة 1947 من طرف راعيين كانا يرعيان مواشيهما في السفوح الشمالية الغربية المحاذية للبحر الميت، في المنطقة المعروفة ب "خربة قمران". وفي أبريل (نيسان) من عام 1948 أعلنت المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية في القدس عن ذلك الاكتشاف. ثم تتابعت الاكتشافات سنة 1948 ، و 1952 و 1956 . والجرد الأول لتلك المخطوطات أظهر نسخ للعهد القديم وتفسيرات لها وأجزاء حول سفر أيوب وجميع الكتب اليهودية ووثائق غير معروفة. مثل : " موجز التاديب" و "حرب أبناء النور مع أبناء الظلام" و " شرح لسفر حبقوق" و " وثيقة دمشق" وغيرها. وقد أبانت لأول مرة على دليل خارجي لنوع البينة التي عاش فيها المسيح ويحيى عليهما السلام وأثار الاكتشاف ردود فعل متباينة حتى أن أحد المحققين لتلك النصوص، وهو جي إم.أليجروا صرح قائلا :
{ لقد خف الحماس الذي قوبلت به المخطوطات عند اكتشافها، بما أن قدرتها على التقليل من فرادة وأصالة المسيحية قد تجلت للمسيحيين والعلماء والأشخاص العاديين. }. أنظر : جيمس بنتلي : اكتشاف الكتاب المقدس، قيامة المسيح في سيناء ص.151 .

[2] سفر أشعيا (11 : 4).

[3] مزامير سليمان (17 : 28 – 31).
Rhyle,H.E., and James, M.,R., 1891: "Psalms of Solomon" Cambridge.

[4] سفر أشعيا (45 : 7)

[5] سفر أشعيا (40 : 7 – 8).

[6] مزامير سليمان (17 : 28 – 31).

[7] سفر يراميا (23 : 1 – 8)

عن كل انحراف. فلا يسرقون الضعيف والأرملة واليتيم. وللتميز بين الطاهر والمدنس، والمقدس والدنيوي واحترام السبت ويوم الشكر، وأن يحب الآخرين في الجماعة كإخوته وأن يعتني بالفقير والمحتاج وعابر السبيل. فهؤلاء المختارين لتجاوز محنة أواخر الأيام، نظروا لأنفسهم وكأنهم يقدمون نوعا من الفدية بتحملهم لهذا النوع من الحياة. ونجد ذلك واضحا في رؤساء مجالسهم التي تحدد " قواعد الجماعة" ويسمونها أيضا "موجز التأديب". هذه مواصفتهم[1] :

يجب أن يحافظوا على الإيمان في الأرض بصبر وتواضع، وأن يكفروا عن الذنب بتطبيق العدل وأن يتحملوا أحزان المصائب.. ويجب أن يكونوا خير من يقدم الهدي، مكفرين عن الأرض ومقدرين لحكم الشر، وأن يقطعوا دابر الظلم.

إذن ف "المسيح"، لدى الفرقاء الثلاثة، من خلال مرجعية العهد القديم، سواء أنظر إليه كذلك النبي الشبيه بموسى لدى الصدوقيين أو كملك سياسي من سلالة داود كما هو منظور الفارسيين، يسبقه ممهد للطريق في صفة النبي "إلياس". أو يجمع بين النبوة والملك كما عند المغتسلين، مع كون مقامه النبوي فوق مقامه الملكي أو كما يبشر بعضهم بإعادة نموذج موسى وهارون[2] :

والآن يا أبنائي، أطيعوا لاوي ويهوذا، ولا تتمردوا على هاتين القبيلتين، لأن من بينهما سيبزغ عليكم خلاص الله. لأن الله سوف يرفع من لاوي كما لو كان كاهنا كبيرا، ومن يهوذا كما لو كان ملكا. ليخلص كل عرق إسرائيل.

حسب الأحبار اليهود المهتمين أو الذين شغلوا أنفسهم، بهذه النبوءة، فإن مدة "أواخر الأيام" أي الفترة الزمنية التي سوف تستغرقها، لا يمكن التكهن بها. إلا أن بدايتها أو أشراطها يمكن التوقع بها بشيء من التقريب!. لأجل هذا نجدهم يتخرصون الأمر ويتجشمون التفسيرات والتأويلات لنصوص التوراة سالكين مذاهب شتى!. فبعضهم اعتمد حساب الجمل[3] الذي لا أساس منطقي له، إلا ما يقول به سحرة الغبار!. وبعضهم الأخر تأول الإشارات الواردة في سفر النبي دانيال[4] في توقعه بالسبعين أسبوعا[5]، التي فسروها، بدون مسوغ معقول!، أنها تعني سبعين أسبوعا من

---

[1] أنظر: Vermes,G., 1962: The Dead Sea Scrolls in English, The cmmunity Rule , VIII, Penguin Books

[2] إنجيل الحواريين الإثنى عشر : إنجيل سمعان (7: 1 – 2) في :
Testaments of the XII Patriarchs,transl. By R. ,H., Charles,Adam .1908 (London).

[3] يقوم أساس هذا الحساب على مقابلة حروف الأبجدية بأرقام من الحساب فيقابل (ا، ب، ج، ، د، هـ، و، ز، ح، ط،) الأعداد (1، 2، 3، 4، 5، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ،) ثم الحروف (ي ، ك، ل، م، ن، س، ع، ف، ص،) لأعداد العشرات (10، 20 ، 30 ،..إلى 90)، ثم الحروف (ق، ر، ش، ت، ث، خ، ذ، ض، ظ، غ) لأعداد المئات (100 ، 200 ، 300 ،..إلى 1000). فهكذا مثلا نجد أن اسم آدم = 1 للألف + 4 للدال + 40 للميم = 45 للمجموع حسب ترتيب الحروف في لأبجدية المشرقية. بينما نجد حسب ترتيب حروف الهجاء لدى المغاربة يختلف فمثلا قيمة الحرف (س) هي 60 في العد الشرقي بينما هي 300 في العد المغربي وكذلك (ش) عده الشرقي 300 ومقابله المغربي 100 . و(ص) عده 90 في الشرقي و 60 في المغربي، و (ض) عده 800 في المشرقي و 90 في المغربي..الخ. فما بالك في الأبجديات الأممية الأخرى. وهذا الحساب يستعمله المتصوفة وأصحاب الغنوص. بل نجد ابن العربي الحاتمي يؤلف كتابه "فصوص الحكم" على أسرار هذه الترهات. وانظر هذا الهوس مشروحا عند مخرف مغربي هو عبد الباقي مفتاح في كتاب : "مفاتيح فصوص الحكم لابن عربي". دار القبة الزرقاء للنشر. مراكش، المغرب.

[4] المؤلف عاش في فترة أنطيوخوس الرابع (إبيفان) (175 ~ 164 ق.م) السلوقي الذي دخل أورشليم (القدس) وهدم هيكل بني إسرائيل بها ونهب خزائنه واضطهد اليهود وحاول إجبارهم على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية الإغريقية بالقوة.، حتى قامت ثورة قادتها العائلة اليهودية الهشمونية بزعامة الكاهن متاثيوس، التي دشنت حكم هذه الأسرة التي عرفت أيضا ب "المكابية" وامتد حكمها 130 سنة (167 ~ 37 ق.م). المؤلف يحاول مواساة إخوانه اليهود أثناء هذه الفترة بقص ستة قصص حدثت وقائعها أثناء السبي البابلي، قبل وبعد انتصار الفرس بقيادة قورش الكبير على الدولة الكلدانية واستيلائه على بابل وإذنه لمن يشاء من اليهود ان يعودوا إلى ديارهم بعد أن أمضوا في السبي مدة 47 سنة (586 ~ 539 ق.م) ليبين كيف استطاع إيمان اليهود أن يتغلب على تلك المحن. ثم بعدها يبدأ في سرد أربعة رؤيا يحاول تفسير التاريخ ووقائعه بها ويتوقع بنهاية الظلم وانتصار "الأولياء". هذا الكتاب ألفه صاحبه باللغة الآرامية، لغة الشرق كله آنذاك.. ولا زالت فصوله الإثنى عشرة توجد منها 7 فصول بالآرامية فقط والباقي بالعبرية.

[5] النبوءة في سفر دانيال (9: 1 – 2) : { في السنة الأولى لداريوس، ابن أهاسويروس الميدي المولد والذي صار ملكا على الكلدان. – في السنة الأولى من حكمه، أنا، دانيال أدركت من الكتب، أن عدد السنين، التي حسب كلام الرب ليراميا، النبي ، يجب أن تمضي قبل النهاية لخراب أورشليم، هي سبعون سنة}.
النبوءة المشار إليها هي في سفر يراميا (25 : 11) : { كل هذه الأرض سوف تتحول إلى خرائب وقفار وهذه الأمم سوف تخدم ملك بابل سبعين سنة. ثم بعد تمام السبعين سنة ساعاقب ملك بابل وتلك الأمة، الأرض الكلدانية لظلمهم، يقول الرب، جاعلا من أرضهم قفرا أبديا }.

السنين!؟. وكأن رؤيا دانيال إنما هي للتلغيز حتى في الحساب، ليصلوا إلى أن المدة التي يجب أن تنقضي هي 490 سنة منذ أن صدر مرسوم سنة 538 ق.م لقورش الكبير الأخميني (559 ~ 530 ق.م) لليهود بالعودة من بابل إلى فلسطين وبناء الهيكل بقيادة شيشبزار[1].

فبالنسبة لمن أولوا النبوءة هذا التأويل، ينتظر أن تبدأ مرحلة مخاض "أواخر الأيام" بعد مرور 490 سنة بدءا من سنة 538 ق.م، أي في سنة (538– 490) = 48 ق.م . ولذلك، فعندما سقطت الدولة الهشمونية اليهودية سنة 37 ق.م بعد حكم دام 130 سنة (167 ق.م ~ 37 ق.م) وعين هيرودس الكبير الأدومي (37 ق.م ~ 4 ق.م) ملكا على يهوذا بقرار من مجلس شيوخ روما السنة ذاتها، أمكن القول، حسب هذه النبوءة بهذا النوع من التأويل، أننا فعلا داخل الفترة بعشر سنين على الأقل. وهكذا يفسر لماذا طغى الترقب الخلاصي في هذه الفترة بين اليهود، بينما لم يدع أحد أنه المسيح قبلها. المسيح نفسه عليه السلام لن يولد إلا مع نهاية حكم هيرودس، أي سنة 4 ق.م[2].

كره اليهود كل شيء في عصر هيرودس. كرهوا خضوعه للرومان، الذي أملته عليه سياسة الواقع، الذي يتطلب احتكار الخيانة، حتى لا يأخذ مكانه خائن آخر أكبر أو أجرأ منه!. وهي مهنة لا زال يبرع فيها حكام الشرق قاطبة، وليس اليهود وحدهم، لا القدماء كما مر ولا المعاصرين في دولة إسرائيل. إذ عندما ينقطع عليهم جميعا حبل الله لفسقهم وجورهم وعتوهم، لا يبقى لهم من متمسك سوى بحبل الناس. والناس من غلب وتغلب!. فمن ولاته لمركوس أنطونيوس (82 ~ 30 ق.م) لما كانت الحظوة له، تحول إلى موالاة أوكتافيان أغسطس (63 ~ 14 ق.م) لما آلت إليه الأمور ودالت غلابة على مركوس. ثم كرهوا ثانية نمط حياته الهلنستية وتحمسه لنشر الثقافة اليونانية والرومانية الوثنية المشركة، التي لا تثير في نفوسهم سوى التقزز والاشمئزاز، كما يشعر المسلم المعاصر ذات الشعور إزاء بعض هذه النماذج الجاهلية في عصرنا. ثم كرهوا أخيرا فسوقه وقسوته ووحشيته ودمويته وغطرسته. فهو زيادة على تعقبه لورثة العرش المكابي وقتله لهم بدون رحمة ولا شفقة، الواحد تلو الآخر، أقدم أيضا على قتل هيرقانوس الثاني، الذي جمع بين الملك والكهانة الكبرى، وهو شيخ كبير. ثم زوجته مريمني، الأميرة الهشمونية، ثم أمها ألكسندرا إلى أن أفضت به شكوكه وهواجسه إلى قتل أولاده!. ورأى الناس في الزلزال الذي ضرب يهوذا في العام السابع من حكمه والقحط المستمر وطاعون سنة 24 ق.م، إرهاصات لا تخطئ لتكرارية أيام الخروج من مصر. ورن في آذان الكثير من المؤمنين خطاب موسى لآبائهم في برية سيناء[1] :

أنا أعرف تمردكم..هو ذا أنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب. فكم بالحرى بعد موتي؟..لأنني عارف أنكم تعودون تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام.

المؤشرات إذن، لمن يقرأها على مسرح الأحداث، كلها تشير إلى نبوءة "أواخر الأيام" !. وعندما توفي هيرودس في سنة 4 ق.م، تنفس الناس الصعداء، وكأن حملا ثقيلا انزاح من على كاهل صدورهم، وخيم توجس حذر ما لبث أن ألقى بجرانه على كل البلد. ثم عم الآفاق ترقب كذلك الذي يسبق حدوث الزلزال أو ينذر بقدوم العاصفة. وفي لحظة أشبه بلمح البصر، عمت الفوضى كل شيء بعد ذلك. وظهر وكأن أبواب جهنم فتحت على كل الشرور!. جنود

ويراميا بدأت نبوته سنة 627 ق.م وامتدت إلى ما بعد سنة 580 ق.م. ربما في مصر. فهو عاش بعد قرن من إزالة تجلات بلاسر الثالث ملك أشور لإسرائيل وسبي أهلها إلى أشور سنة 731 ق.م. وهاهو يشاهد نبوخذنصر ملك الكلدان يسبي يهوذا هذه المرة سنة 597 ق.م ثم يعيد الكرة بعد عشر سنين ويسبيهم السبي الثاني إلى بابل سنة 586 ق.م ليظلوا هناك لمدة 47 سنة (586 ~ 539 ق.م)، بعد أن قضى قورش الكبير الأخميني على دولة الكلدان بفتحه لبابل سنة 539 ق.م. ثم إذنه لمن شاء من بني يهوذا أن يعود إلى موطنه وبناء الهيكل من جديد. فالنبوءة تتوقع بسبعين سنة من السبي، بينما هي هنا 47 سنة فقط. والنسختين العبرية والإغريقية السبعينية لسفر يراميا تختلفان مضمونا وترتيبا. ثم الكتاب ذاته أعيد ترتيبه من طرف أحد الكتبة ربما ما بعد سنة 560 ق.م. ومن هنا فإن تأويل السبعين سنة إلى 490 سنة باعتبار كل سنة في النبوءة هي عبارة عن أسبوع من السنوات، لهو تخريج أقل ما يقال عنه إنه مظلم!

[1] نص المرسوم ورد في سفر عزرا (عزير) (1 : 2 - 4) : { هذا ما قاله قورش ملك فارس: الرب إله السماء ملكني كل ممالك العالم وأمرني ببناء بيت للرب في أورشليم من أرض يهوذا. كل من كان من بينكم من جموع شعبه، ليكن ربه معه، وليذهب إلى أورشليم، التي في يهوذا، وليعيد بناء بيت الرب، إله إسرائيل – هو الرب الذي في أورشليم. وليساعد رجال كل محلة بالفضة والذهب والمتاع والحيوان أي متبق على قيد الحياة، في أي مكان أقام به ، إلى جانب الهبات الحرة لبيت الرب، الذي في أورشليم }.

[2] التقويم المسيحي حسبه الأباتي ديونيزيوس إغزيغوس الرومي حوالي سنة 525 م الذي أخطأ بخمس سنين في روزنامته هذه. مما يجعل المسيح يرى النور إما في السنة الخامسة أو الرابعة قبل هذا التقويم. لأن المصادر تقول بأنه ولد قبل موت هيرودس الكبير.

تأخرت عنهم ماهيتهم ينتهبون كل شيء. قطاع طرق يسلبون الناس ما عندهم بأدنى الذرائع. ثوار ينصّبون أنفسهم ملوكاً منادين بالاستقلال عن روما وإقامة حكومة الرب. دعاة يفسرون الواقع تفسيرات شتى ويعدون العدة في الصحراء لتعبيد الطريق لأمير العدل والاستقامة. وكتب المؤرخ اليهودي يوسفوس فلافيوس الذي عايش الفترة ومخاضها[2] :

وهكذا انتشرت عاصفة هوجاء في كل البلد، لأنهم بفقدانهم لملك يحملهم على النظام، ثم بسبب أولئك الأجانب (الرومان) الذين استقدموا، بنية إرجاع الأمور إلى نصابها، فلم يزيدوها سوى اشتعالاً بالجراح التي يوقعونها بالناس وسوء إدارتهم لشؤونهم.

انتقام الرومان من اليهود بلغت حصيلته آلاف القتلى في كل البلد. وفي مدينة القدس وحدها صلب ألفان وعلقوا على مشارف المدينة عبرة لمن اعتبر!. لقد كثر الهرج والمرج ليس فقط في فلسطين، مسرح تحقق النبوءة، ولكن امتد ليعم العالم. وهنا لا بد ل "المخلص المنتظر" أن يكون على الأبواب!. خصوصاً وأن شاعر العصر الأغسطسي، فرجيل (70 ~ 19 ق.م) يتفق مع هذه الصورة القاتمة والملحمية للعصر[3] :

لأن الصواب والخطأ اختلطا، كثرت حروب العالم
للشر عدة وجوه وللمحراث قلة شرف. يؤخذ الزارع وتترك الحقول بدون عناية
والمنجل المحدب ضرب إلى سيف لا ينتج شيئا
إله الحرب الشرير يخبط خبط عشواء في كل أرجاء العالم

3- كيف استمرت الأسطورة ؟

جاء عيسى عليه السلام، وأعلن بعض اليهود أنه المسيح فاتبعوه، إلا أن غالبيتهم رفضته كما يقص القرآن[4]:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله. قال الحواريون نحن أنصار الله. فآمنت طائفة من بني إسرائيل و كفرت طائفة. فأيدنا الذين ءامنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.﴾

فإذا كان عيسى قد جاء و "خلّص" من كيد بني إسرائيل ورفع، ولم تقم قيامة " أواخر الأيام "، فلم جاء إذن؟. القرآن يقول إنما جاء كنبي آية لبني إسرائيل وللبشارة بالذي يأتي من بعده، حِمْدة الأمم، أي : "أحمد" بالعربية، كما بشر بذلك موسى ونبي السبي البابلي حجاي[5] والمسيح عيسى[6] كما جاء في القرآن[1] :

---

[1] سفر التثنية (31 : 27 ~ 30)

[2] Josephus,F: Antiquities of the Jews, Loeb Classical Library, Harvard Univ. Press.Mass.(xvii, x, 5):

[3] Georgics ,I, 505 – 511, translated by C. Day Lewis ,Oxford University Press, New York, Inc.-----

[4] سورة الصف، الآية 14 .

[5] سفر حجاي (2: 7) { ويا حِمدة كل هجويم } في حجاي العبري، وهي حرفيا تعني "حِمْدة كل الأمم" إلا أن الترجمات تؤديها بمعنى: "مشتهى كل الأمم!" على عكس تلقائية دلالاتها العبرية التي تجد الصدى المباشر لها في اللغة العربية القريبة منها معنى وأداء. ويتابع المترجمون المسيحيون العرب، الغربيين في ترجمتهم، دون تمعن ولا أصالة ولا نزاهة لطمس معنى "الحمد" في النبوءة. وما كان القرآن ليحتج عليهم بغير ما بأيديهم. لذلك توجب أن ينفر بعض المسلمين الدعاة، قياما بفرض العين، للتخصص في العبرية والآرامية والإغريقية ولغات الشرق القديمة، لإثبات ما أثبته القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وليرد أباطيل هؤلاء المبطلين.

[6] يوحنا (16 : 4 – 15) : { لقد قلت لكم كل هذا لمنعكم من السقوط. سوف يخرجونكم من البيع، بل سوف تأتي ساعة، سيظن كل من يقتلكم أنه يقوم بتقديم قربان للرب. وسيقومون بهذا لأنهم لم يعرفوا الرب ولا عرفوني. ولكني قلت لكم هذه الأشياء، حتى إذا جاءت الساعة تذكرتم أنني أعلمتكم بها. لم أقل لكم هذه الأشياء منذ البداية لأنني كنت معكم. ولكني الآن ذاهب إلى من أرسلني. ولم يسألني أحد منكم بعد : إلى أين أنا ذاهب؟. ولكن بما أنني قلت لكم هذه الأشياء، سوف يملأ الحزن قلوبكم. ومهما يكن فإني أقول لكم الحق. إنه لفي صالحكم أن أذهب. لأنني إن لم أذهب، لن يأتي "الفرقليط". ولكن إن ذهبت أرسلته لكم.. وعندما يأتي، فسوف يقنع العالم فيما يخص الخطيئة والاستقامة والحساب. أما يخص الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي. وفيما يخص الاستقامة لأنني ذاهب إلى الرب ولن تروني بعد ذلك. فيما يخص الحساب، لأن حاكم هذا العالم سيحاكم. لدي الكثير مما أريد أن أقوله لكم. ولكن لا تستطيعون أن تتحملوه الآن. عندما يأتي روح الحق، سيقودكم إلى كل الحق، لأنه لن يتكلم من تلقاء نفسه، ولكن ما سمع سوف يقول وسوف يصرح لكم بالأشياء القادمة. سوف يمجدني، لأنه سوف يأخذ ما هو لي ليصارحكم به. كل ما للرب هو لي، لذلك قلت : سيأخذ ما هو لي ويصارحكم به. }
لا تنطبق هذه البشارة سوى على النبي الأمي حِمْدة الأمم ، "أحمد"، المبشر به في التوراة بالشبيه بموسى، والذي وصف هناك بأنه أيضا لا يتكلم من تلقاء نفسه وإنما كلما سمع يقول. والذي توعد الرب فيه بني إسرائيل أن من لم يتبعه منهم وينصره ينتقم منه الرب. كلمة

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات. قالوا هذا سحر مبين.﴾

بل يقص القرآن أن يهود يثرب كانوا يستنصرون في حروبهم بمقدم النبي الموعود في التوراة، الشبيه بموسى[2]. ومع ذلك ما أن ظهر وعرفوه حتى كفروا به[3]!.

﴿ وقالوا قلوبنا غلف. بل لعنهم الله بكفرهم فقليل ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. فلعنة الله على الكافرين ﴾

من خلال هذه النصوص والوقائع نلحظ الآتي :

النصارى والمسلمون يؤمنون أن المسيح قد جاء، واليهود لا زالوا ينتظرون قدومه!.

المسلمون يؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم، هو ذلك النبي الموعود زمن موسى وهو خاتم الأنبياء ولا نبي بعده. واليهود والنصارى لا يؤمنون بذلك!.

النصارى بعد عدم تحقق القيامة في عهد المسيح، طوروا كتاباتهم للقول بأن عيسى سيعود مرة ثانية وعندها تقوم قيامة "أواخر الأيام"!. وإذن يلتقون مع اليهود في انتظاره! : اليهود لأول مرة والنصارى للمرة الثانية!.

القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لم يرد فيه تصريح مباشر بقدوم المسيح ثانية، ولكن ورد فيه بخصوص عيسى عليه السلام[4] :

﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾

وما دام الخلاف بهذه الدرجة، فلا يبقى سوى الاحتكام إلى الأصول. والقرآن كما مر بك يصدق بعض ما في التوراة والإنجيل ويكذب بعضه الآخر مدعيا عليهما إما التحريف وإما الحبك والاختلاق. وقد تبين أن ما عارض القرآن شيء إلا وكان القول قول القرآن. حجة مطردة على كر الدهور والعصور، ثم هو وحده الذي سلم من التحريف بشهادته الداخلية من خلال نصوصه ومنطوقاته، التي هي دوما على محك التصديق. هذا زيادة على كون دعوى القرآن، بطروء التحريف على العهدين القديم والجديد، صارت أمرا مسلما من طرف كل ذوي الاختصاص، بل ومن الكنيسة نفسها في

"فرقليط" الموجودة في الأناجيل اليونانية، كلمة جديدة لم تعرفها اليونانية من قبل عصر المسيح عليه السلام.وحارت الترجمات إلى اللغات المختلفة في معناها، أهي : المعزي أم المحامي أم الناصر أم الشفيع ؟. والأصل هو أن يبحث عن معناها في لغة المسيح عليه السلام، اي العبرانية أو الآرامية أخوات اللغة العربية. ف "فرقليط" في كلتي اللغتين العبرية والآرامية مكونة من شقين. الشق الأول : "فرق" هو جذر آرامي عبري بمعنى : حط عنه ووضع. أو هو من أصل "برق" بباء أعجمية (P) وينطق "بارق" زنة الفاعل من "برق" آراميا. ومعناه : الحاط الواضع الكاشف. الشق الثاني "ليط" جذر عبري - آرامي من "لاط" "يلوط" بمعنى ستره وغطاه وحجبه. أو بمعنى "لزق" و "علق". وهما قريبتان من الجذر العربي لاط يلوط ولط يلط، بمعنى ستره ,أخفاه. فيكون مركب " فرقليط" (فرق + ليط) أو (بارق لايط) بمعنى: كاشف الحجاب أو واضع الذنب والإصر. لينطبق على ما عهد في القرآن من وصف للكلمات الأعجمية المستعملة عند أهلها حسب ما تؤديه معنى لا لفظا لتتحقق بذلك مقولة القرآن في تحديه لأهل الكتاب بما لم يعلموه وهو موجود بكتبهم التي بين أيديهم. والتي يفسرونها حسب عقائدهم الطارئة لا على حسب لغة أهلها ومعهودهم. فيحق عليهم ما حق على أسلافهم من اتهام القرآن لهم بتحريف الكلم عن مواضعه. وهكذا تقرأ في سورة الأعراف، الآية 157 :

﴿ الذين يتبعون الرسول، النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.﴾

[1] سورة الصف، الآية 6 .

[2] سفر التثنية (18 : 18) { وسوف أقيم لهم (بني إسرائيل) نبيا مثلك (مثل موسى) من بين إخوتهم..الخ }

[3] سورة البقرة، الآيتين 88 – 89 .

[4] سورة النساء، الآية 159 . اختلف عن ابن عباس في رجوع الضمير في "موته" إلى موت عيسى عند نزوله ثانية، أو موت اليهودي الذي لم يصدق بقدومه. وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن ماجة وأبو داود في سننهما والإمام أحمد في مسنده وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : { والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها } ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾. الإشكال في متن هذا الحديث واضح : وهو أن الجزية انقطعت منذ زمن، ولا ينتظر من المسيح أن يضعها! وبالتالي فهذه أحاديث يجب أن يعاد تحقيقها بما جد من معرفة حسب مناهج النقد المتعددة

وثيقة رسمية أصدرها فاتيكان الثاني سنة 1965 م[1].

وما دام هذا حال هذين الفريقين، فسوف نجدهما يكرسان استمرارية وقائع حصلت فعلا في التاريخ وتحققت، إلا أنها بالنسبة لهما لم تحصل بعد!. وهذا هو الذي يقلب النبوءة الصادقة، التي هي وقائع في الكمون تتحقق في التاريخ إلى أساطير خارج التاريخ!. وما داما هذا حالهما، ولا ينتظر منهما سوى أن يظلا على معتقدهما، فإنا على يقين بأن الأسطورتين ستظلان ملازمتين لهما، لا فكاك لهما عنهما وإلى قيام الساعة!.

لذلك لن نعجب أن نرى بالنسبة لليهود، ظهور أدعياء دجالين منهم، يدعون على مر الزمن أنهم المسيح المنتظر[2]!.

التخصصات، التي سوف نحيطك بمناهجها بعد قليل في هذه الدراسة، نظرا لخطورة هذه المسألة. أنظر كتابينا : "هل هناك رجعة للمسيح عليه السلام؟" و "هل من مسيح دجال قادم؟".

[1] المجمع أنشأه البابا يوحنا بيوس الثالث والعشرين (1958 ~ 1963 م) سنة 1962 وأتمه البابا بولس السادس (1963 ~ 1978 م). في 19 أيار سنة 1964 كون البابا بولس السادس في روما أمانة سر للعلاقات مع الأديان. ثم جاء بعده البابا يوحنا بولس الثاني وخص المجمع الفاتيكاني الثاني الإسلام في 28 تشرين ثاني 1965 بكلمة في وثيقة رسمية حملت العنوان : " إيضاحات لموقف الكنيسة من الديانات غير المسيحية جاء فيها : { تنظر الكنيسة بعين الاعتبار إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل. خالق السماء والأرض المكلم البشر.. إنهم يجلون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كإله. ويكرمون مريم أمه العذراء.. وعلاوة على ذلك فهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت، ويعتبرون أيضا الحياة الخلقية ويؤدون العبادة لله، لا سيما بالصلاة والزكاة والصوم. وقد كانت قد نشأت على مر العصور منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفون بإخلاص إلى التفاهم المتبادل ويصونوا ويعززوا سوية العدالة الاجتماعية والحرية لفائدة الجميع }. وجاء في الوثيقة رقم 4 عن الوحي :
إن الأسفار، على الرغم من أنها تتضمن أشياء شائبة وباطلة، إلا أنها تبقى مع ذلك الشواهد على تربية خلقية إلهية. أنظر كتابنا : "مدرسة ابن حزم الأوروبية في النقدية التاريخية للكتب المقدسة : رسالة في التسامح".

[2] 1) في سنة 19هـ/640 م ادعى يهودي من بيت أراميا من قرية الفلوجة بالعراق أنه ذاك!. فتبعه أناس وحرقوا ثلاث كنائس وقتلوا حاكم المنطقة قبل أن يحيط بهم الجيش ويقبض على المهدي اللامنتظر ليعدم، عبرة لمن اعتبر.

2) وظهر آخر في الشام في زمن يزيد الثاني الأموي (102 هـ/720 م ~ 106 هـ/ 724 م)، ثم آخر من شيرين.

3) وظهر أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الإصفهاني أواخر الخلافة الأموية، في عهد مروان بن محمد (127 هـ/744 م ~ 133 هـ/750 م) إلى أن قضى عليه الخليفة المنصور العباسي (ت: 158هـ/774 م).

4) وظهر داود بن الروحي في خلافة المقتفي لأمر الله العباسي حوالي سنة 555 هـ/1160 م.

5) وفي الأندلس ظهر أبراهام، أبو العافية (638 هـ/1240 م ~ 691 هـ/1291 م). فدرس القبالة اليهودية في سن مبكرة، ثم حج إلى القدس. وهناك يقول بأنه هتف به هاتف يحثه على العودة إلى الأندلس ليدعي النبوة هناك. وفي سنة 679 هـ/1280 م ناداه ذات الصوت ليذهب إلى البابا نيقولا الثالث ليهوده. فذهب وطلب مقابلة البابا. فلما استمع إليه أمر بحرقه، إلا أن البابا توفي بعد ثلاثة أيام فأطلق سراحه. ثم توجه إلى صقلية، حيث ناداه الصوت، كما يقول، أن يدعي أنه المسيح المنتظر!.

6) ثم ظهر آشير ليملين في مدينة البندقية سنة 911 هـ/1505 م. وبدأ مسيحانيته بادعاء أنه النبي إيليا عاد لإعداد طريق المسيح، فاتبعه يهود لا يشكون في كونه المسيح المنتظر.

7) ثم ظهر داود روفيني في البندقية أيضا سنة 931 هـ/1524 م، الذي حصل على مقابلة للبابا كليمانتس السابع. وظهر آخر معاصر له من اليهود المرانوس البرتغاليين يدعى ديوغو بيريس وتعاضدا معا، مدعين قدرتهم على التغلب على الأتراك وقيامة مملكة الله. إلى أن افتضح أمرهما أمام السلطات. فقبض عليهما وسجنا من طرف إمبراطور أوروبا المسيحية شارل الخامس. فحرق ديوغو سنة 939 هـ/1532 م أمام الأشهاد ولم يعرف مصير روفيني. وهذا لم يمنع أتباع المحرق من انتظار عودته لعشرات السنين بعد ذلك!.

8) ثم ظهر أشهر اللا منتظرين اليهود على الإطلاق وهو شبتاي ليفي (1626 ~ 1087 هـ/1676 م). فهذا اشتهر أيضا باشتغاله بالقبالة اليهودية، التي هي ترجمة للغنوص الشرقي في وجهه اليهودي. الظروف التي سبقت دعواه كانت ملحمية بمعنى الكلمة. فقد جاء إثر حروب الثلاثين سنة التي مزقت أوروبا تمزيقا. لذلك فعندما ظهر على مسرح الأحداث، لم يشك الكثيرون في أنه " المخلص" الموعود!، الذي يأتي في "أواخر الأيام" ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ولتقوم مملكة الله في الأرض!. تابعه على دعوته ما يزيد على المليون يهودي موزعين بين الشرق والغرب، من تركيا إلى بريطانيا. ولد شبتاي في مدينة سميرنا التركية، لسمسار يهودي يعمل مع تاجر إنجليزي. بدأ يسمع هواتف هو الآخر وساح في رحلة أخذته من سميرنا إلى مصر، حيث تزوج من عاهرة من أصل يهودي بولوني تدعى سارة. فأقاما عرسا ظل يتردد كأشهر عرس في القرن السابع عشر. هي تقول بأنها هتف بها هاتف للزيجة به، وهو يقول ذات الشيء بالنسبة لها. وظهرا كأنهما تصديق لتلك الأسطورة الشعبية الذائعة بين اليهود، والتي تقول بأن المسيح المنتظر!، عندما يظهر، سوف يتزوج عاهرة!. بعد هذه الزيجة رجع إلى تركيا، حيث استقبلته يهودها استقبال "المخلص" الموعود!. وقال لهم بأنه متوجه إلى السلطان التركي لعزله. هنا قبضت عليه السلطة وخيرته بين أمرين : إما الإسلام وإما القتل. فاختار ركن السلامة وأظهر الإسلام. فتفرق الكثير من أتباعه، إلا أن حركته لم تمت. ثم عاوده مرة أخرى هوسه المسيحاني فأودعته السلطات التركية السجن إلى أن قضى نحبه هناك.

الأساطير المؤسسة لقيام دولة إسرائيل، سوف تؤسس على هذا التراث لاحقا، لإجبار الرب! على إرسال "المسيح" الذي جاء منذ تسعة عشر قرنا، دون أن تصدق به يهود!، لقيام مملكة الرب على الأرض، كما حبكتها الأسطورة في عقول اليهود!.

3-1- التنبوءات التي لم تتحقق

فإن كان ذلك حال اليهود وأساطيرهم في "المسيح المنتظر" فما يكون حال النصارى بالنسبة إليه ؟

هنا نجدهم أولا يقولون للمسيح عليه السلام في كتبهم أشياء لم تتحقق، منها على سبيل المثال لا الحصر فيما ينسبونه له[1] :

الحق أقول لكم، إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا في ملكوته!

وقد ماتوا كلهم ولم يتحقق شيء من ذلك!. بل يوردون له أن قيامة "أواخر الأيام" حاصلة في عصرهم[2]، وهو ما لم يتحقق! :

مباشرة بعد أهوال تلك الأيام، تظلم الشمس والقمر يحجب نوره وتتساقط نجوم السماء وتتزعزع قوات السماء. عندها تظهر علامة ابن الإنسان في السماء، ثم تأخذ كل قبائل الأرض في البكاء وسوف يشاهدون ابن الإنسان قادما على سحب السماء ومعه القوة والمجد العظيم....، الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله!

ومعنى هذا أن "أواخر الأيام" لم تأت بعدا!، فانتظرها جيل الحواريين ومضى، ثم الذين بعدهم ومن بعدهم إلى أن جاء روح الحق، الذي كشف عن كل الحق، حمدة الأمم : "أحمد" فسألوه عنها، فأجابهم القرآن[3] :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها. قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو. ثقلت في السماوات والأرض. لا تأتيكم إلا بغتة. يسألونك كأنك حفي عنها. قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ﴾

ومن خلال هذا النص القرآني، لا يمكن لبشر أن يتوقع لا بالساعة ولا بمقدماتها ولا بأشراطها، ما دام الحق وحده استأثر بعلمها. فهي لن تأتي سوى بغتة، أي مباغتة لكل المخلوقات. والمباغت المبرمج، لمن له فهم ومعرفة بالبرمجة، ليست له لا أسباب ولا مقدمات. هي النهاية وكفى! كما برمجها رب العالمين في الأزل. فإذا استعملنا القرآن

---

9) بعد موته ادعى خرقته التاجر الأوكراني يعقوب فرانك (1726 م ~ 1791 م) الذي أخذته تجارته إلى تركيا حيث تعلم القبالة اليهودية وانظم إلى عصبة "الدونمة" التي ما هي سوى طائفة أتباع شبتاي. أول ما قال به فرانك، هو أن "الخلاص" لن يكون سوى بالاستسلام للملذات!. وبدأ يقيم ليالي خلاعية مجونية مما استدعى تدخل أحبار الطائفة لإصدار الحرم الشرعي الذي يخرجه من اليهودية. فطردته السلطات التركية إلى ما وراء الحدود. حط رحاله في بولونيا وادعى هناك أنه تجسد فيه شبتاي ودعا إلى ديانة شبيهة بالمسيحية في تثليثها، مكونة من الأب والروح القدس وشبتاي!. بدأ الأتباع والأموال تتدفق عليه، فعاش في قصر ولبس لباس الأمراء وتلقب ب "البارون فرانك". ولما تعرضت له الطائفة اليهودية في بلونيا متهمة إياه بالمروق والفسوق، استنجد بالأسقف المحلي المسيحي وقال بأن أتباعه ليسوا يهودا، بل "زوهريين" في حرب دائمة مع "التلموديين". فنودي على جمع من طرف الأسقف، تقرر بعده إحراق كتب "التلمود" اليهودي لأول مرة في بولونيا. ثم دعي إلى جمع آخر تقرر فيه تنصير كل الفرانكيين، الذين تجمهروا في صفوف طويلة للتعميد!، مع وجهاء بولونيا وملكها نفسه كحامي للفرانكيين. الكثير من هؤلاء المرغمين على التنصر لم يفقدوا ولاءهم القديم لما أخذوه أو اعتقدوه في فرانك. لكن تمسحهم أوصلهم إلى شغل مناصب هامة في بولونيا وروسيا. وتزوجوا من العائلات الأرستقراطية في كلا البلدين. توفي فرانك من السكتة الدماغية ووجد أتباعه كما وجد أتباع "بولص" قبله حبل النجاة في تحررهم من الشريعة اليهودية (أنظر كتابنا : الانقلابات البولصية في الإسلام). وعلى حسب فرانك فاليهودية هي التي صنعت التوراة والتلمود وليس العكس! ولذلك كان منطقيا مع نفسه حين ألغى كل التزام بأوامر ونواهي التوراة الثلاثة عشر والستمائة!

10) منتظر آخر ظهر في القرن الثامن عشر. ولد هو أيضا في أوكرانيا سنة 1700 م وتسمى : إسرائيل بن إلعازر. كان معاصرا ليعقوب فرانك. وحياته كما يقصها أتباعه، الذين يسمونه "بار شيم توف" (المعلم ذو الإسم الحسن)، تشبه حياة "يحيى" النبي!. فهم يقولون بأن ملكا ظهر لوالديه الكبيري السن وبشرهما بولادته، كما بشر الملك إبراهيم وسارة على كبرهما بإسحاق!، وبأن ابنهما سيحمل رسالة الله إلى البشر!. وهكذا تكونت فرقة جديدة في اليهودية تنسب إليه تعرف ب "الحاسدية" . عندما توفي بار شيم توف سنة 1760 م كان أتباعه اليهود يزيدون على المائة ألف في شرق أوروبا. وحتى بوفاته، لم تنته حركته، بل تولدت منها "الهسكلة" (المقابلة للنهضة الأوروبية بين اليهود) والمدرسة اللاهوتية الوجودية اليهودية التي يمثلها خير تمثيل اليهودي مارتن بوبر أنظر :

Max,I., Dimont, 1962: Jews.God and History, Signet Book,New American Library,N.Y.,pp. 272

[1] إنجيل متى (16 : 28).

[2] إنجيل متى (24 : 29 – 43).

[3] سورة الأعراف، الآية 187 .

كتكأة وكمجهر كاشف للحقيقة التي جاء مصدقاً لها، ندرك أن عيسى فعلاً أنذرهم من أهوالها تماماً كما في القرآن. ولكن المسيحيين أضاعوا وزادوا من منطلق عقائدي صرف[1]. لأنه مباشرة بعد النص السابق الذي أورده متى يأتي قول المسيح الذي لا نشك مطلقاً أنه قاله وحفظ عنه ويخالف ما تقوّل عنه ويناقضه. يقول عيسى عليه السلام[2] :

لا يعرف ذلك اليوم ولا تلك الساعة أحد، ولا ملائكة السماء ولا حتى الابن، إنما الأب فقط

وهذه الفقرة كما هي مثبتة هنا، فيها مسألة لاهوتية عقائدية. فجملة " ولا حتى الابن" لا تدع مجالاً للشك أن الابن[3] (المسيح) لا يعلم ما يعلمه الأب (الله). وهذا ما لا يمكن للمسيحيين اللاحقين الذين أسبغوا الألوهية على المسيح في مجمع نيقية سنة 325 م [4] القبول به!. فحذفوها بكل بساطة من الأناجيل[5] !. فالساعة أو "أواخر الأيام" لا علاقة لها بإعادة ملك بني إسرائيل الأرضي كما ظنت يهود لأجيال وأجيال بتأثير من الأساطير الوثنية ولا بفساد الناس ولا بصلاحهم. ومادامت مما استأثر الحق سبحانه وتعالى به، فهو يمكن أن يحدث في أية لحظة وبدون مقدمات كما سجل لوقا[6] :

عندما اجتمع الكل (الحواريون والمسيح) سألوه: يا سيد هل ستعيد ساعتها (أواخر الأيام) الملك لبني إسرائيل؟. فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الأوقات أو الفصول التي حددها الرب بسلطته.

فالأناجيل التي هي أشبه بالسير، ألفها أناس تحت تأثير واقع زمانهم. فأسقطوا واقعهم على السير، فاختلط العقائدي مع التاريخي، وضاع ذلك كله عندما انتصرت الكنيسة بمباركة إمبراطورية روما الوثنية في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي. فحاربت كل السير الأخرى التي كانت متعاصرة ولم تبق سوى على أربعة، أضيفت إليها في كل مرة فقرات بكاملها أو حذفت منها أخرى أو حرفت عن لفظها الأصلي، حسب ما جد من عقائد لدى أتباعها في مجامعهم المسكونية[7]. ولو عاد المسيح عليه السلام، لما تعرف على شيء من تعاليمه فيما تبشر به كنائس اليوم!. بل

---

[1] مثلا يفتتح مرقس إنجيله بجملة " إنجيل يسوع المسيح ابن الله". بينما المخطوطة التي وجدت في دير القديسة كاترين، بسيناء والتي ثبت أنها أقدم من نصوص الأصول الحالية القانونية التي وزعت أيام قسطنطين الأكبر كنسخ قانونية رسمية، لا تحتوي على "ابن الله". وهذا ما أصبحت تجده في هامش الكتب المقدسة كما في الكتاب المقدس نشرة أكسفورد (1972) (The New Oxford Annotated Bible, with the Apocrypha.)، ص 1213. كما تقرأ صفحة 1238 هامشا يقول تعليقا على ذات الإنجيل لمرقس : { لا شيء يعرف بيقين كيف كان اختتام هذا الإنجيل ولا عن أصل الفقرات من 16.9 إلى 20 16 ، التي لا يمكن أن تكون جزءا من نص مرقس الأصلي. بعض الشواهد المهمة، ضمنها مخطوطات أقدم تختم هذا الإنجيل عند الفقرة 16.8.} فإذا علمت أن النص المضاف يتكلم عن قيامة المسيح. أدركت أن هذه الزيادة زيدت لتبرير اعتقاد الكنيسة الرسمية وليس ما سطره النص الأصلي لمرقس!.

[2] إنجيل متى (24 : 36).

[3] الابن ترد في العهد القديم كثيرا على المجاز. كما يقص القرآن عن اليهود والنصارى في سورة المائدة، الآية 18 : (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه). ولا يتصور من عبري أن يفهم من البنوة ما فهم الوثنيون الإغريق المتنصرون من ذلك من خلال ما ألفوا من توالد آلهتهم. ونجد هذا واضحا في إنجيل متى (23 : 8) حيث يقول المسيح : { لكن ليس لكم أن تدعوا رباني لأن معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعا أخوة، ولا تدعوا لكم أبا ـ إلها ـ على الأرض لأن أباكم ـ إلهكم ـ واحد الذي في السماوات ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح }. فهو يسمي الله أبا للجميع، فكيف يفهم من كونه أبا للجميع أن لا يكون أبا للمسيح بذات الدلالة والمعنى لدى كل اليهود الذين أرسل إليهم المسيح وهو منهم ؟. ثم نجد في إنجيل يوحنا (20 : 71) يقول المسيح : {إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.}.

[4] سيجتمعون مرة أخرى بعد نصف قرن، أي في سنة 381 م ليسبغوا الألوهية على الروح القدس. ولا أصل في كتبهم لهذه الأشياء سوى الهوى.

[5] أنظر الملاحظة على هامش هذه الفقرة في إنجيل متى. نشرة أكسفورد للكتاب المقدس ص. 1204 .. فهناك ثورة تفكرية أتى بها النقد التاريخي والحفري للكتب المقدسة أثبت نديته للكنيسة ونازعها دعوتها العنكبوتية في تغيير النصوص، حسب معتقدها الطارئ المستحدث والمتغير باستمرار و إسقاطه على النصوص، حسب هوى العقائديين. فلولا هذا البحث الحر، الذي قضى على احتكار الكنيسة للحقيقة!، لما كان هذا النص الذي بين يديك ولما استطعنا الإتيان به يشهد للقرآن ويشهد القرآن له.! فهذا التصحيح لا علم للمسلمين به ولا بخلفياته، بل لا توجد لهم في مشارق الأرض أو مغاربها مؤسسة تضطلع بهذه المهمة في هذه الميادين، مع أنها من صلب وصميم العقيدة! وإنما إعجاز القرآن الحكيم في سورة الصف، الآيتين : 8 – 9 : (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

[6] أعمال الرسل (1 : 6).

[7] هذا لا زلت تراه ساريا بين الكاثوليك والبروتستانت في ترجماتهم للكتب المقدسة المختلفة بينهم فيما يعتمدون منها وما يتركون. ثم في صياغتها صياغة إسقاط لما يعتقدون..بل النصوص تتغير باستمرار.الكتب المقدسة وغير المقبولة في المسيحية لها تاريخ حافل من المد

ولكفروه كما كفروا أتباع حوارييه الإبيونيين أو اليهود المتنصرين!.

3-2- الساعة والقيامة وملكوت السموات وملكوت الأرض

مر بنا من خلال استعراضنا لفكرة "أواخر الأيام" أنها إنذار بنهاية العالم. ووجدنا ذلك في اليهودية والزرادشتية والمسيحية. ثم وجدنا اليهود يتكلمون عن ملكوت الله، كما وجدنا الأناجيل يجعلون منها فكرة محورية وقطب رحى كل معتقدهم. إلا أن التصفح الدقيق لما يعنون بذلك يجدهم لايتفقون مع المسلمين في مداليلها وتفاصيلها. فالقيامة في الإسلام، نهاية لهذا العالم وقيام عالم آخر يحاسب فيه المرء على ما قدم وأخر، لينتهي إما إلى سعادة دائمة في جنة الخلد أو عذاب مقيم في جهنم. فهي بداية انتقال من هذا العالم إلى العالم الأخر بعد بعث للأموات وحياة ثانية . بينما هي لدى اليهود عبارة عن قيام دولة سياسية يحكم فيها بنو إسرائيل هذا العالم!، على غرار حكومة داود في زمنه!. حتى بعد تبديل الأرض والسموات ستنزل أورشليم السماوية إلى الأرض[1]. أما بالنسبة للمسيحية فنجد أن ملكوت السماوات أو ملكوت الله يتلون حسب أتباع المسيح من اليهود المتنصرين، الذين يعتقدون في الملكوت ما تعتقد يهود، ما دام بالنسبة لهم أن المسيح إنما جاء كما حفظوا من قوله وكما يصدقه القرآن، لإتمام الشريعة (التوراة) وليس لنقضها. أو حسب أتباع بولس، الذين خلطوا بين موروث يهود وما طرأ عليهم في محيطهم الوثني من عقائد تتغير باستمرار، حسب الظرف والمكان. وهكذا نجد هذا الخلط مفرقا في سير الأناجيل كشذرات تنسب إلى المسيح عليه السلام، التقطها البعض وغابت عن بعضهم الآخر :

توبوا فإن ملكوت السماء على الأبواب[2]

أو بتوضيح أكثر[3] :

ومتى جاء ابن الإنسان في مجده، وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده. ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار. ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم : لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريبا فآويتموني، عريانا فكسوتموني، مريضا فزرتموني، محبوسا فأتيتم إلي.

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعا فأطعمناك، أو عطشانا فسقيناك. ومتى رأيناك غريبا فآويناك، أو عريانا فكسوناك. ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا إليك؟.[4]

والجزر. فقد رفض القانون الموراتوري حوالي 200 م "الرسالة الموجهة إلى العبرانيين" واعترض الكثيرون على سفر "رؤيا يوحنا" وصادر أسقف إنطاكية سيرابيون "إنجيل بطرس" الذي كان متداولا في مدينة روسوس (Rhossus) في العقد الأخير من القرن الميلادي الثاني. وفي القرن الرابع الميلادي ذكر أوزيبيوس القيصري أن رسائل : "يعقوب ويهودا وبطرس الثانية والثالثة موجودة في العهد الجديد وهي مقبولة في معظم الكنائس المسيحية. فالقانون الكنسي لم ينزل من الله وإنما خضع للتاريخ والجغرافيا كما ترى. أنظر : جيمس بنتلي، اكتشاف الكتاب المقدس، قيامة المسيح في سيناء، ترجمة آسيا الطريحي. ط. أولى.، سينا للنشر، القاهرة. 1995 : ص 154. ثم يكفيك أن عقيدة التثليث التي اعتمدت في نيقية. كانوا يستشهدون لها بنص أوردوه في إنجيل يوحنا (5 : 7) صاغوه تماما على حسب ما عقدوا في اجتماعهم بالاقتراع الحر! : { فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة : الأب والابن والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد!. والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة : الروح والماء والدم! والثلاثة هم في الواحد!. } التي أجمع المحدثون على إقحامها لأنها لا توجد في النسخ الأقدم. فكتبوا بدلها في النسخ الحالية { والروح شاهد لأن الروح حق هناك ثلاث شهود، الروح ولماء والدم وهذه الثلاثة متفقة! }.

[1] سفر أشعيا (65 : 17 –25).

[2] إنجيل متى (4: 17).

[3] إنجيل متى (25 : 31 – 46).

[4] مثل هذا الخبر أورده مسلم في صحيحه من كتاب البر والصلة، الحديث رقم 43 يرويه حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي رافع عن أبي هريرة. حيث يقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال : يا رب ! كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين. قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني. قال : يا رب! وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين. قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال : يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟. قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي.}. ومنه تعلم لماذا تحاشى البخاري الاستشهاد بحماد بن سلمة، رغم ورعه وزهده ورغم كونه أثبت الناس في ثابت البناني. فهو عند يوحنا في معناه من قول المسيح بينما نسب إلى الله في الحديث. وهو من الإسرائيليات. وليس كونه من الإسرائيليات أن لا يكون واردا لدى اليهود ومما يصدقه الإسلام. لكن هذا التصديق أيسر في القرآن لقطعيته وحجية دلالته إن كانت

فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم. ثم يقول أيضا للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته. لأني جعت فلم تطعموني. عطشت فلم تسقوني. كنت غريبا فلم تأووني. عريانا فلم تكسوني. مريضا ومحبوسا فلم تزوروني.

حينئذ يجيبونه هم أيضا قائلين: يارب، متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو عريانا أو مريضا أو محبوسا ولم نخدمك؟.

فيجيبهم قائلا :

الحق أقول لكم. بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا، فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية.

ويعدهم المسيح في موعظة الجبل[1] :

مباركون فقراء الروح لأنهم سيرثون مملكة السماء

يكون البعث إما للحياة أو للحساب[2]

لا تعجبوا لهذا؛ فالساعة قادمة عندما يسمع صوته كل من في القبور ويخرجون. أولئك الذين عملوا خيرا إلى بعث الحياة وأولئك الذين اجترحوا السوء، إلى بعث الحساب.

ثم نشر الكتب[3]

ثم رأيت عرشا كبيرا أبيضا والذي يجلس عليه؛ من أمامه فرت الأرض والسماء ولا مكان وجد لهما. ورأيت الموتى، صغارا وكبارا واقفين أمام العرش وفتحت كتب. ثم فتح كتاب آخر، الذي هو كتاب الحياة. وقضي بين الأموات بما هو مسطور في الكتب، بما اقترفوه. وأخرج البحر أمواته. الموت والهاوية أخرجا أمواتهما، وكلهم قضي بينهم بما اقترفوا. ثم ألقي بالموت والهاوية في بحيرة النار. هذه هي الموت الثانية، بحيرة النار؛ وكل من لم يعثر على اسمه مسطرا في كتاب الحياة، ألقي به في بحيرة النار.

فالمسيحية من خلال هذه النصوص احتفظت بيوم القيامة والحساب والعقاب والخلود. لكن ليس بتلك الصورة المتكاملة التي في القرآن. وليس هذا غريبا في حد ذاته. ما دام القرآن وصف الكتبة بالتحريف والتضييع والتقول على الله بغير علم. ثم كون المسيح عليه السلام وعدهم بقدوم "أحمد" روح الحق، الذي سوف يوصلهم إلى كل الحق. ولذلك نجد توقعهم بقيام "الساعة" التي نسبوها للمسيح في جيله لم تتحقق، على ما مر بنا مما هو مسطر في سير الأناجيل الأربعة المعتمدة لديهم. وما دام لم يأت في جيلهم ولا في الأجيال التالية فقد صار الإيمان بما يبشر به الأتباع قاب قوسين من فقدان جاذبيته ك "خلاص". فلم يلبث الدعاة أن أدركوا أن فكرة البعث وحلول مملكة الله، لا تهم الإغريق، الذين بدأت تنتشر فيهم الدعوة بشكل متسارع . بل اكتشفوا أن تسويغها للفكر الوثني، لا يجد دعامته، سوى بمزج الفكرة في عناصر الأمل القومي اليهودي في إقامة مملكة الله الأرضية، التي يحكمها ملك شبيه بالملك داود. وهذا بحد ذاته ليس جذابا للفكر الوثني كي يتماهى معه أو يذوب فيه. وظهر لبولس كما لاتباعه الذين جاءوا من بعده، أنه إذا أريد للمشركين الوثنيين أن يتفهموا القيامة، فكان لابد من توسيع مجالها وتقريبها من بعض المفاهيم المعتادة في تعاليم "الأسرار" الوثنية، التي تزخر بها مثل هذه الأرضية الجديدة. وهكذا قدمت صورة جديدة للمسيح، لا بصفته الرجل الذي نفخ فيه "يهوه" من قوته لينتصر للشعب المختار في محنته وتمكينه من أعدائه ومضطهديه، بل على أنه مبعوث الله حقيقة، احتفظ به الله إلى جانبه منذ الأزل، حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها بشرية جديدة، يكون هو "آدمها". ثم هو أرسل، على خلاف ما يؤمن به الحواريون الإثنى عشر، من كونه مبعوثا للخراف الضالة من بني إسرائيل خاصة، بل إلى الناس كافة، ليحمل لهم "الخلاص" والبشارة بحياة أخرى سعيدة وخالدة[4] :

وهكذا بالنسبة لبعث الموتى. ما يزرع يبيد، ما يرفع يخلد. زرع بخزي ورفع بمجد. زرع في ضعف ورفع في قوة. زرع جسما طبيعيا ورفع جسما روحانيا. فإذا كان هناك جسم طبيعي فهناك أيضا جسم روحاني. لذلك كتب : أول إنسان "آدم" صار

---

[1] متى (5: 3).

[2] إنجيل يوحنا (5 : 28 – 29).

[3] رؤيا يوحنا (20 : 11 – 19).

[4] بولس: الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا (15 : 42 – 50).

كائناً حياً، آخر آدم صار حياتاً واهبة للروح. فليس الروحاني هو الأول ولكن الطبيعي، ثم الروحاني. أول إنسان كان من الأرض، إنساناً من تراب؛ الإنسان الثاني هو من السماء. كما كان إنسان التراب، يكون أولئك الذين هم من تراب. وكما هو إنسان السماء يكون أولئك الذين هم من السماء. كما حملنا صورة الإنسان الذي هو من تراب، كذلك يجب أن نحمل صورة الإنسان السماوي. أقول لكم هذا أيها الإخوة : لا يمكن للحم والدم أن يرث ملكوت الله ولا أن يرث البائد ما لا يبيد.

كما أن فضيحة "الصلب" لم تكن لتقبل من ذي عقل!. لذلك طورها بولس إلى قضية "الفداء"، كما وضح ذلك في رسالته إلى أهل روما[1] :

إن الله لم يعف ابنه نفسه! وضحى به من أجلنا جميعاً!، ألا يعطينا أيضاً كل شيء معه؟

وهكذا سيتطور مفهوم "الصلب"، الذي ينفيه القرآن عن عيسى نفياً قاطعاً إلى "أساس" كل تأسيس في الحبك البولسي[2] :

بالنسبة إلينا، نحن على الأقل، ليس هناك سوى إله واحد، هو الأب، منه كل شيء ونحن فيه،

وليس هناك سوى سيد واحد، هو عيسى (المصلوب!)، به كل شيء، ونحن به.

وليظهر ابتعاده عن فهم الحواريين لرسالة المسيح، فهو يجعلهم أصحاب غشاوة[3] :

بما أننا لنا مثل هذا الأمل، فنحن جريئون. ليس كموسى الذي وضع حجاباً على وجهه، كي لا يستطيع الإسرائيليون رؤية نهاية الجلال المضمحل. لكن عقولهم قست. لذلك وإلى اليوم، عندما يقرءون العهد القديم، لا يرفع عنهم ذلك الحجاب. لأنه فقط يُخلع من خلال المسيح. نعم وإلى اليوم، فكلما قُرئ موسى فإن حجاباً يغشى عقولهم. لكن إذا ما اتجه إنسان إلى "السيد" ينكشف عنه الحجاب. الآن : السيد هو الروح، وحيثما وجد روح "السيد" وجدت الحرية. وكلنا بوجه سافر ونحن نشاهد مجد "السيد"، نتحول إلى أشباه له، من درجة من المجد إلى أخرى. لأن هذا أتى من "السيد"، الذي هو الروح.

فالسيد هنا صار هو الروح. وتحول عيسى على يد بولس إلى رسول الله، الذي هو في نفس الوقت ابن الله، بعث للناس كافة، سابق للكون وللزمن، يكمن جوهره الرباني في كونه الروح القدس، الذي أتى ليعمل على تنفيذ مشيئة الله المتمثلة في بعث الإنسانية وخلاصها. وهكذا ومن خلال البينة الوثنية الخلاصية، أصبح عيسى مخلصاً فادوياً، فداءاً للبشرية، منذ خطيئة آدم، حين أغواه الشيطان فأكل من شجرة المعرفة التي نهاه الله أن يأكل منها، وقرباناً للرب من ذات الرب!. وهنا صار موت عيسى هو "السر الأعظم" كفداء عن خطايا البشرية، التي حملها عنهم بأوزارها كلها، وكفر عنهم ذنوبهم بموته تلك الموت المشينة على الخشبة، التي تقول عنها التوراة : "لأن المعلق ملعون من الله[4]". وكل حديث بولس التبشيري سيتمركز حول "الصليب" و "الفداء". الذي مهد الطريق لكل التوليفات اللاحقة في هذه المسيحية المشركة.

الحواريون، أتباع المسيح الذين ظلوا في القدس رابهم كل هذا التحريف لرسالة المسيح وقاوموه بدون هوادة وبكل ما أوتوا. يشهد لذلك بولس نفسه في رسائله إلى أهل غلاطيا[5] وأهل كورينثيا[6].

وجاءت مقدمة الإنجيل الرابع بتلك المقدمة الأفلوطينية في "الكلمة"، لتدفع إلى الانفصال الفعلي بين الكنيسة

---

[1] رسالة بولس إلى الرومانيين (8 : 32).

[2] بولس: الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا (8: 6).

[3] رسالة بولس الثانية إلى الكورنثيين (3: 12 – 18).

[4] سفر التثنية (21 : 23).

[5] رسالة بولس إلى الغلاطيين (1 : 10 – 21) { لأني أريدكم أن تعرفوا أيها الإخوة، أن الإنجيل الذي بشّرت به ليس إنجيل إنسان. لأنني لم أتلقاه من إنسان ولا لُقّنت إياه، ولكن جاء من خلال يسوع المسيح كوحي!؟ }. فقد انقطع الوحي عن الحواريين إذن برفع المسيح، أما بولس فهو لا زال متصلاً به على الخط الساخن! بالوحي المستمر. وهذا شائع لدى أصحاب الغنوص كافة. ثم يضيف بولس :
(لأنه إن قدم أحد وبشر بمسيح آخر غير الذي بشرنا به، أو إن تسلمتم روحاً مختلفاً من الذي تسلمتم، أو إن قبلتم بإنجيل مخالف للذي قبلتم (من قبل) فإنكم تخضعون له بما فيه كفاية. أظن أنني لست بأدنى اعتبار أقل من أولئك الحواريين الأفاضل، ولئن كنت غير متمرس في الكلام، فلست كذلك في المعرفة. وعلى أية حال فقد جعلنا هذا واضحاً لكم في كل شيء). وكذلك (11 : 22 –23) { لكن مهما تجرأ امرؤ على الافتخار بشيء – أتكلم كأحمق – أنا أيضاً أتجرأ للافتخار بذلك.. أهم عبرانيون ؟ فكذلك أنا. أهم إسرائيليون؟ فكذلك أنا. أهم من نسل إبراهيم؟ فكذلك أنا. أهم خدام المسيح ؟ فأنا الأحسن في ذلك. }

والمعبد. وصار أتباع بولس من الوثنيين يتكاثرون على حساب تلك الجماعات الصغيرة الفقيرة التي أنشأها الحواريون وأتباعهم من اليهود المتنصرين. وتعرضت من طرف القبيل المشرك إلى هجمة شرسة، تنعتهم بضحالة التفكير وهزال الرأي!. ومن كان سيخطر بباله أن يأتي ذلك اليوم الذي سيُرفض لهؤلاء الحواريين الذين صاحبوا المسيح أو أتباعهم الذين أخذوا عنهم أن ينضووا ضمن من يشملهم هذا النوع من "الخلاص"!. وأصبح المسيحيون الرومان والإغريق لا يشعرون بأية رابطة تربطهم بالمتنصرين من اليهود، الذين يستعملون إنجيل متى وحده[1]، والذي يقرأون فيه : أن المسيح لم يأت لنقض التوراة وإنما ليتممها. وبين المسيحية البولسية التي تقول بأن المسيح ألغى الشريعة الموسوية جملة وتفصيلا!.

ف "أواخر الأيام". بكل تأكيد لم تعد تعني نفس الشيء لكل الفرقاء!، لا بالنسبة لليهود الذين لم يروا فيها تحقق مملكة الله في الأرض، ولا للمتنصرين منهم، الذين تأخرت قيامتهم، ولا بالنسبة للمتنصرين الوثنيين، الذين لم يعد ذلك يشغلهم!. وهذا معناه أن الإرهاصات التي سبقت قدوم المسيح من فتن وهرج ومرج ليست مقدمات لقيام "الساعة". وشهد عصرنا حربين عالمتين أكثر هولاً من كل تلك التي عرفتها الإنسانية منذ فجر التاريخ ولم يخطر ببال أحد أنهما مقدمتين ل "أواخر الأيام". كما أن المسيح المتنبأ به والذي جاء فعلاً، اختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي وصف القرآن. لذلك فكل الفرقاء سينتظرونه إلى يوم القيامة ! : اليهود لأول مرة والنصارى للمرة الثانية كما أسلفنا. وهي الأسطورة بعينها خارج التاريخ والدين!. وهذا نموذج للأسطورة التي تحيى حياتها الخاصة بها بمعزل عن كل حامل وكل منطق، مادام المؤمنون بها كونوا لهم بالتنشئة منطقهم الخاص وبنوا فوقه قناعاتهم التي ربما من رسوخها فيهم، قد تتزحزح الجبال ولا تتزحزح هي!. إذ ليس من السهل قتل الخرافة ولا سل الأسطورة من العقول متى استحكمت ووجدت لها سدنة يتعيشون من استمرارها[2].

4- البذرة المهدوية في المهد

عرفنا من خلال ما تقدم من فصول، أن منطقة الهلال الخصيب، لم تكن قط صحراء قاحلة من الأفكار والعقائد. وتعرفنا أيضاً على قابليتها اللامتناهية في توليف وتهجين كل فكرة أو عقيدة جديدة، بما يتماشى مع خلفية الموروث، الذي هو متنوع في حد ذاته ومخضرم بكل اعتقادات هذا العالم المتحضر آنذاك وبركام يزيد على الأربعة ألف سنة. في هذه البينة سوف ينتشر الإسلام، وحتماً لن يحتفظ بكل نقائه ولا بكل نصاعته وصفائه. وبمجرد أن يخرج من الحجاز، انطلاقا نحو الجوار والمحيط، ثم العالم ليصبح دين العامة والخاصة لغالبية أهل المنطقة، متعايشاً مع زخم كل هذا الموروث جدلاً وإقناعاً وحجة، سيصيبه من كدر البينة ووحلها ودغلها ما أصاب الديانات قبله من توليفات وتهجين.

---

[1] هناك شواهد كثيرة على هذا وإن طمست الكنيسة المنتصرة آثاره. فنجد ايرينيوس أسقف مدينة ليون الفرنسية للفترة (177 ~ 198 م) يقول عن اليهود المتنصرين "الإبيونيين" أولئك الذين يطلق عليهم اسم الإبيونيين (الفقراء) يستعملون فقط الإنجيل حسب متى. وهم يرفضون بولس ويسمونه المرتد عن الناموس. وهم يجتهدون لشرح كتب الأنبياء (في العهد القديم) بعناية خاصة ويواظبون على موافقة الشريعة على الطريقة اليهودية، إلى حد عبادة القدس كما لو كان يسكنها الرب } أنظر إيرينيوس : ضد الهرطقيات (1: 26 ؛2)، وتاريخ الكنيسة (3 : 27 ؛ 1 – 3). ويقول أوزيبيوس القيصري (340 م) : { كلهم كانوا يهوداً (أي قبل تنصرهم) من أصلهم. أخذوا معرفتهم من المسيح نقية وغير مشابة بشائبة.. وأنهم استعملوا فقط إنجيل العبرانيين ولم يبالوا كثيراً بالأسفار الأخرى. } فمسيحية هؤلاء تختلف اختلافاً جذرياً عن المسيحية الغربية التي قامت على المجاميع المسكونية اللاحقة. أنظر أوزيبيوس : التاريخ الكنسي (4 : 5). ثم يؤكد نفس الشيء الأب جيروم (420 م) بقوله : { في الإنجيل الذي يستعمله الناصريون والإبيونيون، والذي ترجمناه مؤخراً من العبرانية إلى اليونانية، والذي يعتبره معظم الناس إنجيل متى الحقيقي. أنظر:. Gospel Parallels, Throckmorton, B.,H., editor, pp.151,160

[2] الكل يتذكر أحداث سني 1993م ~ 1994 م المرتبطة بأصحاب " معبد الشمس ". عندما ادعى ديفيد كوريش (David Koresh) في تل الكرمل (Mount Carmel) بالولاية المتحدة الأمريكية أنه باب الخلاص إلى النجم الأزرق : نجم الشّعْرى، وعندما هاجمتهم قوات مكتب الأبحاث الفدرالي أضرموا النيران في بناياتهم منتحرين انتحاراً جماعياً في 12 أبريل سنة 1993 م، مخلفين أربعاً وسبعين جثة، وعدها زعيمها الروحي بالخلاص!. وسوف يعيد العضو الآخر في التنظيم المدعو جودي ممبرو (Jodi Membro) نفس التمثلية في سويسرا حيث سينتحر سماً 24 تابعاً، ثم 23 في معبد آخر قتلاً بالرصاص، ثم 16 آخرين تابعين للتنظيم قرب مدينة فركور الفرنسية بالرصاص أيضا يوم 15 كانون أول (ديسمبر) 1994 م. ثم ظهور جماعة تحت زعامة مهوس آخر اسمه جيم جونز (Jim Johns) جعل أتباعه يلتحقون به في غيانا الاستوائية لتحصل ذات المجزرة التي ذهب ضحيتها 900 من المنتسبين، من بينهم 200 طفل!. كان جيم جونز يسمي نفسه " رجل الحقيقة الأسمى! " ويسمي معبده " معبد الشعب ".

4-1- دستور المدينة وميلاد الدولة الإسلامية : العهد الشوري.

أول ما قام به رسول الإسلام عندما حط وأصحابه المهاجرون عند إخوانهم الأنصار بيثرب، هو وضع وثيقة، أشبه بدستور مؤقت ينظم حياة المجتمع المدني من ناحية الحقوق المواطنية والواجبات المترتبة عليها، عرفت بوثيقة المدينة أو "الصحيفة[1]".

نطاق هذه الوثيقة هو يثرب، التي سوف يعيد الرسول صلى الله عليه وسلم تسميتها لاحقا ب "المدينة"، لما في اسمها "يثرب" من نكهة تثريب الجاهلية[2]. وإذا علمت أن كل الحضارات القديمة انطلقت من "مدينة" استوعب أهلها قوام الحكم المتمدن، ثم انسابوا على الجوار، كما هو حال مدن "طيبة" أو "ممفيس" في مصر أو مدن "أور" و "لجَاش" و "بابل" في العراق، أو "أثينا" و "سبارتا" في اليونان، أو "روما" الرومان، أدركت البعد الحضاري لهذه الوثيقة التي لا تضاهيها وثيقة مؤسسة أخرى في التاريخ، لأنها أول وثيقة تجعل ديانتين ضمن الأمة الواحدة بوثيقة دستورية. ولو لم يخن يهود المدينة بنود هذا الدستور، لكان للذميين في حاضرة الإسلام شأن آخر غير ذلك الذي تحكمت فيه لاحقاً الجغرافيا والبيئة والتاريخ!.

تعتبر السنة الثانية من الهجرة فاصلاً في اكتمال كيان الأمة الإسلامية. ففيها وقعت غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان، ليتحقق ما وعد المسلمون به من نصر، منذ أربع عشرة سنة في سورة الروم. ثم اكتملت فروض الصلاة، التي خلقت بين المسلمين وحدة الولاء للعقيدة والمساواة بدل رابطة الدم الجاهلية. وكذلك القضاء على عصبية القبيلة أو العشيرة، ليبدأ "عصر الشورى". ثم اكتملت فروض زكاة الأموال وتحددت نواحي جبايتها ثم صرفها على مستحقيها. ثم اكتمل فرض الجهاد بآيات فاصلة[3] :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكانهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور.﴾

ثم حددت أخلاقيات الجهاد[4] :

---

[1] بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم، وجاهد معهم : "إنهم أمة واحدة من دون الناس". وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وُلْدُ أحد. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر. ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذِمَّة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم. وأن المؤمنين موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وأن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم من أنفسهم إلا من ظلم وأثم، فأنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم..
وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يثرب حرام جرفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حرث أو أشجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وأن الله اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره. أنظر : سيرة ابن هشام (2: 147 – 150).

[2] سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم الاجتثاثية لكل ما هو جاهلي، لم تقتصر على هدم الأصنام بل تعدته إلى تغيير الأسماء والعادات. فأبو عصام الحارثي كان اسمه "أكبر" فسماه الرسول بشيراً. الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية (1 : 164)، وذويب بن شعثم العنبري كان اسمه " الكُلاح" فسماه صلى الله عليه وسلم "ذويب"، الإصابة (2 : 180)، وراشد بن عبد ربه كان اسمه في الجاهلية "غاوي بن ظالم " فسماه : راشد بن عبد الله ، الإصابة (2: 185). وجميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح كان اسمها "عاصية"، فغيره لها إلى جميلة، الإصابة (8: 40)..إلخ.

[3] سورة الحج، الآيات: 39 – 41 .

[4] سورة البقرة، الآيتين، 190 - 191 .

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين. وقاتلوهم حيث قاتلوكم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم. ﴾

وتحدد صرف مغانم الجهاد[1]. ثم إن سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في تأليف يهود لم تثمر، بل ناصبوه العداء ولدينه الجديد دون هوادة. فبدأت آيات القرآن الكريم تنزل تترا تعدد جرائم أسلافهم التي ارتكبت في حق أنبيائهم، الذين هم في نفس الوقت أنبياء الإسلام. وبالرغم من انعقاد أول مؤتمر بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة للحوار والتعايش الديني بين الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية (نصارى نجران) والمسلمين[2]، إلا أنه لم يسفر عن شيء. وظل كل طرف مستمسك بموقفه العقائدي إلى أن نزلت آية الجزية في السنة التاسعة من الهجرة[3]:

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.﴾

وبهذه الآية اكتملت الهيكلة العامة لدولة الأولياء ومصادر تمويل مجتمعها ورعايته لتبليغ رسالته إلى العالمين.

4-2- هواجس الرجعة كفكرانية.

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين لاثني عشرة خلت من شهر ربيع الأول لسنة إحدى عشرة من الهجرة. كان آخر ما أوصى به صحابته في مرضه الذي لبى نداء ربه فيه هو قوله : "أنفذوا جيش أسامة"، ولم يوص بالحكم أو العهد لأحد، على كثرة ما سوف تدعي الأحزاب المتحزبة لاحقا!، التي قاست الإسلام على مقاسها أو زمانها أو جغرافيتها، متناسية أن الإسلام إرث للعالمين. ولا يمكن أن يفصل على مقاس شعب أو أمةَ فبالأحرى أسرة! أو عشيرة! أو قبيلة!. لقد علم أن سيلقى ربه بعد قليل، بعد أن بشره جبريل بالنصر[4]. وما دام النصر قادم، فقد اختتمت النبوة وآن أوان الرحيل. الإرث الوحيد الذي تركه، كتاب الله، ثم ما حفظ عنه أصحابه من أقواله وأفعاله. تركهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها سوى هالك. وهاهم على المحك لأول مرة، منذ صحبوه. يتدبرون أمرهم بأنفسهم، يختارون ويتحملون التبعات، بعد أن رباهم ودربهم وتعهدهم لأكثر من عقدين من الزمن وزودهم بزاد لا ينفذ أبد الدهر، ويتجدد بتجددهم في أصلابهم وتجدد عقبهم على مسرح حياتهم عقبا عن عقب إلى أن يأذن الله في مكنون علمه بقيام الساعة : "أواخر الأيام". لقد شبوا عن الطوق الآن، وآن أوان الممارسة إما إلى نجاح غير مسبوق وإما إلى فشل ذريع.

ألمت بهم الفاجعة وهم بين مصدق ومرتاب، وبين لغط وشبه المنافقين والمرجفين، إلى أن تعالى صوت عمر بن الخطاب من داخل المسجد يجلجل، يخطب في الناس[5] :

---

[1] سورة الأنفال، الآية، 41 : ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾

[2] الجدل حددته سورة آل عمران في الآيات: 64 – 74) : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شينا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون؟. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم. فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين. ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون. يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وأنتم تشهدون. وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. قل إن هدى الله هو الهدى. أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم. قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ . بكل تأكيد لم يكن أهل الكتاب المجادلين للرسول يومها على بينة مما ورثوا ولا كانت لهم قابلية مراجعته. وسوف ننتظر القرن العشرين لتنادي الكنيسة بحوار الأديان وبما سوف تطلق عليه "البنوة الإبراهيمية" للديانات الثلاث!.

[3] سورة التوبة، الآية 29 .

[4] سورة النصر، الآيات: 1 – 3 : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ . فهم عبد الله بن عباس من هذه السورة قرب أجل الرسول صلى الله عليه وسلم.

[5] يوسف بن عبد البر النمري الحافظ (368 هـ ~ 463 هـ) : "الدرر في المغازي والسير"، دار الكتب العلمية، بيروت، ص. 205 .

إن المنافقين يقولون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي. والله ما مات رسول الله، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى عليه السلام، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، والله ليرجعنّ رسول الله، كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، زعموا أن رسول الله مات.

وجاء أبو بكر بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكشف عن وجهه الكريم، فقبله وأيقن بموته. ثم خرج فوجد عمر بن الخطاب يخطب الناس في المسجد خطبته تلك، فقال له : إجلس، فأبى عمر، فقال له ثانية إجلس، فأبى. فتنحى عنه أبو بكر، وقام خطيباً، فانصرف الناس إليه وتركوا عمر. فقال أبو بكر :

أما بعد، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت،

ثم تلا على أسماع الحاضرين الآية التي كانوا قد تناسوها من هول الفاجعة[1] :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين. وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً. ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين.﴾

ثم رن ثانية في أسماعهم[2] :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ﴾

يا للهول!، كيف لم يهتدوا إلى الآية من قبل وفيهم من بينهم مئات الحفظة؟. كيف خطر على عمر القول ب "الرجعة" قياساً على ما قال بنو إسرائيل في موسى، مع أن موسى لم يرجع؟. كيف أقسم على ذلك بأغلظ الأيمان؟. هذه حالة نفسية حصلت كردة فعل لشيء لم يكن أحد يتوقع حدوثه، مع أنه حتمي الحدوث لا محيص عنه!. ها قد استوعب الكل أخيراً ما حدث، وتاب الكل إلى رشده، بعد أن قد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. وأدرك الجميع هول الفاجعة، كل من منطلقه الخاص. المنافقون الذين تربصوا بالدعوة وكادوا لها سراً وعلانية والمؤمنون وثقل المسؤولية التي ألقيت على عاتقهم. أما عمر فقال[3] :

فلما سمعت ما قال أبو بكر، عرفت ما وقعت فيه، وكأني لم أسمعها من قبل.

ماذا لو لم يكن في القرآن هذا التنبيه، الذي نبه به أبو بكر عمر؟

الجواب : لكان هذا الكلام المؤسس على سابقة تاريخية من باب قياس الشاهد على الغائب، بداية تأسيسية لعصر الأسطورة، التي سوف تقول برجعة الرسول بعد موته، كما سيحصل لاحقا لأسباب مشابهة!.

4-3- اجتماع سقيفة بني ساعدة

وسبقا للحدث وما يحمل من هواجس بين جوانحه، سواء فيما يخص المستقبل القريب أم البعيد، اجتمع الأنصار، (والرسول لا زال مسجى في بيته، يتعهده أهله)، إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فلما علم عمر بن الخطاب باجتماعهم قال لأبي بكر الصديق : " انطلق بنا إليهم[4] "**. فجاء عمر وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح إلى السقيفة، فقالت الأنصار :** " منا أمير ومنكم أمير"**، فقال أبو بكر :** "منا الأمراء ومنكم الوزراء"**، فقال حُبابُ بنُ المُنْذِر :** " لا والله ما نفعل!؛ منا أمير ومنكم أمير"**. فقال أبو بكر :** "لا! ولكنّا الأمراء وأنتم الوزراء، هم (قريش) أوسَطُ العرب داراً وأعْرَبُهُم أحساباً، فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عُبَيْدَةَ بن الجراح"**. فقال عمر :** "بل نبايعك أنت فأنت سيِّدُنا و خيرنا وأحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"**. فأخذ عمر بيده فبايعه وبايع الناس فقال قائل :** " قتلتم سعد بن عبادة"**، فقال عمر :** "قتله الله[5]"**. فلما كان من الغد جاء عمر وجلس على المنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشهد واعتذر لما صدر منه البارحة بخصوص رجعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم شرع يقول :**

---

[1] سورة آل عمران، الآيتين: 144 - 145 .

[2] سورة الأحزاب، الآية 40 .

[3] الدرر لابن عبد البر، ص. 205 .

[4] صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب: ما جاء في السقائف..من حديث عمر رضي الله عنه (3 : 102) ط. استنبول، 1401 هـ / 1981 م.

[5] صحيح البخاري، كتاب: فضائل الأصحاب، الباب الخامس: لو كنت متخذاً خليلاً. من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. (4:194).

" كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبُرَنا، يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن يك محمد صلى الله عليه وسلم قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به هَدى الله محمداً صلى الله عليه وسلم وإن أبا بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين، فإنه أولى المسلمين بأموركم فقوموا فبايعوه ".

فكانت هذه بيعة العامة بعد بيعة الخاصة في السقيفة[1] .

وهكذا نرى أن أبا بكر إنما تكلم واحتج برأيه من خلال تحليله لواقع ظرفي زمني مكاني طارئ، يخضع الجميع لتبعاته. ولم يدل أحد بنص، لا قرآني ولا حديثي، ليرجح كفة النقاش بحيث يلجم الجدل ويلتزم الجميع بتبعاته. فالسقيفة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك، حق الأمة في صياغة نوع الحكم، الذي ارتضته، الخاضع لضوابط الشرع وفق الحاجة والظرف الزمان والمكان وليس بموجب نص ملزم قاطع تنقطع دونه الآراء والرقاب. ولو كان هناك نص لأحد لما تجرأ أحد على رده، وإلا سيء الظن، ليس بالصحابة الكرام وحدهم وإنما بالرسالة ذاتها!. بل لو كان هناك نص لأفضلية أو تقديم أو ترشيح أو اختيار من الرسول صلى الله عليه وسلم، لما خفي على هذا الجمع، ثم لما رشَّح أبو بكر رضي الله عنه عمر أو أبا عبيدة لمنصب "الإمارة"**، على خلاف ما سوف تتطاير به الأهواء والأحزاب لاحقاً، إما من منطلق تنظيراتهم أو كرد فعل لمنافسيهم!. فكل دعاوى الأحزاب شقشقة ورحى بدون قمح!. فالسقيفة من هذه الحيثية صاغت الشكل الذي سوف تحكم به دولة** "الخلافة الراشدة "**عن طريق الشورى والحوار والجدل. ولم يطرح أحد لا على جمع الأنصار ولا على نفر المهاجرين الثلاثة أي نص سواء أكان من البيان القرآني أم من تبيان سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر. فلم يطرح أحد نص** " الأئمة من قريش" **ولا نص حديث** "الغدير"**، كما ستلهج الأحزاب بذلك لاحقا!، عندما ستحاول إسقاط تنظيرها الحزبي على وقائع التاريخ لتفسره بها من خلال نظاراتها الأحادية البعد واصطلاحاتها المتأخرة.**

وأهم ما أجمع عليه المؤرخون، هو أن النقاش إنما تمحور حول واقع جاهلي له عُرفه، الذي لم يكن في مقدورهم تجاوزه كموروث تاريخي وجغرافي. وإلى زمن السقيفة وعلى مرمى 11 سنة كمسافة زمنية فقط من الهجرة، كان هذا العرف لا زال يتحكم في العقول وله امتداده الاعتباري النسبي المتمثل في هيمنة قريش على العرب معنويا لما كان لهم من سدانة الكعبة سواء في الجاهلية أم في صدر الإسلام. وتصديقا لهذا العرف، وتمشياً مع هذا السياق التاريخي، فقد نُقِل عن أبي بكر الصديق قوله : " لن تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش[2] "**، ثم ما كان من تأييد بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي (ت: 12 هـ /633 م) لأبي بكر في هذا الاتجاه حين قال :**

" ألا إن محمداً من قريش وأهله أحق به وأولى، وايمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً [3] "،

ثم قول عمر :

"والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا في ذلك الحجة[4] ".

ولم يستدل أو يحاجج أحد بنص للنبي صلى الله عليه وسلم، لا على القرشية ولا على الوصية كما سوف تتطاير بذلك الفرق لاحقاً. وأورد البلاذري[5] وحده في تاريخه[6] : أن أبا بكر قال في السقيفة :

" فقد يعلم ملاء منكم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : { الأئمة من قريش }، فانتم أحق ألا تقسموا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم !؟!؟ ".

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب : الاستخلاف، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (7 : 126).

[2] تاريخ الرسل والملوك (3 : 221)

[3] الكامل في التاريخ لابن الأثير (2 : 225). دار الكتاب العربي، ط. رابعة، 1403 هـ /1983 م، بيروت.

[4] الكامل (2 : 225).

[5] أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري البغدادي (ت: 279 هـ /892 م) نشأ ببغداد وتقرب من الملوك العباسيين، المتوكل والمستعين والمعتز، الذي عهد له بتثقيف ابنه الشاعر والملك ليوم وليلة عبد الله بن المعتز. كان شاعرا وكاتبا ومترجما ينقل عن الفارسية إلى العربية. وأشهر كتبه: "فتوح البلدان" و "أنساب الأشراف".

[6] فتوح البلدان (1 : 581 - 582)، نشر دي غويه، ليدن سنة 1870 م ونشرته شركة طبع الكتب العربية سنة 1901 م ثم بتحقيق صلاح الدين المنجد، 1956 ~ 1957 ، القاهرة

قلت[1] : السياق رديء ومتهافت من ذاته وشاذ كل الشذوذ في معناه ومرماه، ثم الأطم وهو أن البلاذري[2] وحده من تفرد بهذه الزيادة بعد قول أبي بكر : " ولن تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش" التي أوردها كل من ابن جرير الطبري وابن الأثير في تاريخيهما. والبلاذري نفسه أورد ذات الخبر كخبرهم وبنفس السياق، إلا أنه زاد عليهما هو : " فقد يعلم ملاء منكم..!". وهي زيادة باطلة أصلاً، لأن الجملة الخبرية : "الأئمة من قريش" لا يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم نطق بها بحال![3]. ثم لو كان نطق بها لكان تلقفها أبو بكر، ثم لتلقفها منه النعمان بن بشير ونازع بها منافسه زعيم قبيلة الخزرج الأنصارية : سعد بن عبادة بن دُلَيْم (ت: 15 هـ ؟)، ليبعده عن قيادة المسلمين بأقل حيلة وبقوة النص، الذي لا، ولن يجرؤ مثل هؤلاء الأكارم مع سوابقهم في الإسلام، على رده أبداً منفردين!، فما بالك وهم في جمع حاشد؟!. فأجمعوا على اختيار أبي بكر رضي الله عنه كخليفة أول بعد تفاوض وأخذ ورد، وأجمعوا على تنفيذ عهده لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كخليفة ثان، وأجمعوا على تنفيذ عهد عمر بالشورى في الستة أنفار ولم يخالف أحد. وأجمعوا على تولية عثمان بن عفان إلى قيام الفتنة واستشهاده رضي الله عنه. وبويع لعلي رضي الله عنه كخليفة رابع بذات الآلية وسوف يحارب البغاة والخارجين عليه باسم ذات الشرعية[4]. أما خبر "الأئمة من قريش" هكذا، أي الجمع بين "الإمامة" و "قريش" فيحتاج منا إلى وقفة متأنية. إذ نحتاج إلى تحقيق معنى "الإمامة" في هذا المتن ثم تحقيق السند الوارد بمثل هذا السياق. فمن حيث المتن نجد أن لفظة "أئمة" جمع "إمام" في صدر الإسلام توسع طيفها الدلالي لتغتني بمعاني جديدة، لم تعرفها اللغة من قبل، لتعني زيادة على معانيها اللغوية المتوارثة في اللغة العربية معاني طارئة شرعية مستحدثة أتى بها الإسلام لاحقاً. وهذا ما يمكن التيقن منه بسهولة بتتبع تاريخ تولد الكلمات والمصطلحات، الذي ينقص اللغة العربية مع الأسف، على عكس ما هو حاصل في اللغات الأجنبية، والذي يجب تداركه فيها لضرورتة الملحة في نقد المتون الحديثية، ضمن بطارية النقد المتعدد التخصصات، التي استعملناها في بعض كتبنا[5]. وهذا ما سوف يصبح متيسراً بإذن الله تعالى مع الثورة الإعلامية المستجدة في عصرنا الحاضر. أما من

---

[1] " قلت" إشارة إلى تعليقاتنا نحن المؤلف.

[2] أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري البغدادي (ت: 279 هـ/892 م) ينسب إلى تمر البلاذر وولد في أواخر القرن الثاني للهجرة ونشأ ببغداد، وتقرب من ملوك بني العباس : المتوكل والمستعين والمعتز الذي عهد إليه بتهذيب ابنه الشهير الشاعر والملك ليوم وليلة واحدة: عبد الله بن المعتز. وكان شاعراً وكاتباً ومترجماً وأخبارياً جماعة وينقل من الفارسية إلى العربية. أنظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت الحموي (5: 89)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وله كتاب "فتوح البلدان" وكتاب "أنساب الأشراف" ويسمى أيضاً : "الأخبار والأنساب" في عشرين مجلداً، لم يعثر سوى على جزئه الحادي عشر فطبعه المستشرق الألماني أهلوارد سنة 1883 م مرجحاً أنه للبلاذري!.

[3] هذه آفة من آفات الرواية بالمعنى، مع أن الخبر ورد بلفظ : " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان " وشتان الفرق والتفاوت بين اللفظتين أو المعنيين!.

[4] وحين نقول أجمعوا ! فنعني بذلك أن من لم يتفق أو خالف، لم يخرج به عدم اتفاقه أو خلافه إلى نبذ الجماعة. فلا يوجد أمر سياسي يتفق فيه الجميع، بل هناك دائماً مخالفين ومعارضين كأقلية.

[5] أول ما يجب النظر فيه بالنسبة لأصل المفردات اللغوية أو الاصطلاحية هو المنشأ. ففي اللغة التي خوطب بها العرب وهي مرجعية ملزمة لكل من يتصدى للحديث عن مفردات القرآن نجد ابن منظور ينقل في لسان العرب (12 : 25) : "الإمام" : الخيط الذي يمد على البناء فيبنى عليه ويسوى عليه ساف البناء. وأيضا خشبة البناء يسوى عليها البناء. والحادي إمام الإبل وإن كان وراءها لأنه الهادي لها. وترد بمعاني أخر كما في لسان العرب (12 : 24) : أمَّ القومَ وأمَّ بهم : تقدَّمهم، وهي الإمامة. والإمام : كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين. وفي القرآن العزيز نجد في سورة الإسراء الآية 71 : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ قال ابن الأعرابي بكتابهم ونبيهم وشرعهم. فدليل كتابهم ورد في سورة الأحقاف، الآية 12 : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾. وبالنسبة للنبوة والشرعة كما في سورة الفرقان، الآية 74 : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾. والرسول صلى الله عليه وسلم إمام أمته دون منازع وعلى المسلمين جميعاً الائتمام به حياً وميتاً من خلال سنته. لذلك تسمى الذين أتوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم "خلفاء" وليس "أئمة". وما ذلك إلا لوضوح هذه المفارقة عندهم فيما يمثلونه وما كان يمثله الرسول صلى الله عليه وسلم: الإمام لأمته وصاحب شرعتها وقدوتها التي لا يتأسى بما سواها إلا هالك بنص القرآن كما في سورة الأحزاب، الآية 21 : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾. فإمامة الرسول صلى الله عليه وسلم تحاكى وتُقارب وتُقلد ولا يصح هذا في غيره، أيا كان. وورد في سورة التوبة، الآية 21 :﴿ فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ : أي قاتلوا رؤساء الكُفر وقادتهم. وكذلك في سورة القصص، الآية 41 : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ وكذلك في سورة السجدة، الآية 24 بذات المعنى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾. ويكون "الإمام" بمعنى : الطريق الواضح كما في سورة الحجر، الآية 79 : ﴿ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾. وبمعنى الكتاب الذي يحصي أفعال العباد كما في سورة يس، الآية 12 : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أو بمعنى القدوة والمثال كما في سورة البقرة، الآية 124 في مخاطبة الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي! قال لا ينال عهدي الظالمون ﴾.

حيث السند، فضعفه لا يخفى كما سوف تقف عليه بنفسك وتلمسه لمس اليد[1].

فهذه مثلث أحاديث السياسة. وعلى ضعفها كلها، كتب لدعواها أن تسود وأن تتملك الرقاب، يتداولها المحدثون والفقهاء، ثم جمهور المسلمين كموروث لم يسائلوه قط!. وما ذلك سوى أن الحكام الذين تعاقبوا وجدوا فيها مطية للاستحواذ على السلطة، ضداً على مبدأ الشورى، الذي لم تعرفه منطقة الهلال الخصيب قط. فالحكم على النمط القيصري الأموي في الشام كان بحاجة إلى هذه الشرعية، لأنهم قرشيون أولاً وأخيراً. ثم العباسيون الذين جاءوا بعدهم، وعاشوا عصر التدوين كانوا قرشيين كذلك. ثم الحزب الشيعي نفسه تبناها وإن بشكل أضيق، حسب كل فريق من فرقاء هذا الحزب. ولم يخالف سوى الخوارج الذين قالوا بأن "القرشية"، لا دخل لها في توصيف من يلي الخلافة العظمى. وهم قاتلوا على ذلك إلى أن استطاعوا مبايعة أمراء لهم في كل من عُمان واليمن والجزائر. بل إن التاريخ يميل إلى جانب دعواهم في آخر المطاف ومن طرف أشد مناوئيهم وهم الإمامية!. أوليس من المفارقات أن تتسمى الجمهورية الإيرانية الإسلامية "جمهورية" وليس "إمامة " أو "إمامية" !؟. كما اشتهروا باسم حزبهم في التاريخ؟.

وما ولاية الفقيه، إن لم تكن سوى بداية المخرج من عنق الزجاجة التي سجن فيها هذا الحزب نفسه منذ موت الحسن العسكري، ليعلقوا خيبة تنظيرهم على أسطورة ركيكة كأسطورة المهدي[2]؟.

4-3-1- أول من قال بالمهدي حسان بن ثابت

وبعد أخذ ورد تمت البيعة لأبي بكر الصديق، ثم تلتها من الغد الثلاثاء البيعة على ملأ الناس، البيعة التي سماها عمر بن الخطاب : "فلتة وقى الله بها شر الفتنة". ثم جهزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للدفن يوم الأربعاء وبكوه كما لم تبك أمة نبياً في التاريخ. قال حسَّان[3] في رثائه[4] :

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَنامُ كأنَّما ... كُحِلَتْ مآقيها بكُحْلِ الأرْمَدِ
جَزَعاً على المَهْدِيِّ أصبح ثاوياً ... يا خَيْرَ مَن وَطِئَ الحَصى لا تَبْعَدِ
جَنْبِي يَقيكَ التُّرْبَ لَهْفي لَيْتَني ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ في بَقيعِ الغَرْقَدِ
بأبي وأمي مَنْ شَهِدْتُ وفاتَهُ ... في يوْمِ الاثْنَيْنِ النَّبِيُّ المُهْتَدي

وعلى هذا، فكل من تقدم قوماً أو تزعمهم فهو إمامهم لغة. ومنه استحدث الاصطلاح الشرعي لمن يؤم الناس في الصلاة بكونه "إماماً" أي بمعنى متقدماً، ثم بمعنى القدوة في الصلاة والمسايرة خلفه بالائتمام به. أما ما استحدث لاحقا بعد انقراض الخلافة الراشدة من إطلاق لقب " الإمام" على الحاكم، فهو انزياح لغوي على قدر الجهالة الشرعية لمنتحليه وإلا فالخلفاء الراشدون لم يجرؤا على انتحاله لأنفسهم مع أمس الحاجة إليه في عهدهم. ثم حصل نفس الشيء بالنسبة لأرباب المذاهب الفقهية من طرف تابعيهم ومقلديهم، بينما ما كانوا هم لورعهم أن يدعوها لأنفسهم!. وهذا الانزياح اللغوي أو الاصطلاحي يجب التنبه إليه دائماً حتى لا يُنزَّل الاصطلاح المتأخر ليفسر به الواقع المتقدم. وهذا مع الأسف سار في اللغة ولا يضبطه سوى علم أصل المفردات وتاريخ تولدها، وهو علم لم أجد بعد من يسد فراغه في الدراسات اللغوية العربية مع أمس الحاجة إليه. وكلما ورد لفظ "إمام" فهو إما إمام الصلاة أو إمام بمعناه اللغوي العام كما تقدم. أما "الإمام" بمعناه الديني المطلق فلا يستحقه سوى الرسول صلى الله عليه وسلم دون مشاركة من أحد. فهو وحده إمام أمته دنيا وآخرة. أما استعماله في غيره فهو تجوز محمول على أصله القديم في اللغة كما نقول في الإمام مالك والإمام البخاري والإمام ابي حنيفة والإمام لأحمد..إلخ. فهم زعماء لما تصدروا له من قدوة في العلوم الإسلامية منهم : العربي ومنهم الأعجمي وأكثرهم ذوي أصول أعجمية وليست عربية ولا قرشية. كقولنا في ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية : إمام المغازي والسير، رغم طعن بعض المحدثين في أخباره، وقولنا في شعبة بن الحجاج : أمير المؤمنين في الحديث ...وهذا يستقيم لغة على ما وصف القرآن. أما "الإمامة" الدينية العظمى فهي للرسول وحده صلى الله عليه وسلم ودليلك أنها لم يدعيها الخلفاء الراشدون لأنفسهم ولا ادعاها لهم احد. وهم في هذا قدوة وأسوة بالمعنى اللغوي والديني سواء.

[1] أخرج الإمام أحمد في المسند (3 : 129) قال : حدثنا عبد الله (1)، حدثني أبي (2) ثنا (مختصر حدثنا) محمد بن جعفر (3)، ثنا شعبة (4) عن علي ابي الأسد (5)، قال : حدثني بُكَيْر بن وَهْب الجَزَري (6) قال : قال لي أنس بن مالك (7) : أحدثك حديثاً ما أحدثه كل أحد!!!???، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب البيت ونحن فيه فقال : { الأئمة من قريش"، ان لكم عليهم حقاً ولكم عليهم حقاً مثل ذلك، ما إن استرحموا فرحموا وان عاهدوا وفوا، وان حكموا عدلوا. فمن لم يفعل ذلك منهم، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. قلت هذا الخبر لايصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظر تفصيل ذلك في كتابنا : أحاديث شهيرة في السياسة لاتصح : حديث "الأئمة من قريش" .

[2] مقولة المنتظري بولاية الأمة بدل ولاية الفقيه النائب على الإمام الأسطورة الغائب أقرب إلى منطق الإسلام و أوفر حظا للتقريب بين السنة والشيعة.

[3] حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري (563 م -54هـ/674 م) شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم

[4] من قصيدة "بأبي وأمي"، ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، بيروت.

هاهو "المهْدي" إذن، قد ولّى. المهدي على الحقيقة واليقين وليس المجاز. المهدي الذي وصفه لهم رب العالمين[1] :

﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾

ولكي يهدي إلى الصراط أفلا يجب أن يكون نفسه على ذات الصراط؟. هذا ما جاء تأكيده ثانية من رب العالمين[2] :

﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾

أي أنه "مهدي" أولاً وعلى صراط مستقيم ثانيا. فهو من هذه الحيثية "مُعلّم الاستقامة"، كما حلمت بمقدمه جماعات المغتسلين اليهود في خرائب قمران من برية فلسطين وتأخر عنهم لأزيد من سبعة قرون!. لذلك فهو مخول بهذه الهداية وهذه الاستقامة أن يهدي غيره إلى الهدى والاستقامة بمشيئة رب العالمين. وهذا هو الوارد هنا على لسان شاعره حسان. ثم هو ثالثا "أمير العدل"، الذي قال له عبد الله بن ذي الخُوَيْصِرَة التَّميمي في قسمة من قسم الفيء[3] : "اعدِلْ يا رسول الله ! فأجابه : ويلكَ من يعْدل إذا لم أعدل؟ ".

نعم إن لم يعدل محمد حِمْدة الأمم، فمن يعدل بعده إذن؟. ثم ألم يصفه ربه[4] :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

تول الخلافة أبو بكر الصِّدِّيق، وكان أول ما قام به هو الامتثال لأمر الرسول الأخير : "أنفذوا جيش أسامة" قال له الناس : " إن العرب انتقضت عليك وإنك لا تصنع بتفريق الناس عليك شيئاً ".

فكان رده : "والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع أكلتني بهذه القرية، لأنفذت هذا البعث الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنفاذه".

سار أسامة[5] حتى بلغ أرض الشام في آخر ربيع الأول، فلم يلق بأساً ثم رجع. ثم ارتدت العرب ومنعت الزكاة وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للخليفة أبي بكر : "اقبل منهم !"

فكان رده : "والله لو منعوني عقالاً مما أعطوا رسول الله لقاتلتهم". ورد على عمر بن الخطاب، الذي رأى ما ارتأى الناس : " أمِغْوار أنت يا عمر في الجاهلية خوّار في الإسلام؟".

هذا موقف لأبي بكر الصِّديق لا يمكن للمرء أن يقدره حق قدره، إلا بتصوره لمآل الأمور بدونه!. وليس هذا غريباً على من نزل القرآن يثني به يوم أن كان ثاني اثنين في الغار، يوم أن حاولت قريش أن تجتث الدعوة من أساسها باغتيال محمد نفسه!، فلم يجدوا سوى عليّ على فراشه[6] :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما بالغار. إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها. وجعل كلمة الذين كفروا السُّفلى. وكلمة الله هي العليا. والله عزيز حكيم﴾.

---

[1] سورة الشورى، الآية 52 .

[2] سورة الزخرف، الآية 43 .

[3] صحيح البخاري، كتاب "استتابة المرتدين"، باب " من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفّر الناس عنه"

[4] سورة القلم، الآية 4 .

[5] الصحابي أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي (ت: 54 هـ) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وامه : أم ايمن هي حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وغيرهما من وجهاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعمره لا يتجاوز عشرين سنة. أبوه هو زيد بن حارثة مولى الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي المدينة آخى الرسول بينه وبين حمزة بن عبد المطلب. وروى عبد الله بن عمر بن الخطاب قوله : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد صلى الله عليه وسلم حتى نزلت آية 5 من سورة الأحزاب : ﴿ أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾. ونزل بشأنه القرآن وذكره الله تعالى باسمه في الآية 37 من سورة الأحزاب في قضية زينب بنت جحش زوجه، ثم زوج الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن طلقها : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتقي الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه. وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه. فلما قضى منها زيد وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً. وكان أمر الله مفعولا ﴾. فلم ينفذ جيشه إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. بل استأذن منه أبو بكر رضي الله عنه في تسريح عمر بن الخطاب من جيشه هذا عندما بويع بالخلافة. وهو كلبي كما ترى وليس بقرشي!. وهذا وحده كشاهد مجمع عليه تاريخياً يفند مقولة : "الأمراء من قريش"! التي استعملت لا حقا كتكأة للمتحزبين للقرشية في الإمارة.

[6] سورة التوبة، الآية، 40 .

خرج أبو بكر في أول قرار مصيري بالنسبة لمستقبل الإسلام كله، إلى ذي القصَّة، موضع بينه وبين المدينة أربع وعشرون ميلاً تجاه نجد ، وهمَّ بالسير للقاء أولى القبائل المرتدة : طلَيْحَة الأسدي وقبيله. فقال له الناس :

إنك لا تصنع بالمسير بنفسك شيئاً، ولا ندري لِمَ تقصد؟ فأمِّر على الجيش رجلاً تأمَنه وتثق فيه وارجع إلى المدينة فإنك تركتها تغلي بالنفاق.

أخذ الخليفة بمشورة أصحابه هذه المرة وأذعن لرجاحة الرأي فأمّر خالداً بن الوليد على الجيش وأمر للأنصار خاصة، ثابت بن قيس بن شماس. سارا معاً إلى طليحة وهزموه فهرب إلى الشام. شام الغساسنة الذين كانوا يتوجسون خيفة من القوى الجديدة التي هي أشبه بإعصار!. وجاءت بنو سليم تطلب السلاح من أبي بكر بدعوى مقاتلة المرتدين، فإذا بهم ينقلبون يقاتلونه بما أمدهم به من سلاح!. فبعث إليهم خالداً فهزمهم. ثم مضى خالد إلى قبائل غطفان وأسد بمكان يسمى بُزاخَة فهزمهم. ثم لقيهم ببُطاح من أراضي قبائل تميم، فعرضوا عليه الاستسلام فقبله منهم. ثم سار إلى مسيلمة الكذاب إلى أن انهزم. وارتدت البحرين فرماها أبو بكر بالعلاء بن الحضرمي فهزمهم. وبعث بالمهاجر بن أبي أمية المخزومي وزياد بن لبيد الأنصاري إلى أهل النُّجير وحضرموت واليمن حيث قتلوا مدعي النبوة الآخر العنَسي الأسود الكذاب. وبعث عكرمة بن أبي جهل إلى عمان فانتصروا جميعا. ولم تدخل سنة اثني عشرة من الهجرة حتى دالت كل قبائل العرب لخليفة المسلمين.

ثم بدأ غزو شمال الجزيرة من جانبها الشرقي ابتداءاً من سنة اثني عشرة، فغزا خالد بن الوليد الأبُلّة وصالحته طماهيج صاحبة نهر المرأة، وكذلك ابن صلوتا على ألّيس وقرى سواد العراق في شهر صفر. ثم افتتح هرمزجرد ونهر الملك وبارُسْما وصالحه عبد المسيح بن عمرو بن بُقيلة وإياس بن قبيصة الطائي وأهل الأنبار. ومع دخول سنة ثلاث عشرة للهجرة بدأ غزو الشام وأدنى الأرض، فسار جيش بقيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين وجيوش أخرى بقيادة كل من يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأمرهم أبو بكر بالمرور ناحية البلقاء، ثم كتب إلى خالد بن الوليد أن يسير إلى الشام رفداً لهم. فأغار وهو في طريقه إليهم على مدينة تدْمُر التي طلبت الصلح فصالحها ثم أغار على الغساسنة بمرج راهط ونزل على قناة بُصْرى إلى أن قدمت عليه جيوش يزيد وأبي عبيدة وشرحبيل فكان النصر، إذ صالحت بصرى. فكانت أول المدن التي فتحت في الشام. ثم توجهوا جميعاً صوب" أجنادين" بين مدينة الرَّملة وبيت جِبْرين ولقوا الروم الذين كان عليهم ثيودور (Théodore.) أخ هرقل (Héraclius) إمبراطور بيزنطة. فهزموه بمجاهدين لا يتعدون الثلاثة ألف مقاتل سنة 13 هـ/634 م.

ثم جاء نعي الخليفة أبي بكر، الذي قضى في يوم الثلاثاء لثمانية أيام بقين من جمادى الآخرة من نفس السنة، عن عمر يناهز الثلاث والستين، كعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبويع لعمر بن الخطاب خليفة ثانيا للمسلمين.

لقد نجح الأولياء في إرساء أنموذج القرآن لدولة الشورى كما تطلبها ظرفهم التاريخي وجغرافيتهم، على غير نموذج مسبوق. تلك كانت مقاربتهم لإقامة "دولة الأولياء"، التي من واجب كل فرد فيها أن يعلم دينه ودستوره كله المسطر في قرآنه. وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فرضا من فروض العين، على كل مسلم ومسلمة سعيا للعدل والاستقامة واجتثاث الشر من بين وسط المجتمع. نعم لقد نجحوا وهاهو ما وعدوا به يرونه يتحقق على أيديهم رأي العين، خلاصاً للبشرية من طغاتهم الذين سيتساقطون أمام ضربات الأولياء كما يتساقط الفراش على النار. وهل كان بالإمكان هزيمة جيش يتأرجح بين حسنين : إما استشهاد فإلى الجنة ونعيم الخلد، وإما انتصار وإرث مساكن ومغانم الذين كفروا؟: لا سبيل إلى ذلك!. وهكذا خرجت جحافيل الأولياء يغزون العالم، لإخراج العباد من عبادة العباد الطواغيت إلى عبادة الواحد الأوحد القهار. ففتحت دمشق وحمص بالشام، وبعلبك بلبنان سنة أربع عشرة (634 م)، والأردن والبقاع والمدائن بالعراق سنة خمس عشرة (635 م)، وحلب وأنطاكية ومنبج وبيت المقدس ثم وقعة "اليرموك" الفاصلة سنة ست عشرة (636 م). ثم أمر الخليفة عمر ببناء مدينة الكوفة وأنزل بها قبائل العرب المتوجهة إلى فتوح ما وراء النهر، ثم كان فتح الفتوح بفارس بانتصار المسلمين على الفرس في موقعة "جَلوْلاء " سنة سبع عشرة. وشهدت سنة ثمان عشرة فتح الرها وسُمَيْساط والجزيرة وحُلوان والماهات وماسبذان وجُنْديْسابور والسوس وسرق ورامَهُرْمُزْ وشُسْتُر و ريشهْر في فارس. وفتحت قيسارية وتكريت وصُهاب و تُوَّجْ سنة تسع عشرة. وفي سنة عشرين للهجرة افتتح عمرو بن العاص مصر بجيش لا يتعدى قوامه أربعة آلاف مجاهد، بمساعدة ظاهرة من

المصريين ضداً في البيزنطيين فدخل مدينة العريش في 12 ديسمبر 639 م واحتل الفرما (Péluse.) ثم بلبيس وأم دنين. ثم وصلته إمدادات الخليفة بجيش قوامه 12.000 مجاهد بقيادة الزبير بن العوام فاستطاعا هزيمة الجيش البيزنطي بقيادة الجنرالين ثيودور (Théodore) وأنستاسيوس (Anasthasius) في عين(مدينة) شمس (Héliopolis) في تموز (يوليو) سنة 21 هـ/640 م. ثم افتتحت الإسكندرية سنة إحدى وعشرين (8 مارس 641 م) بعد موت الإمبراطور البيزنطي هرقل وطرابلس بليبيا سنة اثنتين وعشرين (643 م).

وقبل دخول شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين بثلاثة أيام استشهد الخليفة الثالث عمر بن الخطاب مطعوناً من طرف أبي لؤلؤة، غلام المغيرة بن شعبة. ثم بويع لعثمان بن عفان سنة أربع وعشرين، واستمرت الفتوحات. ففتح المغيرة بن شعبة همدان وغزا أبو موسى الأشعري بأهل البصرة الري وانتفضت الإسكندرية سنة خمس وعشرين فغزاها عمرو بن العاص الوالي على مصر ثانية. ثم عزل عثمان بن عفان عمرو عن مصر سنة سبع وعشرين وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأمره بغزو إفريقيا. فغزاها بجيش فيه العبادلة الثلاثة : عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير بن العوام فلقوا الحاكم البيزنطي جرجير (Grégoire) بسُبَيْطلة (Suffetula)، على بعد سبعين ميلاً من القيروان، في جيش كبير فهزموه. ثم غزا معاوية بن سفيان ومعه زوجته فاختة بنت قرظة وعبادة بن الصامت صحبة امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية جزيرة قبرس بالبحر. فكانت أول موقعة بحرية للمسلمين سنة ثمان وعشرين. وفي سنة تسع وعشرين عزل الخليفة عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة، وعثمان بن أبي العاص على فارس وجمع الولايتين لعبد الله بن عامر بن كُريز[1]، فافتتح الأخير أصبهان وإصطخر وجُرجان سنة تسع وعشرين، وطبرستان سنة ثلاثين. واستمرت الضغوط الإسلامية على كل الجبهات ففتحت زَرَنج بسِجِسْتان وجزيرة مَلَطِيَّة قبالة الساحل الليبي في البحر الأبيض المتوسط والحبشة سنة ثلاث وثلاثين.

4-4- الفتنة الكبرى

ما أن أطلت سنة خمس وثلاثين، حتى حملت معها غيوماً ملبدة، وفتن كقطع الليل ستضرب تاريخ الإسلام السياسي ضربة لازب، ليظل تردد وقع صداها في وجدان المسلمين إلى قيام الساعة.

قدم على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة جماعة من أهل مصر يتشكون من عامله عليها وأخيه من الرضاعة، ابن أبي سرح. فكتب عثمان إلى عامله يتهدده، إلا أن الوالي لم يعبأ بذلك، بل تعداه إلى ضرب بعض من أتاه من قبل عثمان متظلماً وقتلَ رجلاً من المتظلمة!. فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل يرأسهم أربعة من الرؤساء هم[2] : عبد الرحمن بن عديس البلوي، عمرو بن الحمق الخزاعي، كنانة بن بشر بن عتاب الكِندي وسودان بن حمران المرادي في ليلة الأربعاء هلال ذي القعدة لهذه السنة. فنزلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكوا إلى أصحابه في مواقيت الصلاة ما صنع بهم ابن أبي سرح. فكلم طلحة بن عبيد الله عثمان في ذلك وأغلظ. ثم أرسلت عائشة أم المؤمنين إلى عثمان تقول :

> قدم عليك أصحاب محمد وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ذلك بواحدة، وقتل منهم رجلاً، فأنصفهم من عاملك.

ثم دخل عليه علي بن أبي طالب فقال :

> سألوك رجلاً مكان رجل وقد ادعوا قبله دماً، فاعزله عنهم واقض بينهم. فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه.

فقال لهم عثمان :

> اختاروا رجلاً أولّيه عليكم مكانه

فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر الصديق، فكتب عهده وولاه مصر. فخرج محمد بن أبي بكر والياً على

[1] تعتبر سنة 29 هجرية بهذه التولية لأقارب عثمان بن عفان رضي الله عنه كولاة، المرحلة الثانية من خلافته التي ستدوم ست سنوات أخرى والتي سوف يؤاخذه بعضهم بها.

[2] أنظر هذه الأحداث في "تاريخ خليفة بن خياط،" تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض. ص. 168 - 176 . وابن جرير الطبري:" تاريخ الرسل والملوك"، (1 : 1008) و (4 : 354 - 356)، طبع دي غويه، ليدن، 1297 هـ/1879 م. وكتاب "الثقات " لابن حبان البُسْتي (ت: 354 هـ /965 م) (2 : 256 - 304)، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بتحقيق وتعليق دائرة المعارف العثمانية. ط. أولى 1395 هـ / 1975 م.

مصر بعهده ومعه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وبين ابن أبي سرح. فلما بلغوا مسافة ثلاث ليال من المدينة، إذا هم بغلام على بعير له يخبط البعير خبطا، كأنه رجل يُطلب أو يَطلب. فقالوا له ما قصتك وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب! فقال : أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامله بمصر. قالوا : هذا عامله معنا. قال: ليس هذا الذي أريد ومضى. فأخبر محمد بن أبي بكر بأمره فأرسل في طلبه. فلما جاءوا به سأله : غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول : غلام عثمان ومرة يقول : غلام مروان. فتعرف عليه رجل منهم أنه غلام لعثمان. فسأله : لمن أرسلت ؟ فقال : إلى عامل مصر. قال : بماذا؟. قال : برسالة. قال : أمعك كتاب؟. قال : لا. ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً، ولكن إداوة قد يبست وفيها شيء يَتَقلقلْ فحركوه ليخرج فلم يخرج. فشقوا الإداوة فإذا بها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح. فقرأ محمد بن أبي بكر الكتاب أمام الوفد الذي معه، فإذا فيه :

> إذا جاءك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان..... فاحتَلْ لقتلهم وأبطل كتابه وقِرَّ على عملك واحبس من يجيء إليَّ بتظلم منك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله.

فلما قرأوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة، فاجتمع محمد بن أبي بكر بعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله وسعد ابن أبي وقاص والزبير بن العوام ومن كان بها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفك الكتاب بحضرتهم وعليه ختم عثمان! وأخبرهم بقصة الغلام. وقيل بأنه لم يبق أحد بالمدينة إلا وقد نقم على عثمان رضي الله عنه!. وكانت قبيلة هذيل وبنو زهرة في قلوبها ما فيها لحال عبد الله بن مسعود[1]، وبنو مخزوم لحال عمَّار بن ياسر، وبنو غفَّار وأحلافها لحال أبي ذر الغفاري، وانضافت الآن تميم لما حلَّ بمحمد بن أبي بكر وأعانه على ذلك طلحة بن عبيد الله وعائشة!. فلما رأى ذلك علي وصح عنده الكتاب، بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمَّار ونفر من أصحاب غزوة بدر، ثم ذهبوا إلى عثمان بالكتاب والغلام والبعير. فقال علي لعثمان : هذا الغلام غلامك؟ قال : نعم. قال : والعير بعيرك؟ قال : نعم. قال : فأنت كتبت هذا الكتاب؟. قال : لا، وحلف بالله أنه ما كتب هذا الكتاب ولا أمر به. فقال له علي : فالخاتم خاتمك؟ قال : نعم، قال علي: فكيف يخرج غلامك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟. فحلف عثمان أن ما كتب الكتاب ولا أمر به ولا وجَّهَ الغلام إلى مصر. وعرفوا من الخط أنه لكاتب سرِّه مروان بن الحكم. فلمَّا شكوا في أمر عثمان سألوه أن يدفع إليهم بمروان فأبى!. وكان مروان عنده في الدار وخشي عليه القتل. وفشا أمر الكتاب في الأمصار. فقدم على المدينة من الكوفة وفد في مائتي رجل عليهم عدي بن حاتم الطائي والأشتر مالك بن الحارث النخعي. وجاء وفد ثالث، من أهل البصرة في مائة رجل وعلى رأسهم حُكَيْم بن جَبَلة العَبدي، كلهم يريدون خلع عثمان رضي الله عنه من الخلافة، وضيقوا عليه بحصاره في داره. ثم بعث عثمان إلى الأشتر فدعاه وقال :

> يا أشتر! ما يريد الناس؟ قال : ثلاثة ليس من إحداهن بد، إما أن تخلع أمرهم وتقول: هذا أمركم فاختاروا له من شئتم، وإما أن تقص من نفسك، فإن أبيتهما فالقوم قاتلوك، قال عثمان : أما أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع سربالاً سربلينه الله، والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أخلع أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعضها على بعض. وأما أن أقص من نفسي، فوالله لقد علمتم أني لم آت شيئاً يجب عليَّ القصاص فيه، وأما أن تقتلوني، فوالله لئن قتلتموني لا تقاتلون عدواً جميعاً أبداً، ولا تقتسمون فيئاً جميعاً أبداً، ولا تصلون جميعاً أبداً.

لما وصل الأمر إلى هذا الحد، انطلق كل من ابني علي بن أبي طالب : الحسن والحسين وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام كلهم شاهري السلاح حتى دخلوا الدار، فقال عثمان لهم : أعزم عليكم لما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم. بعد خروجهم جاء محمد بن أبي بكر الصديق[2] في ثلاثة عشر رجلاً فأخذ بلحيته وقال : ما أغنى عنك معاوية[3]، ما أغنى عنك ابن عامر[1]، ما أغنت عنك كتبك، فقال عثمان رضي الله عنه : أرسل لي لحيتي

[1] أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهُذَلي (ت: 32 هـ) الصحابي الجليل، مناقبه كثيرة وتأمّر على الكوفة أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

[2] محمد بن عبد الله (أبي بكر) ، أبو القاسم (ت: 38 هـ/658 م).

[3] معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية الأموي، أبو عبد الرحمن (20 ق.هـ/603 م ~ 60 هـ/680 م). الصحابي، أسلم قبل فتح مكة. وكتب الوحي. وهو في خلافة عثمان ولياً على الشام.

يا ابن أخي، لقد أخذت مني مأخذاً أو قعدت مني مقعداً ما كان أبوك ليقعده. ثم دخل عليه رجل يقال له التجيِّبي، كنانة بن بشر فأشعره مشقصاً فانتضح الدم على المصحف بين يدي عثمان في قوله تعالى : "فسيكفيكهم الله"[2]، ثم تعاوروا عليه حتى قتلوه رحمه الله. فكانت أشنع وأبشع نازلة نزلت بمؤسسة الحكم الشوري في الإسلام.

قالت عائشة أم المؤمنين مستنكرة لما حدث :

"تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش!".

فقال لها مسروق[3] :

"هذا من عملِك كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه".

فقالت :

"والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست مجلسي هذا".

فكان الأعمش[4] يرى أنه كُتِبَ على لسانها[5]. ويجمل الشاعر الراعي[6] ذلك بأوجز ما يمكن أن يقال[7]:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ... ودعا فلم أر مثله مخذولا

فتفرقت من بعد ذلك عصاهم ... شققاً وأصبح سيفهم مفلولا

وفي سنة ست وثلاثين بويع لعلي بن أبي طالب كخليفة رابع، فخرجت عليه عائشة أم المؤمنين وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، الذين نقضا بيعته بهذا الخروج، مطالبين جميعهم بالثأر من قتلة عثمان. فكانت وقعة "الجمل"، فقتل طلحة والزبير. ثم كانت وقعة "صفين" بين أنصار الخليفة علي وبين معاوية وعمرو بن العاص بذات الدعوى : الثأر من قتلة عثمان! فحصلت مقتلة عظيمة سنة سبع وثلاثين. وجاءت وقعة "النهروان" بين علي والخوارج يترأسهم عبد الله بن وهب الراسبي فقاتلهم علي وقتل الراسبي والكثير من أتباعه. وبقيت الحرب مستعرة بين معسكر علي الشرعي ومعاوية الخارج على الطاعة، إلى أن قتل علي غدراً رحمه الله صبيحة يوم الجمعة لسبع بقين من شهر رمضان من طرف عبد الرحمن بن ملجم الخارجي[8]. فبويع لابنه الحسن بعده، الذي لم تستقم له الأمور مع أتباعه وأنصار والده، إلى أن كان عام الجماعة ووقع الصلح بين الحسن ومعاوية، حيث سلم الحسن لمعاوية بالحكم لما رأى من خيانة ونفاق أتباعه في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين. وبهذا الصلح أو ما يسمونه "عام الجماعة"[9]، طوي عصر الخلافة وبدأ عصر "الملك العضوض" على غرار قياصرة الروم الذين ألف أهل الشام

[1] عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة الأموي، أبو عبد الرحمن (4 هـ/625 ~ 59 هـ/679 م) والي عثمان على البصرة. ولاه وهو ابن أربع وعشرين سنة عام تسع وعشرين. وهو ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه. في ولايته فتحت اخرسان كلها واقاليم من فارس وسجستان وغيرها. وفي ولايته قتل كِسرى يزدجرد فاحرم ابن عامر من نيسابور بحجة وعمرة شكراً لله لما تم من فتح على يديه. بقي على البصرة إلى وفاة عثمان رضي الله عنه. وبعد تسليم الحسن بن علي رضي الله عنه الحكم لمعاوية، ولاه معاوية البصرة ثلاث سنين. أنظر ترجمته عند أبي الحسن، علي بن محمد الجزري، عز الدين بن الأثير (ت: 360 هـ) في أسد الغابة (3: 288)، مطبعة دار الشعب.

[2] سورة البقرة، الآية 137 :

[3] مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة الكوفي (ت: 63 هـ/683 م) فقيه عابد ثقة مخضرم لقي الصحابة ولم يشاهد النبي.

[4] سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي، أبو محمد الأعمش الكوفي (61 ~ 147 هـ) المحدث المقرئ الحافظ.

[5] أنظر : أبا الفداء ابن كثير (ت: 774 هـ) في : " البداية والنهاية" (7 : 184)، ط. ثانية 1974 ، مكتبة المعارف، بيروت. والقاضي أبا بكر بن العربي المعافري المالكي في : "العواصم من القواصم"، ص. 129 . مكتبة أسامة بن زيد، بيروت، وكذلك تاريخ محمد بن جعفر الطبري (3:390) ، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف (1960 – 1969 م)، مصر.

[6] عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النُّمَيْري، أبو جندل الشهير بلقب الراعي (ت: 90 هـ/709 م) الشاعر الأموي، عاصر الشاعرين جرير والفرزدق وكان يفضّل الفرزدق على جرير فهجاه جرير هجاءاً مراً!.

[7] الأغاني (20 : 168).

[8] انتدب ثلاثة لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص وهم ابن ملجم الذي تمكن من علي كرم الله وجهه. والحجاج بن عبد الله الضمري لاغتيال معاوية، فضربه وهو في الصلاة بدمشق فجرح إليته ونجا منه. وداذويه العنبري، الذي ترصد عمرو بن العاص في المسجد في مصر، فكان عمرو متوعكاً فخلف على الصلاة خارجة بن حذافة فظنه عمرو فقتله بدله. أنظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (1 : 49).

[9] يقول الجاحظ (المعتزلي) عن عام الجماعة هذا : { عندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية أهل الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه : "عام الجماعة!"". وما كان عام جماعة، بل كان "عام فرقة" وقهر وجبرية وغلبة. والعام الذي تحولت فيه "الإمامة" ملكاً كِسروياً والخلافة منصباً قيصرياً..}

الغساسنة ومن حولهم من الأعراب نمطية حكمهم لقرون.

دام حكم الخلافة الراشدة ثلاثون سنة من عمر الزمن بحلوها ومرها، بفتوحاتها وفتنها وبعبرها التي لا يعفيها الزمن أبد الدهر كدرس يجب على المسلم الوقوف عنده، وعلى الدَّاعية بالخصوص التمعن فيه، وتقليبه من جميع وجوهه وجوانبه، قبل الانطلاق في رسم أي أفق حضاري أو سياسي مستقبلي وعاملاً بمنطوق الآية 141 من سورة البقرة : ﴿ تلك أمَّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ مشفوعاً بمنطوق آخر لا يقل عنه أهمية وورد في الآية 10 من سورة الحشر﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان. ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا. ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾

كان امتحاناً قاسياً بالنسبة للأولياء الصادقين، مريراً بمقدماته وأكثر مرارة بنتائجه. كما أن ثمنه كان فادحاً، كيفما قلب الأمر وعلى كل الأصعدة : كيف يقضي قتلاً ثلاثة من الخلفاء الراشدين من بين أربعة في مثل هذا الظرف الوجيز؟. عمر قتله مارق، عثمان قتله ثوار متهوّكون وعلي قتله متآمرون!.

ثم كيف يكون محمد بن أبي بكر الصديق في جانب علي (هو ربيبه لأن علي تزوج أمه التي كانت تحت أبي بكر الصديق)، والذي سيلقى قتلة شنيعة على يد عمرو بن العاص في مصر وعائشة أم المؤمنين، أخته في الجانب الآخر ؟ : هذا ما يعنون به قولهم ب "الفتنة"، الفتنة لا تخضع لمنطق!. وعمّار بن ياسر عندما أرسله علي مع ابنه الحسن ليستنفرا أهل الكوفة في وقعة الجمل كان يقول لهم[1] :

أما والله إني لأعلم أنها (عائشة) زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها لتتبعوه أو إياها.

كيف خلَصوا إلى عليّ وحده؟، الأقدم إسلاماً والأحسن علانية وسريرة، وعلماً وتقوى، وورعاً وإعراضاً عن الدنيا، والأكثر تمثلاً لرسالة الإسلام وروحه التي رباه الرسول صلى الله عليه وسلم في كنفها وهو ابن عشر من السنين، وأجدر من كان باستطاعته أن يرجع قطار الخلافة إلى جادة المحجة البيضاء من جديد على غرار العهد الأول، لهو قدر مقدور في حد ذاته؟. ولا يكون إلا ما كان!.

ترى أخطأ الإمام عصره ؟ ربما!. لكن هذا لا يفسر الأحداث موضوعياً، بل يلقي بنا إلى متاهات الطوباويات التي لا تقدم ولا تؤخر. لنمحص الأمر إذن، ولنطرح كل الأسئلة، ولنقلب كل الاحتمالات ولننظر في الأمر من جميع الوجوه ولنسلط ضوء المساءلة على كل زاوية أو ركن مظلم.

الثوار الذين تجرؤوا على دم عثمان[2] أخذوا عليه مآخذ حسب دعواهم، منها :

الزيادة في حمى الصدقة، وقد اعتذر عثمان أن أموال الصدقة زادت فزاد في الحمى بقدر زيادتها. وهو محق.

تولية أقاربه على عكس ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخليفتان من بعده، مثل : توليته لابن خاله (لأن أم عثمان أروى بنت كريز) عبد الله بن عامر بن كُريز، الذي ولاه البصرة، بعد أن عزل منها أبا موسى الأشعري. وتوليته لأخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر عند عزله لعمرو بن العاص[3]. وتوليته لسعيد بن العاص على الكوفة، وهو ابن أخيه. فثار الكوفيون عليه سنة أربع وثلاثين وأخرجوه منها وكاتبوا عثمان بأنهم ولوا أبا موسى الأشعري عليها مكانه، حاول عثمان إرجاعه مرة ثانية فاعترضوه، وسموا ذلك اليوم "يوم الجرعة"، ثم أقرهم على أبي موسى حتى مات رحمه الله.

إرجاعه للحكَم بن العاص (عمّه) ووالد كاتِبِ سرّه مروان بن الحكم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد طرد

[1] تاريخ خليفة بن خياط ص. 184 .

[2] عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. يلتقي في جده عبد مناف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.. مناقبه كثيرة. هاجر الهجرتين إلى الحبشة ثم المدينة. وزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنتيه رقية وأم كلثوم، واحدة بعد أخرى، بعد وفاة الأولى. رقية التي كانت هاجرت مع عثمان إلى الحبشة وولدت له هناك عبد الله. وتوفيت عند عثمان في المدينة مرجع الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر، ثم زوج الرسول عثمان بابنته أم كلثوم، فماتت عنده ولم تلد. لذلك كان يسمى ذو النورين. وعاش بضعاً وثمانين سنة أو تسعون ودفن بموقع يسمى "حش كوكب" بالبقيع. ومن مناقبه الكبرى جمعه للمصحف والصحابة أحياء.

[3] نقضت الإسكندرية الصلح الذي كان قد صالحهم عليه عمرو بن العاص فغزاهم عمرو وظفر بهم وسباهم. ثم بعث بالسبي إلى المدينة، فردهم عثمان على ذمتهم وقال : إنهم كانوا صلحاً، والذريّة لا تنقض الصلح، وإنما تنقض الصلح المقاتلة، ونقض المقاتلة الصلح ليس بوقع

الحكم إلى الطائف وبقي طريداً أيام الخليفتين السابقين إلى أن رده عثمان رضي الله عنه في خلافته.

وهذه الاعتراضات لا تصمد كحجج لتبرير إزهاق روح رجل فضله في الإسلام ما هو! وقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ما هي! وسابقته في المشاهد كلها ما هي! وتزويجه الرسول ابنتيه رقية ثم أم كلثوم بعد وفاة رقية عليهما السلام. ثم تمويله جيش العسرة..الخ. ولا تجد تفسيرها سوى في كبر سنه وشيخوخته (~ 90 سنة) رضي الله عنه واستحواذ بعض أقاربه على مجرى الأمور. وهذا ظاهر في مروان بن الحكم، الذي أجمعوا أنه أول من شق أمر المسلمين. إلا أن الملاحظ، هو أن من بين الإثنتي عشرة سنة التي استوفاها حكمه كخليفة، لم ينقم عليه سوى في الست سنوات من نصفها الأخير، حيث بدأت هذه التعينات!. وهذا ربما يفسر بعض ذاك، وإن كان التفسير الأقرب للمنطق لما جرى، إنما مرده إلى ردة الفعل الطبيعية لموروث المنطقة التي تزخر بالمذاهب والنحل، والتي ما كانت لتقبل عن طيب خاطر بهذا الحكم الجديد الذي أزاحهم من سدانتهم وزعاماتهم وكراسيهم في طوائفهم وشعوبهم. لم ترض قريش من الرسول صلى الله عليه وسلم بأقل من هذا وهم عشيرته الأقربين!، فما بالك بهذا المرجل الوثني الأكبر وسوق العقائد المختر بالتاريخ والفاتحين في منطقة الهلال الخصيب؟. فشروط الشورى لم تتوفر قط في هذه المنطقة وعلى مرمى ومجرى أربعة آلاف سنة شهدت فيها المنطقة كل أنواع الطواغيت ودانت لهم بمنطق القوة والجبر فحسب. وما كان باستطاعة من تبقى من الصحابة إلى هذه الفترة تغيير هذه المعادلة. فما بالك وهم يلحنون بالشكوى ويتذرعون بالتظلمات بعضها حقيقي يحتاج إلى رفعه وبعضها ملفق للأغراض سياسية أو نعرية محضة. هؤلاء الصالحون الذين يصدقون كل مدع في دعواه سعياً لإقامة العدل في مجتمعات ألفت الظلم ورفعته إلى مرتبة الأقانيم!؟ ما كان باستطاعتهم مواجهة كل هذه المؤامرات المتسترة بالدين. هذه سوف تحتاج إلى دهاة على شاكلتهم يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم. وهو ما سوف يتحقق فعلاً لاحقاً!.

إن كانت هذه بعض المآخذ المباشرة، المرتبطة بالخليفة كشخص، فهناك ظاهرة أخرى أكثر أهمية بكثير من كل ما صدر عن الخليفة أو ما أخذ به. لقد طرأت على المجتمع المؤمن نفسه طوارئ أثرت في بنيته الاجتماعية أكبر تأثير. لقد قام الاقتصاد الإسلامي في هذه البواكر المبكرة من تاريخه على الفتوح، والفتوح مهما طال أمدها، هي إلى نهاية، إما بإسلام العالم كله، أو تعثر الدعوة عند أفق معين لا تتعداه لأي سبب من الأسباب. لم نصل بعد في هذه المرحلة المبكرة إلى عنق الزجاجة هذا، الذي لن يظهر أثره الحاد والمستعصي سوى في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ومن جاءوا بعده. الفتوح حتى هذا التاريخ، حملت خمس كنوز الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية وخراج الأراضي المفتوحة وجزية أهل الكتاب في كل هذه المناطق، زيادة على مجوس فارس وما وراء النهر الذين عوملوا معاملة أهل الكتاب فيما يخص الجزية. كل هذه الأموال حملت إلى الحجاز، لتوزع كمغانم على المهاجرين والأنصار وأهلهم وباقي المسلمين. زيادة على ما يحصل عليه المجاهد نفسه من سهام الفتوحات التي يشارك فيها بنفسه. فتكونت ثروات طائلة في هذا المجتمع من الغنائم في الغزو أو العطاء[1]. فمثلاً قدرت تركة الزبير بن العوام رضي الله عنه، بعد وفاته، فبلغت خمسين مليون درهم[2]، أي أكثر من خمسين مليون دولار بالعملة الدولية الحالية، لم يعمل فيها في خراج كجابي ولا في ولاية كولي من الولاة، ليقال عنه : إنه ربما اجترحها باستغلال المنصب!. وإنما ما تحصل له من مغانم الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الخلفاء الثلاثة من بعده : تصديقاً لما وعدوا به بعد صلح الحديبية في بيعة الرضوان للمبايعة على الحرب والقتال لأهل مكة، والذين قال الله فيهم[3]:

السبي على الذرية، فعزل عمرو بن العاص عن مصر سنة 25 هـ وولاها أخاه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح، فوجد عمرو بن العاص من ذلك جهة عثمان. أنظر : "ثقات ابن حبان" (2 : 244)

[1] كان أبو بكر يوزع هذه المغانم على المسلمين بالتساوي في خلافته. ثم جاء عمر وطوّر العطاء ليوزعه لا على السَّوية، ولكن حسب سوابقهم في الإسلام ، أي الأقدم فالأقدم، ثم الهجرة الأولى إلى الحبشة، فالثانية إلى المدينة، فأصحاب بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، ثم بيعة الرضوان، ثم فيما حضر من غزوات وسرايا ومواقع..الخ. واستمر هذا التوزيع وله ديوانه، الذي يسجل فيه كل مسلم في عهد الخليفتين من بعده. وتطور العطاء نفسه تطوراً سريعاً، مع تعدد جبهات الفتوح التي يجبى منها المال براً وبحراً. فما كان محدوداً في عهد الخلافة الأولى غدا سيلاً جارفاً في عهد عثمان.

[2] صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، الباب 13 : "بركة الغازي في ماله حياً وميتاً مع النبي صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر".

[3] سورة الفتح، الآية 18 .

﴿ لقد رضي الله على المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً. وأخرى لم تقدروا عليها، قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً.﴾

فجاء الفتح كما وعدوا وتبعته المغانم الكثيرة يأخذونها كما وعدوا. لقد كانوا مربوطين ببرنامج تتحقق بانبساطه كل هذه الوعود وكأنهم يرونها رأي العين. ثم جاءت تلك التي لم يقدروا عليها آنذاك، وقد أحاط الله بها في علمه المتشيء الآن أمام أعينهم بعد أن قدروا، وهي فارس والروم. حصيلة غنيمة طلحة بن عبيد الله من ذلك الوعد، بلغت ثلاثين مليوناً من الدراهم[1]. فإذا علمنا أن عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما كانا غنيين قبل الإسلام وبعده، أدركنا مدى الفرق بين حال المسلمين بالحجاز أيام بداية الدعوة وما انتهت إليه في أقل من أربعة عقود. والذين ذكرنا هم من وجهاء المسلمين، بل هم أربعة من بين ستة، ضمن مجلس الشورى الذي أوكل له عمر مهمة اختيار الخليفة من بينهم. وحيث كثر المال فالفتنة على الأبواب لا محالة!. وسوف نرى أثر هذا جلياً في "الدور القيصري الأموي"، الذي خلف "الدور الشوري الراشدي" بعد مقتل علي كرم الله وجهه.

فهذه الظاهرة لطغيان المال لم يسلم من وطأتها كبير شأن ولا صغيره، شريف ولا مهين إلا من رحم الله، لأنها طغت على العصر كله حتى صارت رداءاً له وغطاء، بل لغته الوحيدة، دون إحراج يذكر[2]!. وهي أيضاً فيها بعض أجوبة لسبب فشل الخطة الإصلاحية للخليفة الرابع. فالمؤرخون نقلوا أن عبد الله ابن عباس، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، كان والياً على الكوفة من قبل علي وكان على قضائها أبو الأسود الدولي، فكتب الأخير إلى الخليفة علي كرم الله وجهه يعلمه بمصير بيت المال[3].

ربما كان توجس ابن عباس في محله لما يعرف من منطق العصر ولما سوف تؤول إليه الأمور بعد هنيهة إبان الحكم القيصري، الذي سوف يخلط الأوراق وبيت المال سواء، ليصبح العطاء مغنماً لغير أهله ولغير أصحاب أسهمه. بل سيحرم منه آل هاشم وآل العباس وآل البيت ظلماً وعدواناً!. لما سيصبح سياسة لكل المتجبرين وإلى اليوم لتشتيت البيوتات وإذلال المخالفين والمعارضين[4]. سنة أموية كانت في البداية!.

ونظراً لسيطرة هذا النوع من الاقتصاد، أعني اقتصاد الخراج والجزية ومغانم الفتوح، فقد تكون مجتمع إسلامي، مجند كله للجهاد، ما دام بيت المال تكفل برفاه جميع مواطنيه. فمن لم يكن على ثغر من الثغور، فهو في جبهة من الجبهات، التي توسعت حتى بلغت تخوم الصين شرقاً والمحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالاً والصحراء والهند والمحيط الهندي وشبه جزيرة الهند جنوبا. إلا أنه كما أسلفنا، كان يحمل بين طياته جرثومة تصدعه. إذ يكفي أن يدخل في الإسلام مَن يُجْبَوْن، وهو أساس الدعوة الإسلامية أصلاً، لأن الرسول إنما بعث هادياً

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد (3 : 858).

[2] كما شاهدنا نمطاً من ذلك، في عصرنا هذا مع الطفرة البترولية وما طرأ على سكان الخليج من تغيير وانقلاب جذري في سلوكياتهم ومعايشهم وكثرة ولعهم بالمضاربات واقتناء الدثار والعقار والسفريات والبذخ وما يتبع ذلك من لهو وطيش.

[3] أما بعد، فإن الله جل علاه جعلك والياً مؤتمناً وداعياً مستولياً. وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحاً للرعية، توفر لهم في فيئهم وتظلف (أي تمنع) نفسك من دنياهم. فلا تأكل أموالهم ولا ترتشي في أحكامهم، وإن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك. فانظر رحمك الله فيما هناك واكتب إلي برأيك فيما أحببت أنتهي إليك والسلام.

فكتب إليه الخليفة رداً جاء فيه :

أما بعد، فمثلك نصح الأمام والأمة، وأدى الأمانة ودلّ على الحق. وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت إليَّ فيه من أمره ولم أعلِمهُ أنك كتبت، فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك ما النظر فيه للأمة صلاح. فإنك بذلك جدير وهو حق واجب عليك والسلام.

ثم كتب الخليفة إلى ابن عباس في ذلك، فجاء رد ابن عباس موجزاً :

أما بعد، فإن الذي بلغك باطل وإني لما تحت يدي ضابط قائم وله حافظ، فلا تصدق الظنون والسلام.

فكتب إليه علي :

أما بعد، فأعلمني ما أخذت من الجزية ومن أين أخذت، وفيما وضعت ؟

فكتب إليه ابن عباس يطلب منه إعفاءه من عمله :

أما بعد، فقد فهمت تعظيمك مَرْزَأة ما بلغك أني رَزَأته (أي أصبته) من مال أهل البلد، فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن (مرتحل) عنه والسلام (ابن جرير الطبري : "تاريخ الرسل والملوك، (5 : 141 ~ 142) ط. ثانية، دار المعارف، مصر)

[4] لقد عايشناها وقاسينا من وبالها كما قاسى مؤمنون آخرون صدقوا الله وما بدلوا تبديلا. والحساب عند الله تعالى.

وليس جابياً، ليعجز مثل هذا الإقتصاد عن توفير مستلزمات مجتمع الرفاه هذا على هذه الوثيرة، بدون تلك المحاسبة الدقيقة والمضبوطة، التي أقامها عمر على نفسه وعماله وأصر على تطبيقها علي. أي أنه اقتصاد مؤقت ظرفي لتبليغ الدعوة، لا غير.

وهكذا نجد أنه عندما استخلف أهل العراق الحسن بن علي مكان والده بعد اغتياله، لم يعد هناك مجال للتشاور خارج العراق نفسه، لأن دور المدينة كعاصمة إسلامية انقرض نفسه، يوم نقل علي مقر خلافته إلى هناك. وكان مجبراً على ذلك لنأي المدينة عن مصادر التموين الحربي والرجال. ومن ثم ظهر إلى الوجود منطق التاريخ والجغرافيا الذي أحيا وبعث الروح من جديد في ذلك الاستقطاب القديم بين عرب الشام الغسانية وعرب العراق الحيرية، الذي لم يمض على انفراط عقده سوى عشرين سنة فقط منذ طلائع الفتوح زمن أبي بكر وعمر. ففي معركة "صفين" سنة 37 هـ، أي أقل من عشرين سنة، منذ سقوط أواخر مدن الشام وفلسطين، وهي "عسقلان" سنة 23 هـ، نشاهد ذلك الاستقطاب جلياً وواضحاً رغم بعض التقاطعات من قبائل أخرى كاليمنية مثلاً، التي توزع ولاؤها بين هذين المحورين التاريخيين[1].

ففي صفين ظهر وكأننا نشهد معركة من معارك الحيرة وغسان، لولا وجود هذه القلة القليلة من أهل بيعة الرضوان والبدريين واليمنيين. وكل جند معاوية، حتى من أسلم منهم، لم يكن قد مرَّ على إسلامه عقدان يوم "صفين"، وهي ذاتها المدة التي كان معاوية والياً فيها على الشام والأردن وفلسطين أيام عمر ثم عثمان. مما يعني أنه يحارب بجند منضبط، بينما علي لم تكن له سابقة معرفة بأنصاره خارج المدينة قبل بيعته بالخلافة. لذلك وجد كل ذلك العنت في عدم انضباط بعض أتباعه ومشايعيه. ثم هو لا يرشي ولا يؤلف بمال أو جاه.

وكما حلل أرسطو نمطية الحكم الذي جربته يونان الشرك بقوله :

سواء أكان الحكم يخضع للأقلية أو للأكثرية فهو غير جوهري بالنسبة للأوليجارشية(حكم القلة) أو الديمقراطية (حكم الأكثرية) . إذ الأغنياء قلة في كل مكان، والفقراء كثيرون!.

فهذا منطق الأشياء ومنطق العصر وسنة من سنن سلوك المجتمعات عندما تحكمها الظرفية والشؤون المادية قبل غيرها حتى وإن اختبأت أو تسترت تحت الشعارات الدينية!. الإسلام إلى هذه الفترة لم يتغلغل بعد كثقافة وسلوك في هذه المجتمعات كي يحصل الانقلاب الحضاري المنشود. الحضاريون فعلاً كانوا قلة يبثون الدعوة بحماس، إلا أن

---

[1] وهكذا نجد لواء الخليفة الشرعي علي، مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيل عمَّار بن ياسر، وعلى الرَّجَّالة عبد الله بن بُدَيْل، وعلى رجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد الخزاعي، وعلى رجّالة الميسرة الحارث بن مرّة العبدي، وعلى الميسرة قبائل ربيعة وعليهم عبد الله بن عباس، وعلى الميمنة قبائل اليمن وعليها الأشعث بن قيس، وعلي في القلب في قبائل مُضر البصرة والكوفة، وعلى قريش وأسد وكنانة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعلى كِندة حجر بن عدي، وعلى بَكر البصرة حُضَين بن المنذر، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعلى سَعد والرباب جارية بن قدامة، وعلى بَجيلة رفاعة بن شداد، وعلى أهل الكوفة رويم بن الحارث، وعلى قبائل عمرو وحنظلة البصرة أعين بن ضبيعة المجاشعي، وعلى قضاعة وطئ عدي بن حاتم، وعلى لهازم الكوفة عبد الله بن حجل العجلي، وعلى لهازم البصرة حريث بن جابر الحنفي، وعلى تميم الكوفة محمد بن عطارد، وعلى أزد اليمن جندب بن زهير، وعلى عمرو الكوفة وحنظلتها شبث بن ربعي، وعلى همدان سعيد بن قيس، وعلى سعد الكوفة وربابها الطُّفَيْل بن شُبرُمة، وعلى مِذحَج الأشتر بن الحارث، وعلى عبد القيس الكوفة صعصعة بن صوحان، وعلى قيس الكوفة عبد الله بن طُفَيل الكناني، وعلى عبد القيس البصرة عمرو بن جبلة، وعلى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمي، وعلى قيس البصرة قبيصة بن شداد الهلالي.

وشهد مع علي مع هؤلاء عدة ممن بايع بيعة الرِّضوان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وممن شهد غزوة بدر الكبرى واستشهد منهم ستون، من بينهم عمَّار بن ياسر. (سرده الذهبي في "تاريخ الإسلام" (2 : 171)، مطبعة السعادة، مصر (1369 /1949 م، بعض أسماء هؤلاء البدريين).

أما لواء المتمردين على الخليفة بزعامة معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، فكان مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى الرَّجَّالة مسلم بن عقبة المُرّي، وعلى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى أهل حمص الميمنة ذو الكلاع، وعلى أهل قِنَّسْرين على الميمنة زُفَر بن الحارث، وعلى أهل الأردن الميسرة أبو الأعور السلمي، وعلى أهل فلسطين الميسرة مسلمة بن مخلد، وعلى الرَّجَّالة أهل قِنَّسْرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعلى رجَّالة أهل الأردن عبد الرحمن القيسي، وعلى رجّالة أهل فلسطين الحارث بن عبد الأزدي، وعلى رجَّالة الميمنة كلهم حابس بن سعد الطائي، وعلى رجَّالة الميسرة بلال بن أبي هُرَيرة الدُّوسي، وعلى قيس دمشق حسان بن بَحْدَل الكلبي، وعلى قضاعة مصر عباد بن يزيد الكلبي، وعلى كِندة دمشق ابن حوي السَّكْسكي، وعلى كندة حمص يزيد بن حُبَيرة السَّكوني، وعلى الحَضْرميين والحِمْيَريين اليمنيين ابن عفيف، وعلى قضاعة الأردن حَبيش بن دَلجة، وعلى كنانة فلسطين شريك الكناني، وعلى مِذحج الأردن مخارق بن الحارث الزبيدي، وعلى قبائل جُذام فلسطين

الغرس كان جديداً، أما النتاج فكان له أن ينتظر سناحة التاريخ والظرف إلى أن يدخل الإيمان قلوب الناس.

وما أن تمت البيعة للحسن حتى خرج بالناس ونزل بعاصمة فارس التاريخية : "المدائن"، ثم بعث لملاقاة جيوش معاوية بعثاً يرأسه قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً. وبينما الحسن لا زال بالمدائن، إذ نادى مناد في عسكر قيس : " ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا". فنفر العسكر وتفرقوا عنه وعمت جموعهم فوضى وصلت بهم إلى حد نهب سرادق الحسن نفسه!، حتى نازعوه بساطا كان تحته. فلما رأى الحسن تفرق الناس عنه قام خطيباً فيهم وقال :

يا أهل العراق إنه سخَّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي وطعنكم إياي وانتهابكم متاعي.

إنك لا تصنع شيئاً بكثرة الدهماء، هم معك وقد ينقلبون ضدك في طرفة عين بجهلهم حتى عند سلامة بواطنهم. وهذا هو الدرس البليغ الذي كان يجب أن يتعلمه المسلمون من تجربة الخليفة الرابع رضي الله عنه، والعمل على تلافي استمراره بالتربية والتعلم لكل فرد من أفراد المجتمع فرض عين على الفرد والمجتمع، إلى أن ينتفي وجود أشكاله ونمطيته مستقبلاً بين المسلمين، ولكن قصرت العزائم والهمم وتعطلت الآلية السياسية لبعث الأمة من جديد، إلا من طواغيت يكررون أنفسهم في التاريخ برتابة مملة وبنيسة!.

ثم بعث إلى معاوية يطلب الصلح، فصالحه على أن يأخذ الحسن خمسة آلاف ألف من بيت مال الكوفة[1]. أهو بمثابة سهم ذوي قربى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي فصلته آية الخمس[2] :

﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾

الذي وجدنا أن الخليفة الأول أبا بكر كان قد رده بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المال وسار على ذلك الخلفاء الثلاثة من بعده[3]، أم هو حدس من الحسن رضي الله عنه لترتيب جديد لن تظهر بوادره إلا بعد حين، حيث سيحرم آل البيت من كل عطاء بالمرة؟.[4]

لكن إلى هذه الفترة، عندما علم عبد الله بن عباس بما صارت إليه الأمور من اتفاق الصلح بين الحسن ومعاوية، كتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه الاحتفاظ بالأموال التي أصابها. فشارطه معاوية على ذلك[5]. فعلي في منصب الخلافة ساير الخلفاء قبله فيما يخص سهم ذوي القربى، فلم يعطه لهم عندما طالبوه به، واعتبره ضمن بيت مال المسلمين، لهم ما للمسلمين. هذا العدل المطلق والغيرة على مصلحة الإسلام ثوابت عنده. هي مما تشرب به علي كرم الله وجهه في كنف صاحب الرسالة إلى أن امتزج بوجدانه وأخلاقياته في كل الظروف. نشدان علي للإصلاح، حتى في هذه الفترة الحرجة الحلكة المتطايرة بكل الشرور والفتن، حيث اختلط بها دخن ودغل هذا العصر وما حمل، جعلت محاولته كمن يريد إرجاع العفريت إلى القمقم بعد انفلاته، أو كمن يسبح ضد تيار جارف.

فإن كان هو ممن يزهد في أوساخ الدنيا الفانية ودرنها، وإن كان هو ممن لا يلجأ إلى أساليب الدهاء أو الخداع أو المكر في الحرب أو السلم، بحيث أنه حتى عندما طلب منه ابن عباس أن يرسله إلى معاوية، ليعرف كيف

ولخمِها ناتل بن قيس الجذامي، وعلى همدان الأردن حمزة بن مالك، وعلى خثعم ولفها فلان بن عبد الله الخثعمي، وعلى غسان الأردن يزيد بن أبي النمس.

[1] تاريخ الرسل والملوك (5 : 159). وفي رواية أخرى انه صالحه على ما في بيت مال الكوفة وخراج دار بجرد، وأن لا يشتم علي والحسن يسمع!. وفي رواية أن أهل البصرة حالوا بين الحسن بن علي وخراج دار بجرد أثناء رحيله من الكوفة إلى المدينة. انظر تاريخ الرسل والملوك (5 : 165).

[2] سورة الأنفال، الآية 41 .

[3] يورد أبو عبيد، القاسم بن سلام في كتاب "الأموال" بتحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر للطباعة والنشر، ص. 216 النص التالي عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني (ت: 150 هـ/767 م) صاحب المغازي أنه قال : { سألت أبا جعفر محمد (هو الباقر) بن علي (هو زين العابدين) فقلت : علي بن أبي طالب حيث ولي أمر المسلمين ما ولي، كيف صنع في سهم ذوي القربى؟. قال أبو جعفر : سلك به سبيل أبي بكر وعمر. قلت : وكيف أنتم تقولون ما تقولون؟. فقال : ما كان أهله يصدرون إلا عن رأيه. قلت : فما منعه؟. قال : كره والله أن يدَّعى عليه خلاف أبي بكر وعمر وقال علي : "ما قدمت هنا لأحل عقدة شدها عمر"

[4] وهكذا نجد للمال دوراً كبيراً هنا، ولكنه لم يعد يستعمل بتلك الشفافية النصوصية الأولى على عهد الراشدين. فحتى المستحقات الشرعية، أصبحت في ظل هذا الانقلاب الجديد، تظهر مشوبة بالريبة، مما يخدم مصلحة السلطة الجديدة، التي سوف تجعل لاحقاً بيتها وبيت المال شيئاً واحداً!.

[5] تاريخ الرسل والملوك (5 : 158).

يمكنه التعامل معه، ما كان من رد من علي سوى ما كان منتظراً من علي[1]! :

لست من مكرك ومكر معاوية في شيء ولا أعطيه إلا السيف حتى يغلب الحق على الباطل

أوليس هو من ظفر بألد أعدائه في صفين، وتركهم يفلتون لواذاً، من غلبة مروءته وشهامته عليه!؟. فلا شك أنه وحده من يفعل ذلك مع الاستطاعة في الفترة التي نحن بصددها. بل قل من يشاركه في ذلك المنظور ولا في تلك الرؤى عدا قلة كالصحابي أبي ذر الغفاري[2]. لذلك يمكن القول أنه في سنة أربعين للهجرة، كان الخليفة علي أمة لوحده مع ثلة من الصحابة، بقية من أمة قد خلت : "أمة الشورى"، التي وُرِّيَت مع تورية الخليفة الإمام الثرَى شهيداً على يد نكد طليعة لعصر أكثر نكداً !.

5- الطور القيصري في الإسلام : الدولة الأموية

هؤلاء الذين لم يسلموا لعلي بالخلافة وحاربوه بدون هوادة، والذين ظلوا يؤاخذونه بعدم إقامة الحد على قتلة عثمان، بدعوى : الثأر من قتلة عثمان!، لم يفعلوا شيئا بالنسبة لهؤلاء القتلة، بعدما صفت لهم مقاليد الأمور!. بل بدءوا فعلاً طوراً قيصرياً في الحكم على ما عهد ملوك الشام الغساسنة في تقليدهم لأبهة الملك بالقسطنطينية البيزنطية. وكان معاوية بن أبي سفيان (40 هـ/660 م~ 60 هـ/679 م) أول من أرسى هذه التقاليد الجديدة في الملك. كان كاتب سره : عبيد بن أوس الغساني وعلى الديوان وأمره كله : سرجون بن منصور الرومي[3]. فابتنى لنفسه قصراً سماه "الخضراء"، واتخذ فيه السرير للجلوس، على غرار "العرش". ثم وضع حول السرير ستائر وأحاط نفسه بالحجاب. ثم أوجد الحرس والشرطة للمرور أمامه أو حراسته. ثم حذراً من الغيلة أو أن يسقط بسيف ثائر أو طعنة مخالف، فقد احتاط لنفسه باتخاذ" مقصورة "خاصة في المسجد يصلي فيها منفرداً عن الناس والحرس على رأسه!، فمتى سجد قام الحرس شاهرين السيوف!. وسوف يأتي عبد الملك بن مروان (65 هـ/684 م~ 86 هـ/705 م) بعد ذلك ليدفع ب "أبهة الملك" إلى أفق ضاهى أبهة قيصر وكسرى مجتمعين في أعز مجدهم. فكان يجلس على العرش وعلى يمينه قد اصطف الأمراء وعلى يساره رجالات الدولة والبلاط، ثم يقف أمامه من يريد المثول لديه من رسل الملوك والفقهاء والكتاب والشعراء وغيرهم، حتى قيل عنه أنه أول من تجبر في الإسلام.

معاوية حكم الشام قبل توليه للملك العضوض عشرين سنة، يوم جمع له عمر كل الشام في طاعون عمواس عندما توفي أخ معاوية، يزيد بن أبي سفيان مع الولاة الاخرين، معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح سنة 18 هـ. ثم حكمه كملك لعشرين سنة أخرى. والشام لها تاريخ في الملك أثيل يمتد لقرون وقرون ثم قواعد في السياسة وإحراجاتها، على عكس الحجاز الذي خرجت منه الدعوة، والذي تغلب عليه البداوة. فإن كانت للبدو دسائس ومروقات، فلا شك أن للشام تاريخ أطول وأعرق في كل هذا زيادة على دسائس الملك والسياسة. وهذا الإرث استعان به معاوية لتوطيد الملك لبني أمية ضداً في خصومهم المختلفين. فلم يتحرج من استعمال المتجبرين والأجلاف وتمكينهم من السلطة المطلقة ليتصرفوا في رقاب الناس على ما عهدت المنطقة في جاهليتها. وسوف يستن به كل من جاءوا بعده. فقد استعمل بسر بن أرطأة العامري أميراً. فعمل هذا الأخير على تشريد آل البيت وقتل ولدي عبيد الله بن عباس عبد الرحمن وقثم وهما صغيرين على يد أمهما ففقدت عقلها وهامت على وجهها[4]. أضف إلى ذلك دهاءه الفطري ثم ما كسبه من سياسة الملك التي قلما تعبأ بالمبادئ، عندما تستميل المخالفين إما برشوتهم أو التغاضي عن

---

[1] الحافظ، أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (673 هـ ~ 748 هـ) : "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام"، نشر سامي الدين القدسي، ط. سنة 1367 هـ/1947 م، الجزء الخاص بالخلفاء الراشدين، ص. 324 . القاهرة.

[2] جندب بن جنادة (ت: 32 هـ) انتقد معاوية في الشام فشكاه الأخير إلى عثمان بن عفان ونهاه عن الفتيا، فانقطع إلى الربذة سنوات في معزل عن الناس إلى أن مات وحيداً لشهوده على الحق وثباته عليه. مناقبه كثيرة.

[3] تاريخ خليفة بن خياط، ص. 228 و 299 . وسوف نجد يحيى بن قيس الغساني على شرطة عبد الملك بن مروان (65 هـ ~ 86 هـ) وسرجون بن منصور الرومي على الخراج والجند!. وبعد موت سرجون ولى مكانه سليمان بن سعد ، وهو أول من ترجم ديوان الشام بالعربية. مما يعني أن كل الديوان إلى هذه الفترة كان بالرومية .

[4] أنظر التاريخ الصغير للبخاري (1 : 111) تحقيق محمود إبراهيم زايد،ط. أولى : 1406 هـ /1986 م، دار المعرفة، بيروت.

مساوئهم المختلفة واستعمالهم في مناصب ليسوا لا أكفاء لها ولا أهل[1].

ويلخص مفهوم الملك في بداية هذا العصر أنه أثناء تنقل معاوية بين بعض كور الشام يبسط له البُسُط على الطريق، على غرار المنصات المعاصرة للملوك، ليجلس فوقه. ويروي عبد الله بن مسعدة أنه أثناء تنقله هذا، بسط له على سطح مشرف وأذن له للجلوس معه ومرت أمامهما استعراضات للقطرات والرحائل والحواري والخيول. فقال معاوية :

يا ابن مسعدة، رحم الله أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا!، وأما عمر – أو قال حنتم فأرادته الدنيا ولم يردها. وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه وأما نحن فتمرغنا فيها.

ثم وكأنه ندم! قال :

والله إنه الملك أتانا الله! إياه[2]

ثم كانت تلك الثُلمَة، عندما حاول معاوية تأثيل هذا الملك في أسرته بإرغام سادة شباب المسلمين وعلّيتها، المبايعة بالعهد، وتحت تهديد السلاح، لابنه يزيد : الفظ، الغليظ، السِّكِّير، المشهود الفسق في حياته!. فما كان منتظراً من أمثال خيرة شباب الإسلام محتداً وطريقة كالحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، أن يقبلوا بهذا، في سابقة غير معهودة ولا مستساغة شرعاً لهؤلاء الأفاضل. إلا أنه أكرههم كرهاً[3] على ذلك!. فافتتح يزيد عهده (60 ~ 64 هـ) بقتل الحسين بن علي (4 هـ ~ 61 هـ/680 م) وثلة من أهله وبني عمومته في يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء، وحمل رأس الحسين ومن بقي على قيد الحياة من حرمه وابنه زين العابدين إلى دمشق كالسبايا!، في مشهد تقشعر له الأبدان وتشيب فيه رؤوس الولدان شيباً! وختمه بوقعة الحرة، حين خرج عليه، لقلة دينه وفسقه، أهل المدينة فجرد لهم مسلم بن عقبة (ت: 64 هـ/683 م)، أحد أمراء أجناد أبيه يوم "صفين"، فقتل من أولاد المهاجرين والأنصار أزيد من ثلاثمائة وستة أنفس، حتى هجر المسجد النبوي ولم يصلى فيه جماعة أياماً. ثم رمى قائده الحُصَين بن نُمير الكندي السكوني (ت: 67 هـ /686 م) الكعبة بالمنجنيق في

---

[1] ويكفي هنا أن يستعرض المرء عدد الدهاة الذين أوجد لهم معاوية مواطئ قدم أو استعان بهم. فقد استعمل مثلا عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاه المغيرة بن شعبة وقال له :

"استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمرو على مصر، فتكون أنت بين لِحْيَي الأسد !".

فعزل معاوية عبد الله بن عمرو واستعمل المغيرة بن شعبة عليها.

فدخل عمرو على معاوية فقال : استعملت المغيرة على الكوفة؟

فقال معاوية : نعم

فقال عمرو : أجعلته على الخراج ؟

فقال معاوية : نعم

قال عمرو : تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال، فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئا. استعمل من يخافك ويهابك ويتقيك. فعزل معاوية المغيرة عن الخراج واستعمله على الصلاة.!

فلقي المغيرة عمرو فقال: أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به في عبد الله؟

قال المغيرة : نعم

قال عمرو : هذه بتلك! (تاريخ الرسل والملوك (5: 166).

وليس يهم أصدقت مثل هذه الروايات أم اختلقت، وما أكثر الاختلاقات!، إلا أن الواقع يصدق إمكان حدوث ذلك وأكثر!. وظهر التسيب على بيت المال والانتهاب منه دون وجه حق ولا رادع، سمة بارزة في هذا الطور الملوكي المستأنف. فعندما أراد معاوية عزل عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة سنة 44 هـ قال له :

اختر بين أن أتتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك واردك إلى عملك وبين أن أسوغك ما اصبت! وتعتزل

فاختار ابن عامر أن يسوغه ما اغترف أثناء ولايته ويعتزل! (تاريخ الرسل والملوك (5 : 214).) على عكس ما كان قد سنَّ الخليفة الثاني عمر من محاسبة الولاة ورد نصف أموالهم لبيت المال!.

[2] تاريخ الرسل والملوك (5 : 334).

[3] أنظر أحداث سنة إحدى وخمسين هجرية من تاريخ خليفة بن خياط، ص. 213 .

حصاره لعبد الله بن الزبير بداخل الكعبة حتى تضعضع بناؤها[1]. في كل هذه المخازي، كان الجند الذي استعمله ملوك الشام بقايا من رعاع الأعراب وجهلة الغساسنة، الذين لم يلامس الإسلام قلوبهم قط؟ وإلا فهل يعقل أن يفعل مثل هذا من بقلبه ولو حبة خردل من إيمان؟. ثم جاء مروان بن الحكم بن العاص (64 ~ 65 هـ) الذي جمع من مخازيه زيادة على مخازي والده الحكم، طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يندى له كل جبين ويقشعر من نذالته كل قلب. فهو أول من شق عصى المسلمين بلا شبهة وقتل النعمان بن بشير أول مولود من الأنصار في الإسلام شر قتلة. وقتل قبل ذلك عبيد الله بن طلحة في وقعة الجمل برميه بسهم إلى غيرها من الدواهي. ثم جاء عبد الملك بن مروان (65 ~ 86 هـ) فاستعمل الحجاج بن يوسف الثقفي على الحجاز، الذي فاق ولاة معاوية : بسر بن أرطأة وعقبة بن مسلم في الفتك والجور. فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس ورمى به الكعبة كما رماها قبله الحصين بن نمير أيام يزيد. وعندما انتقل إلى العراق واليا عليها منذ سنة 75 هـ أوقع بعامة أهل البصرة من العلماء والعباد مقتلة عظيمة في يوم عيد الأضحى سنة 81 هـ . ثم كانت وقعة دير الجماجم التي حمل فيها ابن الأشعث شعار: ياثارات الصلاة، لأن الحجاج كان يميت الصلاة حتى يخرج وقتها. وقتل سعيد بن جبيرالمقرئ المفسر المحدث ظلما في شعبان سنة 95 هـ، وما من أحد يومها إلا وهو مفتقر لعلمه. واختفى العلماء والمحدثون وفروا من بطشه وظلوا مختفين منه ومن بطشه إما بداخل الحرم كما فعل الفقيه المحدث سفيان الثوري أو في النواحي النائية عن العراق كاليمن كما فعل مجاهد بن جبر المحدث المفسر. ولم يجرءوا على الخروج إلا يوم أن جاءهم نعيه وأراح الله منه البلاد والعباد في أواخر رمضان سنة 95 هـ.

فهل بسر بن أرطأة وعقبة بن مسلم والحجاج بن يوسف عملوا من تلقائهم دون سند قوي ممن أوكل بهم إمارة المسلمين ؟

وهل أن وزرهم في استباحة دماء المسلمين بالظنة والشبهة، يقف عندهم ولا يتعداهم مشاركة في الوزر إلى أصحاب السلطة الفعلية ؟ كلا ومنطق الإسلام!، حتى وإن كانت المنطقة لا تخضع إلا للسيف. إذ منطق الإسلام يأباه. ورحمة الإسلام تأباه. وعدل الإسلام يأباه. وكل حرف من حروف القرآن يأباه. ثلمة وغشاوة وظلمة ما كان الإسلام في غنى عنها وعن مقترفيها.

هذا النوع من التجاوزات كان له وقعه المنتظر على الحياة الاجتماعية. ففي الحجاز الذي انطلقت منه الرسالة، أدى تدفق أموال الفتوح عليه إلى تغير حياة الناس من شظف العيش إلى الترف اللافت، بل إلى الغنى الفاحش!. ثم زادت ثروتهم في أيام معاوية الذي أغدق عليهم من الهبات والعطايا لترضيتهم وإبعادهم عن السياسة والمطالبة بالخلافة الشيء الكثير. ولهذا أكب أكثرية الشباب هناك على اللهو وجدوا في البحث عمن يرفه عنهم ويسليهم أو يملأ فراغهم السياسي. ولكثرة الجواري والخدم التي انتقلت إليهم بالبيع والشراء، انتقلت إليهم معهم ومعهن، أجواء الحضارات التي نشئوا فيها. فشاع الغناء والموسيقى والبذخ واللهو والسباق والصيد والشطرنج والشراب. كما شغفوا ببناء القصور وتزيين الحدائق واقتناء اللباس الفاخر من الخز والديباج الموشى بالذهب بالنسبة للرجال، وثياب الحرير والديباج والجواهر واللآلئ الثمينة بالنسبة للنساء. فتكونت طبقة مترفة لا تهتم سوى بالموسيقى والشعر والغناء ولا شيء آخر. ولم تحدث نفسها لا بثورة ولا بخروج ، وابتعدت كل البعد عن السياسة وفتنها التي انتقلت مواطنها إلى العراق والشام والأطراف.

وكما كان دأب ملوك الغساسنة في البذل للشعراء الذين يمدحونهم، كما فعلوا مع النابغة الذبياني[2] وحسان بن

[1] من باب المساومة على المناصب ما عرضه يزيد بن معاوية على عبد الله بن الزبير عندما خلف أباه ولم يبايعه ابن الزبير، فارسل له النعمان بن بشير الأنصاري وهمام بن قبيصة النميري يدعوانه إلى البيعة ليزيد على أن يجعل له ولاية الحجاز وما شاء وما أحب لأهل بيته من الولاية!. فقال لهما ابن الزبير : أتأمراني ببيعة رجل يشرب الخمر ويدع الصلاة ويتبع الصيد؟. (تاريخ خليفة بن خياط، ص. 252).

[2] زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع الغطفاني، أبو أمامة الذبياني (: ~ 18 ق.هـ /604 م) اتصل ببلاط الحيرة لمدة أيام أبي قابوس، النعمان الثالث (580 م~ 602 م) هو وشعراء عصره : حسان بن ثابت، لبيد بن ربيعة، الأعشى الربيع بن زياد.. وكان المقدم لديه، إلى أن وشي به الوشاة وعكروا عليه صفو معاشه وكسبه. فر من انتقام النعمان واتصل ببلاط أعدائهم الغساسنة فاتصل بالملك عمرو بن الحارث إلى أن صار شاعره المفضل يدخل عليه في كل مناسبة في حواضر غسان بين جلق وجابية الجولان. وكانت غسان تشكو من هجومات قبائل النابغة وحلفائهم من الأسديين على مراعي غسان فيضطرون إلى محاربتهم.

ثابت في الجاهلية[1]، فقد أحيا الأمويون هذه النزعة، التي كاد الإسلام أن يقضي عليها، بل أعادوا إحياء نعرات القبائل الجاهلية، التي حاول الإسلام اجتثاثها من النفوس، إلا أن سياسة الأمويين كانت تقف حجر عثرة دون هذا الهدف الذي لا يتمشى ومصالحها[2]. بل حتى ذلك المجاهد المرابض على الثغور في أيامهم لم يستطع التخلص من نعرته القبائلية أو العشائرية. وأدى تعصب بني أمية لقريش وإيثار أهلها على سائر القبائل إلى التنافر والتحاسد والبغضاء بين القبائل، التي حاول الإسلام التأليف بينها. فكان نتيجة ذلك أن تعصبت كل القبائل الأخرى ضد قريش. ثم تزايدت الفرقة والتشرذم إلى أن تبث الأنصار مرة أخرى في نصرة آل البيت ضد بني أمية، ما تبثوا في نصرة الرسول ضد قريش مع بداية الدعوة. فخوفاً من عواقب هذه النقمة على قريش، بدأ معاوية يتألف بالرشاوى والعطاء بعض القبائل اليمنية والعدنانية، فتقرب من قبيلة كلب اليمنية بالمصاهرة، فتزوج منها امرأته ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبي، التي ولدت له ابنه يزيد. وعندما قام ابن الزبير داعياً لنفسه بالخلافة، إنما كان أنصاره من قبيلة قيس المضرية. والمعركة التي جرت بين أنصار مروان بن الحكم وأنصار عبد الله بن الزبير في مرج راهط بالشام، إنما كانت حربا بين قبيلتي قيس وكلب. وبموت مروان وانتقال الملك إلى ابنه عبد الملك توزع الولاء في سائر الأمصار الإسلامية إلى نزاع، إما بين القيسية والكلبية، أو بين النزارية والقحطانية أو بين المضرية واليمنية. ثم ركب فوق هذا الخلاف القبلي خلاف آخر شعوبي بين العرب المسلمين والمسلمين غير العرب. وكان لهذا النظام القبلي أن تولد عنه مفهوم "الموالي[3] "، المستتبعين للقبائل بالولاء وليس لرابطة الإسلام، والذي سوف تتولد عنه تلك النزعة الشعوبية المقيتة التي أتت على البقية الباقية من عرى الإسلام فقطعتها شر تقطيع، ومزّقتها كل مُمزّق.

فشجع الأمويون هذه النعرات بالعطاءات للشعراء يهجون بعضهم بعضاً ويفاخرون بقبائلهم وعشائرهم وأنسابهم ما كان عده الإسلام من نعرات الجاهلية. إلا أنها الآن سقيت بمياه العطاء، فسالت في المفاخر والمثالب والمدائح قرائح الشعراء، الذين وجدوا لهم في هذا مكسباً يتكسبون منه. ثم امتلأت قصور ملوك الأمويين بمجالس اللهو والغناء والطرب والشعر، فاستقدموا المغنيين والمغنيات من الحجاز وأقاموا لهم مجالس في دورهم وقصورهم كما فعل يزيد بن عبد الملك بنقله للمغنيتين الشاعرتين حبابة وسلامة من المدينة إلى قصره بالشام[4]. وبنى عبد الملك وأولاده الوليد وسليمان وهشام ويزيد قصوراً لهذا الغرض واستراحات في بادية الشام، لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم[5].

وهذه النزعة بدأت مبكراً مع معاوية بن أبي سفيان ذاته. فعندما قامت دولة الأمويين كانت المدينة هي الحامل يومها للواء المعارضة. فإذا كان حسان بن ثابت (563 م ~ 54 هـ /674 م) شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم يرد على شعراء قريش رداً حفظه التاريخ، فإنا نرى ابنه عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاءاً لاذعا وقبيحاً عندما

[1] مدحهم حسان في جاهليته باحسن شعره. فقد قال فيهم :

لله درُّ عصابة نادمتُهُم ... يوما بجِلَّقَ في الزَّمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها ... مشي الجمال إلى الجمال البُزّل
الضاربون الكبش ببرُق بيضُه ... ضربا يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرمَّل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تَهرُّ كلابهم ... لا يسألون عن السَّواد المُقبل
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمُّ الأنوف من الطراز الأول

[2] كاتب سر معاوية هو عبيد بن أوس الغساني، وعلى الديوان وأمره كله : سرجون بن منصور الرومي وحاجبه أبو أيوب مولاه وعلى شرطه : يزيد بن الحر مولاه. أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ص. 228 .

[3] الموالي قوم ينتسبون إلى القبائل العربية بعقد ولاء سواء أكانوا أرقاء أم غير أرقاء. وهم عادة من البلاد المفتوحة كفارس ومصر والروم. وكان باستطاعة العرب أن يمتلكوهم بحق الفتح ولكن تركوهم أحراراً. فمن أسلم على يدي مسلم كان المسلم مولاه. ومنهم من أسر وهو صغير ورباه المسلمون وعلموه فسار مولى لهم.

[4] أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الأصفهاني : "كتاب الأغاني"، دار الكتب المصرية، (8: 9 – 10).

[5] أنظر فيليب حتي، 1972 : "الإسلام منهج حياة" ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص. 308 .

استلحق معاوية زياداً، (أخاه من أبيه سفيان بسفاح الجاهلية) بنسبه وولاه على البصرة[1]. وجاءت بوادر الترويض الأولى للمجتمع بالتحكم في أرزاقه من خلال التحكم في العطاءات.

فمركزية بيت المال، المضبوط التوظيف من خلال النصوص القرآنية، إذا ما وقع بين أيادي متسيبة وغير أمينة ولا شريفة، كما كان الحال أيام الدولة الأموية، يحمل بين طياته خطراً مميتاً بالنسبة لكل معارض أو مخالف. وقد خطب زياد بن أبيه على منبر البصرة أيام ولايته لها في زمن معاوية فقال :

"يا أهل البصرة والله لتكُفُّني هؤلاء (يعني الخارجين على الدولة) أو لأبدأن بكم. والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً"

فثار الناس فقتلوهم![2]

وهو ذات التهديد الذي سيعمل به يزيد بن معاوية. فقد خطب عامله على الكوفة عبيد الله بن زياد بن أبيه (28 هـ/648 م ~ 67 هـ /686 م)، يوم تطاير إليه قدوم الحسين بن علي إلى العراق بدعوة منهم لنصرته، طالباً منهم أن يكتبوا له عن أهل الريب الذين رأيهم الخلاف! والشقاق! وأيما شخص وجد في عرافته أحد منهم صلب على باب داره وألغي عنه العطاء[3].

والشعراء كانوا بمثابة أبواق الإعلام لذلك العصر، أي جرائده وتلفازه. فخصوا بالعطاء كالجند. عند هذا المفترق لم ير الشعراء بدأ من استرضاء بني أمية بالمديح والتزلف خوفاً من انقطاع العطاء، على غرار الصحفيين والإعلاميين الموظفين في العصر الحاضر. هذا فضلاً على تشجيعهم لهذا النوع من التزلف بالجوائز الكثيرة. فهذا الشاعر الفرزدق[4]، الذي هواه مع آل البيت، في أول أمره، يفر من زياد خوفاً على حياته منه، فقال زياد لما توسط الناس عنده للفرزدق : لو أتاني لأمنته وأعطيته!

فيتأبى الفرزدق من ذلك فاضحاً لذلك التلاعب بالعطاء :

دعاني زياد للعطاء ولم أكن   لآتيه ما ساق ذو حسب وفرا

وعند زياد لو يريد عطاءهم   رجال كثير قد يرى بهم فقرا

قعود على الأبواب طلاب حاجة   غوان من الحاجات أو حاجة بكرا

ثم فر إلى المدينة مستجيراً بعاملها سعيد بن العاص (ت: 59 هـ) ولم يرجع إلى البصرة حتى هلك زياد[5].

والفرزدق يمثل نموذج الشاعر المتقلب، الذي أفرزته وغذته مثل هذه النعرات، مرتزق لا يثبت على أي مذهب أو معتقد. قال في علي بن الحسين، زين العابدين أحسن قصائده الشعرية :

---

[1] محمد عبد المنعم خفاجي، 1980 : "الحياة الأدبية (في عصر بني أمية) "، دار صادر، بيروت، ص. 38 .

[2] تاريخ الرسل والملوك (5 : 238).

[3] تاريخ الرسل والملوك (5 : 359).

[4] همام بن غالب بن صعصعة بن عقال (ت: 114 هـ/732 م) شاعر من تميم، اشتهر بنقائضه مع الشاعر جرير. كان شديد التعلق بقومه ومناقبهم ومآثرهم حتى باهى على غرار الشعراء الجاهليين الناس كلها بآبائه وأجداده. وكان أبوه في الجاهلية من أجود العرب وأكرمهم، كما أن جده صعصعة اشتهر بشراء ثلاثمائة وستين موؤودة، كل موؤودة بناقة وجمل. ويفخر الفرزدق بذلك :

وجدي الذي منَعَ الوائدات   وأحيا الوئيد فلم يوادِ

والعرب كانت أكثر ما يئدون بناتهم عند الجدب، ومنهم من كان يئدها خشية العار عند سبيها. واشتهرت قبيلة تميم وكندة واد بناتهم. ولم يكن الفرزدق يقر بالتفوق لأحد من الناس على قومه إلا محمد صلى الله عليه وسلم. ورغم إسلامه فهو يحن إلى الجاهلية. فمن خلال قصائده في رثاء والده غالب يزعم أن والده هو الميت الوحيد الذي ينهض من قبره، يطعم الأحياء قبل موتهم!؟ وكان على عادة الجاهليين ينحر النياق على القبور كما فعل على قبر صديقه بشر بن مروان الشاعر. فعزته في قومه في الجاهلية جعلته يأنف أن يكون من الأدنيين بالنسبة للدولة الأموية. ولكن تسلطها كان لا مفر منه. بل لا يتردد في هجو معاوية بن أبي سفيان عندما استعاد الأخير ما كان أعطاه لعم الفرزدق "حتات". فيقول :

وكم من أب يا معاوي لم يزل   أغرَّ يباري الريح ما ازْوَرَّ جانبُهْ

نمتْهُ فروعُ المالكين ولم يكن   أبوك الذي في عبد شمس يُخاطبُهْ

أنظر : محمد رضا مروة، 1411هـ/1991 م : الفرزدق، حياته وشعره، في سلسلة الأعلام من الأدباء والشعراء دار الكتب العلمية،ط. أولى، ص. 131 بيروت

[5] تاريخ الرسل والملوك (5 : 248).

هذا الذي تعرف البطحاء وطأتَهُ   والبيت يعرفه والحِلُّ والحرَمُ

هذا ابن خير عباد الله كلهمُ   هذا التقيُّ النقِيُّ الطاهرُ العلمُ

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلَهُ   بجده أنبياءَ الله قد ختموا

لكنه يمدح الحجاج بن يوسف الثقفي خوفاً من شره في حياته ثم يهجوه بعد موته، وهجا هشام بن عبد الملك، ثم مدحه واصفاً إياه ب "خليفة الأرض!". ومدح كذلك الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. وهرب من زياد وامتدح أبناءه! وهجا المهلب بن أبي صفرة ومدح ابنه يزيد!، ثم لما ثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك الأموي هجاه!. وهو يمدح عمال بني أمية ويهجوهم وفق ما تميل به أهواءه. بل سوف يمدح عامل بني أمية المخلص لهم حتى آخر رمق، وهو نصر بن سيار[1] بأنه "المهدي" المُملَّك بالهُدى[2] :

إذا ما ابن سيَّار دعا خِنْدِفَ الحقِّ   لها من أعز المشرفين قساورُهْ

-.-.-.-.-.-

هو الملك المَهْدِيّ السابق الذي   له أول المجد التليد وآخرُهْ

ثم فوق هذا وذاك، فالفرزدق فاسق مشهور!. ومدح الشاعر جرير[3] عبد الملك بن مروان بقصيدة طويلة منها هذا البيت :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فلما انتهى من إنشادها أمر له بمائة ناقة كلها سود الحدقة. وكان بين يديه صحاف من فضة فاستأذنه في واحدة منهن فقال له : خذها[4] !.

وهذا حال الشاعر الآخر الأخطل[5]، فعندما مدح عبد الملك بقصيدة فيها هذان البيتان :

حشد على الحق! عيافوا الخنا أنف   إذا ألمت بهم مكروهة صبروا

شمس العداوة حتى يستقاد لهم   وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

طرب عبد الملك وملأ له جفنة كانت بين يديه بالدراهم من بيت المال ومنحها له مع خلع ثمينة[6] !.

ثم كان من عسف الولاة واحتياجاتهم التي لا تنقطع للمال لصرفه على مآربهم الخاصة، أن أبقوا على الجزية على من أسلم من أهل الكتاب والمجوس!. بل لم يتورعوا من قطع أعطيات آل البيت ، مع أن حقهم مضمون بآية صريحة!. هذا الإجحاف لاحظه عمر بن عبد العزيز يوم كان والياً على المدينة للوليد بن عبد الملك (86 هـ ~ 96 هـ)، وراعه ذلك الظلم العاري الذي لحق بآل البيت في مكة والمدينة، حيث يرفل أشياع بني أمية في النعيم المقيم من أموال العطاء، بينما يحرم منها بنو هاشم وآل البيت. فكلم الوليد في أن يعطيهم أسهمهم من الفيء والمغانم والعطاء، التي هي حقوق لهم كسائر المسلمين، فأبى الوليد!. وأخبر الحجاج الثقفي الوليد بأن أهل الشقاق والنفاق، قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وبأن عمر بن عبد العزيز يحتضنهم، وأن ذلك مما يوهن ملكه ويضعف سلطته. فما كان من الوليد إلا أن عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة سنة ثلاث وتسعين وولى بدله أبا بكر بن حزم[7]. والحجاج هو مبتدع هذه السياسة الغير شرعية، في فرض إبقاء الجزية على من أسلم، لتدبير المال لمواجهة الثورات المعارضة المختلفة وأقره على ذلك ملوك بني أمية!، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز (99 هـ ~ 101 هـ) وقام بإصلاحاته الجبائية الشاملة، والتي لن تدوم أكثر من مدة خلافته، لتعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، بل لتزداد تفاقماً وتؤدي

---

[1] نصر بن سيار بن نافع بن حرِّي بن ربيعة الكناني (46 هـ /666 م ~ 131 هـ /748 م) شيخ القبائل المضرية بخرسان ووالي بلخ .

[2] الفرزدق، حياته وشعره، ص. 145 .

[3] جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي (28 هـ/640 م ~ 110 هـ /728 م) شاعر قبيلة تميم واشعر اهل عصره.

[4] سعد عبد السلام حبيب، عمر بن عبد العزيز، دار الفكر العربي، ص. 133 .

[5] غياث بن غوث بن الصلت بن طارق بن عمرو، أبو مالك الأخطل (19 هـ/640 م ~ 90 هـ/708 م) شاعر من قبيلة تغلب ارتبط بالبلاط الأموي.

[6] نفس المرجع ص. 134 .

[7] هو أبوبكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري (ت: 120 هـ) ولي الإمارة والقضاء . أنظر تاريخ ابن خياط، ص. 311 وتاريخ الرسل والملوك (6 : 483 – 484).

في النهاية إلى سقوط حكم بني أمية!.

هذا إذن، ما مثله العصر الأموي. ومقارنة مع عصر صدر الإسلام، أيام الخلافة الراشدة. فهو يمثل انقلابا سياسيا وقطيعة جذرية مع روح دعوة الإسلام. إذ من خلافة دينية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء الراشدين، تحولت إلى ملك قيصري عضوض، مفتون بأبهة الملك والتهافت على المال العام. ثم من شورية الأكفاء إلى وراثة ملكية مستبدة. وأمام الإحباطات المتوالية، التي عايشها الناس مع جبابرة ولاة الأمويين، دون أمل في أن يطل عليهم يوما بصيص نور، يأتي في آخر هذا النفق المظلم، كان لابد وأن تظهر فيهم ذات العوارض وذات ردود الأفعال التي عرفتها المنطقة في ظروف مماثلة. وخاصية الاستبداد هذه، لم يختص بها بنو أمية لوحدهم، ولا هي ظاهرة معزولة أو طارئة. بل كانت سمة عامة للمنطقة، سواء من خلال الاستئثار بالملك، دون باقي شرائح المجتمع المسلم، أو من خلال تسعير أوار النعرة القبلية التي لا زالت مستحكمة في نفوس القبائل العربية، التي لم يلامسها القرآن إلا قليلا، وهي الآن في طور خروجها من طور البداوة إلى طور التحضر، و يحاول الحكم الأموي الإبقاء عليها وإذكائها لخدمة مآربه الخاصة به.

فهذا عبد الله بن الزبير، وعلى خلافه المشهور مع الأمويين كمغتصبين للشرعية الشورية، ما أن توفي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة 64 هـ، حتى دعا لنفسه بالخلافة، مع أنه لم يكن يدع لنفسه من قبل!. وكان أبو حرة صاحب العبلء رجلا من الموالي شجاعا شاعرا مقاتلا فقال : يا بن الزبير ما سفكنا الدماء ولا قتلنا الناس إلا في ملكك، قال : فمن تبايعون سواي ؟. قال : فهلا انتظرت حتى نكون نحن ندعوك!. ففارقه وأنشد[1] :

إن الموالي أمست وهي عاتبـــــــــة	على الموالي تشكي الجوع والحربـــــا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنـــــــــا	أي الملوك على ما خولوا غلبـــــا
نعاهد الله عهدا لا نخيس بـــــــــه	لا نسأل الدهر شورى بعدما ذهبـــا

فبويع له بالخلافة في رجب سنة 64 من الهجرة، ولم تحل المشكلة ما دامت الشورى علقت!. بل سينهج هو نفسه ذات النهج الذي حاول الأمويون فرضه عليه ورفضه بكل إباء واستماتة. فنجده يدعو محمد بن علي بن أبي طالب (21 هـ /642 م ~ 81 هـ /700 م)[2] وعبد الله بن عباس إلى مبايعته مع أشياعهما، فيتأبون عليه، فيحاصرهم في شعب بني هاشم في عدة من أصحابهم، ويوعدهم وعيدا شديدا بالتحريق! إلى أن أنقذهم المختار الثقفي[3] الذي كان في طور تشيعه لآل البيت! فيخرجهم من الحصار، بواسطة بعث من أربعة آلاف من أتباعه رأسه أبو عبد الله البجلي[4]. فأدركوا بني هاشم قبل أن يفتك بهم ابن الزبير وخرجوا بهم حتى أنزلوهم منى، ثم انتقلوا إلى الطائف وأقاموا بها[5].

5-1- البيئة الدينية والعقائدية

جاء الإسلام بعقيدة جديدة في جانب، مستأنفة في جانب آخر. فالمستأنف فيها هو دعواه أن ما بأيدي أهل الكتاب، من يهود ونصارى، من كتب، فيها الضائع وفيها المحرف وفيها المختلق[6] :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به، ولا تزال تطلع

[1] تاريخ خليفة بن خياط، ص. 257 .

[2] أخ الحسن والحسين من أم غير فاطمة الزهراء، اسمها خولة بنت جعفر الحنفية، والتي اشتهر بانتساب إليها تميزا له عن باقي إخوته الكثر. فعرف بابن الحنفية. وهو حامل لواء والده علي في معركة الجمل.

[3] المختار بن أبي عبيد بن مسعود، أبو إسحاق الثقفي (1هـا /622 م ~ 67 هـ /687 م) من زعماء الثوار على بني أمية، أصله من الطائف. كان مرة يدعو إلى خلافة محمد بن الحنفية ومرة لابن الزبير، إلى أن ادعى آخر الأمر أنه يتنزل عليه جبريل بالوحي من السماء. وكان أن جهز ابن الزبير أخاه مصعب ابن الزبير لقتاله فدخل الكوفة وحاصره فيها بقصر الإمارة إلى أن تمكن منه في شهر رمضان سنة 67 هـ. وقتل من جيش مصعب عبيد الله بن علي بن أبي طالب، وقتل في جيش المختار أخوه عمر الأكبر بن علي بن أبي طالب. مما يبين نوع الفتنة التي لم تلتئم منذ شهر سيفها!.

[4] رفاعة بن شداد البجلي (ت: 66 هـ ،685 م) من قراء الكوفة وشجعانها ، كان على رأس قبيلة بجيله في جيش علي بن أبي طالب في معركة صفين. وعندما غلب المختار الثقفي على الكوفة سنة 66 هـ. قتل في مكان يسمى جبانة السبع.

[5] أنظر طبقات ابن سعد (5 : 74). وتوفي عبد الله بن عباس في الطائف وصلى عليه محمد بن الحنفية.

[6] سورة المائدة، الآيتين 13 – 14 .

على خائنة منهم إلا قليلاً. فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين. ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكِّروا به. فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾

أو[1] :

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾

وأن الرسالة الجديدة تصحح كل ذلك ضمن السياق العام لنهر الإسلام الكبير : " دين التوحيد"، الذي ما أرسلت الرسل سوى في مجراه :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام﴾[2] أو ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[3]﴾ أو

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين[4]﴾ أو

﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى[5] .﴾

وما شابهها من الآيات. ثم خاطب المجوس[6] :

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾

أما الجديد في هذه الرسالة، فهي كونها موجهة للعالمين كافة، أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[7].﴾ أو :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله و كلماته واتبعوه لعلكم تهتدون[8] ﴾.

فهذا جدل مع معتقدات العالم كلها وديانات الهلال الخصيب خاصة. ثم هناك جدل داخلي من داخل الجماعة الإسلامية ذاتها في تعاملها مع متشابه القرآن ومحكمه. والأخيرة ولدت مدارس عقائدية وفرق شتى منها :

5-1-1- الجبرية

الجبرية فريق غلب ظاهر تفسير بعض الآيات المعزولة عن الإطار العام لورود تلك الآيات وقرأها قراءة اجتزائية تنفي الإرادة والمشيئة على الإنسان وتجعله كريشة في مهب الريح لا حول له في هذه الدنيا ولا قوة!.

وتتمحور حجج هذا الفريق في الموضوعات التالية :

أ. نفي الإرادة : وهي ترد في خمسة عشر موضعاً من القرآن، منها :

﴿ يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم[9]. ﴾

ب. نفي المشيئة : وترد في ستة وعشرين موضعاً من القرآن، منها :

﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليماً حكيماً[10]﴾، وغيرها.

ت. نفي الهداية : وترد في عشرين موضعا من القرآن، منها :

﴿ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[11]، ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[12]، ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين[1] ﴾

[1] سورة البقرة، الآية 79 .

[2] سورة البقرة، الآية 19 .

[3] سورة آل عمران ، الآية 85 .

[4] سورة آل عمران، الآية 67 .

[5] سورة الأعلى، الآيتين 18 – 19 .

[6] سورة النحل، الآية 51 .

[7] سورة الأنبياء، الآية 107 .

[8] سورة الأعراف، الآية 158 .

[9] سورة آل عمران، الآية 176 .

[10] سورة الإنسان، الآية 30 .

[11] سورة البقرة، الآية 264 .

[12] سورة الأنعام، الآية 144 .

ث. إثبات الضلالة : وترد في اثنين وثلاثين موضعا من القرآن، منها :

﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله. ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ [2]،

ج. في تقليب القلوب : وترد في ستة وثلاثين موضعا من القرآن، منها :

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ [3]، ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [4]،

ح. في الإغواء والإغراء : وترد في عشرة مواضع من القرآن، منها :

﴿ قال رب بما أغويتني لأزيّنّ لهم في الأرض و لأغوينهم أجمعين [5] ﴾،

خ. في الكتابة : وترد في خمسة عشر موضعا من القرآن، منها :

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا [6] ﴾،

د. في الإذن : ويرد في خمس مواضع من القرآن، منها :

﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله [7] ﴾،

ذ. في الخلق : ويرد في عشرة مواضع، منها :

﴿ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم [8] ﴾،

ر. في التقدير : ويرد في سبعة مواضع من القرآن، منها :

﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديرا [9] ﴾،

ز. في أن الكل من الله وليس للمخلوق شيء : ويرد في أربعين آية من القرآن، منها :

﴿ ليس لك من الأمر من شيء [10] ﴾،

فأساس هذا المذهب الذي انتقى ظاهر آيات تناسب ما يرمي إليه، هو أن الإنسان لا يخلق أفعاله وليست له قدرة على ما ينسب إليه من أفعال. وإنما يخلق الله أفعال العبد على مشيئته سبحانه وتعالى، ونسبتها إلى العبد هي من باب المجاز، كقولك طلعت الشمس، وجرى الماء وأثمر الشجر، وأنبتت الأرض..الخ. والثواب والعقاب في هذه الحالة جبر!، كما التكليف الشرعي ذاته جبر!.

والمؤكد هو أن الخوض في الجبر شاع في أواخر عصر الصحابة وبداية العصر الأموي. بل المؤكد أيضا هو أن مواطن الخوض في هذه الأمور كان الشام والعراق ثم انتقل إلى ما وراء النهر. وقد قيل، دون تأكيد تاريخي يعوّل عليه أو يركن المرء إليه، أن أول من حمل لواء الجبرية، أحد الموالي هو الجعد بن درهم (ت: 118 هـ /736 م)، الذي أخذه بدوره عن بيان بن سمعان، الذي زعم أنه يدعو إلى خلافة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية. ثم جاء بعد ذلك أبو محرز، جهم بن صفوان السَمرْقندي (ت: 128 هـ /745 م) مولى لبني راسب، الذي ستنسب إليه فرقة "الجهمية"، فأخذ المذهب عن الجعد وشرع ينشره بخرسان، إلى أن قتله والي بني أمية نصر بن سيار (ت 131 هـ /748 م) في مرو على يد سالم بن أهواز المازني. وسيظل المذهب منتشرا في تلك الربوع بعد موته إلى أن أزاحه من الساحة العقائدية مذهب أبي منصور محمد بن محمد الماتردي (ت: 333 هـ / 944 م) في أول القرن الرابع الهجري، أيام الدولة العباسية.

[1] سورة التوبة، الآية 24 .
[2] سورة النساء، الآية 88 .
[3] سورة آل عمران، الآية 8 .
[4] سورة غافر، الآية 35 .
[5] سورة الحجر، الآية 39 .
[6] سورة التوبة، الآية 51 .
[7] سورة البقرة، الآية 102 .
[8] سورة الأنعام، الآية 101 .
[9] سورة الفرقان، الآية 2 .
[10] سورة آل عمران، الآية 128 .

5-1-2- القدرية

وعلى خلاف الجبرية الذين تمسكوا بمنطوقات ظواهر تلك الآيات النافية لمشيئة واختيار الإنسان، فإنا نجد على الطرف النقيض، من تمسك بآيات مثبتة لكل بند من بنود النفي عند الجبرية. أي أنهم أثبتوا "القدَر"، ويعنون به حرية المشيئة والاختيار للإنسان، على عكس ما يتبادر من ظاهر التسمية!. وقد يدهش المرء بتسميتهم ب "القدرية"مع أنهم من نفاة القدر!، ولكن شاعت هذه التسمية عليهم. وحججهم استقوها هم أيضاً من القرآن كالتالي :

أ. إثبات القدر = حرية الإرادة : ويرد في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن، منها :

﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين [1]، ﴾

ب. إثبات المشيئة = حرية الاختيار : وترد في عشرة مواضع من القرآن، منها :

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [2]، ﴾

ت. إثبات الهداية والضلالة : وترد في ثلاثين موضعاً من القرآن، منها :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزرَ أخرى. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [3] ﴾

ث. إثبات إغواء الشيطان وإضلاله: ويرد في ثلاثة وعشرين موضعا من القرآن، منها :

﴿ فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه [4] ﴾

ج. إضافة الظلم إلى العباد ونفيه على الله تعالى : ويرد في عشرة مواضع من القرآن، منها :

﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون [5]، ﴾

ح. إضافة الفعل إلى الكفار : ويرد في خمسة عشر موضعاً من القرآن، منها :

﴿ يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن [6]، ﴾

خ. إضافة الفعل إلى العبد نفسه : ويرد في عشرين موضعاً من القرآن منها :

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت [7]، ﴾

د. تأثير فعل العبد: ويرد في ثمانية مواضع من القرآن، منها :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا [8]، ﴾

ذ. في المحو والإثبات والفطرة : ويرد في سبعة مواضع من القرآن، منها :

﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب [9]، ﴾

هذه الآيات ونظيراتها كونت النواة العقائدية لفرقة "القدرية". من ظاهرها أخذوا، على عكس "الجبرية" يقولون بأن الإنسان مسؤول عن أفعاله، بل هو خالقها وكاسبُها. وسوف تدعوهم هذه الرؤى الأحادية الاجتزائية للنصوص إلى الشطط، عندما تجاهلوا الآيات الأخر، التي لا تساير مُنتحلهم، إلى نفي العلم الأزلي! والتقدير الأزلي! ليقولوا بأن الأمر أنفٌ متجدد. وأول ما ظهر هذا القول، إنما كان بالبصرة وتزعمه معبد بن عبد الله بن عُوَيمر الجُهَني البصري[10] (ت: 82 هـ /671 م ؟) الذي خرج على الأمويين ضمن من خرج عليهم من الفقهاء في ثورة عبد الرحمن

[1] سورة آل عمران، الآية 108 .
[2] سورة الكهف، الآية 29 .
[3] سورة الإسراء، الآية 15 .
[4] سورة البقرة، الآية 36 .
[5] سورة التوبة، الآية 70 .
[6] سورة آل عمران، الآية 99 .
[7] سورة البقرة، الآية 226 .
[8] سورة العنكبوت، الآية 69 .
[9] سورة الرعد، الآية 39 .
[10] اختلف في اسمه، هل هو ابن عويمر أو معبد بن خالد. ذكر ذلك البخاري في التاريخ الكبير (7: 599) وفي التاريخ الصغير (1: 236)، بتحقيق محمود إبراهيم زايد، "، ط. أولى، 1406 هـ/1986 م، دار المعرفة، بيروت. وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى (7: 113) : { معبد الجهني : تابعي ثقة في نفسه ولكنه سنّ سنّة سيئة، إذ كان أول من تكلم في القدر. ونهى الحسن (البصري) عن مجالسته وقال : هو

بن محمد بن الأشعث (ت: 85 هـ / 704 م). ولما فشلت الثورة أودع السجن من طرف الحجاج بن يوسف الثقفي وعذبه ثم قتله صبراً. والرجل الثاني الذي قال بالقدر هو عمرو المقصوص[1] (ت: 64 هـ)، ثم ظهر الرجل الثالث وهو أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقي (ت: 105 هـ /723 م)، وأصله من قبيلة كَلْب الذين كانوا متنصّرين قبل قدوم الإسلام[2]. وله رسالة إلى عمر بن عبد العزيز[3] أيام توليته يدعوه فيها إلى الالتزام بالحق.

5-1-3- المعتزلة

ترتبط هذه الفرقة بمؤسسها أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال البصري (80 هـ /699 م ~ 131 هـ /748 م). قيل أن سبب التسمية هو اعتزاله دروس شيخه أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (21 هـ / 642 م ~ 110 هـ /728 م) لاختلافه في الرأي معه حول مرتكب "الكبيرة". فقد جعله واصل فاسقاً، لا يعد مؤمناً ولا يعد كافراً، لا يتجاوز به ما سماه الله به، وجعله في منزلة بين المنزلتين. فالحسن كان يرى أن مرتكب الكبائر من الذنوب منافق. والخوارج كانوا يكفرونه. وانضم إلى واصل بالقول بمثل ما قال، تلميذ آخر للحسن هو أبو عثمان عمرو بن عبيد (80 هـ /699 م ~ 144 هـ /761 م) وانفصل من أهل الحديث من كان قدرياً وانضم إليهما. وأجمع المعتزلة على أن أفعال العباد كقيامهم وقعودهم وتصرفهم حادثة من جانبهم، وأن الله تعالى أقدرهم على ذلك، وأن لا فاعل لها ولا محدث سواهم، وأن من قال إن الله هو خالقها ومحدثها فقد أعظم الفرية. ولم يتحرج المعتزلة من نسبة الخلق إلى العبد لا إلى الذات الإلهية، لأنهم عرفوا الخلق ليس بمعنى الاختراع على غير مثل مسبوق ولا الإيجاد من عدم، وغنما الخلق عندهم هو الفعل والصنع على أساس من التقدير والتخطيط السابق على التنفيذ. ومن إثباتهم للإنسان هذا التقدير والفعل، فكأنهم أثبتوا له القدر، أي القضاء والحكم والتصرف. واستدلوا على دعواهم بذات الآيات التي احتجت بها القدرية، مثل :

﴿وتخلقون إفكا[4] ، ﴾

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين[5] ، ﴾

﴿إذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني[1] ﴾

ضال مُضِل. قتله الحجاج صبراً لخروجه مع ابن الأشعث }. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (4 : 141) : { وثقه ابن معين. وقال مالك بن دينار : لقيت معبد الجهني بمكة بعد ابن الأشعث، وهو جريح، وكان قاتل الحجاج في المواطن كلها.} . وقال خليفة بن خياط، ص. 287 : قتل الحجاج بمسكن خمسة آلاف أسير أو أربعة آلاف أسير.

[1] لا يعرف شيء عن حياته. وكل ما ورد بشأنه هو أنه كان معلماً للملك الأموي معاوية (الثاني) بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فأثر في تفكير الملك الشاب. فلما توفي يزيد بن معاوية سنة 64 هـ بويع لابنه معاوية الثاني فتوجه الأخير إلى معلمه ليسأله فقال له : { إما أن تعدل وإما أن تعتزل }. فخطب معاوية الثاني في الناس قائلاً : { إنا بلينا بكم وابتليتم بنا .. لا أحب أن ألقى الله بتبعاتكم فشأنكم وأُلوه من شئتم، فوالله لئن كانت الخلافة مغنماً، لقد أصبنا منها حظاً، وإن كانت شرّاً، فحسب آل سفيان ما أصابوا منها }، ثم نزل واعتزل إلى أن توفي بعد أربعين يوماً. فوثب بنو أمية على المقصوص وقالوا له : أنت أفسدته وعلمته، ثم دفنوه حياً حتى مات.

[2] يذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد (2 : 379) عن السائب الكلبي أن مناظرة وقعت بين غيلان وأبي عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (88 هـ /707 م ~ 157 هـ /774 م) مفتي الديار الشامية أيام الملك الأموي هشام بن عبد الملك (105 هـ/724 ~ 125 هـ /743 م) الذي دعاهما إلى المناظرة أمامه، قطع لسانه على إثرها وقتله! . قلت : هذه الحكاية إن صحت فلا شك أنها وقعت أواخر ملك هشام، حيث عمر الأوزاعي سنة 125 هـ، لا يتعدى 37 سنة!. وحفظ بعض جدله مع داود بن أبي هند القشيري البصري (ت: 140 هـ) أبو نعيم الإصبهاني في حلية الأولياء (3 : 92) ومع ربيعة بن أبي عبد الرحمن المدني (ت: 136 هـ) في حلية الأولياء (3 : 260).

[3] الرسالة جاء فيها : { أبصرت يا عمر، وما كدت، ونظرت وما كدت، اعلم يا عمر أدركت من الإسلام خلقاً بالياً، ورسماً عافياً، فيا ميت بين الأموات، لا ترى أثراً فتتبع، ولا تسمع صوتاً فتنتفع، طغى على السنة، وظهرت البدعة. أخيف العالِم فلا يتكلم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت؟، فإنه تعالى يقول : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، فهذا إمام هدى، هو ومن اتبعه شريكان. وأما الآخر، فقد قال فيه تعالى: وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. ولن تجد داعياً يقول : تعالوا إلى النار، إذن لا يتبعه أحد، لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله. فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضي على ما يعذب عليه، أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة، أو يعذبهم على الطاعة. أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم؟. وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب؟ كفى بالبيان هذا بياناً، وبالعمى عنه عمى. } . ولعمر ابن عبد العزيز (61 هـ ~ 101 هـ) رسالة "الرد على القدرية" حصل أحمد بن علي بن ثابت الشهير بالخطيب البغدادي (392 هـ ~ 463 هـ) على إجازة بروايتها. وهي محفوظة ضمن مشيخة الخطيب البغدادي في مكتبة الظاهرية بدمشق، مجموع 18 .

[4] سورة العنكبوت، الآية 17 .

[5] سورة المؤمنون، الآية 14 .

والمهم بالنسبة لواصل بن عطاء في عصر بني أمية، هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب وتتعدد أوجه ميادينه، إن بالدعوة السلمية والجدل بالتي هي أحسن، أم بالسيف لقمع الباغي والطاغي، أم بالرد على المخالفين في الاعتقاد. وقد عمل هو بهذا في تصدره للرد على المانوية، أصحاب ماني[2] الذين لهم استمرارية في المنطقة سواء في البصرة والعراق أو ما وراء النهر في فارس. وهو يقول بأن الفريقين في وقعة "الجمل" : فريق علي وفريق طلحة فاسق لا بعينه!.

5-1-4- المرجئة

هذه الفرقة سياسية بالأساس. فهم أرجئوا الحكم في شأن النزاع الذي وقع بين الصحابة، سواء فيما يخص ما حدث زمن الفتنة أو ما بعدها. ولذلك تسموا ب "المرجئة"، ثم تطورت أفكار الفرقة أيام الأمويين إلى الإرجاء الاعتقادي أيضاً، فأرجئوا الحكم على مرتكب الكبيرة وفوضوا أمره إلى الله، إن عاقبه فبما اكتسب، وإن عفا عنه فبرحمته. ثم جاء فريق ثالث بعد هؤلاء فلم يرجئ الحكم بل قال : { إن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد، ولا يضر مع الإيمان معصية }. إي أنهم فصلوا العمل عن الإيمان. ثم تطور بهم الأمر إلى أن قالوا : {إن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن المرء الكفر بلسانه وعبد الأوثان وأعلن التثليث ومات على ذلك، فهو كامل عند الله عز وجل وولي لله ومن أهل الجنة! }. ويتميز هنا صنفان من المرجئة : مرجئة السنة، وهؤلاء قرروا أن مرتكب الكبيرة غير مخلد في النار ويعاقبه الله بقدر ذنبه ثم تسعه رحمة الله. فهم يحكمون بأنه مستحق للعقاب على جرمه، ولذلك تضر المعصية مع الإيمان ولكن لا تكفر. ومن هذا الفريق وجد كثير من التابعين أمثال : أبي عبد الله سعيد بن جبير الأسدي (45 هـ ~ 95 هـ) تلميذ عبد الله بن عباس، وحماد بن أبي سليمان الأشعري الكوفي (ت: 120 هـ) شيخ أبي حنيفة، وأبي حنيفه النعمان بن ثابت (ت: 150 هـ)، وأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي (ت: 150 هـ) المفسر، والحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، أبي محمد الهاشمي (ت: 99 هـ /717 م). والأخير يعد مؤلف أول رسالة في الإرجاء : "كتاب الإرجاء" كما له كتاب "الرد على القدرية". والقسم الثاني من المرجئة هم مرجئة البدعة، الذين قالوا : لا يضر مع الإيمان معصية، وأن العمل معفو عنه دائماً. واستدلوا هم أيضاً بآيات من القرآن مثل :

أ. في أن مرتكب الكبيرة مؤمن مسلم : **يوردون ست مواضع من القرآن على ذلك، منها :**

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد، فمن عفي له من أخيه شيء، فاتباع بمعروف وأداء إليه بإحسان. ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾[3].

حيث نعت الله القاتل مؤمناً وجعله أخاً لولي المقتول.

ب. في أن مرتكب الكبيرة يستحق المغفرة : **ترد ست مواضع في القرآن على ذلك، منها :**

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم[4] .﴾

ت. في أن مرتكب الكبيرة يستحق الرحمة : **وترد لها عشرة مواضع من القرآن، منها :**

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[5] ﴾، ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون[6] ﴾

ث. في أن مرتكب الكبيرة يستحق الجنة : **والاستشهاد في أربع مواضع من القرآن، منها :**

---

[1] سورة المائدة، الآية 110 .

[2] ولد ماني، ويقال له أيضاً "مانس" و "مانيكيا" في بابل بين عام 215 م أو 216 م ومات ببلاد الفرس ما بين سني 275 م و 277 م على يد كسرى. وكان الإمبراطور الروماني ديوكليسيان قد أصدر قوانين صارمة ضد أتباعه سنة 300 م. ويعتبر الجعد بن درهم (ت: 118 هـ /736 م) الذي ينتسب إليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي، أبو عبد الملك، القائم بحق الله (72 هـ / 692 م ~ 132 هـ /750 م) آخر ملوك بني أمية بالشام. ويقال له "الحمار" أو "حمار الجزيرة" لجرأته على الحروب.، اشتهر باسم : مروان الجعدي، وقد كان مؤدباً له ولولده فأدخله في الزندقة. وقد قتل الجعد بن درهم أيام هشام بن عبد الملك (71 هـ ~ 125 هـ) على يد واليه على العراق أبي الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد القسري (66 هـ ~ 126 هـ). أنظر الفهرست لابن النديم ص. 472 ، دار المعرفة بيروت.

[3] سورة البقرة، الآية 178 .

[4] سورة الزمر، الآية 53 .

[5] سورة الأنبياء، الآية 107 .

[6] سورة الحجر، الآية 56 .

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا. فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير، جنات عدن يدخلونها[1] ﴾.

ج. في أن مرتكب الكبيرة داخل في دعاء الملائكة والأنبياء : **في خمسة مواضع من القرآن، منها :**

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا[2] ﴾

ح. مرتكب الكبيرة لا يستحق الوعيد وإنما الكافر: **ترد في خمس عشرة موضع من القرآن، منها :**

﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً[3] . ﴾

خ. في أن مرتكب الكبيرة يستحق الوعد : **ترد في خمس عشرة موضع من القرآن، منها :**

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا. كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين [4] ﴾

د. في أن مرتكب الكبيرة لا سلطان للشيطان عليه : **ترد في ثلاث مواضع من القرآن، منها :**

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين[5] ﴾

ذ. في الرجاء وأن الله لا ينزع الإيمان من المؤمن : **وترد لها تسع مواضع في القرآن، منها :**

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً[6] ﴾،﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم [7] ﴾

هذا عدا ما يستشهد به كل فريق من حديث، غير القرآن. وعلى هذه الخلفية العقائدية نشأت الأحزاب السياسية.

5-2- الأحزاب السياسية أيام الأمويين

أدى اغتصاب الخلافة من طرف الأمويين وعلى إثر حرب أهلية دموية دامت طوال حكمهم، إلى بروز أحزاب سياسية، لم ترض بهذا الواقع المفروض وحاربته بشتى الوسائل وبدون هوادة. وبرزت أحزاب، كتب لهما الاستمرارية في التاريخ وأفضى بهم نزاعهم للسلطة إلى إقامة دويلات لهم في آخر المطاف. من هذه الأحزاب، التي طورت نظريات في الحكم نجد :

5-2-1- حزب الخوارج

وهذا الحزب تبلورت بعض شعاراته، ابتداءً من معركة "صفين"، عندما رفعوا شعاراتهم التعبوية مثل :

أ. **شعار : "لا حكم إلا لله"، الذي رفعوه بعد رفضهم لنتيجة التحكيم بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري. فهم رأوا أن الإمام الشرعي ليس له أن يقبل من المتمردين على سلطته والخارجين عليه سوى الإذعان أو السيف كبغاة. ولذلك فمنطلق التحكيم من وجهة نظرهم، كان فاسداً من أساسه، حيث بقبول علي للتحكيم بينه كخليفة شرعي ببيعة عامة وبين الخارجين عليه، معاوية وعمرو، إنما معناه تنازل الخليفة عن صلاحياته الشرعية الواضحة التي لا يمكن أن تفوت بحال، ومساواة نفسه بالبغاة!. فكفّروا هم عن هذا الذنب بالتوبة وطالبوا علي، الخليفة أن يكفر هو الآخر عن هذا الخطأ!.**

ب. **أن منصب الخلافة، منصب يخضع للشورى بين المسلمين المتكافئين، بحيث أن "القرشية" لا دخل لها في شروط تولي الخلافة، ويمكن أن يضطلع بمهامها كل مسلم ورع تقي بغض النظر عن أصله وفصله. بل هم يفضلون أن يكون غير قرشي ليسهل عليهم عزله، إن خالف الشرع أو زاغ عن الحق. إذ لا تكون له عصبية تحميه ولا عشيرة تأويه. وهنا نلاحظ المنطلق القبلي الذي سيحكم التجربة السياسية لتاريخ الإسلام كلّه، ومثل عنق زجاجته السياسية المستبدة والعصبية المتغلبة. وهو موروث في المنطقة أصيل وفي أخلاق البدو أثيل ومُؤثل لا يمكن تجاوزه!. فمنطق الخروج صار متحكماً إلى درجة خروج الكل على الكل!.**

---

[1] سورة فاطر، الآية 33 .
[2] سورة غافر، الآية 7 .
[3] سورة النساء، الآية 147 .
[4] سورة يونس، الآية 103 .
[5] سورة الحجر، الآية 42 .
[6] سورة الإسراء، الآية 59 .
[7] سورة البقرة، الآية 143 .

ت. **تكفير أهل الذنوب حتى وإن أخطئوا بالاجتهاد بالرأي. وهذا أساس تكفيرهم لعلي وخروجهم على سائر المسلمين المخالفين لهم بأنهم مشركون. أما الأمويين فلم يعتبروهم مغتصبين للسلطة فحسب، بل كفرة مارقين من الدين!.**

ث. **العمل في فهم القرآن بظاهر كل ما يحتمله اللفظ وسياقه ودلالته العربية الصرفة كخطاب. فمثلا يستنتجون من قوله تعالى[1] :**

﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾

أن الفاسق لا شك مسود الوجه يوم القيامة، وبالتالي فهو كافر!. وكذلك من الآية[2] :

﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾

يستنتجون حسب السياق، أن الظلم جحود، والجحود كفر. وبما أن الفاسق ظالم، إذن، فهو كافر وجاحد[3].

ج. **ذهبت فرقة النجدات، أصحاب نجدة الحروري[4]، إلى الاستغناء عن الإمام أصلا، إذا تمكن الناس من النصفة فيما بينهم. فإن كان ولا بد من إمام يحملهم على هذه النصفة، فلا بأس. فالإمامة عندهم جائزة، ليس يوجبها الشرع بقدر ما هي مصلحة، لا أكثر ولا أقل.**

أثبتت وقائع التاريخ، على هذا الحزب، بطيفه الواسع المتعدد الرؤى[5]، أن طعنهم في مبدأ "القرشية"، لم

---

[1] سورة آل عمران، الآية 106 .
[2] سورة الأنعام، الآية، 33 .
[3] فهذا التمسك بالظاهر مسوغ تماما من قبل أعراب مخاطبين بلغتهم التي يعرفون اعتمادا على القرآن وحده دون تبيان الرسول صلى الله عليه وسلم. لذلك عندما حاججهم علي الناشئ في كنف الرسالة قال لهم : { فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتخطئونهم بخطئي وتكفرونهم بذنوبي، سيوفكم على عواتقكم، تضعونه موضع البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورثه أهله، وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء..الخ} ؟ . وهكذا نرى أن علي عدل عن الاحتجاج بالنصوص عندما تكون دلالتها غير محكمة ومتشابهة، إلى الاحتجاج بالعمل الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي لا يقبل سوى تأويل واحد ولا يفهم سوى على وجهه الصحيح. ولذلك، فكل من تصدى للزعامة في الإسلام سواء أكانت سياسية أو غيرها، فلا بد له من معرفة حميمية بالإسلام وإلا كان شره أكثر خيره، كما يشهد التاريخ وضرره على المسلمين أكثر من نفعه!.
[4] نجدة بن عامر الحروري الحنفي (36 هـ /656 م ~ 69 هـ / 688 م) من قبيلة بني حنيفة، من بكر بن وائل. رأس الفرقة ا" النجدية" ، نسبة إليه من الحرورية من الخوارج. ويعرف أصحابه ب "النجدات" .
[5] منهم فرقة الأزارقة، أتباع أبي راشد، نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي الحروري الوائلي البكري (65 هـ / 685 م) من بني حنيفة، رأس الأزارقة وإليه ينسبون. قاتلوا عبد الله بن الزبير والأمويين معا لمدة 19 سنة إلى أن قتل في ميدان المعركة فخلفه عبيد الله بن بشير بن الماحوز سنة 65 هـ في حربه مع المهلب بن أبي صفرة (٥٧ / 628 م ~ 83 هـ / 702 م) الأزدي أحد قواد بني أمية منذ معاوية بن أبي سفيان. ثم خلفه الزبير بن علي السليطي اليربوعي، ابن أبي الماحوز (ت: 68 هـ) ثم قطري بن الفجاءة. وهم يرون أن مخالفيهم : مشركون مخلدون في النار حلال الدم. دارهم دار حرب، يسبون نساء وذرية ويجوز قتل قعدتهم وأطفالهم، (بل يبيحون قتال من قعد منهم هم أنفسهم عن القتال). إذ هؤلاء مخلدون في النار كآبائهم! لأن ذنب الآباء يسري إلى الأبناء!. وهم يرون أن الأنبياء يجوز عليهم ارتكاب المعاصي الصغيرة والكبيرة من ظاهر الآيتين الأولى والثانية من سورة الفتح : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾. ومنها فإن النبي قد يكفر ويتوب!. وهم أول من قال بعدم جواز الرجم على الزاني لأنه لا يوجد في القرآن غير الجلد ولم يثبت الرجم عندهم في السنة!. وكذلك من خلال ظاهر الآية الرابعة من سورة النور ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، و لا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾ فحد القذف عندهم لا يسري سوى على قذف المحصنة بالزنى ولا يثبت على من قذف المحصنين من الرجال!
النجدات يخالفون الأزارقة في تكفير قعدة الخوارج الذين لا يخرجون إلى قتال المخالفين، ولا في قتل الأطفال. إلا أنهم يبيحون قتل الذمي على عكس الأزارقة الذين قالوا بأن لهم عقد الذمة الذي يجب احترامه!. كما أنهم وحدهم من قال ب "التقية" مع المخالفين حقنا لدم الخارجي دون سائر الخوارج ثم اختلفوا في أمور إلى أن قتلوا زعيمهم نجدة وأقاموا مكانه أبا فديك، عبد الله بن ثور الحروري (ت: 73 هـ) الذي سيقضي عليه جيش عبد الملك بن مروان.
والصفرية أقل تطرفا والعجاردة، أتباع عبد الكريم بن عجرد، أحد أتباع عطية بن الأسود اليمامي الحنفي (ت: 75 هـ/695 م) صاحب الفرقة "العطوية" الذي انشق على نجدة وانتقل إلى إقليم سجستان ما وراء النهر. فهؤلاء لا يرون الهجرة من دار المخالفين واجبة ولكن فضيلة. ولا يبيحون أموال المخالف إلا إذا قاتل، ثم هم يتولون قعدتهم من الخوارج الذين عرفوا بالتقوى. ومنهم ميمون العجردي الذي أباح نكاح بنات الأولاد بدليل عدم ورودهن محرمات في القرآن!.

يجعلهم يسلموا هم أنفسهم من توريث الزعامة بينهم في قبيلهم خاصة : قبيلة تميم دون سواها[1] على الأقل في فترة المخاض الأولى. وهذا الفرزدق على تلونه، لا ينسى ما لقومه تميم من عز تليد[2] :

وإن عـدت الأحساب يوما وجدتهـــــــا	يصيروا إلى حي تميم نفورهــــــا
تميم هم قومي فلا تعدلنــــهـــــــم	بحي إذا اعتز الأمور كبيـــرهــــا
هم معقل العز الذي يتــقى بــــــــــه	ضراس العدى والحرب تغلي قدورهــا
ملوك تسوس المسلمين وغيرهـــــــم	إذا أنكرت كانت شديدا نكيـرهــــا
ورثنا كتاب الله والكعبة التـــــــــي	بمكة محجوبا عليها ستورهـــــــا
وأفضل من يمشي على الأرض حيـــــنا	وما ضمنت في الذهبين قبورهـــــا
لنا دون من تحت السماء عليهـــــــم	من الناس طرا شمسها وبدورهـــــا
ولو أن أرض المسلمين يحوطـــهـــــا	سوانا من الأحياء ضاعت ثغورهـــا

فقد جمع لقومه تميم من المفاخر، ما لا مقارنة بينهم وغيرهم، فهم الملوك والساسة، وورثة كتاب الله وكعبته والمفضلون دنيا وآخرة، فلا تعدلن بهم "قريشا" أو غيرها. كيف؟ وهم المدافعون عن ثغور الإسلام، بحيث لو لم يقوموا بذلك لما استطاع حي غير حيهم الاضطلاع بهذه المهمة الجسيمة!. فالفرزدق هلك سنة 114 هـ/732 م. ولم يبق من عمر الدولة الأموية سوى 18 عشر سنة، قبل أن يعفيها الزمن بمبايعة سفاح آل العباس : أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة 132 هـ. ومن كانت هذه نعرته مع بداية العقد الثاني من القرن الثاني الهجري، فينبئ أن آثار الجاهلية الأولى لم يطرأ عليها أي تغيير كبير ذا بال أو شأن!، لولا أن الفرزدق ومن على شاكلته من شعراء العصر، لا يصلحون أن يتخذوا كنماذج للمجتمع ككل، وإن كانوا كأبواق دعائية يمثلون جانبا مهما منه، أولا : لمواكبتهم لمطامع ومطامح قبائلهم، ثم ثانية لدخولهم على الملوك الأمويين ورؤوس أصحاب العقد والحل المقربين أو ذوي الحظوة لديهم، فيعرفون ما لايعرفه غيرهم ويسمعون ما لا يستطيع سماعه غيرهم، وذلك من خلال مهنتهم، إما كمادحين أو متزلفين أو مفاخرين أو هاجين. فهم موثقوا هذا الجانب من العصر أكثر من الفقهاء أو رجالات الدين، أو الشعب عامة، بل لا عبرة بتصور للعصر دون أخذ شهادتهم في الاعتبار، خصوصا وشعرهم يحفظ ويتداول.

والذي يهمنا من هذا الحزب، وهذا الحزب بالذات، هو أنه مثل حزب العرب خاصة، دون قريش والأنصار من أوس وخزرج. وأكثرهم ظل على سجيته الموروثة في بيئة الجزيرة العربية، مفاخرين بالأنساب والأحساب على ما عهدوا في جاهليتهم ثم إبان الحكم الأموي، الذي سكب الزيت على النار بتوظيفه لهذا الموروث، من باب سياسة : فرق تسد!. لكن كعرب ما كنا ننتظر منهم أن يقولوا بخرافة "المهدوية "على حسب ما سبرنا من معتقداتهم سواء في

والإباضية، وهي المتواجدة في العصر الحاضر بعمان وزنجبار وجبل نفوسة بليبيا والزاب الجزائري وجربة بتونس، لا يختلفون كثيرا عن الجماعة، إلا بقدر الاختلاف الموجود بين أصحاب المذاهب الأربعة. وشذ عن المذهب يزيد بن أنيسة الخارجي، الذي ادعى أن رسولا من العجم سيأتي لينسخ الشريعة الإسلامية! وهذا لا شك خارج عن الإسلام الرسالة الخاتمة برسولها الخاتم ولكنها الأهواء تفعل ما تشاء بأصحابها!. أنظر: الملل والنحل للشهرستاني (1 : 118 و 137) طبعة دارالمثنى ببغداد، والفرق بين الفرق لعبد القاهرالبغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص. 90 . ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (1 : 157 و 169) مكتبة النهضة المصرية، 1950 القاهرة، والتبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين لأبي المظفر الإسفرايني (ت: 471 هـ) تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة أولى، نشر عزة العطار الحسني ص. 29 و 31 .

[1] مثل : أبي نعامة، قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي (ت: 78 هـ / 697 م) أحد رؤساء فرقة الأزارقة ومن أبطالهم الشعراء الشجعان. وعبد الله صفار الصريمي التميمي (ت: 60 هـ /680 م) رئيس فرقة الخوارج الصفرية، على خلاف في ذلك. وعبد الله بن إباض المقاعسي المري التميمي (86 هـ / 705 م) رأس الإباضية من الخوارج.
النجدات يخالفون الأزارقة في تكفير قعدة الخوارج الذين لا يخرجون إلى قتال المخالفين، ولا في قتل الأطفال. إلا أنهم يبيحون قتل الذمي على عكس الأزارقة الذين قالوا بأن لهم عقد الذمة الذي يجب احترامه!. كما أنهم وحدهم من قال ب "التقية" مع المخالفين حقنا لدم الخارجي دون سائر الخوارج ثم اختلفوا في أمور إلى أن قتلوا زعيمهم نجدة وأقاموا مكانه أبا فديك، عبد الله بن ثور الحروري (ت: 73 هـ) الذي سيقضي عليه جيش عبد الملك بن مروان.

[2] الفرزدق، حياته وشعره، ص. 49 – 50 .

الجاهلية أم في الإسلام. ثم أضف إلى ذلك أنهم يعتبرون الكذب من "الكبائر"، وهذا ما يجعل شهادتهم التاريخية، إن صحت النسبة بها إليهم ذات أهمية قصوى لرصد الأحداث والوقائع. فلا ننتظر أن نجد من بينهم من يجرؤ على اختلاق القول الكذب في حد ذاته، فبالحرى أن ينسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه من شدة الوعيد ما فيه!. لا، هذا ليس من شيمهم ولا طبعهم، هم كما وصفهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : " طلاب حق أخطئوه" وليسوا بأصحاب باطل يختلقون له الأقاويل كما سوف تفعل أحزاب أخرى. هم حزب البادية في مقابلة أحزاب المدن. هم أكثر نقاء وأقل عوالق بأوساخ وأدران المعتقدات التي شابت الحضارات التي انتشرت في الهلال الخصيب منذ فجر الحضارة من غيرهم من سكان هذه المنطقة. وهذا واضح في خطبة لأحد زعمائهم ونحن على مرمى حجر من أفول دولة الأمويين وبروز دول خالفة لهم، من عباسيين وعلويين وخوارج مع إطلالة سنة 132 هـ.

في سنة 129 هـ خرج بحضرموت طالب الحق[1]، فأخرج منها والي بني أمية إبراهيم بن جبلة بن مَخرَمة الكِندي بدون قتال، فاجتمعت عليه الإباضية فبايعوه بالإمامة. ثم توجه إلى صنعاء وتغلب على واليها القاسم بن عمر الثقفي وأخذ بيت المال وقوى به أتباعه. ثم وجه إلى مكة بلج بن عقبة وأتبعه أبا حمزة[2] في عشرة آلاف، وأمره أن يقيم بمكة. قدم بلج في موسم الحج، ولم يشعر الناس وهم بعرفات إلا وقد طلعت عليهم الخيل من الجبل من طريق الطائف. فاجتمع الناس إلى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان والي مكة والمدينة. فكره الوالي قتالهم في الموسم. فمشى عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب[3] بينهم، حتى أخذ عليهم العهد ولهم ألا يحدثوا حدثا حتى ينقضي الموسم ففعلوا. فوقف عبد الواحد بالناس على عرفة، ووقف بلج بأصحابه كذلك في منى. فلما كان يوم النفر نفر الوالي عبد الواحد ثم قدم مكة، ثم قدم على إثره أبو حمزة فخطب الناس على المنبر وقال خطبته الشهيرة، التي تصف الإباضية خير وصف، وهي آخر ما تطورت إليه فكرة الخوارج مذهبا واعتقاداً وممارسة إلى يوم الناس هذا[4].

[1] عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود الكندي الجَنَدي الحضرمي (ت: 130 هـ /748 م) من أهل اليمن وكان إباضيا و شغل منصب قاضي بحضرموت.

[2] المختار بن عوف بن سليمان بن مالك لأزدي السَّليمي البصري (ت: 130 هـ /748 م) قائد وخطيب مفوه من مواليد البصرة.

[3] أبو محمد الهاشمي (70 هـ ~ 145 هـ) زعيم آل البيت في زمنه وأب محمد النفس الزكية الذي سيخرج في المدينة أيام المنصور العباسي.

[4] قال أبو حمزة :
{ يا أهل مكة؛ تعيّروني بأصحابي تزعمون أنهم شباب؟! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا؟!. أما إني عالم بتتايعكم (التهافت) فيما يضركم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم. نعم؛ شباب مُكتهلون في شبابهم، ثِقال غبيّة عن الشر أعيُنهم، بَطيئة عن الباطل أرجُلهم، قد نظر إليهم في جوف الليل مُنثنية أصلابُهم بمثاني القرآن، إذا مرّ أحدهم بآية فيها ذِكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية فيها ذكر النار شَهقَ شهْقة كأنّ زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كلالهم بكِلالهم : كلال ليلهم بكِلال نهارهم، قد أكلت الأرضُ جباهَهُم وأيديهم ورُكبهم، مصفَرّةً ألوانُهم، ناحِلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، مستقلّين لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، مُنجِزون لوعد الله إذا رأوا سهام العدوّ فُوِّقتْ ورماحهم قد أشرعت، وسيوفهم قد انتُضِيت، وأبْرقت الكتيبة وأرْعدت بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، مضى الشاب منهم قُدُما حتى تختلف رجلاه عن عُنُق فرسه، قد رُمِّلت محاسن وجهه بالدماء وعُفِّر جبينه في الثرى، وأسرعت إليه سباع الأرض، فكم من عَيْن في مِنقار طائر طال ما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كفٍ قد بانت بمِعصمها طالما اعتمد صاحبها عليها في سجوده في جوف الليل لله، وكم من خدّ رقيق وجبين عتيق قد فُلِقَ بعَمَد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان.
يا أيها الناس؛ سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء، فقلتم فيهم، والله إ، الذي نعرف، قلتم : أخذوا المال من غير حلّه فوضعوه في غير حقّه، وجاروا في الحكم واستأثروا بحقوقنا وفَيْئنا فجعلوه دُولة بين أغنيائهم وذوي شرف الدّنيا منهم، وجعلوا مَقاسمنا وحُقوقنا في مُهور النساء وفروج الإماء، فقلنا لكم : تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا في الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله. فقلتم: لا نقوى على ذلك، ووَدِدنا أنا أصبْنا مَن يكفينا. فقلنا : نحن نكفيكم ثم الله راع علينا إن ظفرنا لنُعطِيَنّ كلّ ذي حق حقّه، فجئنا فاتقينا الرّماح بوجوهنا والسيوفَ بصُدورنا، وجعلنا الله علينا راعيا كفيلاً لئن ظفرنا لنُعطين كل ذي حق حقه، فعرضتم دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله. فوالله لو قلتم : لا نعرف الذي تقولون، ولا نعلمه كان أعذرَ مع أنه لا عُذر للجاهل، ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة. والناس منّا ونحن منهم؛ خلا عابد وثن أو كفرة أهل الكتاب أو سلطانا جائراً أو شاداً على عضُده }.
أنظر : تاريخ خليفة بن خياط، ص. 385 – 387 . وابن سلام الإباضي في بدء الإسلام وشرائع الدين الآتي ، ص. 112 . وجزء منها عند الجاحظ في البيان والتبيين (2 : 124 – 125) بتحقيق عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1381 هـ /1936 م، القاهرة. وتاريخ الرسل والملوك للطبري.(2 : 2008)، تحقيق دي خوية، 1879 – 1901 م، ليدن.وابن عبد ربه في "العقد الفريد، (4 :146)ط. 1403 هـ / 1983 ،دار الكتاب العربي، بيروت، وعند أبي الفرج الأصفهاني في "كتاب الأغاني" (23 : 237)، تحقيق علي السباعي، ط.

بعد انتهاء الحج ودخول سنة 130 هـ دخل أبو حمزة المدينة بعد معركة طاحنه مع أهلها، وقتل من القرشيين العدد الكبير، لأنهم كانوا ذوي الشوكة فيها. فكانت المرأة تقيم النوانح على حميها، ومعها النساء، حتى تأتيهن الأخبار عن رجالهن، فيخرجن امرأة بعد امرأة، كل واحة منهن تذهب لتفقد زوجها القتيل، فلا تبقى عندها امرأة لكثرة من قتل[1].

وخاصية هذا الحزب المميزة هي أنهم في بداياتهم غلوا فيما اعتمدوا من نصوص الآيات إلى أن نفوا تحكيم الرجال!. والإباضية في هذا المجال تقول بأن زعيمها الحقيقي ليس عبد الله ابن إباض[2] الذي لم يكن سوى واجهة سياسية أيام الانفتاح العزيزي، نسبة إلى عمر بن العزيز (ت: 101 هـ)، وإنما تلميذ ابن عباس جابر بن زيد الأزدي (ت: 93 هـ). وسيطورون مذهبهم ويطبقون مبدأهم في لا قرشية الإمامة عندما سينجحون في إقامة دولة لهم بالمغرب رأسها أبو الخطاب، عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، سنة 140 هـ، أيام الملك العباسي، أبي عبد الله بن محمد بن جعفر بعد انقراض الدولة الأموية، ثم الدولة الرستمية بالجزائر (160 هـ ~ 296 هـ) التي ترأسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي. في جانب نقائض هذا الحزب :

أن عبد الرحمن بن رستم الذي اختاروه لمنصب الإمامة، لأنه فارسي الأصل لا قبيل له ينصره، ولا عشيرة

1394 هـ /1974 م، وهي أيضا عند أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني الأباضي في "طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، (2: 269) ط. قسنطينة، 1394 هـ /1974 م، الجزائر.

[1] وخطب أبو حمزة أهل المدينة عند فتحها خطبة جاء فيها :

{ يا أهل الدينة، مررت زمان الأحول (يقصد به هشام بن عبد الملك).وقد أصاب ثماركم عاهة، فكتبتم إليه تسالونه أن يضع عنكم خراجكم ففعل، فزاد الغنيّ غِنًى، والفقير فقراً، فقلتم له جزاك الله عنا خيراً، فلا جزاكم خيراً، ولا جزاه خياراً. واعلموا أننا لم نخرج من ديارنا إشراً ولا بَطراً ولا عَبثاً، ولا لدولةِ مُلكٍ نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم قد نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطّلت، وعُنّف القائل بالحق، وقُتِلَ القائمُ بالقِسط، ضاقت، علينا الأرض ما رحُبَت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحُكْم القرآن، فأجبنا داعي الله : ومن لم يُجب داعي الله فليس بمعجِز في الأرض ، فاقبلنا من قبائل شتى، ونحن قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخواناً. ثم لقينا رجالكم، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، دعونا إلى طاعة الشيطان، وحكم بني مَرْوان. فشتّان لعَمْرُ الله بين الغيِّ والرُّشد. ثم أقبلوا يَهْرَعون، وقد ضربَ فيهم الشيطان بجِرَانه، وغلت بدمائهم مَرَاجِلُه، وصدق عليه ظنُّه، وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب، بكُلِّ ذي مُهنّد ذي رونَق، فدارت رحانا، واستدْبَرتْ رُحاهم بضرب يرتاب به المبطلون. وأنتم يا أهل المدينة، إن تنصروا مروان وآل مروان يُسْحِتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين.

يا أهل المدينة أولكم خيْرُ أوّل، وآخركم شرّ آخر. يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسْهُم فرضها الله عز وجل في كتابه على القويِّ والضعيف، فجاء تاسع ليس له فيه سهم، فأخذها لنفسه مُكابراً مُحَارِباً }.

الثمانية أسهم هي التي فصلت في سورة التوبة، الآية 60 : { إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل } فهذه هي المصارف الثمانية التي تحكم الصدقات كلها من زكاة وخراج. السهم التاسع هو ما يحتجزه الحاكم لنفسه. وهذا السهم كان قد أكل كل الأسهم الأخرى وأدخلها مداخل غير التي شرعت لها. ومن هنا هذه النقمة المبررة في الخطبة كل تبرير.

أنظر : ابن الأثير، أبا الحسن علي بن محمد (أبا الكرم) الشيباني الجزري (ت: 630 هـ/1232 م): "الكامل في التاريخ"، (5 : 145) بتصحيح عبد الوهاب نجار، المطبعة المنيرية، طبعة سنة 1348 هـ/ 1929 م

[2] عبد الله بن إباض المقاعسي المري التميمي، من بني مرة بن عبيد بن مقاعس (ت: 86 هـ /705 م) رأس الإباضية الظاهر وإليه نسبتهم. عاصر معاوية وتوفي أواخر أيام عبد الملك بن مروان. وفي العقد الفريد لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (1: 223) يقول : { وقال عبد الله بن إباض : لا نقول فيمن خالفنا، إنه مشرك، لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول، وإنما هم كفار للنّعَم، ومَواريثهم ومناكحهم والإقامة معهم حِلٌ ودعوة الإسلام تجمعهم } وتغلبت دولة الإباضية على طرابُلس على يد حملة العلم الخمسة وهم أبو الخطاب، عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي البربري وإسماعيل بن دارار الغدامسي البربري وأبو داود القبلي البربري من سنة 127 هـ /744 م إلى سنة 149 هـ /766 م واستولوا على القيروان سنة 141 هـ / 758 م . ثم قيام الدولة الرستمية التي تراسها عبد الرحمن بن رستم في الجزائر (160 هـ/ 776 م ~ 296 هـ /908 م) وخضعت لهم جربة بتونس تحت إمامهم عبد الوهاب من سنة 171 هـ /787 م إلى 211 هـ /826 م). ويورد مؤرخوهم أن عبد الرحمن بن رستم توجه إلى البصرة ليتعلم على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت: 145 هـ /762 م) الذي خلف جابر بن زيد على الإباضية بعد وفاته. وعبد الرحمن بن رستم يقول بأن أول من جاء يطلب مذهب الإباضية بالقيروان هو سلمة بن سعد الذي قدم هو وعكرمة مولى ابن عباس (ت: 105 هـ /723 م) والمذهب يعد من أقدم المذاهب الإسلامية الذي يستعمل كمصادر: القرآن والسنة والإجماع والقياس. وهم يعتمدون كأصل للرواية الحديثية: مسند الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي البصري وهو من محدثي المائة الثانية للهجرة . ويوجدون حالياً في كل من الجزائر وتونس وليبيا وعُمَان وزنجبار. أنظر : أحمد بن سعيد الشماخي (ت: 928 هـ /1522 م) : "كتاب السير"، ص. 123 - 124 و 161 طبع حجر سنة 1357 هـ /1938 م، القاهرة. وكذلك أبا عمار عبد الكافي في كتاب "الطبقات : ذكر أسماء علماء الإباضية إلى القرن 6 هـ " (1 : 8 و 16).

تدفع عنه، ليسهل عزله إن حاد عن الجادة!، أثبت أنه كان عند حسن ظن الجميع، عندما تولى الإمامة وأنشأ دولة استمرت لمائة وستة وثلاثين سنة (160 ~ 296 هـ). إلا أن الإمامة صارت وراثة في ذريته! وهو عكس ما كان منتظراً من جماعة ترفع شعار الشورى إلى درجة التقديس وقامت كل ثوراتها على أساس تطبيقه[1]!. وهو ما سنراه يتكرر عند حزب الزيدية أيضاً!، وهي مفارقة التنظير/ والتطبيق.

والقصة المعتمدة أو بالحَرى العقيدة المؤسسة لهذه الفرقة منذ قيام الدولة إلى يومنا هذا نجدها عند ابن سلام الإباضي (ت: ما بعد 273 هـ /886 م) في كتاب " بدء الإسلام وشرائع الدين "، حيث يوضح قول الإباضية في أمر ولاية الخليفة عثمان بن عفان على لسان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، بذات التلفيق الذي عهدته المنطقة[2]!.

---

[1] فعندما تولى ابنه عبد الوهاب خلفا لأبيه ثارت عليه ثورة " النكّار " الذين أنكروا إمامته وطالبوا بتكوين مجلس للشورى يكون أعضاؤه أشخاصاً معروفين. وهي ثورة شرعية ضمن منطلقات الحزب، إلا أنه لم يستجب لمطالبهم، على غير المتوقع!، فقامت فتن ذهب ضحيتها الكثير من القتلى. بل ستنتهي هذه الدولة الوراثية العضوض، بذات السنن التي انتهت بها دول أخرى، عانقت المثالية في التنظير وخانته في التطبيق!. فقد قد قام اثنان من أبناء أبي اليقظان شقيق الإمام بقتل الإمام وتولية والدهما مكان أخيه المقتال!. وهكذا ربَعوا الدائرة بدورهم فاعرض الناس عنهم، من شناعة فعلهم، لينتهي أمر دولتهم على يد العبيديين!، الذين فرغت الساحة أمامهم، وسهل عليهم قيام دولتهم، وإن على اسس اتعس بكثير وبكل المقاييس!.

ومصير الدولة الخروصية بعمان التي تأسست على يد الوارث بن كعب سنة 179 هـ وشهدت توالي ائمة معتبرين حسب نظرية الحزب سينخرم عقدها هي الأخرى، بعد إمامة الصلت بن مالك بن بلعرب الذي حكم للفترة (237 ~ 272 هـ)، أي بعد قرن من الزمان، لتعمها الفوضى السياسية والمؤامرات والدسائس وليتتابع الأئمة بالإسم اللذين لا يمكثون في الحكم سوى فترات قليلة تقضي بهم في آخر المطاف إما إلى العزل أو السجن، لم يكونوا أحسن حظا من غرمائهم العباسيين يوماً وقد استبد بهم العسكر يولي ويعزل ويقتال!. وهي ذات العوارض التي سوف تلم بدولة الإمامة اليعاربية (1034 ~ 1154 هـ) التي حكمت عمان إلى هذه الفترة المتأخرة، ثم هي ذاتها ما ألم بالدولة البوسعيدية التي قامت على أنقاضها بإمامة أحمد بن سعيد السعيدي الذي بويع بإجماع وحكم للفترة (1154 ~ 1188 هـ) لتتسلسل في ذريته من بعده! : الفيروس القاتل للنظرية!. أنظر: ابن أبي الصغير المالكي(القرن الثالث الهجري) : " في تاريخ الدولة الرستمية " ، أعمال مؤتمر المستشرقين الرابع عشر بالجزائر، ص. 9 ~ 62 ، ط. الجزائر لسنة 1908 . ثم أبا العباس أحمد بن سعيد الشماخي (ت: 928 هـ/1522 م) في : " كتاب السير " ط. حجر، القاهرة 1301هـ/1883 م. ثم الشيخ سالم بن حمود:" عمان عبر التاريخ "، ط. وزارة التراث القوي، عمان. وكذلك : ابن رزيق في : " الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، بتحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله، ص. 329 ~ 350 . ط. وزارة التراث، عمان. وعلي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ: أربع حلقات : (1) نشأة المذهب الاباضي القاهرة، 1384 هـ/1964 م، (2) الاباضية في ليبيا، مكتبة وهبة، القاهرة، 1384 هـ، (3) الاباضية في تونس، دار الثقافة، بيروت 1385 هـ/1966 م، (4) الاباضية في الجزائر، القاهرة، 1399 هـ/1979 م.

[2] { فعمل فيهم (يعني عثمان) بالسنة وسيرة صاحبيْه أبي بكر وعمر ستة أعوام، ثم ركن وأخلد إلى الدنيا وأحدث أحداثاً فاستتابوه منها، وعاد إلى غيرها، فأمروه بلزوم بيته وأن ينخلع من الخلافة، فأبى وأصرّ فقاتلوه في داره حتى قُتِل. فلم يحضر قتله عبد الرحمن بن عوف، وقد توفي قبل أن يقتل وهو من أشد الناس حَرداً عليه. وأوصى عبد الرحمن عند موته ألا يصلّي عليه عثمان بن عفان!. قال (عبد الله بن عباس) : فلما قتل عثمان بن عفان اجتمع الناس على علي بن أبي طالب، فكانت طاعته على الأمة واجبة وإمامته لهم لازمة. ثم نكث عليه طلحة والزبير وعبد الله بن الزبير مع قوم من أهل البصرة وخالفوه بعد البيعة. وقام أهل الشام مع معاوية طلباً لدم عثمان. فجاهدهم علي وقتل بعضهم وقُتِل طلحة والزبير في قتالهم علياً يوم الجمل الذي عليه هودَج عائشة رحمها الله وهي راكبة في الهودج بالبصرة. وقُتِل عمّار بن ياسر رحمه الله ومن استشهد معه يوم صفين وهو مع علي يقاتل معاوية وأصحابه. فطال بهم الأمر واشتد الحرب و { ارتاب المبطلون } وحكّموا الحكمَيْن خلافاً لكتاب الله!، وحكموا الحكمين في أمر قضاه الله. فاختلفت الأمة وتفرقت الكلمة وصار الناس شيعتين مفترقتين. وظهر أهل الباطل من أصحاب معاوية على أهل الحق. فاختفى المسلمون بالحق الذي تمسكوا به، فاختلفت عليهم كلمة المختلفين يقتلونهم على دين الله الحنيف والمِلة الصادقة (ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)، يُبصّرون الناس دينهم في السرّ ويصبرون في الله على الأذى والقتل، واحتقروا ذلك في ذات الله تعالى، فصارت هذه الدعوة في أيدي أقوام من أهل المغرب وأطراف البلاد من أهل اليَمَن وحَضرَمَوْت وعُمان وخُرسان وأطرابُلس ونواحي الغرب وهم قليل في كثير.

وبلغنا أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوماً فقال: أيها الناس أيكم يعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ فقال حذيفة : أنا. قال له عمر أخبرني. قال حذيفة : فتنة الرجل في أهله وماله التي قال الله { إنما أموالكم وأولادكم فتنة } تكفرها الصلاة الخمسة. فقال عمر : ليس عن تلك الفتنة أسألك، إنما أسألك عن الفتنة التي تموج بالناس كموج السفينة بالبحر. قال حذيفة : تلك الفتنة بينك وبينها باب. قال عمر : الباب يا حذيفة يفتح أو يكس؟. قال حذيفة : بل يكسر. قال عمر : إن كُسِر الباب فذلك أحْرى ألا يسد إلى يوم القيامة. فقال الناس لحذيفة: ما الباب وما هو؟ فقال لهم : حياة عمر هي الباب. وكسر الباب قتل عمر إذ لم يمت موتاً!. فلما قُتِل عمر ولِيَ عثمان فقُتِل ففُتِح لهم باب الفِتْنة.

فقال حذيفة بن اليمان : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ذات يوم إذ انفضّ عنه الناس فخرجوا، فقال عليه السلام: من كان في البيت من غير قريش فليخرج!. فلما خرج الناس وبقي قريش وحدهم قال لهم النبي : هل فيكم أحد غيركم؟. قالوا : لا. قال لهم عليه السلام : كيف بكم إذا كنتم على رقاب الناس، يعني الولاية، واستخرجتم كنوز فارس والروم؟. قال : فأزمَ القوم قريش فسكتوا، ثم ثنى النبي القول مثل الأول فسكتوا، ثم ثلث القول أيضاً فسكتوا!. فقال عبد الرحمن بن عوف: خيراً يا رسول الله، إذاً نعمل بكتاب الله ونأخذ بسنة نبيه، نقيم

نجد في الكتاب فصلاً مخصصاً عقد له باباً بعنوان : " باب ما جاء في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل البربر[1]"، على غرار ما أورد آخرون في فضائل عرب مُضر[2]، وعرب عُمان[3]، والعرب عامة[4]، وفي أهل الحجاز والطائف[5]، وأهل اليَمن[1]، أو خرسان[2] ، أو الشام[3]..الخ.!. فالشعر كان يستعمل للإعلام على طريقة الجاهليين،

الصلاة ونؤتي الزكاة ونجاهد العدو ونقسم الفيء. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا!، والذي نفسي بيده لا تفعلون ذلك، ولكنكم إذا كان ذلك تنافستم وتدابرتم وتحاسدتم وتباغضتم وحملتم فقراء المهاجرين فقتل بعضهم بعضاً!. وقال عمر بن الخطاب لقريش يوماً: لأنتم أخوف عندي على أمة محمد من الحبشة وفارس والروم؟!.}

لاحظ هنا أن هذه الخبر أورده بصيغة " بلغنا"، وهي من صيغ التمريض التي لا سند لها

أما عنوان الكتاب الكامل فهو : " كتاب بدء الإسلام وشرائع الدين ونكت من فضائل الصحابة المهتدين ولمع من أخبار الجبابرة المُعْتدين وجملة من أخبار أئمة الإباضية الراشدين وكيف كان أمرهم مع الظلمة الجائرين : تأليف بعض أصحابنا المتقدمين "، تحقيق فيرنر شفارتس والشيخ سالم بن يعقوب، نشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ص. 105 - 108)، ط. 1406 هـ / 1986 م، سلسلة النشرات الإسلامية رقم 33 ، التي أسسها هلموت ريتر وتصدرها جمعية المستشرقين الألمانية بإشراف: إسطفان فيلد وأنطون. م. هاينن.

[1] بدء الإسلام وشرائع الدين، ص. 121 – 125 : { وبلغنا أن عائشة أم المؤمنين رحمها الله دخل عليها ذات يوم رجل من البربر وهي جالسة مع اثني عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، فقامت عائشة عن وسادتها فطرحتها للبربري دونهم، فانسل القوم غِضاباً، فاستفتى البربري في حاجة ثم خرج. فأرسلت عائشة تلتقطهم من دورهم، فجاءوا كلهم فقالت لهم: قمتم عني غضاباً ولِمَ ذلك؟. قالوا غضبنا من الرجل، أنه دخل علينا رجل من البربر كلنا نزدريه ونبغض قومه فآثرتِه علينا وعلى نفسك..} فتحكي لهم قصة البربري مصفر الوجه غائر العينين جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الرسول قال له بأن جبريل جاءه وقال له : { يا محمد أوصيك بتقوى الله وبالبربر!. قال النبي : يا جبريل وأي البربر؟. قال : هم قوم هذا (الرجل) فقال النبي لجبريل : ما شأنهم؟. قال : هم الذين يحيون دين الله بعد إذ يموت ويجددونه بعد إذ يبلى. قال جبريل : يا محمد دين الله خلق من خلق الله نشأ بالحجاز وأصله بالمدينة خلقه ضعيفاً ثم ينمِّيه ويُنْشِئه حتى يعلو ويعظم ويثمر كما تثمر الشجرة ويهرم كما تهرم الشجرة، وإنما يقع رأس دين الله بالمغرب، والشيء الثقيل الطويل إذا وقع لم يرفع من وسطه ولا من أصله وإنما يرفع من رأسه!؟ } ويحكي قصة عن عمر بن الخطاب بكى وأن الرسول سأله ما يبكيك يا عمر؟. قال : أبكاني يا رسول الله هذه العصابة من المسلمين واجتماع أمم الكفر عليها. فقال لي : لا تبك يا عمر فإن الله سيفتح للإسلام باباً من المغرب يعز الله بهم الإسلام ويذل الله بهم الكفار، أهل خشية وبصائر، يموتون على ما أبصروا، ليست لهم مدائن يسكنونها ولا حصون يتحصنون فيها ولا أسواق يتبايعون فيها! } ويورد أن علي بن أبي طالب قال : { يا أهل مكة ويا أهل المدينة أوصيكم بالله وبالبربر فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب بعد إذ ضيعتموه!، وهم الذين ذكر الله في سورة المائدة، الآية 54 : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه.." ثم لا ينظرون في حسب لأحد خالف طاعة الله } قال البكري : فمِن حين قُتِل علي بن أبي طالب، إنما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم، ومِن حين الفتنة فإن البربر إنما يقاتلون على دين الله ليقيموه. قال البكري ورفع الحديث إلى عبد الله بن مسعود، قال: قام (الرسول) في آخر حجة حجها خطيباً فقال : " يا أهل مكة ويا أهل الدينة أوصيكم بتقوى الله وبالبربر فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب! إذ يقول في سورة محمد، الآية 38 : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾. فوالذي نفس ابن مسعود بيده، لو شاهدتموهم لكنتم لهم أطوع من أيمَانهم وأقرب إليهم من دثارهم، يعني ثيابهم }. فهذه المرويات الغير مسندة توضح تأثير تغير البيئة، من بيئة عرب تميم وحنيفة والأزد إلى بربر الشمال الإفريقي. ثم النكهة الشعوبية واضحة كرد فعل للشعوبية العربية التي كرستها الدولة الأموية. إلا أن الإباضية بما استحدثته من نظام "العِزابة" في طور الكتمان والذي صمد من القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا في جربة بتونس وميزاب في الجزائر ونفوسة بليبيا أثبت نجاعته في الحفاظ على العقيدة الإسلامية المتمحورة حول المسجد والقيام بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العلم المبني على القرآن والسنة وحدهما مثالية مقارنة مع ضلالات زوايا الصوفية أو الطرقية أو دعاوى الكفر العبيدية الفاطمية التي أطاحت بدولتهم.

[2] عن ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا اختلف الناس فالعدل في مضر!؟ ويرويه الطبراني في المعجم الكبير من طريق عبد الله بن المؤمل عن المثنى بن الصباح وكلاهما ضعيف. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10 : 55).

[3] عن أبي لبيد، قال : خرج رجل منا من ضاحية مهاجراً يقال له بيرح بن أسد فقدم المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيام، فرآه عمر فعلم أنه غريب، فقال : من أنت؟. فقال : من أهل عمان. فقال : من أهل عمان قال : نعم. فأخذ بيده فأدخله على أبي بكر، فقال : هذا من أهل الأرض التي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إني لأعلم أرضاً يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر. رواه أحمد في المسند وأبو يعلى الموصلي وفيه لِمازة بن زبّار الأزدي أبو الوليد الجهضمي البصري اشتهر بشتم علي ومدح يزيد بن معاوية وكان ممن حضر وقعة الجمل. أنظر ترجمته في تهذيب التهذيب (8 : 410) وميزان الاعتدال (3 : 419) وهو من رجالات أبي داود والترمذي وابن ماجة. وليس يروي له البخاري أو مسلم شيئا.

[4] عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحبوا العرب لثلاث، لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي رواه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط، وفيه العلاء بن عمرو الحنفي الكوفي وهو وضاع للأحاديث مجمع على ضعفه!. أنظر ترجمته في ميزان الاعتدال (3 : 103).

[5] عن عبد الملك بن عباد بن جعفر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول من أشفع له من أمتي يوم القيامة أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف. روه البزار في مسنده والطبراني في الكبير والأوسط وابن شاهين والزبير بن بكار، وفي السند حمزة بن أبي شمر أو حمزة بن عبد الله بن أبي سمي وعبد الملك بن زهير أو عبد الملك بن أبي زهير وهم مجاهيل، زيادة على أن الرواية تروى مرسلة عن محمد بن عباد! أنظر مجمع الزوائد (10 : 56 – 57)والإصابة في تمييز الصحابة (2 : 423 /5260).

أما الحديث فقد أصبح يختلق لإضفاء الشرعية أو الحظوة أو الميزة على الأقوام أو البلدان أو الأشخاص بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبتقويله ما لم يقله!.

5-2-2- حزب الشيعة

هذا الحزب ظهرت بوادره منذ اجتماع سقيفة بني ساعدة بين الأنصار والمهاجرين، الذي تمت فيه البيعة لأبي بكر الصديق. ولم يشارك في الاجتماع من المهاجرين سوى ثلاثة أنفار: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، نظراً لكونه أمراً طارئاً دعا له الأنصار لوحدهم ولحق بهم الثلاثة نفر على عجل. لم يحضره لا آل هاشم ولا بني عبد المطلب لانشغالهم بتجهيز دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]، ولا باقي المهاجرين. ثم ما كان من تأخر بيعة علي بن أبي طالب لأبي بكر، بعد البيعة العامة ودعوى ميراث النبي صلى الله عليه وسلم التي أثارتها فاطمة الزهراء صلوات الله عليها في أمر "فدك" وامتناع أبي بكر رضي الله عنه عن ذلك بحديث : "إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة"[5] إلا بعد لحاق فاطمة الزهراء بأبيها، بعد أشهر من لحاقه صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى، ثم بدأت تتضح معالمه العامة مع الفتنة الكبرى التي صاحبت قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه. بعدها تطور الحزب مع مستجدات السياسة والتاريخ وموروث المنطقة والجغرافيا وتلون بألوانه. والمتفق عليه لدى كل فرق وأجنحة هذا الحزب، هو أن عليا بن أبي طالب كان هو المختار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويستشهدون بأحاديث وردت في مناقب علي كرم الله وجهه كحديث : "من كنت مولاه فعليٌ مولاه[6]" وحديث : "أما ترضى أن تكون

---

[1] عن معاذ بن جبل أنه كان يقول بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال : لعلك أن تمر بقبري ومسجدي وقد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم يقاتلون على الحق مرتين. فقاتل بمن أطاعك منهم من عصاك ثم يفيئوا إلى الإسلام حتى تبادر المرأة زوجها والولد والده والأخ أخاه فانزل بين الحيين السكون والسكاسك. رواه أحمد في المسند والطبراني في المعجم الكبير. وفيه يزيد بن قطيب السكوني الحمصي وهو من المجهولي الحال الذين يوثقهم ابن حبان وحده باصطلاحه الخاص في الذين لم يزكهم أحد ولا طعن فيه أحد! ثم هو لم يسمع من معاذ. أنظر مجمع الزوائد (10 : 58).

[2] عن بريدة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون بعدي بعوث كثيرة فكونوا بعث خرسان ثم انزلوا مدينة مرو فإنه بناها ذو القرنين! ودعا لأهلها بالبركة ولا يضر أهلها سوء!. رواه احمد في المسند والطبراني في الأوسط وفي سندهما أوس بن عبد الله ورواه الطبراني في المعجم الكبير وفي سنده حسام بن مصك، والاثنان مجمع على ضعفهما!. أنظر مجمع الزوائد (10 : 67).

[3] عن جبير بن نفير قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سيفتح عليكم الشام، فإذا خيرتم المنازل فيها فعليكم بمدينة يقال لها دمشق!، فإنها معقل المسلمين في الملاحم وفسطاطها، منها أرض يقال لها الغوطة!. رواه أحمد في المسند من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني الشامي وهو مجمع على ضعفه، ضعفه أحمد وابن معين وأبو زرعة الرازي وأبو حاتم الرازي والجوزجاني والنسائي والدارقطني حتى قال فيه: متروك. أنظر : مجمع الزوائد (10 :60) وترجمة أبي بكر هذا في تهذيب التهذيب (12 : 33) لابن حجر العسقلاني.

[4] لم يكن علي وحده من أصحاب السابقة في الإسلام الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر!، فإن كان عليا قد بايع بعد ذلك، فإن سيد الخزرج، سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، أبا ثابت أو أبا قيس الأنصاري الخزرجي (ت: 16 هـ ؟) لم يبايع لأن الأنصار اتفقت عليه عندما قالوا: منا أمير ومنكم (يعني المهاجرين) أمير. فلما قال ابو بكر بأن العرب لن تسلم بهذا الأمر إلا لقريش وبويع بذلك، قبل البيعة العامة في اليوم التالي، إنما كان يقنعهم بواقع حال العرب ولمكانة مكة وقريش منها في الجاهلية والإسلام. وخرج إلى حوران بالشام وتوفي هناك. وقال ابن عباس بأن راية رسول الله في المواطن كلها كانت مع علي وراية الأنصار في المواطن كلها كانت مع سعد. وكما كان منتظراً في أي عمل استشاري أو توافقي من هذا القبيل،وإلى قيام الساعة، فالإجماع إنما هو إجماع أغلبية مطلقة أو بسيطة حسب الظرف والزمان والمكان والأشخاص، على عكس ما سوف يقول به المنظرون لاحقاً، عندما سيسقطون تصوراتهم النظرية على واقعة عملية تاريخية لا تخضع للتنظير الحر!. أنظر ترجمة سعد بن عبادة عند ابن حجر العسقلاني في "تهذيب التهذيب" (3 : 412 /883) ، دار الفكر، ط. أولى 1404 هـ/ 1984 م. وكذلك في " الإصابة في تمييز الصحابة" له (2 : 37)، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

[5] الحديث عند البخاري في كتاب الخمس الباب رقم 1 وفي كتاب فضائل الصحابة، الباب 12 وفي كتاب المغازي الباب 14 و 28 ، وفي كتاب النفقات، الباب الثالث، وفي كتاب الفرائض، الباب الثالث، وفي كتاب الاعتصام بالسنة، الباب 5 . وهو عند الإمام مسلم في كتاب الجهاد الأحاديث رقم 49 – 52 ، و54 و56 . وعند أبي داود في سننه في كتاب الإمارة، الباب 19 وعند الترمذي في كتاب السير، الباب 44 . وعند النسائي في سننه في كتاب الفيء،، الباب 9 و 16 . وعند الإمام مالك في الموطا في كتاب الكلام، رقم الحديث 37 . وهو عند الإمام أحمد في المسند (1 : 4 ، 6 ، 9 ، 10، 25 ،47 ، 48 ، 49 ، 60 ، 162 ، 164 ، 179 ، 191، 208) و (2 : 462) و (6 : 145 ، 262) وغيرها.

[6] حديث كثير الطرق، وقد استوعبها أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي، مولى بني هاشم (250 هـ /864 م ~ 332 هـ /944 م) الحافظ الزيدي الجارودي، نسبة إلى فرقة الجارودية من الشيعة الزيدية في كتابه : "كتاب الموالاة" . أنظر ترجمة ابن عقدة في ميزان الاعتدال للذهبي،(1 : 136 /548) وانظر: محمد بن جعفر الكتاني في " نظم المتناثر من الحديث المتواتر" ص. 206 . دار الكتب العلمية، ط. ثانية 1407 هـ /1987 م، بيروت. قال بن حجر العسقلاني في فتح الباري (7 : 57) في باب "مناقب علي بن أبي طالب "قال أحمد (أبو

مني بمنزلة هارون من موسى؟[1]". ولا يختلف المسلمون، إلا من شذ وخرج من ربقة الإسلام، في سابقة ومنزلة علي في الإسلام وتقدُّمه، بحيث حتى لو لم ترد مثل هذه الأحاديث في أفضال علي لما شك مسلم أنها تنطبق عليه أوصافها حالاً وواقعاً. فهو قد تربى في كنف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو صغير، ما بين ثمان أو ست عشرة سنة، حسب اختلاف الرواة، مما يعني أنه وُقِيَ جاهلية عصره مثله مثل أسامة بن زيد لاحقاً. ثم هو أسلم بإعلان الرسالة ذاتها، كما كان منتظراً مع خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم في أول من أسلموا. لذلك فكونه مواليا للرسول أو كون الرسول موال له، هو من تحصيلات الحواصل[2]. ثم ثانياً كونه بمنزلة هارون من موسى، لا تخرج عن هذه الحيثية أيضاً ولا تضيف لمرتبته جديداً، من ناحية قربه من الرسول عقائدياً، ما دامت مرتبة النبوة، التي كانت متأتية لهارون، متعذرة هنا، بكون الرسول ختم كل نبوة ورسالة. فهو أبوه وأخوه عقائدياً، لا بالدم. وإن كان الدم في حد ذاته لا يقدم ولا يؤخر في مسائل العقائد!. إذ الدَّم لم يحل دون ولوج ابن نوح عليه السلام النار لمعصية أبيه في الركوب معه في السفينة، بل نفى الله عنه البنوة وأنَّب نوحاً على الاستغفار له[3]. فهذا الحديث ورد يوم أن خلَّفه الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة، أثناء خروجه لغزوة تبوك. فقال المنافقون، وعلي مشهود الوطأة عليهم وعلى صناديد الكفر : "إستَثقَله!". فذكر ذلك علي للرسول صلى الله عليه وسلم فقال له :

" كذبوا، إنما خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، فأنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنَّه لا نبي بعدي "[4].

وشيعة علي كرم الله وجهه، لم تكن على درجة واحدة من الموالاة، فهي صدى للتاريخ والموروث في آن، فيهم المعتدلون المقدمين له على غيره من الصحابة إما في السابقة أو الفضل أو فيهما معاً، دون لمز أو غمز أو حط من أقدار أجِلَّة الصحابة كالشيخين أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وفيهم الغلاة الذين يكفرون الصحابة ويفسقونهم بأدنى الأسباب كالروافض، وفيهم المارقين من الدين جملة على ما سوف نبين.

وإذا كان موطن الشرعية الشورية : الحجاز لتمركز الخلافة الراشدة فيه، وموطن الملكية القيصرية الجديدة سواء : السفيانية منها، نسبة إلى معاوية بن أبي سفيان، أو المروانية، نسبة إلى مروان بن الحكم في الشام،

عبد الله بن محمد بن حنبل الشيباني، وفيات: 241 هـ) وإسماعيل القاضي (أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق البصري، ثم البغدادي، شيخ مالكية العراق، وفيات: 282 هـ) والنسائي (أحمد بن شعيب بن علي الخرساني، صاحب كتاب السنن، وفيات: 303 هـ) وأبو علي النيسابوري (الحسين بن علي بن يزيد بن داود، وفيات: 349 هـ): لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر ما جاء في علي، وكان السبب في ذلك أنه تأخر ووقع الاختلاف في زمانه وخروج من خرج عليه. فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة من كان بينهما من الصحابة رداً على من خالفه. فكان الناس طائفتين، لكن المبتدعة قليلة جداً. ثم كان من أمر علي ما كان، فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتد الخطب فتنقصوه، مضموماً ذلك منهم إلى عثمان، فصار الناس في حق علي ثلاثة : أهل السنة، والمبتدعة من الخوارج، والمحاربين له من بني أمية وأتباعهم. فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك. وإلا فالذي في نفس الأمر أن لكل من الأربعة (أبو بكر، عمر، عثمان وعلي) من الفضائل، إذا حرر بميزان العدل لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلاً.

[1] حديث استوعب طرقه الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الشافعي الدمشقي (499 هـ ~ 571 هـ). أنظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص. 206 .

[2] وسوف نعرض لهذه النصوص حسب استشهاد الفرق بها أثناء جردنا لمقولاتها.

[3] سورة هود، الآيات: 41 – 47 :(وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم. وهي تجري بهم في موج كالجبال. ونادى نوح ابنه وكان في معزل، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين. ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) .

[4] الحافظ يوسف بن عبد البر النمري (368 ~ 463ه) : " الدرر في اختصار المغازي والسِّير"، دار الكتب العلمية، ص. 179 ، بيروت، بدون تاريخ.

والمقاربة هنا مع هارون هي في سورة الأعراف، الآية 142 : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة. وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين). إلا أن دلالتها ليست قطعية هنا، لأن الرسول استخلف غير علي كرم الله وجهه على المدينة كلما خرج منها. فقد استخلف عليها ابن أم مكتوم ثلاث عشرة مرة وأبا رهم الغِفاري كلثوم بن حصين، حين سار إلى مكة وحنين والطائف وغزوة خيبر وفي عمرة القضاء، ومحمد بن مسلمة في غزوة قرقرَة الكُدْر، ونميلة بن عبد الله الليثي في غزوة بني المصطلق، وعويف بن الأضبط في غزوة الحديبية، وسباع بن عرفطة الغِفاري في غزوة تبوك، وفي بعض غزواته الأخرى غالب بن عبد الله الليثي. أنظر تاريخ خليفة بن خياط، ص. 96 – 97 .

لاستنثارهم بنمطية الحكم القيصري من هناك، فإن موطن الشيعة السياسية هو العراق، لانتقال على كرم الله وجهه إليها إبان خلافته. وكأن كل هذه الأقطار الثلاثة تعلقت بما ألفت من سيرة من حكمها وملَّكته ناصية أفندتها، زيادة على الكراهة المستحكمة التاريخية الموروثة، التي لم يمر عليها سوى عقدان منذ فتوح الإسلام، بين حيرة العراق وغسان الشام. فكأن استمرار الحروب القديمة بعباءات جديدة، ليست جديدة كل الجِدَّة ولا هي خارج المألوف في هذه المنطقة من الهلال الخصيب المثقلة بالعقائد والموروث والعصبيات وإلى أيام الناس في عصرنا الحاضر!.

5-2-2-1- استشهاد الحسين والانعطاف التاريخي للحزب الشيعي

توفي معاوية بن أبي سفيان سنة ستين للهجرة، بعد أن وطأ الحكم لابنه يزيد من بعده، بسابقة هي بمثابة انقلاب جذري على العهد الراشدي الذي سبقه. وأهم ما كان يقلق بال يزيد هو أخذ البيعة من أمثال الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، بعد أن كان أبوه معاوية أخذها له منهما بحيلة وبتهديدهم بقطع رؤوسهم إن أبوا في موسم حج سنة 51هـ. كانوا أربعة يومها. الحسين بن علي بن أبي طالب، عبد الله بن الزبير بن العوام، عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. وعبد الرحمن قالها صريحة يومها لمعاوية[1] :

والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنعيدنَّها عليك جذعة!.

لكن عبد الرحمن توفي سنة 35 هـ، وابن عمر خرج من الأمر كله، ولم يبق سوى الحسين وابن الزبير وأمثالهما ممن بايعوا مكرهين زمن والده. استدعاهما الوليد بن عتبة بن أبي سفيان الأمير على المدينة إلى قصر الإمارة بتكليف من يزيد، لأخذ البيعة منهما ليزيد. وكان مروان بن الحكم حاضراً، ولكنهما تخلصا من البيعة بدعوى أن بيعتهما لا بد وأن تكون على رؤوس الأشهاد. فقال مروان للوليد بشأن ابن الزبير والحسين : اضرب عنقهما!، فقال الوليد[2] :

والله يا مروان ما أحب أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين. سبحان الله! أقتل حسيناً أن قال : لا أبايع، والله إني لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة.

أتبعهما الوالي بالمخبرين، إلا أنهما استغفلا الكل وارتحلا من الغد إلى مكة فقال ابن الزبير للحسين[3] :

ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك في العراق، فو الله لو أن لي مثلهم لذهبت إليهم.

فأبدل يزيد بن معاوية واليه الوليد بن عتبة، الذي كان رجلاً مسايراً مسالما، بعمرو بن سعيد أميراً جديداً على المدينة. فلما أطلع على ما كان من خبر الحسين وابن الزبير، رقي المنبر وخطب فقال في حق الزبير[4] :

تعوذ بمكة فو الله لنغزونه، ثم والله لئن دخل مكة لنحرقنها عليه، على رغم أنف من رغم!

بعد استقرار الحسين بمكة بدأت تفد إليه الوفود والرسائل من الكوفة يدعونه إلى القدوم إليهم لنصرته ضد يزيد بن معاوية. توجس بعض كبار الصحابة، أصحاب الخبرة بأهل العراق خيفة مما يجري، وذكروه بخذلانهم لأبيه ثم لأخيه الحسن[5]، إلا أن الحسين أصرَّ على محاربة الانقلاب الأموي بأية حيلة متوفرة وبأدنى سبب متاح أو ممكن ومنعاً لأن تنقلب الخلافة إلى ملك قيصري عضوض بدت بوادره الآن بوضوح.

أرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة لأخذ البيعة له وللاطمئنان على مصداقية رسائلهم إليه ومدى استعدادهم. لم يطل انتظاره كثيراً، إذ لم تمض أيام حتى وصلته رسالة من عقيل تقول بأنه حصل على بيعة ثمانية عشر ألفا من الرجال ويلح عليه فيها بالقدوم عليه.

---

[1] تاريخ حليفة بن خياط، ص. 214 .

[2] أبو الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (700 هـ ~ 774 هـ): "البداية والنهاية في التاريخ"، (7 :147) ط. ثانية، مطبعة السعادة، القاهرة.

[3] تاريخ خليفة بن خياط، ص. 233 .

[4] تاريخ خليفة بن خياط، ص. 233 .

[5] قال له ابن عباس : يا ابن عم إنه قد أرجف أنك سائر إلى العراق، فبين لي ما أنت صانع؟. قال: إني قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى. فقال ابن عباس : أخبرني إن كانوا قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم، فسر إليهم، وإن كان أميرهم حي وهو مقيم عليهم قاهر لهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال ولا آمن عليك يقلبوا قلوبهم عليك، وإن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم،. أنظر البداية والنهاية لابن كثير، ط. ثانية، (8 : 160).

كان الوالي على الكوفة، النعمان بن بشير الأنصاري، فلم يعبأ لما يقوم به مسلم بن عقيل، إلا أن عيون بني أمية لم تكن لتأخذها سنة أو غفلة في مثل هذه الأمور. وما هي إلا برهة حتى جمع يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد ولاية العراق. فبدأ الأخير بمجرد وصوله بفتح صنابير العطاء على زعماء القبائل والأحياء، ليتخاذلوا عن مسلم. وأعاد العراق تمثيل مسرحيته التخاذلية القديمة مع الحسين كما تجرعها منهم أخوه الحسن ووالدهما علي من قبل، فبدأ الناس يتسللون لواذا عن مسلم، إلى أن وجد نفسه وحيداً بين أحياء الكوفة!. فأوى بعد ضنى إلى بيت عجوز أشفقت من حاله ومآله بعد أن عرّفها بنفسه. لكن الخيانة في الكوفة كانت تجري في عروق الناس مجرى الدم، إن لم تكن حتى فيما يتنفسون من هواء!. فإن آوته العجوز فقد وشي به ابنها!. وهكذا تمكن عبيد الله بن زياد من مسلم فقتله.

في مكة لم يعلم الحسين بكل هذا، وأعد عدته وأهله للحاق بالكوفة، فلقيه الشاعر الفرزدق الذي قدم من الكوفة فقال له[1] : يا بن رسول الله ما أعجلك عن الحج؟

قال الحسين: كتب إلي هؤلاء القوم، لكن قل لي كيف تركت الناس وراءك؟

قال: فِداك أبي وأمي تركت القلوب معك والسيوف مع بني أمية والنصر من السماء!.

لما وصل الخبر بمقتل مسلم بن عقيل كان الحسين على مقربة من الكوفة، فتشاور هو ومن معه فأبوا إلا المضي للثأر لدم مسلم!. وهنا فوجئ الجميع بجيش ابن زياد يحاصرهم. كانت الأوامر لأمير الجيش عمر بن سعد هو قتال الحسين، وإن تخاذل هو، فالأمير شمر بن ذي الجوشن، الذي تجمعت فيه كل خصال الجفوة والجهل واللؤم والخسة، له بالمرصاد. كانت المعركة خاسرة منذ البداية، وقتل فيها الحسين شر قتلة وتولى كبر هذا الفعل الرهيب شمر بن ذي الجوشن واسمه شرحبيل بن قرط الضبابي الكلابي أبو السابغة (ت: 66 هـ / 686 م) ومثل برأسه وبأهله واستشهد معه، سبعة عشر رجلاً من آل أبي طالب في مأساة ستظل لطخة في تاريخ بني أمية إلى قيام الساعة. ممن نجوا من المجزرة من الذكور البالغين زين العابدين علي بن الحسين، لأنه كان مريضاً فتجافوا عن قتله، وإلا لكان انقطع نسل الحسين عليه السلام من الوجود!.

5-2-2-2- موقعة الحرة

جَرح مقتل الحسين وأهله، ما كان ليندمل بسهولة، وظل يتفاعل بعمق في وجدان المسلمين. في سنة 63 هـ قرر أهل المدينة خلع طاعة يزيد، ولم يستثن من إجماعهم سوى علي زين العابدين وأهله ومحمد بن الحنفية وأهله وعبد الله بن عمر بن الخطاب. أمَّروا على الأنصار عبد الله بن حنظلة وعلى قريش عبد الله بن مطيع العدوي وعلى قبائل المهاجرين معقل بن سنان الأشجعي ودعوا إلى الشورى[2]!. تأمير ثلاثة أمراء كانت أول هفوتهم، إذ أظهر هذا القرار أن الانقسامات والعصبيات القديمة كانت لها الصدارة، حيث لم يستطيعوا الاتفاق على أمير واحد!. ثم زادوا الطين بلة عندما اتخذوا قراراً آخر يقضي بإخراج بني أمية من المدينة ومن بينهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، حتى مع أخذهم للمواثيق منهم على ألا يظهروا جيش يزيد على ثغرات دفاعاتهم!. جهز لهم يزيد جيشاً رأسه مسلم بن عقبة، الذي اشتهر باسم مسرف بن عقبة لجفوته[3]. وكانت الأوامر من يزيد هي : إما أن يرجعوا للطاعة وإما إن يتحملوا تبعات استباحة المدينة من طرف جيش مسلم بن عقبة لثلاثة أيام. فكان جوابهم : الرفض. وما هي سوى أيام حتى دخل عليهم دون أن يشعروا جيش مسلم بن عقبة من جهة بني حارثة التي دلهم عليها مروان بن الحكم فطوّقوا

---

[1] تاريخ خليفة، ص. 231 .

[2] عندما علم ابن عباس وهو بالطائف أنهم أمروا ثلاث امراء، قال: أميران! ، هلك الجيش. أنظر: تاريخ خليفة، ص. 237 .

[3] نقل ابن جرير الطبري في تاريخ الرسل والملوك (5 : 497) عنه قوله عندما ذهب لمحاصرة عبد الله بن الزبير في مكة : { اللهم إني لم أعمل قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله عملاً أحب إليَّ من قتل أهل المدينة! }. وعلق ابن تيمية على مجازر وقعة الحرة ومسئولية يزيد فيها : { وهذه من كبائره، ولهذا قيل لأحمد (ابن حنبل) : أتكتب الحديث عن يزيد ؟ فقال : لا، ولا كرامة أوليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل؟. أنظر المنتقى، مختصر منهاج السنة للذهبي، ص. 295 .

وقتل الأمير عبد الله بن حنظلة وهرب عبد الله بن مطيع[1]. استباح الجيش المدينة وارتكب فيها من الفظائع ما يندى له كل جبين[2]، حتى أن الصحابي أبا سعيد الخدري اضطر إلى الالتجاء إلى كهف في جبل سلع القريب من المدينة إلا ليجد أن شامياً قد لحق به ولم يتركه إلا بعد أن علم منه أنه الصحابي المشهور!، وإن كان الحظ لم يسعف آخرين كالصحابي معقل بن سنان وعدد كبير من أبناء المهاجرين والأنصار.

5-2-2-3- خروج زيد بن علي

لم يكن في وسع زين العابدين علي بن الحسين، الناجي من مجزرة كربلاء، أن يشغل نفسه ظاهريا بالسياسية واهتم بتحصيل العلم. وكذلك كان شأن ابنه محمد الباقر، إلا أن ابنه الآخر زيد، سوف يتأثر برأي المعتزلة الذين يرون الخروج على الحكام الجائرين، كان له رأي مخالف. فزيد كان يرى ألا يطلق اسم "إمام" سوى على الذي يتصدى للظلم. نشأ زيد وتربى بالمدينة وأخذ عن والده من العلم ما أخذ الباقر، وكجده الحسين استدرجه أهل الكوفة بوعود النصرة!. كان دخوله الكوفة عارضاً، إلا أنهم زينوا له البقاء وأنهم سينتصرون له على بني أمية. ثم نصحه هو الآخر، محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب أن لا يلبي دعوتهم، للخذلان المعهود فيهم ولكن دون طائل أو جدوى. استقر يزيد في الكوفة ودارس واصل بن عطاء زعيم المعتزلة وبدأ يسجل أسماء الأنصار بالآلاف، ثم كاتب المدن المجاورة والأقاليم فأجابوه وحدد لهم موعد الخروج.

كل هذا لم يغب على والي العراق يوسف بن عمر. وعندما خشي زيد من كماشة الوالي التي بدأت تطبق على دعاته، مما كان ينبئ بفشل الحركة في العاجل أو إجهاضها من طرف الأمير، اضطر إلى إعلان الخروج قبل استكمال ترتيبات التنظيم وفاجأ أهل الكوفة بشعار الثورة " يا منصور أمت!" فاجتمع حوله جمع من الناس ظلوا ينتظرون قدوم جحافل المسجلين، إلا أن انتظارهم دام طويلاً!. سأله أتباعه عن رأيه في أبي بكر وعمر فأجاب[3] :

غفر الله لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً

ثم أضاف[4] :

إني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإحياء السنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خير لكم ولي وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل.

فرفضوه وتخلوا عن نصرته!. ومن هنا أخذوا اسمهم الذي سيلازمهم ملازمة النعت للمنعوت في التاريخ: "الروافض". قاتل مع من بقي معه من أصحابه إلى أن تكاثر عليه الأعداء وقتلوه. لقد أهلك هذا البيت العجلة! كما سوف يطلق ابن شهاب الزهري[5]. فر ابنه يحيى إلى خرسان، إلا أن الأمويين سيتمكنون من القبض عليه ليستشهد على أيديهم سنة 125 هـ.

5-2-2-4- خروج العباسيين

إن كان العلويون صاحبتهم هذه الفجائع الدامية، ثم هذا الفشل المستمر من قلة التنظيم وعدم القدرة أو الاجتراء على الحبك السياسي للوصول إلى السلطة، فسوف نجد بالمقابل أن بني العباس، الذين ظلوا طوال الفترة السابقة منضوين تحت لواء بني عمومتهم، يقررون أخذ زمام الأمر والمبادرة لأنفسهم، حتى وإن كان على حساب بني العمومة!. مما يجعل استئثار بني أمية بالحكم من قبل، ضداً في بني العمومة والخؤولة من قريش، يأخذ حجمه الطبيعي الدنيوي، دون تلميع ديني. أو بمعنى آخر :

" الدهاء السياسي وحده هو المتحكم في الوصول إلى السلطة وليس الورع ".

---

[1] هو عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي القرشي، فر بعد هذه الهزيمة إلى مكة ولحق بعبد الله بن الزبير بن العوام وشهد معه الحصار الأول وظل معه إلى الحصار الثاني أيام الحجاج بن يوسف الثقفي فقاتل هو وابن الزبير إلى أن قتلا معا سنة 73 هـ. ونسبوا له شعراً جاء فيه:

أنا الذي فررت يوم الحَرَّة والحُرُّ لا يفر إلا مرَّة
يا حبذا الكرَّة بعد الفرَّة لأجزينَ فرة بكرَّة

[2] قال ابن الأثير في تاريخه البداية والنهاية (8 : 222): { وقد وقع في هذه الأيام الثلاثة من المفاسد العظيمة ما لا يحد ولا يوصف! }.

[3] البداية والنهاية (9 : 330)

[4] نفس المرجع (9 : 330).

[5] أبو الفرج إصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص. 143 .

مؤسس الدعوة العباسية، محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أظهر مثل هذا الدهاء، الذي لا شك توارثه عن جده عبد الله، الذي طالما نصح به علي ثم أبناءه من بعده، دون أن يجد نصحه هذا لهم من آذان صاغية!. ألم يقل له علي : لست من مكرك ولا مكر معاوية في شيء!. إذاً فما داموا لا يمكرون وبالتالي لا يصلون ولن يصلوا أبداً إلى الحكم، في هذه المنطقة التي لا تخضع سوى للسيف أو الأخذ بالحيلة والغيلة، فلماذا لا يجرب بنو العباس حظهم بالاعتماد على ذات المكر الذي اعتمده بنو أمية للاستحواذ بالحكم؟، ما دام الحكم حكم غلابة وتغلب أولاً وأخيراً!.

أول ما أدركه محمد بن علي في تحليله للوضع السياسي لمنطقة الهلال الخصيب، هو أولاً : تحكم الجغرافيا، فالشام أموية ولا يعرفون إلا آل أبي سفيان أصابوا أم أخطئوا، والبصرة عثمانية، نسبة إلى عثمان بن عفان، الذين يدينون بالكف عن قتال المسلمين، واتخذوا شعاراً لهم القول المأثور: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. أما الجزيرة، وهي الإقليم الواقع بين دجلة والفرات في القسم المشترك بين سوريا والعراق فهواه مع الخوارج الحرورية. وأما الكوفة فلعلي وشيعته، وأما مكة والمدينة فتعيشان على ذكرى أبي بكر وعمر، ولا يبغون عنهما بديلاً. ولا يبقى سوى الأطراف. فاختار الخوارج اليمن والشمال الإفريقي واختار العباسيون خراسان. إذ فيها حسب تقييم محمد بن علي العباسي، العدد الكثير والجلد الظاهر، والصدور السليمة والقلوب الفارغة التي لم تتقسمها الأهواء بعد[1].

ثم كانوا موفقين ثانيا : في اختيار الزمان بعد أن وُفقوا في اختيار المكان. فهاهو الحكم الأموي بدأ يترنح تحت ضربات الخوارج على اختلاف فرقهم ومشاربهم، زيادة على ثورتي زيد بن علي ثم حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، الفاشلتين من جهة المردود السياسي، ولكن غنيتين جداً من جهة مردودهما النفسي العاطفي الذي يجرم حكم الأمويين ويزيد من نقمة الناس عليهم. ثم تمثل تفوقهم السياسي ثالثاً : في التخطيط المحكم في ما نسميه اليوم اللوجيستية الحربية من تموين وقواعد واتصال وما إلى ذلك. ثم رابعاً : في عدم الإفصاح عن أهدافهم حتى لبني عمومتهم، المشاركين لهم، والذين لن يصلوا الحكم سوى باستغلال رأسمالهم الرمزي!. فرفعوا شعار البيعة ل "الرضى من آل محمد!". فهو مبهم في حد ذاته بحيث يطمئن الطالبيين أنهم أخص الناس به كما لا يخرج العباسيين منه!. بدأت الدعوة منذ سنة 99 هـ، أيام عمر بن عبد العزيز، يوم أطلق الحريات العامة وحاول إعادة وهج الخلافة الراشدة إلى حكمه. فاستغل الدعاة هذه الفسحة لينظموا أنفسهم وليجتمعوا سنوياً بالمؤسس محمد بن علي العباسي في قرية صغيرة في الأردن اسمها " الحميمة "، ليتدارسوا تقدم وانتشار الدعوة. ولم يشعر الأمويون بالخطر إلا بعد فوات الأوان عندما زحفت جحافل جيوش أبي مسلم الخرساني من الشرق رافعة ل "الأعلام السود" التي لا يوقفها شيء، إلى أن انتصرت على جيوش الأمويين في معركة فاصلة عند نهر الزاب، ولينتهي الأمر كله بقتل مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية في قرية بوصير المصرية في آخر ذي الحجة سنة 132 هـ[2]. وهكذا نجح العباسيون بدهائهم السياسي، قبل أي شيء آخر! فيما فشل فيه بنو عمومتهم الطالبيين، رغم حب الناس لهم![3].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ (3 : 16) دار الكتاب العربي.

[2] تاريخ خليفة، ص. 404 .

[3] هذا ما يغيب عادة على الطوباويين السياسيين المثاليين. فوقعة الحرة شارك فيها نخبة من خيار المسلمين ومع ذلك لم تنجح لانعدام التخطيط والرؤى رغم نبل الهدف. وسيفشل العلماء والقراء مرة أخرى في خروجهم مع عبد الرحمن بن الأشعث وقتالهم للحجاج الثقفي في وقعة دير الجماجم سنة 82 هـ لذات الأسباب السياسية والتنظيمية واللوجستية، فيصاب منهم الجم الغفير دون نتيجة تذكر لصالح ما طمحوا له وقدموا حياتهم قرباناً من أجله. أنظر تاريخ خليفة ص. 280 وما بعدها.
وهذا في الحقيقة قانون أزلي يحكم كل المجتمعات كافرها ومسلمها. ففي سنة 1848 فشلت كل الثورات الديمقراطية الأوروبية، لأن ما أراده المثقفون الطوباويون كان مخالفاً لما أرادته الطبقة المتوسطة الصناعية التي كانت تمسك بزمام الاقتصاد. وسوف يفشل الإخوان المسلمون في الاستحواذ على السلطة في مصر وينجحون في السودان لذات الأسباب وبذات المقدمات والنتائج على مفارقتها. وقس على هذا الباقي في كل تجارب الأمم. وفي عصرنا الحالي سوف تفشل كل الثورات الطوباوية أمام الأوليجارشية القارونية للشركات المتعدية الجنسيات، إلى أن يأتي التغيير منها لتقليل الخسارة أو البحث جذرياً ومجدداً في نموذج آخر لحكم البشر كونياً غير هذه التعاسة التي ظلت تلاحقه على مدى تاريخه الحضاري. وهذا مصير يهم المسلمين ويهم نخب وفقراء العالم أجمع، ولا بد لهم من قول وفعل فيه. إن تركيز السلطة والموارد بيد مديري الشركات المتعدية الجنسيات، لم تخطر قط على نظر فيلسوف أو منظر اجتماعي منذ بزوغ التاريخ والقرآن وحده من أشار إلى نموذجه في "قارون" اليهودي كمستبد بالمال وفرعون كمستبد سياسي طاغوتي وهامان كمستبد معرفة. ولا تخرج السلطة قط عن هذه النماذج الثلاثة. فهل ينتظر من السوق وحرية السوق أن تنظم المجتمع؟ لا أبداً كان ولا هو كائن ومن هنا الإشكالية المعاصرة. ثم إن ما جعل

5-2-2-5- خروج المهدي! : محمد النفس الزكية

اعتقد أهل المدينة، أشياع الطالبيين أن سيكون لهم نصيب في الملك الجديد، مع قدوم بني عمومتهم الأقربين، خصوصاً وقد تمت البيعة الخاصة في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم ليلة الجمعة. ثم تقدم للبيعة العامة في الغد راكباً على برذون أشهب قريب من الأرض بين عمّه داود بن علي وأخيه أبي جعفر، فصعد المنبر وخطب ثم تلاه أخوه داود وقد ارتقى عتبتين من المنبر وقال :

أيها الناس إنه والله ما علا منبركم هذا خليفة بعد علي بن أبي طالب غير ابن أخي هذا!

فاستبشر المغفلون خيراً!، إلا أن الأحداث خيبت بسرعة تطلعاتهم تلك[1]. فما أن بويع لابن مخطط الثورة العباسية : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المشهور بلقب " السفاح " حتى أدرك الطالبيون من خلال التعينات أن لا حظ لهم في الأمر الجديد، وشعروا بمغاص الغدر يلوي أفئدتهم من جديد خصوصاً وأنهم يقرؤون لشاعر الجاهلية[2] :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند[3]

بل سيخلد هذه المرارة بكل نقائضها الشاعر أبي العطاء[4] :

يا ليت جور بني مروان عاد لنا ... يا ليت عدل بني العباس في النار

ورغم محاولة أبي سلمة الخلال، الشهير بلقب وزير آل محمد، تحويل هذا الأمر في بني فاطمة من آل الحسن أو الحسين إلا أنه فشل!.

لم تطل مدة السفاح، إذ توفي سنة 136 هـ، فبويع لأبي جعفر، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكانت أمه أم ولد، أي جارية من جواري أبيه. وامتنع عن البيعة من آل الحسن ابنا عبد الله المحض بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب : محمد الشهير بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم. وظلا متخفين خوفا على حياتهما من المنصور وشرطته. والمنصور لن يختلف في شيء عما كان يقوم به بنو أمية في أعز غطرسة بعض ملوكهم. فهو لم يتردد في استقدام أبي مسلم الخرساني والغدر به وقتله، عندما خشي من استفحال أمره، رغم ما قدمه لدعوة آل العباس!. ولا تردد في قتل عمّه عبد الله بن علي عندما طمع في الملك وظن أنه أحق به من غيره!.

ولد محمد النفس الزكية سنة 93 هـ. كان والده عبد الله، زعيما الهاشميين بالمدينة ووالدته هي بنت أبي عبيدة الأسدي القرشي، ولذلك كان يسمى أيضا ب "صريح قريش"، لأن أمه وجداته كلهن من قريش، ليس بينهن جارية. اشتهر محمد بالعلم والزهد على غرار جده الأعلى علي بن أبي طالب إلى أن لقبوه بالنفس الزكية. ثم زاده الله

من المواطن الروماني هاوي دم في مصارع العبيد مع السباع هو ذاته ما يجعل المواطن الأمريكي أو الأوروبي أو الأممي تبعاً هاوي دم في مصارع الثيران الإسبانية أو الألعاب الأولمبية وغيرها : تحمير الإنسان! رواية لم تكتمل فصولها بعد!

[1] العلاقة بين البيتين الطالبي والعباسي كانت حميمية، فعندما توفي عبد الله بن عباس بالطائف إنما صلى عليه محمد بن الحنفية. ثم إن أبا هاشم عبد الله بن محمد الحنفية كان له أتباع وجماعة تشايعه. فلما أحس بدنو أجله لم يجد احسن ممن يفضي إليه بأسرار الجماعة والتنظيم والدعاة خيراً من محمد بن علي العباسي وقال له : { إن هذا الأمر الذي يرتجيه الناس فيكم } ثم أوصى له بكتبه وصرف شيعته إليه. أنظر: تاريخ الرسل والملوك (7 : 421) وطبقات ابن سعد (5 : 238). وسوف تفرق مطامح الدنيا ما جمعه رباط الدم والقهر فيما مضى ليستأثر آل العباس بحظوة الدنيا الحلوة الخضرة لوحدهم وليستمر بنو عمومتهم الطالبيين مستمتعين بقهرهم القديم وبقهر ذوي قرباهم الجديد!. وهذا لوحده يفند أن يكون الرسول عليه السلام نطق بشيك بياض لحكم رقاب المسلمين والبشرية بقبيلة قريش!. فهؤلاء أخص خاصة قريش وما كان لهم أن ينالوا عهداً مطلقا مستأنفا من الله وقد سبق أن حرمهم منه عندما سأله جدهم إبراهيم عليه السلام منذ ما يزيد على 25 قرن، كما حكى الله ذلك في سورة البقرة، الآية 124 : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتي! قال لا ينال عهدي الظالمون). فالملك يؤته من يشاء وينزعه ممن يشاء لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لتدافع الأمم. ودعوى القرشية في الحكم لا تختلف في شيء عن دعوى الداودية والهارونية التي لازمت بني إسرائيل دون تحقق يذكر. فكيف بالإسلام دين الرحمة للعالمين أن يحكره على قبيل قريش إلى قيام الساعة؟. القرآن ينفيه والحديث ينفيه إلا ما كان من السياسة والسياسيين، فهؤلاء لن يتورعوا في تقويل الرسول الكريم ما لم يقل أو في تأويل الآيات بما لا تحتمل اللغة والعرف على ما سوف نقف عليه بعد قليل.

[2] شاعر المعلقات طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد من بكر وائل (ت: 70 ق.هـ / 550 م).

[3] شرح المعلقات العشر للشنقيطي، ص. 77 .

[4] أبو الفرج الاصبهاني (284 ~ 356 هـ) كتاب الأغاني (16 : 84)، ط. بولاق 1285 هـ/1868 م

بسطة في الجسم زيادة على بسطته في العلم، إذ كان طويلاً ضخماً[1].

هذا الفرع الحسني من أبناء فاطمة الزهراء، تميز منذ البداية، بعدم إعطاء الفرصة للغلاة المتسترين بالدين أن يقربوا ناحيتهم. فهذا الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عم محمد النفس الزكية وابن فاطمة بنت الحسين بن علي والذي خرج مع عمه الحسين في كربلاء ونجا فقط لأن أسماء بن خارجة الفزاري الذي هو ابن عم أمه حماه. عندما سأله رجل :

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنت مولاه فعلي مولاه؟ قال : بلى، ولو أراد الخلافة لخطب الناس وقال : أيها الناس، اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي، وهو القائم عليكم فاسمعوا له وأطيعوا. ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه، ويلكم أحبونا إن أطعنا الله على طاعته وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته[2].

ومن أعمام محمد النفس الزكية الآخرين، إبراهيم وجعفر وداود، كلهم أصحاب مروءة وتدين وورع ودخلوا سجن المنصور أبي جعفر تضامناً مع أخيهم عبد الله والد النفس الزكية، عندما سجنه الأخير. هؤلاء وصفهم الطبري بأنهم كانوا : أهيب في صدر الناس من الأسد[3].

هذا الفرع على خلاف الفرعين الحسينيين : الإسماعيلي السبعي (الذي ينتهي بأئمته المعصومين! بالحفيد السادس لعلي بن أبي طالب : إسماعيل بن جعفر الصادق!) أو الإمامي الاحدى عُشري (الذي يوصلها إلى الحفيد الحادي عشر + خرافة!)، يلتقي مع زيد بن علي الحسيني في المنظور الديني والسياسي الذي يعتقد في أحقية آل فاطمة في الحكم وبوجوب خروجهم على الحكام الظلمة، إذا ما توفرت لهم القدرة على ذلك.

فلم يكن غريباً إذن، من منطلق البينة والجغرافيا والتاريخ آنذاك، أن يشعر محمد النفس الزكية الذي ورث من جده علي خُلقه وخلقة والجامع وراثيا ومناصفة (مجينيا)، للفرعين الحسني من خلال والده عبد الله والحسيني من خلال والدته فاطمة بنت الحسين انه أولى بالخلافة من غيره!. ففي رسالة وجهها محمد النفس الزكية إلى المنصور العباسي نقرأ[4] :

فإن الحق حقنا ! وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا!، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا...، وأنا أولى بالأمر منك وأولى بالعهد.

المهم فيما نحن بصدده في هذا الكتاب هو أن محمد النفس الزكية خرج في المدينة ذات مرة، أثناء تخفيه من المنصور مع زياد بن عبيد الله الحارثي والي المنصور على المدينة فتصايح الناس : المهدي! المهدي[5] !. فلم يكن من المنصور العباسي إلا أن سمّى ابنه إجهاضا لمثل هذه الفكرة : المهدي[6] !.

كلف المنصور واليه على المدينة زياد بن عبد الله الحارثي بالبحث عن محمد وأخيه إبراهيم، فتساهل العامل خشية أن يعيد المنصور فطة يزيد بن معاوية، فعزله المنصور وأمّر محمد بن عبد الله القسري، فتلكأ هو الآخر. وأخيراً اهتدى المنصور لما اهتدى إليه سالفه في مثل هذه السنة زيد بن معاوية، عندما أرسل مسلم بن عقبة المري ليعيث في المدينة دون وخز ضمير!. فأرسل المنصور متأسياً بذات الحكمة! أعرابيا أجلفا هو رياح بن عثمان المري، من ذات القبيلة! وهذه ليست من المصادفات العجيبة، بل تخطيط جهنمي!. أول ما فعله الرياح هو استقدام عبد الله بن حسن وطلب منه ولديه. فلما تأبى عليه أودعه السجن هو وإخوته وبعض أبنائهم الذين سيقضون ويموتون جميعهم بداخله[7].

---

[1] البداية والنهاية (10 : 95).

[2] تهذيب التهذيب لابن حَجَر العسقلاني (2 : 230 / 486) ومات في سجن المنصور مع باقي إخوته سنة 145 هـ عن عمر يناهز 68 سنة. وكان قليل الحديث وله عند ابن ماجة في السنن حديث واحد : فيمن بات وفي يده ريح غمر.

[3] تاريخ الرسل والملوك (7 : 536).

[4] تاريخ الرسل والملوك (7 : 568).

[5] تاريخ الرسل والملوك (7 : 529).

[6] أبو الفرج الإصفهاني، مقاتل الطالبيين ص. 247 . وانظر تخريجنا لهذه الأخبار في الملحق من هذا الكتاب.

[7] أدخل من إخوته الحسن بن حسن وإبراهيم بن حسن ثم تقدم الأخ الثالث علي العابد ليودع في السجن مع إخوته تضامناً معهم. وكذلك ادخل معهم حسن بن جعفر بن حسن، وعبد الله وسليمان ابنيْ داود بن حسن، ومحمد وإسحاق وإسماعيل أبناء إبراهيم بن حسن. أنظر : تاريخ الرسل والملوك (7 : 537). وعلق ابن كثير على هذه الفعلة للمنصور: { فعلى المنصور ما يستحقه من عذاب الله ولعنته }، البداية والنهاية

أخيراً قرر محمد النفس الزكية الخروج في المدينة في شهر جمادى الآخرة من عام 145 هـ. فبدأ بالسجن وأخرج من فيه وطلب من أصحابه ألا يقتلوا أحداً، كراهة سفك الدماء، ثم توجه الثوار إلى دار الإمارة وحاصروا أميرها رياح بن عثمان ولم يقتلوه على كثرة الشر الذي سبق منه!. ثم انتظر مجيء الناس للصلاة بالمسجد النبوي فصلى بهم وخطبهم بأنه ما أخرجه سوى تصحيح الانحراف الذي يسير عليه المنصور، وأن بيعة الأقاليم وصلته. فبايعه الناس بيعة العامة ولم يتخلف عن البيعة سوى العدد القليل، الذين لم يتعرض لهم أحد بسوء، على عكس ما جرت به عادة بعض المتغلبين في تلك الفترة، على ما مرّ بنا من نماذجهم[1]. واستفتي الإمام مالك في جواز الخروج مع محمد وبيعة المنصور في أعناق الناس فقال بفتواه الشهيرة التي سيدفع ثمنها لاحقاً[2] :

إنما بايعتم مكرهين وليس على مستكره يمين

هذه الفتوى، من بين أشياء أخرى دفعت بآخر من تبقى لديه إحراج أو تردد إلى مبايعة محمد النفس الزكية، بايعه جِلّة علماء المدينة وفقهائها ومقرئيها، أمثال : محمد بن عجلان (ت: 148 هـ) وعبد الله بن يزيد بن هُرمُز المخزومي (ت: 148 هـ)، شيخ الإمام مالك، والفقيه أبو بكر بن أبي سبرة القرشي العامري(ت: 162 هـ)، والمقرئ أبو عامرعبد الله بن عامر الأسلمي (ت: 151 هـ)، والمحدث أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدَّارَوَرْدي الجُهَني (ت: 186 هـ)، وحفدة الزبير بن العوام الفرسان العلماء : مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي (ت: 157 هـ) والمنذر بن محمد[3]. كما أيدته كل القبائل المجاورة للمدينة : مزنة، جهينة، غفار وأسلم. وخرج معه من الطالبيين موسى (الكاظم) بن جعفر الصادق، الذي سوف يتسلسل لاحقاً عند الإحدى عشرية كإمام سابع، وأخوه عبد الله الأفطح، الذي سوف تدعي إمامته الأفطحية لا حقاً، عند وفاة والده جعفر الصادق، وعيسى والحسين ابنا الإمام زيد بن علي الشهيد، ويزيد وصالح ابنا معاوية بن عبد الله بن جعفر، وزيد وعلي ابنا الحسن بن زيد بن الحسن وغيرهم ولم يتخلف عن بيعته سوى القِل القليل.

الحدث الأهم في هذه الثورة هي في توزيع المهام الإدارية وبعث الولاة إلى الأقاليم. فعلى المدينة أمّر عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى القضاء : عبد العزيز بن المطلب المخزومي، وعلى الشرطة : أبا القلمّس عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء : عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة. وهذه سابقة تبين أن أهل المدينة على اختلاف انتماءتهم القبلية والعصبية كانوا من مؤيدي النفس الزكية. فهناك الهاشمي والزهري والمخزومي والعُمَري والزُبيري من بين أمرائه وقواده[4]. وهذا يجب ألا يعزب عنا، عندما نقارن بين الفرقاء والأجنحة المختلفة، التي تدعي الانضواء تحت المظلة الشيعية.

أرسل المنصور جيشاً مكوناً من الخرسانيين الجلداء فقط، لا يعرفون لآل البيت أو لغيرهم عهداً ولا حرمة، على غرار جيوش الأمويين الغساسنة الذين كان يعالج بهم معاوية وخلفاؤه انشقاقات الحجاز!. بل إن المنصور كان أكثر لؤماً، فقد أمّر على الجيش ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى!. ورووا عنه أنه قال : لا أبالي أيهما قتل صاحبه!، لأنه كان قد صمم على خلع ابن أخيه من ولاية العهد وتوليتها لابنه محمد الذي لقبه بالمهدي[5] !.

انتهت الثورة باستشهاد محمد النفس الزكية، بعضهم أرجع الفشل إلى تورع محمد من قتل أعدائه!، عندما وقعوا بين يديه!، وآخرون لعدم أخذه بالمكر أو الدهاء السياسي اللازم!، وفريق آخر، لأنه خرج في المدينة التي لا سلاح فيها ولا كراع ولا رجال!، وفريق ثالث، لتقدمه للمعارك بنفسه بدل استخلاف غيره!.. إلى غير ذلك. لكن أليست هذه الأوصاف التي تحققت في صريح قريش : النفس الزكية، الجامع في عروقه بين شجرتي الحسن والحسين، هي ذاتها ما أخذ به جده الأعلى علي؟. فإن كان للبيولوجيا في كل هذا من دور موروث، فإذن، لا عجب في رجب، وإن كان

(10 : 82). بل لم يتردد المنصور من استعمال المكر والخديعة والحيل الإجرامية. فهو يأخذ رأس لخيهم لأمهم محمد بن عبد الله العثماني ويرسله إلى خرسان وهناك يحلفون للناس أنه رأس محمد النفس الزكية. تاريخ الرسل والملوك (7 : 548).

[1] منهم عبد الله بن خالد بن حزام وخبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام والضحاك بن عثمان.

[2] تاريخ الملوك والرسل (7 : 560).

[3] أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص. 282 وما بعدها.

[4] أنظر تاريخ الرسل والملوك (7 : 559).

[5] تاريخ الرسل والملوك (7 : 577).

للبينة من تأثير طابع فأيضاً لا عجب في رجب!. وإن كان لكليهما معاً دور مُقوِّلِب، فلا عجب مرة أخرى في رجب. إنها بصمة وسنة استنها علي لأبنائه، ولكل مخلص من المسلمين ممن سيأتون بعده. ومن لم يتسم بها ممن يدعي الانتساب إليه إما دماً أو تفكراً، فإنما هو مدع مفتري، مفضوح الدَّم ومعرى النسب!، ولا يمكن أن ينتسب للعترة بحال!.

لقد قضى محمد إذن بقضاء الله في الأزل، وما يضره إن فشل أو نجح، ما دام كل نجاح أو فشل إنما يقاس بميزانين: ميزان الدنيا وميزان الآخرة. لقد اختار هو ميزان الآخرة، واختار غيره ميزان الدنيا، وكل أفضى إلى ما قدم وشتان الفرق بين من يكيل بأي منهما!. رثاه مصعب بن ثابت الزبيري بقصيدة يقول فيها[1] :

هلا على المهدي وابني مصعب   أذريت دمعك ساكباً تهتانا

ولفقد إبراهيم[2] حين تصدعت   عنه الجموع فواجه الأقرانا

-.-.-.-.-.-.-.-.-.-

أضحى بنو حسن أبيح حريمهم   فينا وأصبح منهبهم متقسما

ظلت المدينة هادئة بعد هذه النكبة إلى زمن موسى الهادي بن محمد المهدي العباسي (144 ~ 170 هـ / 786 م)، ثم خرج الطالبيون ولآخر مرة بالمدينة بقيادة الحسين بن علي بن الحسن (المثلث) بن الحسن (المثنى) بن الحسن (السبط) بن علي بن أبي طالب (ت: 169 هـ /785 م) فالتقى بالعباسيين القادمين من الحج على بعد اميال من مكة في مكان يسمى "فخ" ويطلق عليه اليوم "الزاهر" أو "الشهداء"، فانهزموا وتشرد من خرج معه وهرب من المعركة. من بين من فرّ : إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت: 177 هـ/793 م) وأخوه يحيى (ت 193 هـ). إدريس وجد طريقه إلى المغرب وبويع له هناك مؤسسا للدولة الإدريسية. أما يحيى فبث دعاته في الأقاليم وبايعه الكثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقيين وبايعه من العلماء الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت: 204 هـ) وعبد ربه بن علقمة وبشر بن المعتمر وسليمان بن جرير والحسن بن صالح وغيرهم. وعندما أمعن هارون الرشيد في البحث عنه، التحق بخاقان ملك الترك وأقام عنده سنتين وستة أشهر والكتب ترد إليه من هارون وعماله يطالبونه بتسليمه فيتأبى عليهم، حتى قيل إنه أسلم على يديه سراً!. ثم ارتحل يحيى إلى طبرستان والديلم إلى أن استأمنه هارون الرشيد بالأيمان المغلظة. ثم وشي به بآخرة، عبد الله بن مصعب الزبيري فاستدعاه الرشيد واستفسره في دعوى الزبيري فقال يحيى إن هذا هو من كان بايع لأخي محمد النفس الزكية وقال فيه[1] :

قوموا بأمركم ننهض بنصرتنا   إن الخلافة فيكم يا بني الحسن

ولم ولن تكون أول ولا آخر مرة يخون فيها شاعر! : إنهم مرتزقة عيش! بدون خيارات.

وسوف يتمكن الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني (ت: 270 هـ /884 م) من تكوين دولة في طبرستان سنة 250 هـ، ثم بعده بقليل سيتمكن الهادي إلى الحق، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني الرسي (220 هـ /835 م ~ 298 هـ /911 م) من إقامة دولة باليمن، كلاهما باسم الزيدية.

إلى هنا نكون قد قدمنا بما فيه كفاية للخلفية السياسية للحزب الشيعي في طوره العربي الخالص، قبل تهجينه بالموروث الوثني في الدولة العباسية، التي ما هي سوى التمظهر السياسي الحيري الكسروي تحت عباءة الإسلام، كما كانت الدولة الأموية بمثابة التمظهر السياسي الغساني القيصري تحت عباءة الإسلام!.

5-3- صناعة المهادي

لقد مرّ بنا أن منطقة الهلال الخصيب لم تكن صحراء قاحلة من المذاهب والاعتقادات، بل كانت بحق بحيرة

[1] المرجع السابق (7 : 602).

[2] خرج إبراهيم أخ محمد النفس الزكية إلى البصرة يأخذ البيعة لأخيه وسجل الكثير من المبايعين والمباركين لخروج أخيه، منهم الإمام أبو حنيفة، الذي أفتى كمالك بوجوب الخروج معه وتبرع بالمال ولم يحل دون خروجه بنفسه سوى ودائع الناس عنده. (مقاتل الطالبيين ص. 365). وممن أيدوا إبراهيم بعد استشهاد محمد النفس الزكية في الحجاز : عبد الواحد بن زياد وعباد بن العوام (تذكرة الحفاظ للذهبي (1: 262))، وهشيم بن بشير (طبقات ابن سعد (7 : 313)) وغيرهم.

سبخة متخثرة بموروث أزيد من أربعة آلاف سنة من التخريف والعقائد والمذاهب والأسطورة، المتعددة المشارب والهوس والآراء المتجددة دوما بالتهجين والتلفيق. وجاء الإسلام وحط برحاله وسط هذه البركة الآسنة!، يسفه أراء أصحابها ويحكمهم إلى عقولهم، يناقض وينازل بالحق كل هذا الموروث. وما كان منتظرا أن يقضي الإسلام على كل هذا بجرة قلم ولا كان في استطاعة المسلمين محو ذاكرة كل هذه الأمم والشعوب مما راكمت من خلال التاريخ والبيئة والتنشئة والجغرافيا، وإنما عالجها بالحجة والإقناع والاقتناع مجادلا وضاربا للمثلات سجالا ومقارعة بين دعاة الحق ودعاة الباطل إلى قيام الساعة. وقد خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنهم وخوطب بخطابه كل من جاء بعده يتحسس خطاه :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[2] ؟﴾

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم[3]﴾

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظا [4] ﴾

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم[5]﴾

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون[6] ﴾

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين[7] ؟﴾

﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين[8]﴾

ومنطوقات هذه الآيات تختزل منهج الدعوة الإسلامي كله، وتحدد أفقه وكل تطلعاته. فللمخالف حق في الحياة وحق في الخلاف زيادة على باقي الحقوق السياسية والمدنية التي يتمتع بها أي مسلم. فمخالفة الدين لا تهضم باقي الحقوق بحال ما دام القرآن يصرح : لكم دينكم ولي دين. وهذا يفتح الباب واسعا للتعاون مع أي كان على الخير والتقوى لصالح البشرية والكرة الأرضية جمعاء.

5-3-1- الرعد صوته والبرق سوطه : السبأية وتأليه علي بن أبي طالب

كل سدنة النصب وأرباب العقائد المختلفة، التي نزل الإسلام بساحتها، لم تكن لترضى كل الرضى بما أحدثه الإسلام بجنله المدعوم بالأدلة المادية وبحججه الدامغة التي لا ترد، من شروخ في معتقداتها. ثم ما كانت لتتقبل عن طيب خاطر ودون ردة فعل، أن تنقطع عنها أرزاقها بتحول اتباعها إلى الإسلام وهي تنظر!. فمنهم من جاهر بعداوته كالمشركين واليهود والنصارى والثنوية والصابئة، مما حفظ لنا القرآن جدلهم. ومنهم من لم يستطع الجهر فظل يعمل في الخفاء، ينتظر ساعته، مزايدا على المؤمنين في إيمانهم، كما كان من منافقي مسجد الضرار بالمدينة المنورة، أو داسا لأفكاره بقوالب لها رنة الإسلام ظاهرا، وباطنها ما ينتحل من مذهب أو عقيدة، كحال الباطنية والمتصوفة والمتفلسفة. ولذلك لن يكون غريبا أن نجد محاولات تشكيكية نسفية أو معارضة تلفيقية أو تمثل تهجيني ماسخ، من طرف هؤلاء الفرقاء الذين ذكرهم القرآن. فهذه سنة من سنن التدافع بين الحق والباطل تلخصها لك الآيات السابقة. ومنها ومن جدليتها وتبعاتها نتوقع حتما من اليهودي بكل انتماءاته أن ينافح عن يهوديته، والنصراني بكل طيف هرطقاته عن نصرانيته، والمجوسي عن مجوسيته، والمانوي عن مانويته، والحلولي عن حلوليته، والصابئ عن صبوته، والمتفلسف عن فلسفته، والمتصوف عن تصوفه..الخ. كل قد علمت بصمته بحيث يستطيع المسلم اكتشافها

[1] شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (1: 338) ويقولون غير هذا، إلا أن المؤكد هو أنه قضى في سجن هارون الرشيد. ولم ينج الإمام الشافعي الذي حمل إلى هارون الرشيد مصفدا في الأغلال مع يحيى إلا بشفاعة صاحب أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني (ت: 189 هـ). ولو قدر للرشيد أن يقتله لما عرف المسلمون علما اسمه علم "أصول الفقه" أو لتأخر اكتشاف ذلك لسنين!

[2] سورة يونس، الآية 99 .

[3] سورة المائدة، الآية 48 .

[4] سورة الأنعام، الآية 107 .

[5] سورة هود، الآية 118 – 119 .

[6] سورة الأنفال، الآية 22 .

[7] سورة الروم، الآية 52 .

[8] سورة النمل، الآية 80 .

بسهولة ويسر حتى وإن تخفت تحت ألف ستار أوتلونت بألف لون أو أنشأت لها ألف مقالة.

سنحت أول فرصة لهؤلاء الفرقاء أن يجربوا حظهم إبان الفتنة الكبرى، أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه وبداية خلافة علي كرم الله وجهه. وظهر على المسرح العقاندي عبد الله بن سبأ. فمن يكون ابن سبأ هذا؟. يقول البغدادي[1] :

كان ابن السوداء في الأصل يهودياً من أهل الحيرة فأظهر إسلامه وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة، فذكر لهم أنه وجد في التوراة، أن كل نبي وصي وأن علياً وصي محمد!، وأنه خير الأوصياء كما أن النبي خير الأنبياء. فلما سمع ذلك منه شيعة علي قالوا لعلي إنه من محبيك؛ فرفع علي من قدره وأجلسه تحت درجة منبره، ثم بلغه عنه غلوه فيه فهم أن يقتله فنهاه ابن عباس وقال : إن قتلته اختلفت عليك أصحابك وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام وتحتاج إلى مدارات أصحابك؛ فلما خشي الفتنة التي خافها ابن عباس نفاه إلى المدائن فافتتن به الرعاع بعد قتل علي.

ويقول ابن حزم[2] :

عبد الله بن سبأ الحِمْيَري الذي قال لعلي : أنت أنت، يعني أنت الإله. فنفاه إلى المدائن، كان يهودياً فأسلم و كان في اليهودية يقول في يوشع بن نون[3] : وصي موسى، مثل ما قال في علي. هو أول من أظهر القول ب "إمامة" علي، ومنه تشعبت أصناف الغلاة. وزعم أن علياً حياً لم يقتل وفيه الجزء الإلهي، وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهو أول من قال بالتوقف والغيبة والرجعة، وقال بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي.

وجاء في رجال الكُشّي[4] :

حدثني محمد بن قولويه القُمِّي قال : حدثني سعد بن عبد الله بن أبي خلف، عن عبد الرحمن بن سنان قال: حدثني أبو جعفر[5] عليه السلام أن عبد الله بن سبأ كان يدعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين (ع) هو الله! (تعالى الله عن ذلك) فبلغ ذلك أمير المؤمنين (ع) فدعاه وسأله فأقر بذلك وقال : نعم أنت هو وقد كان ألقي في روعي أنك أنت الله وأني نبي. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام، ويلك! لقد سخر منك الشيطان، فارجع عن هذا تكلتك أمك وتب. فأبى واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب، فأحرقه بالنار وقال : إن الشيطان استهواه فكان يأتيه ويُلقي في روعه ذلك.

وقد شكك طه حسين في وجود ابن سبأ هذا باستعمال الشك الديكارتي[6]!؟، على غرار ما اعتاد طرابشية ومزاهر مصر عندما وقفوا مشدوهين مبهورين أمام الحداثة الفرنسية، التي لم يفهموا منطلقاتها العقاندية قط!، بل وخارج إطار استعمال الشك المنهجي من طرف ديكارت نفسه! دون أن يقدم لفروض شكه ما يبررها أو حجج يدعم بها دعواه، فقال أثناء حديثه عن وقعة صفين[7] :

أقل ما يدل عليه إعراض المؤرخين عن السبأية وعن ابن السوداء في حرب صفين، أن أمر السبأية وصاحبهم ابن السوداء

---

[1] **عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني (ت: 429 هـ /1037 م): " الفرق بين الفرق" ص. 225 ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.**

[2] **أبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم الأندلسي (ت 456 هـ /1063 م) : " الفصل في الملل والأهواء والنحل " (2 : 11)، دار المثنى، بغداد.**

[3] **هو فتى موسى الذي سيدخل فلسطين بعد وفاة موسى عليه السلام ويأتي وصفه في سفر التثنية (34 : 9) : { وامتلأ يوشع بن نون من روح الحكمة، لأن موسى وضع يده فوقه، كي يطيعه شعب إسرائيل وامتثل موسى لأوامر الرب }.**

[4] **أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكَشّي (ت: ~ 340 هـ /951 م) فقيه إمامي إحدى عَشَري يُنسب إلى مدينة "كَش" من بلاد ما وراء النهر. ذكره شيخ الطائفة الإمامية أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (385 هـ /995 ~ 460 هـ /1067 م) في كتاب "الفهرست" فقال : ثقة بصير بالرجال وبالأخبار، حسن الاعتقاد. كما ترجم له المورخ الإمامي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النّجاشي الأسدي (372 هـ / 982 م ~ 450 هـ /1058 م)، الشهير بابن الكوفي أو الصيرفي في رجاله المعروف ب "رجال النجاشي" أنه : ثقة عين.**

[5] **يعني به محمد الباقر والد جعفر الصادق.**

[6] **أنظر تلفيقاته في كتابنا : "العبدوية والتحضين الاستشراقي للفيروسات الثقافية : طه حسين نموذجاً"**

[7] **طه حسين، الفتنة الكبرى (2 : 98 - 99).**

إنما كان متكلفاً! ومنحولاً! وقد اخترع بآخرة، حين كان الجدل بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية. أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم!، والنيل منهم. ولو كان أمر ابن السوداء مستنداً إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعي أن يظهر أثره وكيده في هذه الحرب المعقدة المعضلة التي كانت بصفين، ولكان من الطبيعي أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب علي في أمر الحكومة، ولكان من الطبيعي بنوع خاص أن يظهر أثره في تكوين هذا الحزب الجديد، الذي كان يكره الصلح وينفر منه ويكره من مال إليه أو شارك فيه.

ولكنا لا نرى لابن السوداء ذكراً في أمر الخوارج. فكيف يمكن تعليل هذا الإهمال؟ أو كيف يمكن أن نعلل غياب ابن سبأ عن وقعة صفين وعن نشأة المحكمة؟ أما أنا فلا أعلل الأمرين إلا بعلة واحدة!!!!!؟؟. وهي أن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً!!!!؟؟، وإن وجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوره المؤرخون وصوروا نشاطه أيام عثمان وفي العام الأول من خلافة علي!؛ وإنما هو شخص ادخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم ولم يدخروه للخوارج..

قلت : هنا يظهر منهج التلفيق بامتياز عند طه حسين وأشباهه! : .فهو لم يقدم لنا ما يرجح به شكّه سواء بتقديم معطيات تاريخية جديدة أو إعادة غربلة ما بيده وبيد المؤرخين من معطيات حول الموضوع، وإنما من باب الشك للشك!. ومثل هذا المنهج النزوي لو استعمل في التاريخ لألغاه كله[1]!. والرجل كان أعمى ويلقن فشكه وشك العنقاء يخرجان من مشكاة واحدة!

بعد طه حسين تلقفها منه تلميذه العقدي، محمود أبو رية وسطرها في كتاب "أضواء على السنة المحمدية"، ثم جاء بعده أحد أصوليي الإمامية الاحدى عشرية المتأخرين، يتلقف ما قدمه له المزهر طه حسين ليوظف الفكرة من منطلق عقاندي صرف، ويؤلف كتاباً حول الموضوع، بنخرُصيَة أكثر تهافتاً وأقل حظاً، لا من المنطق ولا من العلم ولا من مناهج البحث العلمي الرصين[2]. وتابعه آخرون[1]، يدندنون على ذات النغمة. بينما المعطيات كلها تصب ضد

---

[1] **وكما أسلفت، فهذه كانت تقليعة أخذها هذا النوع من مثقفي الذباب ولوحوا بها كل مُلوّح، تابعين وناعقين مرددين ومجترين، دون إبداع يذكر، على غرار أصحاب الأهواء، وليس برزانة أهل العلم والبحث والنقد المكتمل الآلات. فتابعوا تشكيكات المستشرقين، المنهجية منها والعقدية كتلك الصادرة من : الألماني نولدكة أو المجري اليهودي جولدتسيهر، أو الفرنسي بلاشير...إلخ. وكان المستشرق الألماني فريتز كرنكوف (1872 ~ 1953 م) عند تحقيقه لكتاب " التيجان لمعرفة ملوك الزمان في أخبار قحطان" لأبي محمد، لبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميري (ت: 218 هـ) عن وهب بن منبه (34 ~ 110 هـ)، مع ذيل فيه ما بقي من رواية عبيد بن شرية قال : بأن عَبيد بن شَريَّة الجُرْهُمي شخصية خرافية وهمية ابتدعها محمد بن إسحاق: ابن النديم، صاحب كتاب "الفهرست" دون دليل قدمه بين يديه مع أن أبا حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (ت : 248 هـ /862 م) الذي عاش قبل ابن النديم بمائة وخمسين سنة كان قد عرف ابن شرية وعده في عداد المعمرين المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام . ثم جاءت نبيهة عبود وأثبتت بدراسات البرديات العربية لتنفي الشبهات التي أثارها كرنكوف حوله. انظر : فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني : "التدوين التاريخي"، 1403 هـ / 1983 م. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص. 32 .**

[2] **هو مرتضي العسكري وقد خصص لموضوع أطروحته كتاباً نشره سنة 1392 هـ /1972 م بعنوان : "عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى"، نشر المكتبة الإسلامية الكبرى، طهران. ملخص بحثه أن ابن سبأ هذا : أنه رجل خرافي اختلقه سيف بن عمر التميمي (ت: ~ 180 هـ/ 796 م ؟) صاحب كتاب "الفتوح الكبير والردة " وكتاب "الجمل ومسيرة عائشة وعلي ". والاعتقاد السائد لدى المؤرخين هو أن أخبار كتبه مستقاة من روايات قبيلته تميم. وهذا الاعتقاد يؤيده الطابع القبلي والميول العراقية الواضحة. إلا أنه كان ثقة كمورخ عند ابن جرير الطبري، حيث ينقل عنه في مواضع عديدة في كتابه "تاريخ الرسل والملوك". كما أنه يعتمد عليه في خروج علي بن أبي طالب إلى صفين. وإن اعتبر ثقة كصاحب فتوح وسير، فهو ليس بثقة عند المحدثين ولا مرضيّ. فترجمه الذهبي في لسان الميزان ط. دار المعرفة، بيروت (2 : 255 /3637) فقال : { سيف بن عمر الضبي الأسدي. ويقال : التميمي البُرجُمي، ويقال : السَّعْدي الكوفي. مصنف الفتوح والردة وغير ذلك. هو كالواقدي (أبي عبد الله محمد بن عمر (130 هـ ~ 270 هـ))، يروي عن هشام بن عروة، وعبيد الله بن عمر، وجابر الجعفي، وخلق كثير من المجهولين. كان إخباريا عارفاً. روى عنه جبارة بن المغلس، وأبو معمر القطيعي، والنضر بن حماد العَتكي وجماعة }. ثم سرد أقوال النقاد أصحاب الحديث الذين يضعفونه. فيحيى بن معين قال فيه مرة ضعيف، ومرة : فَلْسٌ خير منه. وقال أبو داود : ليس بشيء. وقال أبو حاتم الرازي : متروك. وقال ابن حبان : اتهم بالزندقة. وقال ابن عدي : عامة حديثه منكر. له حديث عند الترمذي في سننه عن أبي بكر بن نافع عن النضر بن حماد العتكي عن سيف بن عمر عن نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن عبد الله بن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : { إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فالعنوهم } وعلق الترمذي على هذا الحديث حسب اصطلاح المحدثين بقوله : هذا منكر. والعسكري يقول في كتابه عبد الله بن سبأ (2 : 33) : { وراجت أكاذيب سيف وشاعت مدونات التاريخ الإسلامي ثلاثة عشر قرناً، ولم ينتبه العلماء إلى أكاذيبه كل هذه المدة، بل استطابوها لأنه زينها بإطار من الثناء على أبي بكر!؟!؟ } ويضيف أيضاً على نفس المنوال (2 : 111) : { وهكذا استطاع سيف أن يحرف ويصحف ويقلب ويختلق أمّة من الصحابة! والتابعين ورواة الحديث وقادة الفتوح والشعراء وعدداً كبيراً من الأماكن وكتباً سياسية وأراجيز وخطباً وغيرها!؟!؟ }. قلت : فإن كان سيف عند المحدثين بذلك الضعف الذي وصفوه به، فليس مرجعهم**

تخرصاتهم. وهكذا نجد النوبختي الشيعي[2] يقول[3] :

السبأية أصحاب عبد الله بن سبأ و كل مَن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم، وقال : أن علياً عليه السلام أمره بذلك فأخذه عليّ فسأله عن قوله هذا فأقر به فأمر بقتله فصاح الناس يا أمير المؤمنين : أتقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك؟.. وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب عليّ عليه السلام أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً عليه السلام. و كان يقول، وهو على يهوديته، في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة، فقال في إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام بمثل ذلك. وهو أول من شهر القول بفرض إمامة عليّ عليه السلام، وأظهر البراءة من أعدائه و كاشف مخالفيه. فمن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية!.

فهل هذا مما ادخره خصوم الشيعة للشيعة حسب تخرصات طه حسين[4] أو ما اختزل واهتبل مرتضى العسكري : "أنه من خيالات واختراعات سيف بن عمر التميمي وحده لا شريك له كما سطر في كتابه!؟ "[5]. ثم يجب تنبيه القارئ

بكل تأكيد إلى إثبات وجود ابن سبأ فقط إلى سيف ليقول (1 : 56) : { وهكذا ينتهي سند جميع من أورد الأسطورة السبأية إلى هذه المصادر الأربعة التي ترويها عن سيف وحده لا شريك له في ذلك!؟ }.

قلت : فالإشكال في أطروحة العسكري، هي أن مصادر وجود ابن سبأ ليس يثبتها الأخباري سيف وحده، حتى يهول بمثل ما هوّل، لأن وجود ابن سبأ مثبت عند المحدثين سنة وشيعة، رغم عدم قبول خبر سيف في مثل هذه الأمور ما دام لا يساوي عندهم فلساً. لكن الخبر تناقلته مصنفات الشيعة الإمامية، كما أثبتنا بالنص أعلاه عند الكشي، بل هي ترد أكثر من مرة في هذه المصادر وبطرق مختلفة. فهي ترد عند الكشي ص. 107 ونقلها الخوني في معجم رجال الحديث، طبعة النجف (10 : 201) عن جعفر الصادق من طريق هشام بن سالم الجواليقي. وهشام هذا كان يعتقد أن الله أجوف إلى السرة وأنه صورة وأن آدم خلق على مثل الرب، فنصف هذا ونصف هذا!؟!. أنظر رجال الكشي ص. 141 ، طبعة الأعلمي بكربلاء. ويورد الكشي أيضاً ص. 107 والخوني (10 : 201) عن طريق أبان بن عثمان أنه قال : سمعت أبا عبد الله (جعفر الصادق) (ع) يقول : { لعن الله عبد الله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين (ع) وكان والله أمير المؤمنين عبداً لله طائعاً. الويل لمن كذب علينا وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا. نبرأ إلى الله منهم نبرأ إلى الله منهم }. ونفس اللعن يورده الكشي، ص. 108 وينقله عنه الخوني في معجمه (10 : 202) عن طريق هشام بن سالم عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين زين العابدين. وأبا حمزة الثمالي قال فيه الكشي ص. 201 بأنه يشرب المسكر!. وحمزة هذا مجروح عند محدثي السنة بإجماع قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال (1358/1:363) : ثابت بن أبي صفية، أبو حمزة الثمالي، مولى المهلب بن أبي صفرة. وسرد من جرحه. ضعفه كل من : الإمام أحمد وابن معين وأبي زرعة الرازي وأبي حاتم الرازي والنسائي وأبي داود ويعقوب بن سفيان وغيرهم. ويورد الكشي ص. 108 وينقل عنه الخوني (10 : 202) في معجمه عن عبد الله بن سنان بن طريف الأردبيلي عن جعفر الصادق لعن ابن سبأ ..الخ. أما السنة فقد قال الذهبي في ميزان الاعتدال (2 : 426 /4342) : عبد الله بن سبا، من غلاة الزنادقة. ضال مُضِل. أحسب أن علياً حرقه بالنار وقد قال الجوزجاني (هو المحدث أبو إسحاق، إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي (ت: 259 هـ /873 م)) : { زعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه عند علي، فنهاه علي بعد ما همّ به }. وانظر ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (3 : 290) حيث بين ضعف رواية سيف بن عمر وذكر روايات عن : أبي سليمان زيد بن وهب الجهني الكوفي (ت: 96 هـ) وأبي عمرو عامر بن شراحيل الشعبي (ت: 103 هـ) وأبي الجُلاس الكوفي (؟). ولأبي نعيم الأصفهاني عن أم موسى سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في حلية الأولياء (8 : 253) دار الفكر، لبنان. أن علياً نفاه إلى المدائن وغير هؤلاء.

[1] أمثال : الشيخ محمد جواد الشري في كتاب: أمير المؤمنين، حيث يقول : بأن ما كتب في كتاب العسكري ينبغي أن يعتبر من الاكتشافات!!!؟؟؟ العلمية!!!؟؟؟ في دراسة التاريخ الإسلامي!!؟؟. والشيخ أحمد الوائلي في "هوية التشيع" وحسن الأمين في " دائرة المعارف! الشيعية" وغيرهم. فهؤلاء العباقرة الذين اكتشفوا أسطورة ابن سبأ! لا تقض مضجعهم أكبر أسطورة على الإطلاق وهي أسطورة مهديهم اللاتاريخي واللاعقلي!.

[2] أبو محمد، الحسن بن موسى بن الحسن بن محمد النَوْبَخْتي (ت: 310 هـ / 922 م) قال ابن النديم في الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص. 251 في ترجمته : { متكلم فيلسوف كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة مثل أبي عثمان الدمشقي وإسحاق (هو ابن حنين) وثابت (هو ابن قرة) وغيرهم. وكانت المعتزلة تدَّعيه والشيعة تدعيه، ولكنه إلى حيِّز الشيعة ما هو، لأن آل نوبخت معروفون بولاية عليّ وولده عليهم السلام في الظاهر، فلذلك ذكرناه في هذا الموضع. وكان جمّاعة للكتب قد نسخ بخطه شيئاً كثيراً وله مصنفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها وتوفي (؟) وله من الكتب : كتاب " الآراء والديانات" ولم يتمه، كتاب "الرد على أصحاب التناسخ"، كتاب "التوحيد وحدث العلل"، كتاب "نقض كتاب أبي عيسى في الغريب المشرقي"، كتاب "اختصار الكون والفساد لأرسطاليس"، كتاب "الاحتجاج لعمر بن عباد ونصرة مذهبه"، كتاب "الإمامة" ولم يتمه.

قلت: وله كتاب" فرق الشيعة" و " كتاب الرد على الغلاة" وقد اقتبس منه ابن الجوزي في كتابه "تلبيس إبليس". أنظر تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، المجلد الأول، الجزء الثالث : "الفقه"، ص. 290 . نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

[3] الحسن بن موسى النوبختي : "فرق الشيعة"، طبعة استنبول، 1931 م.

[4] أنظر كتابنا : العبدوية والتحضين الاستشراقي للفيروسات الثقافية؛ طه حسين نموذجاً.

[5] مرتضى عسكري،1393 هـ /1973 م : عبد الله بن سبأ (1 : 56) ، ط. رابعة، المكتبة الإسلامية الكبرى، بيروت.

أن ما كل الشيعة الجعفرية تنكر وجود ابن سبأ وقد ورد عندهم خبره المتعدد الطرق إلى أئمتهم[1]. إذ هم ليسوا كالسنة يغربلون الرواة : رواية رواية، على ما سوف نبين، بل رواتهم يعرفون بأصحاب الأصول الأربعمانة أي: رواة كتب. وروايتهم هي رواية وجادة. ومتى طعنت في راو كتاب، طعنت في كل مروياته وأسقطتها جملة. بل هذا أساس عنق الزجاجة في الرواية الإمامية الإحدى عشرية. لذلك فالأخباريون الإمامية، (الذين يقابلون أصحاب الحديث السنة) يعتبرون كل رواياتهم عن أئمتهم صحيحة!. وهذا بكل تأكيد مجاف للحقيقة من خلال تعارض الأخبار عن أئمتهم، بل بتصريح هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم : أن بعض الرواة عنهم يكذبون عليهم. وهذه أخبار مستفيضة، تحول مع الأسف، دون إمكان ترجيح رواية على أخرى، على ما سوف نوقفك عليه[2]. وعلى نقيض الأخبارية، فالأصوليون أمثال آية الله محمود بن صالح البروجردي (ت: 1337 هـ /1919 م) وتلميذه مرتضى مطهري أو مرتضى العسكري لا يشاطرون الأخبارية في منحاها هذا، بل لا يقيمون للرواية وزناً أصلاً لاعتمادهم على العقل!؟!؟! في غربلتها، على غرار المعتزلة، الذين يشتركون معهم في هذا المنحى اللاعقلاني!، الذي يسمونه عقلاني!. وهاك ما يقوله الأخباري الإمامي محمد حسين العاملي حسماً للموضوع عند الإحدى عشرية[3] :

وعلى كل حال فإن الرجل أي ابن سبأ كان في عالم الوجود وأظهر الغلو وإن شك بعضهم في وجوده وجعله شخصاً خيالياً شخصته الأغراض الشخصية[4]. أما نحن بحسب الاستقرار الأخير، فلا نشك بوجوده وغلوه.. نعم غلا ابن سبأ في دينه وتسربت بدعته إلى أفكار جماعة غير قليلة قد سميت باسمه وأخذت بعد ذلك بالتطور السريع حتى تجاوزت عن القول بإلهية فرد من المخلوقين إلى القول بإلهية اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو أكثر من أهل البيت عليهم السلام.

وقال الشاعر أبو جعفر محمد بن وُهَيب الحِميَري (ت: ~ 225 هـ /840 م) المعاصر لسيف بن عمر التميمي يصف السبأية[5] :

قوم غلوا في عليّ لا أبا لهم ... وأجْشَموا أنفساً في حُبِّه تعبا
قالوا هو الله، جل الله خالقنا ... مِن أن يكون ابن شيء أو يكون أبا

5-3-2- الكيسانية

هذه الفرقة تبنت إمامة محمد بن علي بن أبي طالب، المشهور بابن الحنفية، نسبة إلى أمه خولة التي كانت من قبيلة بني حنيفة. والتسمية، مرجعها إلى "كيسان" مولى علي بن أبي طالب. وهو الذي كان قد دل أبا إسحاق، المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي (1 هـ/ 622 م ~ 67 هـ / 687 م) على قتلة الحسين فعمل الأخير على استئصالهم. وفعلاً استطاع المختار وأصحابه أن يصلوا إلى كل من شارك في قتل الحسين رضي الله عنه فقتلوه به شر قتلة وعلى رأسهم شمر بن ذي الجوشن، قاتل الحسين. كل هذا ومحمد بن الحنفية يقيم في المدينة، بينما المختار يقول

[1] جاء في رجال الكشي، ص. 257 ، ط. مؤسسة الأعلمي، كربلاء، العراق: { عن أبي سنان قال: قال أبو عبد الله (جعفر الصادق) (ع) : إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس. كان رسول الله صلى الله عليه وآله أصدق البرية لهجة وكان مسيلمة (الكذاب) يكذب عليه. وكان أمير المؤمنين أصدق من برأ الله من بعد رسول الله وكان الذي يكذب عليه من الكذاب عبد الله بن سبا لعنه الله. وكان أبو عبد الله الحسين بن علي (ع) قد ابتليَ بالمختار. ثم ذكر أبو عبد الله الحارث الشامي وبنان فقال : كانا يكذبان على علي (زين العابدين) بن الحسين (ع)، ثم ذكر المغيرة بن سعيد وبزيعاً والسري وأبا الخطاب ومعمراً وبشار الأشعري وحمزة اليزيدي وصائد النهدي فقال : لعنهم الله إنا لا نخلوا من كذاب يكذب علينا او عاجز الرأي كفانا الله مؤنة كل كذاب وأذاقهم الله حر الحديد. } ومثل هذه الرواية تكذب أمثال العسكري في إنكاره وجود مثل هذا الرجل، لأن جعفر الصادق (ت: 148 هـ) أقدم من سيف بن عمر بكثير. ولا هو مما ادخره السنة للشيعة كما افترى أبو رية في ظلماته! على السنة المحمدية، التي قدم لها أعمى البصر والبصيرة طه حسين!. كما يجب التنبيه على أن هذا النوع من الكذب على آل البيت رضي الله عنهم لا زال سارياً إلى اليوم فيما يكتب بعض المدعين الانتساب إلى شيعة هذا البيت الكريم. مرتضى العسكري من المعاصرين أحدهم وعبد الحسين شرف الدين، صاحب الكتاب الملفق : ا"المراجعات"، الذي تعددت طبعاته عندهم، ويموهون به على من لا يعرف تاريخهم ورجالاتهم، ثانيهم على ما سوف نوقفك عليه لاحقاً. فلم نر أن العسكري ضعف هذه الروايات قبل أن يأتينا بتخرص جديد من عنده. وهو عين منهج تخرص طه حسين في شكه الديكارتي! الذي لا يساوي في عالم النقد فلساً!.

[2] أنظر كتابنا : التقريب بين السنة والشيعة ودعاوى الاجتهاد.

[3] محمد حسين الزين العاملي، الشيعة في التاريخ، ص. 213 . ط. ثانية، 1399 هـ /1978 .

[4] فالتعريض بتخريفات مرتضى العسكري لا تخفى هنا، إذ هو المقصود لا أحد سواه!

[5] العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (2 : 405) دار الكتاب العربي 1403 هـ / 1983 م، بيوت.

بإمامته، إلا أن ابن الحنفية اكتشف غلو المختار في حقه وتأويله الدين تأويلات لا يسندها قرآن ولا سنة فتبرأ منه. فالمختار كان يكفر الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان! وأهل صفين والجمل، إلى أن قال بأنه يوحي إليه جبريل!، وأن الملائكة تقاتل بجانبه على شكل حمامات بيض!. وعندما قتل المختار سنة 67 هـ، سميَ أتباعه بالمختارية. ومعتقد الكيسانية حفظه لنا شعر كُثيِّر عَزَّة[1]، الذي قاله في تأييد حق الكيسانية في تولي الخلافة. فعندما خرج محمد بن الحنفية رضي الله عنه من مكة أنشد كُثيِّر[2] :

هديت يا مهديَّنا ابن المُهتـــــدي   أنت الذي نرضى به ونرتجي
أنت ابن خير الناس بعد النـــبي   أنت إمام الحق لسنا نمتري

وتظهر الأطروحة الكيسانية في "رجعة" محمد بن الحنفية، وأنه لا زال حياً ولم يمت، وأنه في جبل رَضْوى القريب من المدينة، على بضعة أميال منها بين المدينة والبحر عند سلع. وعنده عين من الماء وأخرى من العسل يعيش عليهما، وعلى يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه من أعدائه إلى أن يرجع إليهم كمهدي منتظر بلوائه! وخيله! كما في قول كثير[3] :

ألا إن الأئمة من قريـــش   وُلاة الحق أربعة ســـواء
فأنّى في وصيته إليهـــم   يكون الشك منا والمـــراء!
بهم وصاهم ودعا إليهـــم   جميع الخلق لو سمع الدعـــاء
فسبط سبط إيمان وبَـــرٍّ   وسِبطٌ غيبـــته كربـــلاء
وسبط لا يذوق الموت حتـــى   يقود الخـــيل يقدمه اللـــواء
يغيب لا يرى عنهم زمـــاناً   بِرَضْوى عنده عســـل وماء

وجاء الشاعر السيد الحِمْيَري (محمد بن وُهَيْب (ت: ~ 225 هـ) في الربع الأول من القرن الثالث الهجري يذكر بذات الأسطورة[4]. فنحن هنا مع الكيسانية نجد النواة الصلبة لكل مقولات فرق الشيعة اللاحقة وهي : (1)

[1] كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي (ت: 105 هـ /723 م) الشاعر المتيم المشهور.

[2] أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (168 هـ / 784 م ~ 230 هـ / 845 م) الطبقات الكبرى (5 : 73 ~ 78) بتصحيح إدوارد إسحاق، ط. ليدن 1322 هـ/ 1904 م.

[3] أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت: 276 هـ/ 889 م) : عيون الأخبار، (2 : 144) دار الكتب المصرية. إلا أنه تحت وطأة الحجاج بن يوسف على المخالفين لبني أمية سيضطر إلى مدح عبد الملك بن مروان عندما تملك فينعته بإمام الهدى:

إمام هدى قد سدد الله رأيـــه   وقد أحكمته ماضيات التجارب

وان حروبه على الخلافة، نما كانت للحفاظ على حق الأمويين المشروع الذي كاد يقضي عليه طمع الطامعين!

أحاطت يداه بالخلافة بعدما   أراد رجال آخرون اغتيالهـــا
فما تركوها عَنوَة عن مودة   ولكن بحد المشرفي استقالها
بلوه فاعطوه الخلافة بعدما   أدب البلاد سهلها وجبالهـــا

أنظر : محمد مبارك، ابن ميمون: منتهى الطلب في أشعار العرب (3 : 317) مخطوط بدار الكتب المصرية. بل ذهب في إبراز المديح لبني مروان إلى درجة إسقاط خلافة علي والحسن ممن تولوا الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم!:

إن الخلائف بعد الرســـو   ل لله كلـــهم تابعـــاً
شهيدان من بعد صدِّيـــقهم   وكان ابن حرب لـــهم رابعـاً!؟
وكان ابنه بعده خامســـاً   مطيعـاً لمن قبله سامعـــا
ومروان سادس من قد مضى!   وكان ابنه بعده سابعـــا

أنظر : أبا الفرج اعلي بن الحسين لأصفهاني في كتاب الأغاني (9 : 14) و 12 : 41)، ط. دار الكتب المصرية. إلا أن هذا كله كان تملقاً منه للأمويين وظهر صدقه مرة اخرى في مدح الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز (ت: 101 هـ) فقال:

ولِيتَ فلم تشتُم علياً ولم تُخِف   بَرِيّاً ولم تقبل إشارة مُجْرِم

أنظر : هنري بيرس، 1930 : شرح ديوان كثير عزة، (2 : 123) ط. الجزائر.

[4] فيورد أبيات منها :

ألا حيي المقيم بشعب رضـــوى   وأهد له بمنزله السلامـــا
ألا قل للوصي فدتك نفســـي   أطلت بذلك الجبل المقامـــا
أضرَّ بمعشر والوكَ منـــا   وسموك الخليفة والإمامـــا

الوصية!، (2) المهدوية (الخلاصية)!، (3) الرجعة!، (4) شتم الصحابة!، (5) البَداء، (6) تناسخ أرواح الأئمة، (7) الأسرارية التأويلية، (8) العصمة. ومنهم من سيزداد غلواً إلى أن يصل إلى "التأليه" كما عند السبأية : أتباع ابن سبأ، أو عند فرقة البيانية : أتباع بيان بن سمعان التميمي، وهو كان يعتقد في إلهين : إله السماء وإله الأرض، وهما مختلفان عنده!، وسينتهي بالدعوة للإمامة في نفسه بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، ثم ادعى الألوهية لعليّ وتنقلها بالتناسخ إلى الحسن ثم الحسين ثم محمد بن الحنفية ثم ابنه أبي هاشم!، وانتهى إلى ادعاء النبوة محتجاً بالآية 138 من سورة آل عمران : ﴿هذا بيان للناس ﴾ !. أو عند المغيرية : أتباع المغيرة بن سعيد البجلي، الذي سوف يدعي الانتماء إلى محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين (الشهيد) بن علي بن أبي طالب. وقد تبرأ منه الباقر ثم ابنه جعفر الصادق من بعده، فادعى الإمامة لنفسه! والألوهية لعليّ. أو عند النُصْيرية لاحقا في ادعائهم ألوهية علي، أو عند الدُروز : أتباع حمزة الداعية، الذي ادعى لنفسه ما لم يدعيه أحد قبله وألّهَ الحاكم بأمر الله (منصور بن نزار الفاطمي (ت : 411 هـ / 1020 م))...إلخ. وكل من له أدنى معرفة بتاريخ المنطقة القديم، وما عرت عنه الحفريات أخيرا، مما سردنا عليك نتفاً منه، يدرك بسهولة جذور هذه الاعتقادات الخرافية الأسطورية في موروثات المنطقة، بل يمكنه إرجاع كل مقولة مقولة، من مقولات هؤلاء إلى أصلها ومعينها بكل يسر، بعد أن يعريها من قشرتها أو غلالتها الإسلامية التي تسترت تحتها أو تهجنت بها، وهو ما سوف نوقفك عليه وتلمسه لمس اليد.

5-3-3- الزيدية

أهمية هذا الحزب من وجهة نظر التجديد والتأسيس النظريين، المرتبطين بالمرجعية ارتباطا وثيقاً، كمنت في كونه أول من حاول تطوير النظرية السياسية للحكم في الإسلام كامتداد للحكم الشوري أو كاسترجاع لمبادئه العامة، التي نسخها الحكم القيصري الأموي. ثم هو قارب أن يكون حزب تصحيح مسار بمفهومنا المعاصر، بالنسبة لكل الأحزاب التي امتطت القاطرة الشيعية أو ارتدت عباءة دعواها لأغراض ومقاصد شتى!، بعضها وجيه صادق، له ما يبرره، وبعضها الآخر مدخول مليء بالدّغل ومريب كل الرّيبة!. فهو أولاً مبني على الرؤية السياسية العملية القدوة لزعيمه ورائد دعوته : "الإمام" زيد الشهيد[1] بن علي، الذي خرج على بني أمية، ودفع حياته ثمنا لذلك، متأسياً بسابقة جده الحسين رضي الله عنهما. فهذه شهادة ميلاد، وشهادة استشهاد، وشهادة موقف، وشهادة شهود على القرن كله بِعُجَره وبُجَره. ثم إنّ هذا الحزب جسد عملياً إمامة التقوى، كما لم يجسدها حزب آخر بعد الحكم الراشدي، وتبنى العدالة الاجتماعية وأحيا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الصعيدين السياسي والاجتماعي كمطلب

وعادوا فيك أهل الأرض طـــرا   مقامك عنهم سبعين عامـــا
لقد أمسى بمورق شعب رضـــوى   يراجعه الملائكة الكلامـــا
وما ذاق (ابن خولة) طعـــوت   ولا وارت لـــه الأرض عظامـــا
وإن له به لمقيل صـــدق   وأندية تحدثه كرامـــا
وإن له لزقا من إمـــام   وأشربة يعل بها الطعامـــا

وقد اختلف في سنة وفات محمد بن الحنفية، فمن جعلها في سنة 73 هـ وهي سنة وفاة عبد الله بن الزبير، بل بعده بثلاثة أيام كما عند البخاري في تاريخه الكبير (1 : 182 / 561) بل هناك روايات أنه توفي سنة 80 هـ أو 81 هـ أو 82 هـ أو 92 هـ أو 93 هـ ! أنظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (9 : 315 - 316).

[1] هو زيد بن علي الشهيد (زين العابدين) بن الحسين الشهيد (79 ~ 122 هـ). هو أحد خمسة أبناء : علي، ومحمد الباقر، وعبد الله، وعمر، وزيد، والحسين لعلي زين العابدين بن الحسين الشهيد في كربلاء رضي الله عنهم. وعلي زين العابدين وحده من نجا من ذرية الحسين من الذكور لأنه كان مريضاً فسلم وعمره يومها 23 سنة. فعقب الحسين كله منه رضي الله عنه. عاش زيد بالكوفة وروى الحديث عن والده وأخيه محمد الباقر وأبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير بن العوام وعبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى عنه الحديث ابناه : الحسين وعيسى وابن أخيه جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) وسليمان الأعمش وشعبة بن الحجاج ومحمد بن مسلم الزهري وأبو خالد عمرو بن خالد الواسطي وأبو الجارود زياد بن المنذر الهمذاني وغيرهم. كان فقيها ومحدثا ومفسرا وشاعرا وأحد الخطباء المشاهير. أول ما ترفضت الرافضة أن جاؤوا زيداً حين خرج، فقالوا : تبرأ من أبي بكر وعمر حتى نكون معك. فقال: بل أتولاهما وأبرأ ممن تبرأ منهما. قالوا : فإذاً نرفضك. فسميت الرّافضة. وأما الزيدية فقالوا : نتولاهما ونبرأ ممن يتبرأ منهما. فخرجوا مع زيد، فسميت الزّيدية. وعندما استشهد صلب وظل مصلوبا لأربع سنوات، ثم أنزل وأحرق رحمه الله. أنظر : تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (10 : 97) مؤسسة الرسالة، " ط. ثالثة 1409 هـ/ 1989 م، بيروت. ومما يثبت لك أن أجداده لم يتبرؤوا قط من الخليفتين

شرعي نزولاً عند النص، ب "أخذ الكتاب بقوة[1]"، ثم كسيرة وخلق لتتطابق وجهة نظره هذه مع وجهة نظر حزب آخر ناشئ تولد من الظروف والمخاض السياسي ذاته!، هو الواصلية، أصحاب واصل بن عطاء[2] في هذه النقطة. ثم هو اعتبر "الإمامة" إقامة لمصلحة عامة[3]. وهو بآرائه المبكرة هذه حول أهم إشكال سياسي قطع أواصر الألفة والتآخي والتآزر في جسد الأمة الواحدة، ثم شرذمها ومزّقها كل مُمزّق حتى كَلَمَت وغارت جراحاتها وسالت بسبب ذلك دماء غزيرة، يتفق كل الاتفاق مع المنظور السياسي العام للحزب السُني الرشدي الممثل بمشاهير علماء الأمصار : علي زين العابدين، محمد الباقر، الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عبد الله وعبيد الله : ابني عبد الله بن عمر بن الخطاب، الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، سعيد ابن المسيب، أبو الشّعثاء جابر بن زيد، شعبة بن الحجاج، سفيان الثوري، سعيد بن جبير، أبو حنيفة النعمان، مالك بن أنس، الليث بن أبي سليم، محمد بن إدريس الشافعي، أحمد بن حنبل الشّيْباني، محمد بن جرير الطبري،.. محمد بن إسماعيل البخراي، مسلم بن الحجاج،.. ابن حزم الأندلسي، أبو الوليد الباجي، القاضي ابن العربي المعافري، القاضي عياض، الطرشوشي، عبد الحق الإشبيلي، ابن تيمية الحراني، ابن قيم الجوزية..ولي الله الدّهلوي،.. وغيرهم مما لايحصون

أن أحد إخوة زيد اسمه "عمر" !، ثم انظر إلى قائمة من يروي عنهم كأبان وعروة ومن يروي عنه من مشاهير محدثي السنة : الزهري وشعبة..إلخ.

[1] سورة الأعراف، الآية 171 : (خذوا ما آتيناكم قوّة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) وفي سورة مريم، الآية 12 : (يا يحيى خُذِ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيّاً)

[2] أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال، من موالي بني ضبة وقيل بني مخزوم (80 ~ 131 هـ) رأس المعتزلة في زمانه واتخذ من مدينة البصرة مركز دعوته. وكان من أصحاب الحسن البصري (ت: 110 هـ) ثم اعتزله، ومن هذا جاءت تسمية فريقه. وقد ناقشه وناظره زيد بن علي أثناء تواجده بالبصرة. وهو ناشر مذهب الاعتزال في الآفاق وأرسل دعاته : حفص بن سالم إلى خراسان والقاسم بن الصعدي إلى اليمن وأيوب بن الأوتر إلى الجزيرة وإلى الكوفة سليمان بن أرقم والحسن بن ذكوان وإلى أرمينية عثمان بن أبي عثمان زيادة على دعاته في الشام والحجاز والهند وتركستان..إلخ. وتنسب إليه فرقة من فرق المعتزلة بالاسم : " الواصلية"، ومن دعاته إلى المغرب : عبد الله بن الحارث الذي وطد للواصلية في هذه البقاع والتي خلقت من القلاقل للدولة الصفرية في بني مدرار والدولة الرستمية في تاهرت من المتاعب والمشاكل ما أدى إلى إضعافهما وانتصار الدعوة العبيدية عليهما بنصرة ودعم من الواصلية.

[3] ولذلك فالإمامة عندهم رئاسة عامة لشخص من الأشخاص. وكونهم ركزوا على الشخصانية، إنما تحرزاً من أن يفهم من ذلك المشاركة مع النبي صلى الله عليه وسلم في الإمامة الدينية التشريعية الملية العظمى. فهذه ختمت بمحمد الخاتم صلوات الله وسلامه عليه. وقولهم رئاسة عامة في اصطلاحهم هي لتمييزها عن الأمير والقاضي والوالي..إلخ. فرئاسة هؤلاء ليست عامة كرئاسة "الأئمة" أو الخلفاء الذين هم بمثابة رؤساء الدول في عصرنا وفي عصرهم سواء. فهو يقابل من حيث الصلاحيات ذات الاختصاصات الدينية والدنيوية التي عرف بها الخليفة الراشدي الخاضع هو والمجتمع لمنطوقات وضوابط الشرع. وهم عندهم تجوز إمامة المفضول من باب المصلحة، لذلك قبلوا بإمامة أو خلافة الشيخين واعتبروهما صحيحتين. واشترط زيد بن علي لاستحقاق الإمامة العامة أن يخرج صاحبها داعياً لنفسه، مما يبطل دعوى فرقاء الشيعة الآخرين بوجود شيء اسمه "الوصية". وهو ينفي أيضاً وجود شيء اسمه المهدي المنتظر أو الإمام المستور!، لأنه افتراء أولاً، ثم لا تتحقق من وراء ابتكاره أية مصلحة زيادة على أنه تصور خارج منظومة الإسلام. فزيد رضي الله عنه أراد إرجاع أصول المذهب الشيعي كحزب سياسي وفقهي إلى ما كان عليه الأمر أيام علي رضي الله عنه. فعلي لم يعتبر نفسه وارثاً للخلافة وإلا لما صمت عن ذلك. ثم هو رضي بما حصل في سقيفة بني ساعدة ولو بعد حين لأسباب تهمه شخصياً، وقدم مشورته للخلفاء الثلاث دون تحفظ حتى في الأيام العصيبة للفتنة، وهذا هو المنتظر منه رضي الله عنه اتجاه أصحاب درب الجهاد وليس ما سوف يلفق السياسيون الردينون لاحقاً!. ثم هو رضي أن تجري أحكام الشورى فيما بينه وبين عثمان بن عفان رضي الله عنهما وخضع لما اختاره أهل الحل والعقد عندما تمت البيعة لعثمان، ثم أحداث ووقائع التاريخ كلها تثبت أن هذه الحكايات التي لفقت في حق علي هي من ابتكارات دجالي السياسة المتأخرين لأنه معارض جملة وتفصيلاً بتصرفاته رضي الله عنه المنسجمة مع إيمانه وسابقته ومناقبه وأخوته ومودته لأصحابه وأصهاره. فهو زوج ابنته أم كلثوم لعمر رضي الله عنهما. وتزوج أم محمد بن أبي بكر الصديق ورباه عندما توفي عنها زوجها الخليفة أبو بكر. بل زيادة في مودة صحبه على عكس ما سوف ينسج المعاتيه المدعين الانتساب إليه، فقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الثلاثة الراشدين، فقد سمى الأول أبا بكر والثاني عمر والثالث عثمان. وهي تسميات حصلت بعد موت فاطمة الزهراء عليها السلام وزيجاته المتأخرة ما بعد السقيفة. مما يدلك على محبة أصحابه ورفقاء دعوته ودربه، وهي من القرائن الكبرى التي لا ترد. لذلك رفض زيد رضي الله عنه تأسياً بأجداده أن يذكرهما بدوره إلا بخير وقبل أن يتحمل فشل الثورة بتخلي معاتيه الروافض عن نصرته بدل أن يغير قناعته في الخليفتين، ومثله نقل الثقات الحسن المثلث، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب (تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (2 : 230 /486)) وعن أبي عبد الله جعفر الصادق (تهذيب الكمال للمزي (5 : 80 /950) معترضاً على الملفقين الروافض بقوله: أيسب الرجل جدّه ؟ (يعني بذلك أبا بكر الصديق، الذي ولده مرتين كما يقول))!. وهذا هو المنتظر من آل البيت في تلك الفترة،الحرجة، ثم هي شهادة القرن على الادعاءات السمجة اللاحقة التي كذبوا بها أو افتروها على آل البيت رضوان الله عليهم. وهذه من مناقبه، لأن نعت "الروافض" لم يلتسق بهم إلا على محكه، شهادة

عدداً في باقي الأمصار الإسلامية، الحافظين للذاكرة الجماعية للأمّة والغير مداهنين للسلطة!. ولذلك فهو ينكر على فرق الشيعة الغالية أساطيرها المؤسسة ذات المنحى الزرادشتي ~ المانوي ~ اليهودي~ السوتري (نسبة إلى سوتر (Soter)) العَوْداني الخلاصي الغنوصي (العِرْفاني) كما لفقت الكَيْسانية في اعتقادها بأن محمد بن الحنفية يحيط بالعلوم كلها! والأسرار! وعلم التأويل والباطن! وعلم الآفاق والأنفس[1]!. وقالوا بأن الدين يتلخص في طاعة رجل!. وأولوا الأركان الشرعية من : صلاة وصوم وزكاة وحج على رجال!، وقالوا بالتناسخ والحلول والرجعة!. وهو ما سنجده عند كل الباطنية لاحقاً، والتي لا زال لها وجود بين ظهرانينا وفي عصرنا!. أو المختارية، أصحاب المختار الثقفي أول القائلين بالبداء[2] على الله تعالى وتغير علمه!. أو الكربية أصحاب أبي كرب الضرير القائلة بمهدوية محمد بن الحنفية وعدم موته وكونه لا زال حياً يرزق يشرب الماء والعسل بجبل رَضْوى وسوف يرجع!؟. وهو ذات المنحى الذي سوف يجدده أتباعه في نقضهم ونقدهم لما لفقت فرقة الإسماعيلية المنتسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق في إمامها المستور أو ما سوف تحبك الإحدى عشرية بعد قرن من الزمان في خرافتها الثانية عشرة الغائبة، المحتجبة عن الأبصار والأنظار في عالم الوهم والخيال والأساطير!. ثم إن أهمية زيد رضي الله عنه بخروجه وبراءته من الروافض على رؤوس الأشهاد، في هذا الوقت المبكر : سنة 122 هـ، ثم كونه حسينياً، ثم اتفاق آل الحسن أبناء عمومته، وقد آلت إليهم الزعامة السياسية للحزب الهاشمي مباشرة بعد استشهاده، المتمثلة عملياً في خروجهم على آل العباس بعده، بذات النهج وبذات الدعوى، ثم نجاحهم في تكوين دول احتكمت إلى أطروحتهم السياسية وفقههم وبأئمة سياسيين من الفرعين : الحسني والحسيني[3] يجعل من حزبه وأطروحته السياسية، على الرغم من ضيق الأفق

أزلية على مر التاريخ على صدقه عندما صحصح الحق، وعلى كذب وافتراء كل الملفقين بعده!. وهذا ما يجب أن يرسخ لدى الداعية الحواري بالملموس وليس التنظير فحسب.

[1] وهو ما مر بك إدعاءه في " فراعنة " مصر من قديم قبل أن يدعيه أحفادهم في المنطقة ل " لأئمتهم " كما نراهم يفعلون هنا.

[2] تأتي لفظة البَداء في اللغة العربية على معنيين، الأول : بمعنى ظهر كما في لسان العرب (14 : 66) : بدا لي : ظهر لي. وتأتي أيضاً بمعنى تغير العلم السابق، بدا لي بداءٌ أي : تغيَّر رأيي على ما كان عليه.. وهذا المعنى الأخير لا يجوز إطلاقه في حق الله تعالى، لأنه يستلزم حدوث العلم وتجدده، وهو ممتنع في حقه تعالى. وهو مفهوم قول المختار هنا. بل هي ستصبح من مستلزمات الاعتقاد لدى متأخري الفرقة الإحدى عشرية حيث نسبت روايات إلى جعفر الصادق رضي الله عنه في هذا المعنى!، وهو بريء منه رضي الله عنه بقرائن المحيط الذي نبت فيه والزمن الذي نسبوا له القول به!. فقد لفقوا على لسان الصادق! في تصحيح الاعتقاد، ص. 68 للشيخ المفيد ما نصه : كان القتل قد كتب على إسماعيل مرتين! فسألت الله في دفعه عنه فدفعه! وقد يكون الشيء مكتوباً بشرط فيتغير الحال فيه. قال تعالى : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده)، سورة الأنعام، الآية 2 . وهذا يعني أن الصادق يعلم من غيب اللوح المحفوظ ما لا يعلمه الرسول نفسه بنص القرآن ! كما جاء في سورة الأنعام، الآية 50 : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) . وجاء في أصول الكافي (1 : 262) لأبي جعفر، محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت 329 هـ) بتحقيق علي أكبر غفاري، طبع المكتبة الإسلامية/ طهران : ط. رابعة، 1392 هـ/1972 م : { عن ابن عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله (ع) : ما عظم الله بمثل البداء }. وقال الشارح في الطبعة الثالثة (1 : 146) : { فالبداء ظهور ما كان خفياً من الفعل بظهور ما كان خفياً من العلم بالمصلحة!، ثم توسع في الاستعمال فأطلقنا البداء على ظهور كل فعل كان الظاهر خلافه. فيقال بدا له أن يفعل كذا، أي ظهر من فعله ما كان الظاهر منه خلافه!. وهو عين قول المختار. ونسب الكليني (1 : 265) أيضا لأبي الحسن علي (الرضا) بن موسى (الكاظم) بن جعفر الصادق (153 ~ 203 هـ) الإمام الثامن أنه قال : { عن الريان بن الصلت قال : سمعت الرضا (ع) يقول : ما بعث الله نبياً قط إلا بتحريم الخمر وأن يقر لله بالبداء! }. وجاء في تعليق السيد طيب موسوي على تفسير ابي الحسن على بن إبراهيم بن هاشم القمي،(1 : 39) ط. ثانية، 1388 هـ/ 1968 م، قم : { وقال شيخنا الطوسي (هو أبو جعفر محمد بن علي (ت: 460 هـ) رحمه الله في " العدة " : { وأما البداء فحقيقته في اللغة الظهور، كما يقال : بدا لنا سور المدينة، وقد يستعمل في العلم بالشيء، بعد أن لم يكن حاصلاً، وذكر سيدنا المرتضى (هو الشريف علي بن الحسين (ت : 436 هـ)) وجهاً آخر في ذلك وهو أنه قال: يمكن حمل ذاك على حقيقته بأن يقال : بدا لله بمعنى أنه ظهر له من الأمر ما لم يكن ظاهراً له!، وبدا له من النهي ما لم يكن ظاهر له! أنه قبل وجود الأمر والنهي لا يكونان ظاهرين مدركين وإنما يعلم أنه يأمر وينهى في المستقبل، فاما كونه آمراً وناهياً فلا يصح أن يعلمه إلا إذا وجد الأمر والنهي، وجرى ذلك مجرى أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم) سورة محمد، الآية 31) بأن نحمله على أن المراد : حتى نعلم جهادكم موجوداً، لأن قبل الجهاد، لا يعلم الجهاد موجوداً وإنما يعلم كذلك بعد حصوله، فكذلك القول في البداء! }. وهذا الكلام يثبت ما قيل في حقهم بأنهم أخذوا بقول المختار فيه وكما شهد عليهم سليمان بن جرير الزيدي بذلك وانتقدهم به. وهو ما لا يمكن بحال أن ينسب إلى جعفر الصادق بحال، الذي تبرأ من المختار ولعنه!

[3] بل سنجد حفيد زيد بن علي، أبا عبد الله أحمد بن عيسى بن زيد بن علي (157 ~ 247 هـ) يرى صلاحية إمامة الطالبيين من غير الفرعين الحسني والحسيني. وهذا يرجع بالإمامة إلى القرشية الصرفة وإن ضاقت عن باقي قريش لتختص ببيت علي بن أبي طالب وحده!. وأحمد هذا كان عمره ثمانية سنين عندما توفي والده عيسى بن زيد. وكان قد أمر هارون الرشيد بإحضاره وأودع السجن إلا أنه استطاع الفرار من السجن وظل متوارياً في البصرة إلى أن وافاه أجله. وكان يخالف آراء المعتزلة في علم الكلام.

المستقبلي، بحصر الإمامة فقط في آل فاطمة!، شاهد قرن ومرجعية تاريخية لما كان عليه تراث وإرث آل البيت في تلك الفترة المتقدمة الحرجة!، قبل حدوث التصدع الكبير، الذي سيباعد بين الأحزاب ويحدث تلك الفجوة التي لم تزدد مع الزمن سوى اتساعاً وانفراجاً وخلافاً!. لذلك لا يمكن لمن أراد الوقوف على مجريات الأمور زمنهم، أو تكوين نظرة سليمة عن تجربة الحكم السياسي في الإسلام تجاوز تجربة هذا الحزب أو القفز فوقها بحال[1]. بل لا ينتهي الأمر عند هذا الحد الاعتباري التاريخي التصحيحي المحض، وإنما يتعداه إلى ما هو أبعد مرمى مُستقبَلاً، وهو قدرة النقد الحديث، بواسطة ما أثر عنهم عن أجدادهم، مما نقلوا لنا في تراثهم الحديثي والفقهي، ومقابلته بما نقل ثقات المسلمين من أهل "السنة الرشدية"، تصحيح أكثر ما لفقه الكذبة ونسبوه إلى أعلام آل البيت رضوان الله عليهم، بنجاعة قلما يتوصل إليها بأية طريقة أخرى[2]. ثم لأن هذا أصبح ميسوراً اليوم، خصوصاً وأن زيداً ترك مجموعة فقهية وحديثية حافظت على شطر كبير من مرويات وفقه الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]، الذي لا شك أن الأمويين، ثم العباسيين بعدهم، عملوا جاهدين، على طمس بعضه أو جله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً!، على ما اعتادت الأحزاب حسب شهادة التاريخ. كيف؟ وقد استحلوا سبّه! وشتمه! والتنقيص من قدره! رضي الله عنه من فوق منابر الصلاة!. وهل من يجرؤ على اجتراح فعلة دنيئة كهذه يتردد، ولو للحظة!، في طمس تراثه إن وجد لذلك قدرة أو حيلة؟. سنن علم الاجتماع تأبى ذلك! والمنطق والسياسة تأبيان ذلك! ووقائع التاريخ[4] أثبتت ذلك. وكذلك حاول العباسيون رد الكرة، عندما أزاحوا الأمويين عن سدة الحكم بمنشور شهير للمعتضد العباسي[5]!. ولحسن الحظ، ما كان لمثل هذه السياسة أن

[1] ثم زيادة على ذلك، فقد كان عدد من تلاميذ أخيه الأكبر محمد الباقر (ت: 117 هـ/740 م) ورواته المشاهير قد قرروا قبيل خروج زيد على بني أمية، أن زيداً شقيق محمد هو صاحب الحق في الإمامة من بعده. من هؤلاء : أبو خالد عمرو بن خالد القرشي مولى بني هاشم الكوفي ثم الواسطي { ضعفه الإمام أحمد والبخاري وغيرهما باتهامه بوضع الحديث على زيد. وهو راوي المجموع الفقهي عن زيد. أنظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (8 : 24 /41). لم يرو له سوى ابن ماجة في سننه } وفضيل بن الزبير الرسّان وأبو الجارود زياد بن المنذر الهمداني { أجمعوا على ضعفه واتهموه بالرفض وروى له الترمذي حديثاً واحداً في إطعام الجائع. أنظر تهذيب التهذيب (3 : 332 /704) وإليه تنسب فرقة الجارودية من الزيدية }

[2] وهذا بند من بنود مشروعنا التصحيحي لا زلنا نبحث على من يتكافل معنا لإتمامه لضخامته. وكقطيعة مرجعية مع الموروث الوثني للمنطقة الذي أقحمه المعاتيه في النظرية السياسية والعقائدية للإسلام، عندما تعالموا! بهذه الترهات ظناً منهم أن هذا علم، بينما هو تخرص حر وتلفيق مهوس أشربت به المنطقة منذ القدم وما جاء الإسلام سوى لاجتثاثه وليس للتهجين به.

[3] " مجموع الفقه " طبع ونشر بميلانو من طرف المستشرق جريفيني المتخصص في كتب الزيدية سنة 1919 م. عدّ جريفيني كتاب المجموع صحيح النسبة إلى زيد بن علي رضي الله عنه. وقدم له بمقدمة جمع لها الكثير من المصادر لإثبات نسبة الكتاب إليه. ونظراً لكون ما في الكتاب، الذي يعد أسبق تدوين فقهي في الإسلام، فيه تطابق كبير مع فقه كتب السنة في القرن الثاني الهجري، خصوصاً مدرسة العراق الممثلة بفقه أبي حنيفة رحمه الله وسفيان الثوري، بل والأوزاعي في الشام، ظن بعض المستشرقين أن الكتاب منحول!، إلا إن هذا الاعتراض لم يستطع الصمود كثيراً أمام الحجج المتراكمة، التي تثبت نسبته إليه. مما يثبت أنه إلى هذه الفترة المبكرة من الربع الأول للقرن الثاني الهجري، لم يكن يختلف فقه علي رضي الله عنه عن فقه علماء الأمصار من أهل السنة سوى اختلافاً طفيفاً ليس بذي بال!. فقد ظهر في مرحلة تاريخية حاسمة من تكون المدارس الفقهية الإسلامية قبل حدوث الانشقاق الكبير الذي وزع الأمة عزين. بل حتى لو ثبت أنه من تلفيق أبي خالد الواسطي راويه عنه كما اتهمه بذلك رواة الحديث، فالنتيجة واحدة إن لم تكن أكثر حجية ومرمى ومغزى تاريخيا وعقدياً. ذلك أن الواسطي هو من موالي آل هاشم وأخذ عن الباقر قبل أن ينتقل إلى تأييد أخيه زيد في أحقيته بالإمامة بعده، فأن يكون "المجموع الفقهي" من تأليفه أو جمعه أو حتى تلفيقه!، وهو مع ذلك يطابق روايات وفقه علماء الأمصار على طريقة العراقيين، دون اختلاف يذكر، لمِمّا يقوي أطروحتنا بأن الاختراع والتزيد والتميز بين فقه الشيعة وفقه السنة حدث لاحقاً ومن ابتكار المتحزبة المتطرفين.

[4] هذه الدعوى لا تحتاج إلى برهان لأن شواهدها التاريخية كثيرة قال أبو محمد الجهني، عبد العزيز بن محمد الدَّاروَرْدِي المدني : (ت: 186 هـ) : لم يرو مالك (ابن أنس الإمام) عن جعفر (الصادق حتى ظهر أمر بني العبّاس }. وقال مصعب بن عبد الله الزُّبَيري المدني (ت: 236 هـ) : { كان مالك لا يروي عن جعفر بن محمد حتى يضمّه إلى آخر من أولئك الرُّفَعاء ثم يجعله بعده! (تهذيب الكمال للمزي (5 : 76) وقس على هذا. }. : أما على الصعيد السياسي الأكبر فإنا نجد مثلاً أن إيران كانت معقلاً للسنة لقرون ويكفي مراجعة تراجم طبقات الحفاظ والفقهاء إلى ما قبل قدوم الدولة الصفوية الشيعية الإحدى عشرية، التي عملت على طمس تراث هذا الحزب. وكذلك حاول العبيديون مع المذاهب السنية في مصر وإفريقيا إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي السني ومحا آثارهم من المنطقة..الخ. بل هذا ما تقوم به إيران (الطائفية الحكم) اليوم ضد ثلث سكانها السنة بدون لف ولا دوران. ويكفي أن تعلم أن العاصمة طهران لا يوجد بها مسجد للسنة على كثرة عددهم المقارب للمليون!، ومعانات الأقليات الشيعية في بعض البلاد الأخرى معروف بما فيه كفاية، ثم الحروب الطائفية المقيتة بين السنة والشيعة في باكستان لا تحتاج إلى تعليق!.

[5] قال أبو جعفر الطبري في " تاريخ الرسل والملوك " (4 : 2165) في حوادث سنة 284 هـ وما يليها، ط. مكتبة خياط، بيروت :
عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يُقرأ على الناس، فخوّفه عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامّة، وأنه لا يأمن أن تكون فتنة، فلم يلتفت إلى ذلك من قوله!.. وتقدّم إلى الشرّاب والذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا

تفلح وحراس المرجعية، حفظة التراث، من الفقهاء والمحدثين الرُّشديين المخلصين، كانوا لها بالمرصاد. لذلك نقلت السنة الراشدية في مناقبه رضي الله عنه ما لم ينقل عن غيره من الصحابة رضوان الله عليهم إفشالاً لهذه السياسة بالذات، كما تشهد بذلك دواوين الحديث والفقه التي دونت في العصر العباسي نفسه!. إلا أن هذا الحزب الزيدي، وعلى غرار ما اعتادت الأحزاب السياسية في المنطقة المحكومة بأفق العصر والتاريخ والموروث الوثني والجغرافيا، لم يسلم هو الآخر بدوره من التصدعات والتشققات والانقسامات والتشظّيات المصحوبة عادة بالتهجين والتلفيق. فقد تشعبت عن هذا الحزب ثلاث فرق ضاهت بعضها غلاة الشيعة عند الفرق الأخرى. هذه الفرق هي :

5-3-3-1- الجارودية :

ينتسب هؤلاء إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمذاني الخرساني (ت: ~ 150 هـ/767 م). وقد خرجوا عن أقوال زيد وقالوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم {نصّ! على إمامة علي بعده! بالوصف لا بالشخص! } وأنه لا تجوز إمامة غيره! حيث الوصف لا ينطبق سوى عليه دون غيره!، ولذلك ضلّ الصحابة في نظر هذا الفريق باختيارهم لأبي بكر ثم عمر ثم عثمان! رضوان الله عليهم. ثم ساقوا الإمامة بعد زيد إلى محمد النفس الزّكية. وكحبكة ركيكة ومبتذلة لدى كل فرق الشيعة عندما تفتقد أحد قواد الحزب ويقع الاختلاف فيمن سوف يخلفه!، مما سوف أسميه من الآن فصاعداً : " أحبولة عنق الزجاجة! ". فالذين لم يقروا بموته!؟ قالوا : بأنه سوف يعود هادياً مهدياً يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً!؟. وهو شعار زرادشتي فارسي محض لا يخطيء!. والذين أقروا بموته اختلفوا أيضاً!. ففريق منهم رأى أن الإمامة انتقلت إلى محمد بن القاسم بن علي بن الحسن المثنى الحسني، ومنهم من ساقها في الفرع الحسيني إلى يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي (زين العابدين)[1].

5-3-3-2- السليمانية

هم أصحاب سليمان بن جرير، يقتربون من زيد في بعض منطلقاته العقائدية ويبتعدون عنه في أخرى ليضاهوا الجارودية في غلوائها!. فسليمان يقول بأن : الإمامة العامة شورى بين الخلق وتصح في المفضول مع وجود الأفضل[2]. لذلك رضي بخلافة أبي بكر وعمر واعتبر اختيارهما من طرف الأمة اجتهاداً يحتمل الخطأ!، ولكنه لا يصل

على معاوية ولا يذكروه بخير!، وتحدث الناس أن الكِتاب الذي أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية، يقرأ بعد صلاة الجُمُعة على المِنْبر. فلما صلى الناس الجمعة بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب فلم يُقرأ فذكر أن المعتضد أمر بإخراج الكتاب الذي كان المامون أمر بإنشائه بلعن معاوية. فأخرج له من الديوان فأخذ من جوامعه نسخة هذا الكتاب وقد تضمن :

{ بسم الله الرحمن الرحيم.. وقد انتهى إلى أمير المؤمنين! ما عليه جماعة من العامة من شُبهة قد دخلتهم في أديانهم!، وفساد قد لحقهم في معتقدهم، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم!، ونطقت بها ألسنتهم على غير معرفة ولا رَوِيّة!، وقلدوا فيها قادة الضلال! بلا بيِّنةٍ ولا بصيرة!، وخالفوا السنن المُتَّبَعة إلى الأهواء المُبتَدَعة!. قال الله عز وجل : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ سورة القصص، الآية، 50)، خروجاً عن الجماعة ومسارعة إلى الفتنة وإيثاراً للفرقة، وتشتيتاً للكلمة، وإظهاراً لمُوالاة من قطع الله عنه الموالاة، وبتر منه العِصمة، وأخرجه من الملة!، وأوجب عليه اللعنة!؟!، وتعظيما لمن صغّرَ الله حقه، وأوهنَ أمره، وأضعف رُكنه من بني أميّة، الشجرة الملعونة!؟!، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهلكة، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة...فما لعنهم الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم!؟! وأنزل به كتاباً قوله : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾. سورة الإسراء الآية 60).. ولا اختلاف بين أحد!؟ أنه أراد بها بني أميّة!!!؟؟.. يلحقه به اللعنة من الله !!!؟؟، كما لحقت ﴿ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾... قلت : إلى هذا الحد بلغت الشحناء والبغضاء في تلك الأيام الخوالي، والداعي لصدور هذا المنشور سياسي محلي بالأساس، لأن المعتضد تقدم إلى العامة بوجوب لزوم أشغالهم وترك الاجتماع! ومنع القصّاص من الكلام! ومن اجتماع الحلق في الجوامع!!؟؟. (حالة طوارئ لا زال لها استمرار في التاريخ السياسي إلى يوم الناس هذا ! تاميم المساجد! والسعي لخرابها،!. إذ ما الداعي للذهاب إلى المسجد إن لم يكن لحضور الجماعة والاجتماع ، والتفقه في الدين في حلق العلم، وقد جعلت للمسلم الأرض كلها مسجداً وطهوراً؟،) وإنما دستور المسلم الحَواري اليوم يحكمه قول الله تعالى ما ورد في سورة البقرة، الآية 134 : ﴿ وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يفعلون ﴾ .

[1] يقول أبو محمد الحسن بن موسى النَّوْبختي (ت: ~ 300 – 310 هـ) في "كتاب فرق الشيعة " طبعة إستنبول ص. 50 : { سموا كلهم في الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم في القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام }.

[2] اي أنه لا يقول بالقرشية في الإمامة العظمى، وهذا يقربه من موقف الخوارج عامة. ولم يؤثر عن زيد بن علي رضي الله عنهما أثر بحصرها بالنص في آل البيت أو قريش فيما روى عنه صاحب المجموع الفقهي الذي جمع أقواله وآراءه الفقهية فيه. بل إنه عندما اشترط الخروج لاستحقاق الإمامة، فقد نقض بذلك دعوى من أكبر دعاوى أصحاب النص والتنصيص، حتى أن الجارودية وهم من غلاة الزيدية لم يقولوا بالنص الصريح (الجلي) على الإمام " علي " وإنما بالوصف، لكن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسني الرسي (169 ~ 246 هـ

إلى درجة التفسيق والضَّلال. فهو هنا يلتقي مع الخوارج في عدم الاعتداد ب "القرشية " في استحقاق الخلافة، إلا أنهم مع رضاهم بخلافة الشيخين فإنهم يطعنون في عثمان، وأم المؤمنين عائشة، وطلحة، والزبير، رضي الله عنهم وينسبونهم إلى الكفر!؟!؟. وهذا بهتان عظيم! قل من سلم منه من متنطعي الشيعة الغلاة!. ورغماً عن هذا الشطط، ففيما يخص عالم الأفكار، يرجع لسليمان الفضل الأول في التنبيه على ما في مقولة الفرقة الموسوية (نسبة إلى موسى الكاظم وعقبه) التي تعتمد مبدأي : البداء والتقِيَة من مغالطة سفسطائية. يقول سليمان[1]:

الرافضة قد وضعوا مقالتين لشيعتهم لا يظهر أحد قط عليهم :

إحداهما : القول بالبداء، فإذا أظهروا قولاً أنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهور، ثم لا يكون الأمر على ما أخبروا به! قالوا : بدا لله تعالى في ذلك!

ثانيهما : التقية، و كل ما أرادوا تكلموا به، فإذا قيل لهم : ذلك ليس بحق وظهر لهم البطلان، قالوا : إنما قلناه تقية! وفعلناه تقية

وهذا في الحقيقة سبق تاريخي في عالم التَّفَكُّر سبق به سليمان ما توصل إليه لا حقاً متفلسف العلوم اليهودي النمساوي كارل بوبر { Karl Popper } (1902 ~ 1989 م) في القرن العشرين بقرون، عندما قال بنظريته للتخطنة في العلوم التي يلخصها المنطوق التالي :

لابد لكل فرضية نظرية أن تكون قابلة للتخطئة حتى تنعت بالعلمية[2]

) والهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسني الرّسي (220 ~ 298 هـ) عادا إلى القول بحصر الخلافة في أهل البيت وحدهم وقررا أن ذلك أمر ديني!. أنظر تصحيح المسار، ص. 80 . وظل هذا القول يتردد بحيث نجده عند الإمام يحيى بن حمزة بن إبراهيم الحسيني (669 ~ 749 هـ) حيث رددها في كتبه بقوله : { ذهب أئمة الزيدية إلى حصر الإمامة في أولاد فاطمة..}. أنظر : يحيى بن حمزة : المعالم الدينية في العقائد الإلهية، تحقيق سيد مختار محمد أحمد حشاد، دار الفكر المعاصر ط. أولى 1408 هـ/1988 م، ص. 144 ، بيروت. ولن يعاد التفكير في هذا الأمر عندهم إلا بعد قدوم الإمام المجتهد صالح بن مهدي المقبلي (ت: 1108 هـ) ليثير القضية من جديد ويشرح ذلك بخصوص الأثر : "الأئمة من قريش" (والذي فندنا صحة نسبته بهذا السياق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متناً وسنداً، كما فصلناه في رسالتنا : " أحاديث في السياسة لا تصح : الأئمة من قريش") بقوله : { إن رواياته حسب المعنى كثيرة، والظاهر فيها "الخبر ". ألا ترى أن في بعضها : "الناس تبع لقريش في الخير والشر "، ولا يأمر صلى الله عليه وسلم باتباع الشر!. وقد تكلف الناس للاستدلال بتلك الأحاديث على الإمارة، أي الخلافة في قريش، وإنها محصورة عليهم، وكان يلزمهم أن "القضاء "محصور في " الأزد " ! والآذان في " الحبشة " !. وقولهم إن أبا بكر احتج على الأنصار بذلك! (قد بينا لك سابقاً أنه لم يحتج قط بخبر كهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ليس بصحيح لأن أبا بكر إنما تكلم برأيه ... وهذا اعتبار منه محض، ولا شك في أنه اعتبار صالح، نظراً إلى تلك الحادثة، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى جميع الخلق. أنظر : الأبحاث المسددة للمقبلي ص. 253 } قلت : احتجاج المقبلي رحمه الله ينبني على كون الدعوة الإسلامية هي لكل البشرية، فيمتنع عقلاً أن يختص بحكم المسلمين قبيلة أو عشيرة تتوارث هذا عقباً عن عقب. وهو فهم صحيح لمقاصد الشريعة، إلا أنه ما كان أحوجه إلى تفنيد الآثار التي تدعي خلاف هذا التخريج، وهو ما قمنا به في رسالتنا الشار إليها آنفا، مقربين للقارئ الكريم مناط المسألة حتى يحكم عليها بما تستحق. بل تابع المقبلي من الزيدية الإمام الحسن بن أحمد بن محمد الحسني المعروف بالجلال اليمني (1014 ~ 1084 هـ) بقوله إن " الأئمة من قريش" إخبار بما يكون، لا بما يجب. أنظر: كتابه : "العصمة من الضلال" ص. 26 نقلاً عن تصحيح المسار، ص. 75 .

[1] كتاب الملل والنحل للشهرستاني طبعة المثنى ببغداد (1 : 214 - 215)

[2] يقول كارل بوبر في كتاب : "المهمة الغير مكتملة " : كملخص ربما يكون من المفيد باستعمال بعض الأمثلة توضيح كيف تشتغل أنماط الأنساق النظرية المختلفة بالنسبة لعمليات الرائز (أو التخطئة) و التمنيع :

ا) توجد نظريات ميتافيزيقية ذوات طبائع وجودية صرفة (هي موضوعات تخمين ونقض)

ب) هناك نظريات كنظريات التحليل النفسي لفرويد، لأدلر ويونغ، أو كالمعرفة (الغامضة بما فيه كفاية) كالتنجيم.

لا (ا) ولا (ب) يمكن تخطئتها ولا التحقق منها رائزياً. { (أي أنها والخرافة سواء !؟!؟، كحكايات ألف ليلة وليلة تماماً،! ومع ذلك كان ولا زال لها رواج، وما ذلك إلا لارتباطها إيديولوجياً بالحركة المناهضة للكنيسة، التي أبدلت "الراهب" ب "المثقف" في دوره المعرفي و بعالم!؟!؟ النفس في دوره " الاعترافي" كغفار ذنوب بعد اعتراف المؤمن له بذنوبه وموبقاته، ثم كمانح صكوك غفران حسب الطلب لولوج الجنة!.) هذه الزيادة ما بين قوسين من عندي : المؤلف. }

ج) هناك ما يمكن ان نسميه نظريات مغالطة من نوع " كل الوز أبيض " أو النظرية المركزية للأرض : " كل النجوم غير الكواكب تتحرك في دوائر ". يمكن أن ندخل في هذا السجل قوانين كبلر (Kepler) (رغم كونها من وجهات نظر مختلفة تعتبر أكثر غموضاً). هذه النظريات يمكن تخطئتها حتى وإن كان واضحاً أن بالإمكان تجنب التخطئة: التمنع ممكن دائماً. لكن مراوغات الدفاع (عن النظرية) تعد غير شريفة : ويتمثل هذا في نفي كون وزة سوداء تنتمي إلى الوز، أو بكونها سوداء؛ نكران كون كوكب لا كبليري هو كوكب.

د) حالة الماركسية مفيدة. فكما أوضحت في كتابي : " المجتمع المفتوح ". يمكن اعتبار أن النظرية الماركسية خطئت بواسطة الوقائع التي حدثت خلال الثورة الروسية. فحسب ماركس، التغييرات الثورية تنطلق من القاعدة، أو بمعنى آخر : وسائل الإنتاج هي أول ما يتغير، ثم الشروط الاجتماعية للإنتاج، ثم السلطة السياسية وأخيراً القناعات الإيديولوجية التي يطرأ عليها التغيير في النهاية. لكن في الثورة الروسية فإن السلطة السياسية هي التي تغيرت أولاً. ثم الإيديولوجيا (الديكتاتورية والكهربة) بدأت تغير من فوق الشروط الاجتماعية ووسائل

وهو يعني بالتخطنة إمكان إخضاع الفروض العلمية إلى رائزية إمكان التحقق أو التخطنة للنظرية بقابليتها للخضوع للتجربة، وإلا فهي فروض ميتافيزيقية فلسفية لا يمكن التحقق من صدقها ولا من خطئها، أي لا يمكن أن تخطَأ[1] بحال على محك التجربة، وبالتالي فهي قضايا فارغة من المعنى!.

5-3-3-3- الصالحية

هم أصحاب الحسين بن صالح[2]. وافقوا السليمانية ولم يغلوا غلوها. فهم لم يحكموا بكفر!؟ عثمان، بل توقفوا في شأنه لما رأوا من سابقته في الإسلام. وقالوا بأن :

علي أفضل الخلق بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الناس بالإمامة بعده، إلا أنه سلم الأمر راضياً وفوضه إلى غيره طائعاً، وترك حقه راغباً، فنحن مسلمون لما سلم راضون بما رضي ولا يحل لنا غير ذلك، ولو لم يرض علي بذلك لكان أبو بكر هالكاً!؟!؟.

وبخصوص الإمامة العامة قالوا بأن :

كل من أعلن نفسه من أبناء الحسن أو الحسين، وكان عالماً زاهداً شجاعاً فهو الإمام. كما جوزوا وجود إمامين مختلفين في قطرين ويكون كل منهما واجب الطاعة في قومه.

فهم بهذا أول من قال بالإمامة القومية! أو القطرية!. بل قالوا بأن كل واحد منهما لو أفتي بخلاف صاحبه لكانا مصيبين معاً! وإن أفتى كل واحد منهما بدم صاحبه[3] !؟!؟. وهذه من معاوص التنظير!.

وكتطبيق عملي لهذا المنحى عند الزيدية في إمكان تعدد الإمامة، فقد قامت ثلاث دول متعاصرة تحكم بمذهب الزيدية في كل من :

1) بلاد المغرب الأقصى : التي أسس الدولة فيها إدريس بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ت: 177 هـ/793 م) [4]وحكمته لقرنين (172 ~ 375 هـ) إلا أنها لم يتم لها ما سوف يتم لشقيقتيها في الديلم واليمن من تطوير لنظرية الزيدية في الحكم ولا برز فيها علماء أو أساطين تنظيرمن حجمهم ولا عيارهم ولا نموذجهم، بسبب البيئة أولا ثم بسبب الاغتيال المبكر لإدريس هذا من طرف هارون الرشيد العباسي سما بواسطة أحد عملائه[5]، مما أجهض عطاءها مبكرا وانقلبت إلى دولة " بركة!" (تيمية) يتبرك

الإنتاج. إعادة التأويل لنظرية الثورة الماركسية من أجل الإفلات من التخطنة أعطتها مناعة (منعتها) ضد أي هجوم لاحق، محولة إياها لماركسية سوقية (أو اجتماعية ~ تحليلية) التي تقول لنا بأن الحوافز الاقتصادية وصراع الطبقات أشربت كل الحياة الاجتماعية. } أنظر : (Karl Popper, 1981 : La Quête inachevèe, AGORA, Press Pocket, 56)

[1] أنظر كتابنا : "الأسس العلمية لدعاوى القرآن"

[2] أبو عبد الله الحسن بن صالح بن حي الهمداني الثوري الكوفي (100 ~ 168 هـ)، ويطلق عليهم أيضا اسم البثرية، لموفقتهم لكثير النوى المعروف بالأبتر. وهذه الفرق : الجارودية والسليمانية والصالحية قل من يتبع اليوم نهجها عدا بقايا من شيوخها في كل من مدينتي صنعاء وصعدة. بل المذهب الزيدي برمته فقد وهجه التاريخي المجدد بعد إعلان الجمهورية! في اليمن سنة 1962 م.

[3] وهذه من غرائب الفتوى كما ترى!. وقد وصف أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (479 هـ/1086 م ~ 548 هـ/1153 م) في الملل والنحل (1 : 218) بعض معاصريه منهم فقال : { وأكثرهم في زماننا مقلدون، لا يرجعون إلى رأي اجتهاد، أما في الأصول فيرون رأي المعتزلة حذو القذة بالقذة، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة آل البيت، وأما في الفروع فهم على مذهب أبي حنيفة إلا في مسائل يوافقون فيها الشافعي رحمه الله }.

[4] حضر هو وأخويه يحيى وسليمان وقعة فخ على ثلاثة أميال من مكة وتعرف اليوم ب " الشهداء " أو " الزاهر "، التي خرج فيها الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ت: 169 هـ/785 م) على بني العباس أيام موسى الهادي العباسي داعيا لنفسه. ففر يحيى بعد الهزيمة إلى الديلم إلى أن غدر به هارون الرشيد بعد نكثه لعهد أمان قطعه له فمات في سجنه سنة 180 هـ/796 م. أما إدريس فانتهى مع مولاه : الرشيد إلى المغرب حيث بايعه إسحاق بن محمد بن عبد الحميد، أمير مدينة وليلي التاريخية وشيخ قبيلة أوربة أوفر قبائل المغرب عددا ونجدة يومها وجمع البربر على القيام بدعوته سنة 172 هـ. إلى أن سم من طرف هارون الرشيد العباسي سنة 177 هـ تاركا ابنه إدريس الثاني حملا عمره سبعة أشهر في بطن أمه كنزة : الأمة البربرية.

[5] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام (2 : 166). الذي سم إدريس هو سليمان بن جرير الملقب ب "الشماخ ". لذلك لم تتم لآل إدريس ما تم لإخوانهم في الديلم واليمن. وطوال مدة حكمهم الأولى : زهاء قرنين، لم يبرز من ذريتهما في العلوم نظير ما كان لبني عمومتهم في الشرق. ويظهر أثر البيئة في الدعوة والحكم هنا بجلاء، وإدريس الثاني (177 ~ 213 هـ) الذي خلف أباه وهو لا زال في بطن أمه كنزة البربرية لم يتطاول به العمر كثيرا ولم يتسع وقته لغير توطنة الحكم ومحاربة الدولة الصفرية. بل حتى الوفود العربية التي وفدت عليه من القيروان ومن الأندلس واللذان كونا الجاليتين الرئيسيتين لعاصمته فاس حتى تسمت بدار العدوتين، لم يبرز منهم أحد ذو بال في أي علم كان

برفاة وعظام ملوكها، ويشرك بأضرحتها، ضمن طقوسيات الشرك القبوري المحلي الموروث، الذي لازم ولا زال يلازم قطاعاً كبير من المغاربة إلى يوم الناس هذا!، أكثر منها دولة مشروع حضاري!.

2) بلاد الديلم : التي أسس صرح الدولة بها أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب (230 ~ 304 هـ) الحسيني ويلقب بالناصر الأطروش[1]. وتنسب إليه

إلى هذه الفترة. ثم إن ذريته تقاتلت من بعده على الملك، مما أظهر أنهم لا يختلفون عن باقي طلاب الملك! والرياسة. ومع بروز العبيديين في تونس والأمويين في الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر وأيام ابن عامر ظل الأدارسة يبدون الولاء تارة لهذا وتارة لذاك لتغلبهم على ما بأيديهم. وفي ظل عامل العبيديين موسى بن أبي العافية حوصر الأدارسة حتى أجلوا جميعاً إلى قلعة منيعة بشمال المغرب تعرف بحَجَر النسر سنة 317 هـ، الذي كان قد ابتناه محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس المثنى. أما في دولتهم الثانية فلم تقم على الاستقلال وإنما على نظر المتغلب الإسماعيلي في المهدية بتونس ثم القاهرة أو الأموي في الأندلس. كما تقلصت رقعة حكمهم بكثير بحيث شاركهم غيرهم في حكم المغرب بالنيابة عن القوتين المتصارعتين على المنطقة. بل سيتمكن الحكم الثاني المستنصر بالله الذي حكم للفترة (350 ~ 366 هـ) من إجلاء ما تبقى من الأدارسة بحجر النسر إلى قرطبة بالأندلس سنة 364 هـ. ثم منها إلى تونس ومصر سنة 365 هـ. فنزل زعيمهم الحسن بن كنون (ت: 375 هـ) وعشيرته على أبي منصور العزيز بالله : نزار بن معد (المعز لدين الله) العبيدي (344 ~ 386 هـ) الذي أمده بجيش لغزو المغرب من جديد إلا أن المنصور بن أبي عامر محمد بن عبد الله المعافري (326 ~ 392 هـ) حاجب هشام الثاني بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر : المؤيد الأموي (355 ~ 403 هـ) الحاكم الفعلي للأندلس، تلقى هذا الجيش العبيدي بعدة ومال أوفر رشا به زعماء القبائل فانهزم كنون وجيشه وأرسل إلى الأندلس مرة ثانية بأمان إلا أنه قتل هذه المرة سنة 375 هـ. فركدت ريح العلوية في المغرب وتفرقوا في قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء خوفاً على أرواحهم من ذوي السلطان إلى أن خلعوا شارة نسبهم واستحالت صبغتهم إلى البداوة كما يحكي عنهم أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت: 1315 هـ/1897 م) في كتاب " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى " (1 : 204) ". دار الكتاب، 1954 ، الدار البيضاء، المغرب.

كانت دولتهم تمتد من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم فاس أو البصرة (مدينة انمحت كمدن كثيرة في البلد بسبب المنطق الخرابي الغير حضاري الذي ساد هذه الربوع منذ عهود بعيدة!). وظلوا يكابدون دولتين صاحبتي مشروعين متنافسين في الحكم: الأمويين بالأندلس والعبيديين بالمهدية ثم القاهرة زيادة على ما كان بينهم وبين الصفرية المدرارية في سجلماسة وتاهرت. كانوا يزاحمون قوى أكبر منهم تسعى لبسط النفوذ على العالم الإسلامي كله، وقعد بهم عنها انعدام مشروع لديهم في الحكم وضعف سلطانهم وقلة مالهم! وحيلتهم. وهي مثبطات لا ترحم في عوالم الحضارة أو السياسة. فكان سلطانهم إذا امتد وقوي لا يتجاوز شرقاً مدينة تلمسان، وإذا اضطربت الحال عليهم وضعفوا لا يتجاوز سلطانهم البصرة ,أصيلا وحَجَر النسر. فكان حكمهم إنما برر وجوده في الانتساب إلى آل البيت صلوات الله عليهم تبركاً كشرعية للحكم وليس لأي شيء آخر. ثم تغير الولاءات من النقيض إلى النقيض يبرز الخلل القاتل في بنية هذه الدولة التاريخية التي تذكر للتبرك أكثر مما تذكر كصاحبة مشروع حضاري أو سياسي!.

الإيجابي في حكمهم هو أنهم لم يضطروا إلى ادعاء المهدوية أو التذرع بها حتى وقد فقدوا حكمهم أكثر من مرة، مما يزكي قولنا بأن هذه دعوى شرقية بالأساس ولا ينتحلها سوى من أخذها عنهم.

الدولة الثالثة للأدارسة ستقوم في الأندلس هذه المرة بعد انفلات عقد الدولة الأموية بها سنة 407 هـ وقيام دولة بني حمود على يد علي بن حمود بن ميمون بن أحمد الإدريسي الملقب بالناصر لدين الله الحمودي (354 ~ 408 هـ) أول ملوك هذه الدولة بقرطبة سنة 400 هـ. ثم جاء بعده القاسم بن حمود بن ميمون : المأمون (351 ~ 431 هـ) الذي كان على سبتة، ثم يحيى بن علي : المُعتلي الحمودي (385 ~ 427 هـ) ثم إدريس بن علي : المتأيد بالله (ت: 431 هـ) ثم يحيى بن إدريس بن علي بن حمود : القائم (ت: 434 هـ) ثم الحسن بن يحيى بن علي بن حمود: المستنصر (ت: 434 هـ)، ثم محمد بن القاسم بن حمود : المهدي! الحمودي (ت: 440 هـ)، ثم محمد بن إدريس بن يحيى بن علي: المهدي! الحمودي (ت: 444 هـ) على ملقة وسبتة، ثم القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود (ت: 446 هـ)، ثم إدريس بن يحيى بن علي بن حمود : العالي (ت: 447 هـ)، ثم إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود : السامي (ت: 448 هـ)، محمد بن إدريس بن يحيى بن علي : المستعلي (ت: 460 هـ) آخر ملوك الطوائف بالأندلس. ولم يبق لهم أمر في رجب سنة 488 هـ حسب ابن حزم الأندلسي في جمهرة أنساب العرب " ص. 51 . دار الكتب العلمية. ط. أولى 1403 هـ/1983 م وكلهم تسموا بألقاب الخلافة المهترئة التي لا تتجاوز بقعة حكمها مدينة واحدة، على ما ابتدع العباسيون من ألقاب وحاكاهم في ذلك الإسماعيليون وأمويو الأندلس. بل إن محمد بن حسن بن إدريس تسمى بالمهدي والخليفة وحارب ابن عمه إدريس بن يحيى الخليفة! و لا تبعد ديار خلافتهما عن بعضهما البعض أكثر من 40 كيلومتراً!، لينسخ كل هذا حكم المرابطين مع باقي ملوك الطوائف بمشروعهم الحضاري المتميز. وكما نقلوا ألقاب خلافة الشرق فقد ادعى اثنان منهم المهدوية!، وهي مستوردة كما استوردوا الخلافة المهترئة!.

[1] قال الشهرستاني في الملل والنحل (1 : 211) : { ولم ينتظم أمر الزيدية، حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاختفى، واعتزل إلى بلاد الديلم والجيل، وهم لم ينحلوا بدين الإسلام، فدعا الناس دعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، فدانوا بذلك، ونشئوا عليه، وبقيت الزيدية ظاهرين، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلي أمرهم }. ولد بالمدينة وقدم إلى طبرستان في عهد الداعي الحسن بن زيد. ناصره والي نيسابور في أول أمره ثم انقلب عليه! وأسره. ولما أطلق سراحه ذهب إلى جرجان وشارك في محاربة الدولة السامانية. وبعد هزيمته ذهب إلى الديلم فرحبوا به وناصروه، ليحقق أول نصر له على جيوش خراسان المنضوية تحت أحمد بن إسماعيل الساماني. ثم انتقل إلى بلدة آمل واستقر بها. اشتهر بالفقه والحديث والشعر. ووصلنا من كتبه : "البساط" و "الإبانة " و " الاحتساب" وجمع آراءه التي خالف فيها الشيعة علي بن أبي جعفر بيرْمَرْد الَيْلَمي (ت: 670 هـ). وسماه : "المغني في رؤوس مسائل الخلاف بين الإمام الناصر إلى الحق وسائر فقهاء أهل البيت ".

المدرسة الزيدية الناصرية.

3) بلاد اليمن : التي تكونت فيها الدولة الهادوية، نسبة إلى أبي الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (220 ~ 298 هـ) الحسني الملقب بالهادي إلى الحق[1]. فهاتان الدولتان الأخيرتان ارتبطتا بعلاقات وطيدة من ناحية المذهب وتبادلتا العلماء والكتب والرسائل، بينما لم تربطهما بأختهما في المغرب الأقصى أية وشيجة تذكر!. إذ في حالة المغرب، ورث أصهار إدريس الأول من قبيلة أوربة المغربية، التي ناصرته عند قدومه عليهم فاراً من وقعة فخ بالحجاز وتسريه فيهم بجاريته كنزة، التي ولدت له ابنه إدريس الثاني، نصف مجينه الوراثي الحيوي، أو نصف دمه القرشي، دون علمه الديني. فالقرشية إن كان لهذه اللفظة من معنى محسوس أو ملموس يتمظهر في السلوك ومرتبط بشيء يورث كما يورث الدم والمورثات البيولوجية الأخرى لخضع لقوانين الوراثة ولظل يضمحل وراثياً إلى النّصفة مع كل عقب جديد، حتى ليمكن الجزم أن ما تبقى منه في عروق حفدة إدريس بعد ثمانية أجيال من تسلسلهم في إدريس الثاني سنة 177 هـ : {النصف قرشي ~ نصف مغربي} إلى انقراض أمرهم بالأندلس سنة 488 هـ، لا يكاد يوجد[2] !.

[1] ولد في المدينة وعاش عند أقارب له في الفرع. اشتهر بالعلم والورع. قدم اليمن سنة 280 هـ وبدأ في نشر فقهه وتعاليمه وصحبه في هذه الرحلة علي بن العباس بن أدهم الحسني وكان من أعلم رجال آل البيت بعلم آل البيت وهو راوي إجماعات آل البيت في الأحكام التي لا يصح لأحد فقهاء الزيدية أن يخالفها. عاد إلى الحجاز وكانت له مراسلات مع أبي العتاهية حاكم اليمن، الذي استدعاه إلى بلاده فسافر إليها مع خمسين من أتباعه من الحجاز إلا أن اليمنيين دعوه إلى القدوم إليهم فبايعوه إماماً لهم في مدينة صعدة في السادس من شهر صفر سنة 284 هـ. وهي مدينة تقع بين مكة وصنعاء على طريق الحج. حل بها في عهد المعتضد العباسي. هنا لقبه اليمنيون بأمير المؤمنين الهادي إلى الحق. ففتح نجران وقاتل غلاة العباسيين إلى أن سقطت مدينة صنعاء في يده وذاع صيته إلى أن دعي له في الخطبة بمكة المكرمة. غزير التأليف ووصلنا من مؤلفاته زهاء أربعين عنواناً في الفقه والعقائد والتفسير والزهد والمواعظ والإمامة..الخ. وله خطبة شهيرة في هذه البيعة تنبئ عن فقه الرجل وإخلاصه :
{أيها الناس إني أشترط لكم أربعاً على نفسي، الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والأثرة لكم على نفسي فيما جعله بيني وبينكم، أوثركم فلا أتفضل عليكم، وأقدمكم عند العطاء قبلي، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوي وعدوكم، وأشترط لنفسي عليكم اثنين : النصيحة لله سبحانه وتعالى في السر والعلانية، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت أو عدلت عن كتاب الله وسنة نبيه فلا حجة لي عليكم. فهذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني } فأقام السنن التي كانت أميتت ووحد البلد إلى أن داهمه أمر القرامطة فاستعد لمحاربتهم سنة 293 هـ وجاهدهم لخمس سنوات إلى أن أصيب سنة 298 هـ فخلفه ابنه محمد المُرتضَى لدين الله (278 ~ 310هـ) الذي اعتزل الإمامة بعد ستة أشهر من توليه لها، ثم أخوه أحمد الناصر لدين الله الذي ظلل يحارب القرامطة في أوج هجمتهم ويحارب شرهم لمدة 27 سنة إلى أن استشهد بدوره سنة 325 هـ . وهما كأبيهما، اشتغلا بالتأليف زيادة على مهامهم الجهادية تمثلاً لنموذجهم النظري لما يجب أن يتصف به الإمام عندهم : العلم والجهاد. وهذا نموذج مطرد في أئمتهم كما سوف نجده في إمامهم الرابع أبا الحسين القاسم بن علي بن عبد الله المنصور بالله العِياني (389 ~ 393 هـ) وقد ألف نحو مائة كتاب. ثم في إمامهم الخامس الحسين بن القاسم بن علي بن عبد الله المُهدي لدين الله (384 ~ 404 هـ) الذي استشهد مجاهداً في معركة البَون شمال صنعاء ضد الإسماعيلية، وهو أيضاً غزير التأليف. كما أن الديلم ظل يحاكي ذات النموذج . وإلى هذه الفترة المتأخرة من نهاية القرن الرابع وطلائع القرن الخامس الهجري فإنا نجد أبا الحسين المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون البُطحاني (333 ~ 411 هـ) الذي امتدت إمامته لعشرين سنة غزيرة بالتأليف أيضا، بينما ظل الفرع الزيدي المغربي خاملاً تماماً في ميدان العلم والتنظير، وأكثر اهتماماته انصبت على مقارعة الأغيار وصولاً للحكم وباية وسيلة ممكنة، دون نتيجة تذكر أو تميز نوعي معتبر!. وحتى عندما ظهروا في طورهم الثالث، إبان فتنة ملوك الطوائف بالأندلس، فقد ارتموا على أسباب طلب الرياسة والملك والحكم متدثرين بألقاب الخلافة المهترئة الشرقية، دون إعداد أو دعوة منظمة أو رؤية سياسية مجددة. بل ضاهوا ملوك الطوائف في ألقابهم كالهر يحاول تقليد الأسد كما قال الشاعر.

[2] ذلك أننا بإدريس الثاني، الذي لم يتزوج سوى في البربر وكذلك نسله. فإن اعتبرنا هذا المجتمع الأوربي أو البربري المدخول بالقرشية كمجتمع معزول في زيجاته، فإن ورث إدريس الثاني من " السمة البيولوجية! القرشية " نصفها من أبيه إدريس الأول ومن والدته كنزة الأوربية نصف " السمة البيولوجية! البربرية " (إن كان للبربرية معنى!، لأن المغاربة لم يكونوا عرقاً جنسياً وإنما خليطاً هجيناً من كثير من الأجناس، منذ عشرات الآلاف من السنين، كما أثبتت الحفريات. بل هذا يصح على كل المجتمعات البشرية مهما رجعنا بها إلى الوراء ولآلاف السنين. النقاء السلالي أسطورة ظهرت مع المد الاستعماري الأوروبي واثبت العلم المعاصر أن لا وجود لها في عالم الأعيان!. وما يصح على البربرية بهذا المعنى يصح على القرشية، لأن هذه سمات لغوية أكثر منها بيولوجية) ثم تزوج أبناؤه وأعقابهم من بنات عمومتهم الأوربيات القريبات عقباً بعد عقب، لكان احتمال توفر الخاصية (السمة الموروثة!) " القرشية " التي ورث نصفها إدريس الثاني من والده إدريس الأول أن لا يرث منها الجيل الأول من أبناء إدريس الثاني سوى : جزء واحد من 64 جزء منها. وهذا يشبه احتمال ولادة ابن مُغْربٍ كما في ظاهرة " المَهَق " مثلاً. أما في الجيل الثامن وبافتراض صحة ما قدمنا من انعزال آل إدريس وتزاوجهم في البربر فقط،

وإذا نظرنا إلى هذا الحزب الزيدي من ناحية التنظير السياسي للحكم في الإسلام، فإنا نجده متطورا على كل المذاهب السياسية الأخرى. فهو قدم رؤية لضوابط الحكم الشوري كانت غائبة عنه في تجربته الرشدية الأولى لسمو النموذج الرسالي لدى الصحابة بتربية الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، والتي لم يعد بالإمكان توفرها فيمن بعدهم. لذلك قرروا معالجة هذا الخلف النازل، بضوابط أكثر موضوعية وخارجة عن مناط التقوى وحدها، التي اعتمدها النموذج الراشدي. منها :

أ. ضبط مواصفات الحاكم بحيث لا تتم البيعة إلا بها.

ب. ضرورة الترشيح للقبول (الانتخاب)، وتتم بدعوة المرشح إلى نفسه.

ت. المراقبة الشرعية (الدستورية)، وتتم في وجوب عزل الحاكم بل حتى الخروج عليه بالسيف، إذا ما أخل بشروط بيعته.

ث. خضوع الحاكم الملزم للشورى.

ج. العدل الاقتصادي في توزيع المال والثروة كي لا تتكون دولة قلة مترفة بين سواد بنيس مدقع الفقر.

وهكذا تلافت بعض الإفرازات التي تمخضت عن التجربة السياسية الأولى، بنواة تأسيسية، كلبنة أولية لتأسيس صرح مؤسساتي أوسع أو أنجع في استمرارية الحكم دون مغاصات الانفلاتات المتجذرة في المنطقة نحو الاستبداد والطغيان في الحكم. فهي لم تضد ف القداسة العمياء والمطلقة على الإمام المستور! أو الحاضر المتبرك بطلعته!، أو المقبور المقدس الرميم المستشفى بالتمسح بضريحه أو تربته شركا لله بها وبه!، أو الغائب الشبح في الهاهنا والهنالك، المنتظر الرجعة!، كما ستفعل كل فرق الشيعة اللاحقة، بتأثير من الموروث الوثني للمنطقة بنمطية ورتابة مضحكتين! ومملتين في آن. ولا قبلت بمداهنة حكام السوء والجور كواقع مفروض اتقاء فتنة أكبر!، كما قبل بذلك عن رضى أو عن مضض[1]، بعض العلماء من باب التقوى! أو بعضهم الآخر، من باب المهادنة لهم ونيل الحظوة عندهم! بشراء دنياهم بآخرتهم!. بل مكنت للمعارضة السياسية أن تتفطن مبكرا لبواطن الانحراف في مؤسسة الحكم وتهديد رئيسها بالخروج عليه، حتى وهم يعتبرون أن طاعته من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي من طاعة الله في المنشط والمكره!. إلا أن هذا ليس يعني عندهم تخويل شيك على بياض للحاكم، ليسهى عما وظف له أو ليسيء استعمال صلاحياته خارج الشرعية الدينية التي بموجبها وظ ف، ثم المرجعية المدنية للجماعة التي نصبته في هذا المنصب بالأساس!. فمرجعيتهم كجماعة وكحراس للنظرية فوق مرجعيته بالنص والعقل والعرف في كل الأحوال وبكل المقاييس، صلحوا أم فسدوا!. ولا يمكنه البتة القفز فوق رؤوسهم وإجماعهم تحت أي ظرف من الظروف، ولا متذرعا بأية ذريعة ممكنة، ولا مخترعا لأية دعوى شرعية أو لا شرعية!، ولا متدثرا تحت أي مسمى ولا متخفيا وراء

فهي (1/ 64) ^{8} ، أي (1/64) = (0,015625) مضروبا في نفسه ثمان مرات = 5 x (10) $^{-15}$ وهي قرشية ! متدنية جدا! لا تصل إلى 5 من الفمتوات !.

والفمتو (femto) = 0,000.000.000.000.001 ولقياسها حتى إلى ذلك الجيل الثامن فإنا نحتاج ولا شك إلى ميزان نووي!. أما إلى عصرنا، مع نهاية القرن العشرين، وبعد مرور 930 سنة وتعاقب 37 جيلا بعد سنة 488 هجرية، إضافة إلى الثمانية أجيال بعد إدريس الثاني، فلك أن تضرب القيمة السابقة ((0,015625) في نفسها 45 مرة (الممثلة ل 45 جيلا) لتحصل على جزء مفرد مسبوق بحوالي 70 صفرا بعد الفاصلة! كاحتمال لما يمكن أن يرثه أحدنا اليوم من هذه " السمة القرشية "!؟!؟!؟. فإذا أخذت في الاعتبار إمكان زيجتهم خارج البربر، وهذا حصل فعلا، فالنسبة تقل وتنقرض كسمة وراثية ظاهرة أو متنحية بعد أجيال قليلة جدا! وناهيك أن يتفاضل أحد المغاربة بهذه النسبة من الشرف القرشي البيولوجي الذي لا يمكن قياسه، على باقي المغاربة أو باقي البشر!. هذا ما يقوله علم الوراثة لو كانت القرشية سمة بيولوجية تورث! وفي أمثل الظروف!. أنظر : بول أموس مودي:" علم وراثة الإنسان " في كتاب : (Moody,P., A.,1967: Genetics of Man. W.W. Norton & Company Inc., pp. 392, New York.).

فما معنى " القرشية " إذا في تلك الأخبار الملفقة التي مرت علينا والتي نسبت لمن لا ينطق عن الهوى، المبتعث رحمة للعالمين كافة واكتشفنا تهافتها متنا وعلما وسندا ؟. لا حظ أن هذا المثل يصح حتى بالنسبة للغة. فلو عاش إدريس الأول وتربى إدريس الثاني في كنفه وكنف أمه وافترضنا أنه تعلم العربية من أبيه والبربرية من أمه لكان إرث أبنائه من العربية لو عاشوا فقط بين أخوالهم البربر وتزاوجوا منهم يتلاشى متدرجا نحو العدم. ولانتظرنا أن ينمحي قاموسهم العربي تماما بعد أقل من ثلاثة أجيال على الأكثر لو ترك كل جيل لحاله دون تدخل من الآباء كما حصل للمهاجرين الأفارقة وغيرهم في أمريكا حيث نسوا حتى جذورهم وذاكرتهم وليس لهجاتهم فحسب.

أي قناع!. فإن كانوا صالحين فلن يُرنسوا عليهم بالانتخاب والشورى سوى صالح مثلهم ربما قابلاً للانحراف!، كما حصل فعلاً وتكرر نموذجه بالتجربة والتاريخ. ثم هم إن فسدوا!، فلن يوصلوا لسدة الحكم سوى فاسد مثلهم، على مقاسهم وعلى شاكلتهم ولا يستحقون سواه حتى ينصاعوا له، وربما قابلاً للاستقامة! بدوره، كما حصل في التاريخ أيضاً تحت محك التجربة ذاتها. وفي كلتا الحالتين يتحملون مسؤولية خياراتهم من باب تحصيل الحاصل.

المؤسف حقا هو أن هذه المثالية في التوصيف، لم تحَصن مؤسساتياً (وإن ضبطت تشريعياً) بما فيه كفاية، لمنع الانحرافات والانفلاتات! في الهيكل السياسي ككل، وليس فقط في شخص رئيس الدولة، الذي يقول قانون الاحتمال الإحصائي، الذي لا يرد قضاؤه :

أن نصف من سوف يشغلون هذا المنصب سينحرفون لا محالة، حتى بدون تدخل من أحد، على المدى المتوسط والبعيد قدراً مقدوراً ونصيباً مفروضاً[2] !

[1] كما نقل من فعل الحسن البصري (ت: 110 هـ) في عدم خروجه مع القراء في ثورة ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف الثقفي أيام الأمويين، أو صبر الإمام أحمد بن حنبل (ت: 241 هـ) في محنة خلق القرآن أيام العباسيين، وعدم خروجه على المأمون ولا على المعتصم ولا على الواثق رغم أذيتهم له ولغيره بالضرب بل حتى القتل!.

[2] وتجد صدق هذا القانون بالاستقراء. فبين ملوك الأمويين الثلاثة عشر القرشيين نجد مروان بن الحكم أول من شق عصا المسلمين وهو قرشي قح! من أبويه. ونجد يزيد بن معاوية المخضرم ما بين قرشية والده معاوية بن أبي سفيان وقبيلة كلب من طرف أمه ومخازيه ما هي!. ثم فيهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت: 126 هـ) وتهتكه وفسقه وعربدته ومجونه ما هو! حتى اشتهر بكونه : " خليع بني مروان ". يمكن عدّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فيهم فلتة في ظل هذا الحكم الملكي العضوض!. بل وصوله إلى الحكم يعتبر من الصدف وليس مما هو مقرر لديهم في كيفية تسلم الملك. لذلك هو استثناء خارج النظام العضوض وليس ضمنه. وإن تتبعنا الملك الكِسروي العباسي ب 39 ملكاً عاصمة ملكهم بغداد بدءا بأبي العباس السفاح سنة 132 هـ إلى آخرهم المستعصم بالله! أبي أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر لأمر الله محمد بن الناصر لدين الله العباسي سنة 656 هـ، الذي قضى هو وابنه رفساً تحت خيل هولاكو التتري، حتى لم يجد من يعنى بدفنه من هول قاصمة التتر التي دمرت بغداد تدميراً يكاد يوازي ما تقوم به قنبلة نووية في عصرنا الحاضر، فإنا نجد الماجنين والمتهتكين هم قوام هذه الدولة!، رغم ما أضيف لهم من ألقاب رنانة وطنانة لها صبغة الدين!. ونفس القانون يسري على دولة ملكهم الثانية في مصر بملوكهم الستة عشر بدأ بالمستنصر بالله أحمد بن الظاهر لأمر الله محمد بن الناصر لدين الله سنة 659 هـ، بعد توقف ملكهم لثلاث سنوات إلى آخرهم محمد (المتوكل على الله الثالث) بن يعقوب (المستمسك بالله) بن عبد العزيز (المتوكل على الله الثاني) بن يعقوب (870 ~ 950 هـ) على منوال ذات القانون الإحصائي الذي خضع له أسلافهم في عهدهم الأول!. وهؤلاء جميعاً كانوا مولدين أبناء السرايا من كل الأمم وما كان ل " سمة القرشية " البيولوجية الوراثية! إن وجدت أن تعمل فيهم بعد 50 جيلاً من الأعقاب سوى في عالم الخيال! إذ نصيب آخرهم من هذا الإرث لو وجد! لا يصل إلى جزء واحدة من عدد صحيح متبوع بأكثر من ثمانين صفراً. أي حوالي ذرة واحدة من كل ذرات الكون!؟!. إلا أن هذا القانون الإحصائي لا يعمل سوى إذا ما ترك يشتغل بالصدفة دون تدخل خارجي يوجه الأمور قسراً وجهة ما!. وهذا لم يتحقق في الدولة العباسية، حيث وجِّه ملوكها المتأخرين تماما نحو الأسوأ المطلق، بتدخل المتغلبين العسكريين من سلاجقة وبويهيين ومماليك في اختيار الأتعس لتنصيبه ملكاً، منذ أن قتل المنتصر أباه المتوكل على الله جعفر بن المعتصم في مجلس لهوه لانهماكه في اللذات والمكاره والتبذير سنة 247 هـ، ثم ليقتله الأتراك سما بدوره ستة أشهر بعد ذلك ولتطلق يد العسكر يعبثون بالملك والدولة كما يشاءون! إلى نهايته الأولى على يد هولاكو ثم نهايته الثانية على يد العثمانيين. ففساد ملك بني العباس بعد ذلك صار صفة لازمة لملكهم. وسنجد القانون يعمل بذات النجاعة مع العثمانيين وملوكهم التسعة والعشرين بدأ بسليم الأول العثماني الذي تسلم " الخلافة! " بتنازل " الخليفة! " العباسي المتوكل على الله سنة 923 هـ/1517 م الصوري. لم يحتج سليم إلى ذرة من ذرات القرشية تسري في دمه ليتجرأ على منصب لادعيت له هذه السمة! وهي منه براء وإنما الغلبة كانت هي التي تضفي الشرعية أو تزيلها. وهنا نجد الأتراك مضطلعين بالمهمة التي لا يستطيع القيام بها أحد سواهم في تلك الفترة التاريخية الحرجة. فهم كانوا أصحاب مشروع على قدر حنكتهم العسكرية الموروثة لا غير، ومثلوا دورهم في الحكم حسب ذات القانون بنجاح وفعالية أكبر مما اضطلعت به الدولة العباسية صاحبة الدعوى العريضة في قرشية الحكم. فالدولة العثمانية أنتجت محمد الثاني الفاتح، فاتح القسطنطينية في ربيع عام 857 هـ/1453 م وفاتح " صربيا " و " البوسنة " و " ألبانيا " وأخرجت سليمان القانوني الذي استطاع أن يتغلب على أوروبا مجتمعة في كل الميادين عسكريا وإداريا وسياسياً وعلمياً. كما تغلب أسطوله على كل البحار من الأبيض المتوسط مروراً بالبحر الأحمر و إلى المحيط الهادي. كما لم يخل حكمهم من مفسدين حسب السنن! لكن يشفع لهم عدم لادعاء النسب أو القرشية!. وقس على هذا دولة الأمويين الثانية بالأندلس بملوكها الستة عشر بدءا بعبد الرحمن بن معاوية الداخل (ت: 172 هـ) الملقب : " صقر قريش " إلى هشام (الثالث) بن محمد بن عبد الملك : المعتد بالله (364 ~ 428 هـ/1036 م) آخرهم. بينما نجد أن لا القرشية بل ولا دعوى الانتساب إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم وقفت حاجزاً دون ضلال كل الأئمة الإسماعيلية الأربعة عشر بدءا بعبيد الله المهدي! (الضال) إلى العاضد الذين لادعوا في أنفسهم ما لم يجرؤ إبليس أن يدعيه لنفسه!. وكيف نفسر كذلك قيام محمد الملقب بالمليط وعلي ابني الحسين، بن جعفر، بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، عندما قاما في المدينة سنة 271 هـ وقتلا أهلها وأخذا أموالهم وخربا المدينة حتى لم يصلَّ في المسجد النبوي شهراً كاملاً، لا جمعة ولا جماعة!!؟؟. وقتل محمد بن الحسين المليط هذا 13 رجلاً من ولد جعفر بن أبي طالب صبراً، دون اعتبار للقرابة أو لغيرها من أواصر!؟. وهنا نقف أمام محك نظري صعب ولنا أن نختار بين خيارين كلاهما مر!. فإن كانوا فعلاً من آل البيت، فلم تعصمهم بَيْتِيَتُهُمْ من الشرك الأكبر!. وإن قلنا بأنهم منتحلون لهذا الشرف كما

اتهمهم غير واحد (أنظر: ابن حزم الأندلسي في جمهرة أنساب العرب . 59 و 60 و 61 ، بخصوص انتساب عبيد الله المهدي!. ط. دار الكتب العلمية، 1402 هـ/1983 م، ط. أولى، بيروت.) فقد مثلوا الأتعس إن في السياسة أم في الدين. بل ونجد ذات القوانين تعمل في عقب الدولة الإدريسية. فنسبة ما ورث كل من أبناء إدريس الثاني من سمة موروث " القرشية " أو " السلالية النبوية " من والدهم إدريس الثاني وهي (64 /1) = (0,015625) أي حوالي 17 جزء في الألف لم تمنع خروج عيسى بن إدريس على أخيه محمد بن إدريس ونبذ طاعته والدعوة لنفسه!. ولا منعت أخاهم القاسم عامل محمد على طنجة من عصيان أمره وعدم الامتثال عندما طلب منه ردع أخيهم عيسى عما بدا له حين دعاه إلى درء خطره. مما جعل محمد يوجه عامله على تكساس أخاه عمر للقيام بتلك المهمة. فقام بها خير قيام بالنسبة لعيسى ثم عاود الكرة على القاسم لعصيانه وأزاحهما معاً! واستولى على ما بأيديهما. كما لم تمنع نسبة ما ورث من قرشية أو نسب شريف يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس المثنى من الجيل الثالث لإدريس الثاني وهي $(64 /1)^3$ = ~ 0,0001 أي جزء من عشرة آلاف جزء من النسب من ولوج المحارم ودخوله على جارية يهودية في الحمام العام ليراودها عن نفسها !...الخ. أنظر: كتاب الاستقصا للناصري (1 : 173 و 178). فإن انتقلنا إلى الدولة السعدية بالمغرب الأقصى التي تسلك نسبها إلى محمد النفس الزكية، فإنا نلاحظ قانون المناصفة يعمل عمله بجلاء، على التنميط الخلدوني. فنجد الفرق شاسعا بين أخلاقيات مؤسسي الدولة وأخلاق الجيل الثاني ثم الثالث منهم بانحدارهم دائماً نحو الأسوأ. فلا يهمنا هنا الطعن في نسبهم كما فعل منافسوهم السياسيين، لأننا نعلم أن ما ورثوه من ذلك النسب، إن كان يورث منه شيء لا يساوي ذرة!. فهذا ولي عهد المنصور السعدي محمد الشيخ الملقب بالمأمون! يقول عنه اليفرني : { وكان فسيقاً خبيث الطوية، مولعاً بالعبث بالصبيان (عمل قوم لوط)، مدمناً للخمر، سفاكاً للدماء، غير مكترث لأمور الدين من الصلاة وشرائطها }. إلى أن اضطر أباه أحمد المنصور (ت: 1016 هـ) إلى مقاتلته ثم تنحيته من ولاية العهد وسجنه. أنظر الناصري في الاستقصا (5 : 168). ثم ما كان من اقتتال أبنائه من بعده وسفكهم للدماء دون موجب كقتل عبد الله بن الشيخ بن أحمد المنصور لعمه أبي الفوارس خنقاً! (الاستقصا (6 : 17). أما عن ابن المنصور الآخر المسمى الشيخ فقال صاحب الاستقصا (6 : 22) : { ولم يزل الشيخ (ت: 1022 هـ) يجول في بلاد الفحص ويعسف أهلها إلى أن ملته القلوب وتمالأ أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته، وتمليكه ثغر الإسلام للكفار (كان اتفق مع الإسبان على تسليمهم مدينة العرائش المغربية غيلة! ووفى لهم بذلك! بالغدر بأهل البلدة كلها!. بينما لم تعتل أسرته سدة حكم المغرب سوى بدعوى محاربة الكفار والجهاد!)، ففتك به المقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس وبقي صريعا مكشوف العورة أياماً..}. أما حفيد المنصور من ابنه الشيخ فسار سيرة والده في الفسق والمجون حتى قال فيه الناصري (6 : 59) : { ولم يزل عبد الله (بن الشيخ) في محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين وألف إلى أن توفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف بسبب مرض اعتراه من إسرافه في الخمر وإدمانه عليه وكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ويتعاطاه سرا وجهاراً!} وكذلك ما أن بويع لأبي مروان عبد الملك بن زيدان بن أحمد المنصور حتى ثار عليه أخواه : أحمد والوليد فتغلب عليهما ثم عدا على ابن عمه محمد بن الشيخ وقتله غدراً! (الناصري (6 : 72 ~ 73)). وعبد الملك هذا قال الناصري فيه (6 : 77) نقلاً عن اليفرني : { كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة، مطموس البصيرة وبلغ من قلة ديانته أن تزايد له مولود فاظهر أنه أراد أن يحتفل لسابعه فبعث إلى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه أن يحضرن، وصعد هو إلى منارة في داره، فنظر إلى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن، فأيتهن أعجبته بعث إليها!. وكان مدمنا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج وهو سكران يوم الأحد سادس عشر شعبان سنة اربعين وألف }. أما أخ هذا الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور فقال الناصري (6 : 82) فيه : { كان الوليد بن يزيد متظاهرا! بالديانة، لين الجانب، حتى رضيه الخاصة والعامة، وكان مولعاً بالسماع (الموسيقى والغناء) لا ينفك عنه ليلاً ولا نهاراً. إلا أنه كان يقتل " الأشراف!؟!؟ " من إخوته وبني عمه حتى أفنى أكثرهم، وكان مع ذلك محبا في العلماء مائلاً إليهم بكليته متواضعا لهم!. }.

قلت : لو كانت جرثومة الشرف النبوي تورث بيولوجياً، لجزمنا أن هؤلاء ليسوا شرفاء بحال! لأن هذه التصرفات الشنيعة لا ننتظر صدورها من أسوياء الناس وإنما من أسافلهم وجفاتهم المجرمين وحاشا أن تلتصق بالنبي ذرية كهذه. بل ولا سلكناهم بإجرامهم هذا حتى في أفناء الناس العاديين فما بالك وهم بهذا الإجرام وهذا الفسق وهذه الجرأة على الأعراض المحارم والدماء ؟. ثم لو كانت هذه الجرثومة الموروثة أو المتوارثة فاعلة ومميزة لسايرنا من طعن في نسبهم بأن نسبهم في قبيلة سعد بن بكر بن هوازن!، وهذا أساس من نسبهم في السعديين التي شاعت على دولتهم!، إلا أن هذا لا يقدم ولا يؤخر فيما نحن بصدده.

فما دامت النبوة لا تورث، وما دامت الإمامة لا تورث بنص القرآن في الآية 124 من سورة البقرة ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي! قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾، فنجزم أن هؤلاء حتى لو انحدروا فعلاً من صلب الرسول صلى الله عليه وسلم وبالتالي من إبراهيم عليه السلام، فسيرتهم تسلكهم في عداد الظالمين بنص القرآن والعياذ بالله. ثم لو كانت الأبوة أو البنوة تنفع عند الله لنفعت أب إبراهيم أو ابن نوح أو حتى أبا لهب الذي قال عنه القرآن في سور المسد، الآية 3 ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ ما دام هو أيضاً من حفدة نوح وحفدة آدم! عليهما السلام كالرسول تماماً من هذه الحيثية. إذاً هناك قدر زائد على الدم أو أي موروث بيولوجي حقيقي أو متخيل في استحقاق الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا القدر لا بد وأن يكون قطعي الصدور ومجمع عليه بالنص والتنصيص إما من قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو سنة ثابتة وراسخة رسوخ الجبل. فباستعراض نصوص القرآن نجد في سورة مريم، الآية 58 :

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليه آياتنا خروا سجداً وبُكِيا ﴾

وكل الناس من ذرية آدم ولم ينعم الله بالنبوة فيهم إلا لمن اختار منهم واصطفى وارتضى في الأزل. ومن ذرية نوح لم يكن ابنه أحد المنعم عليهم بنص القرآن ثم كان هود وشعيب وصالح وإبراهيم ولوط من بين أهل النعمة دون سواهم من إخوتهم أو عشيرتهم بالنسب والدم. ثم في ذرية إبراهيم من خلال إسماعيل وإسحاق. ثم سلسلها الله تعالى في إسحاق ثم ابنه يعقوب ثم ابنه يوسف ثم بعد ذلك في موسى وأخيه هارون، ثم في داود وابنه سليمان..الخ. إلى زكريا وابنه يحيى ومريم ابنة عمران وابنها عيسى، زيادة على غيرهم ممن اجتبى واصطفى

ومرد هذا الفشل بالأساس، وحتى نتلافى إسقط مفاهيمنا على عصرهم، يرجع في أكثره إلى بينتهم، التي لم تألف هذا النوع من الحكم الشوري! ولا كانت قادرة على الامتثال له، أو الخضوع لتبعاته. ثم إلى بنية مجتمعهم القبلي النزعة في مسلكه ومشوبه كلـه!. وكما حصل مع التجربة الإباضية، لم يستطع المنظرون المثاليون تسييج الحكم مؤسساتيا بما يمنع تسرب الخلل والانحراف إليه بالنظر إلى التقوى وحدها كمعيار لاختيار الحاكم!. فمن خلال تجربتين لتفعيل النموذج الشوري في اليمن نجده يفشل لذات الأسباب الموضوعية التي انتقدت على الخليفة الصالح عثمان رضي الله عنه بدعوى عدم صلاحيته للخلافة، بسبب توليته لبعض قرابته : ابن أبي سرح وابن عامر..إلخ[1]، بينما لم يجد علي رضي الله عنه بدا من تولية بعض أقاربه لصلاحيتهم لذلك!،كتوليته لعبد الله بن عباس على البصرة، وقثم بن عباس على مكة، وعبيد الله بن العباس على اليمن، ومحمد بن أبي بكر، ربيب علي، على مصر.

فنجد هذا المفارقة واضحة كل الوضوح في مسار الدولة الهادوية، التي بدأت بالهادي ثائرا على نمط الحكم العباسي الكسروي، بالغة أوجها في عهد الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن أحمد (الإمام المهدي!) بن يحيى الحسني، الإمام المتوكل على الله (877 ~ 965 هـ)، لتنتهي التجربة بالانحراف على يد أبنائه!. ثم المحاولة التصحيحية الثانية التي قام بها المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي (967 ~ 1029 هـ)، الذي استطاع الانتصار على العثمانيين وتوحيد اليمن لينعم باستقرار سياسي لمدة قرن من الزمان، إلا ليتم إجهاض المؤسسة على يد أبناء الإمام المتوكل على الله إسماعيل حين عين أبناءه في إدارة الحكم!.

هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها كافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، قل لا أسألكم عليه أجرا، إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾

ثم جاء القرآن بعد تفصيل هذه القدوة وهذه الأسوة بالمعيار الوحيد للخلاص وهو الصلاح والتقوى كما في سورة الرعد، الآية 23 :

﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾

وفي سورة الفرقان، الآية 74 :

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما. أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما. خالدين فيها حسنت مستقرا وسلاما. قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم؟ فقد كذبتم! فسوف يكون لزاما ﴾.

فمن خلال منطوق هذه الآيات وتنزيلها على المنتسبين أو المدعين الانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرتهم الإجرامية ما علمت، تعلم يقينا أن هؤلاء الأشقياء! حتى لو صح نسبهم بالدم والوراثة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لدخلوا والعياذ بالله بجهلهم في عداد الظالمين الذين توعدهم الله بالعذاب الشديد المقيم. وإلا فما الفرق بين انتسابهم للرسول صلى الله عليه وسلم دون التأسي بما جاء به وانتساب ابن نوح ودخوله النار لمعصية أمر واحد من أوامر أبيه : وهو الركوب معه في السفينة، ودخول آزر أب إبراهيم النار لمعصية أمر ابنه الذي جاءه من ربه؟. إنما زين الشيطان لهؤلاء فغرهم بالله الغرور، ثم جاء شياطين الإنس فزادوهم غرورا في غرور كما نجد عن الضال المضل المشهود الكفر ابن عربي الحاتمي في كتابه " الفتوحات المكية "، الباب التاسع والعشرين حيث نجده يقول من عندياته على ما اعتاد من تخريفاته :

{ ولا يظهر هذا الشرف لآل البيت، إلا في الدار الآخرة!، لأنهم يحشرون مغفورا لهم!؟!؟. وأما في الدنيا، فإن من ارتكب منهم جنحا، يقام عليه الحد مضاعفا!؟!؟ لخروجه عن حدود الله. على أن مسامحته في الصغائر، أمر مستحسن!؟!؟ لوجه الله!؟! ورسوله!؟!؟. } .

قلت : فهذا الدجال ضاهى قول بني إسرائيل، وهم من آل بيت يعقوب الذي هو من آل بيت إبراهيم، الذي هو من آل بيت نوح، الذي هو من آل بيت آدم، في أنفسهم التي أنكرها عليهم القرآن أشد الإنكار كما في سورة البقرة، الآية 80 :

﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة. قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده، أم تقولون على الله ما لا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

فأين هذا الوعيد من تخريفات هذا المخرف التي لايسندها شرع ولا برهان؟ ثم كيف ينج من سردنا لك قبسا من سيرته الإجرامية بعد هذا الوعيد الشديد؟. ويزين للغفل من الدين في التعلق بهذا الممسك الواهي جهلة بالدين ممن يكتبون في الأنساب فيوردون أحاديث ضعيفة أو موضوعة لا يعلمون من أمرها شيئا يستشهدون بها على ترهات ما أنزل الله بها من سلطان. أنظر مثلا ما كتبه المغربي أحمد الشباني الإدريسي في " مصابيح البشرية في أبناء خير البرية "، طبعة دار النجاح بالدار البيضاء، 1408 هـ/ 1987 م. في متصوفته وأقطابه! وعارفيه بذباتحهم وزياراتهم وطوافهم والاستغاثة بهم والتقرب إلى الله بهم، يعدون في عرف صاحب الرسالة من المشركين بالله الشرك البواح ، بينما هم عنده وعند أمثاله ممن يجهلون بالتوحيد، الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم، يرفعونهم إلى مراتب الأولياء!؟ ويتحدث عن طقوس زيارة قبورهم بمناسك تشبه مناسك الحج!. أنظر ذلك ص. 123 ، 141 و 190 على سبيل المثال لا الحصر.

[1] في هذا الصدد يقول المجتهد الزيدي صالح بن مهدي بن علي المقبلي الكوكباني اليمني (1047 هـ/1637 م ~ 1108 هـ/1696 م) في كتاب " الأبحاث المسددة في فنون متعددة"، نشر دار الفكر سوريا، بعناية القاضي عبد الرحمن الأرياني، ط. أولى 1403 هـ/1982 م، ص. 523 : { وقد اقتدى الناس بعثمان في إيثار أقربائهم إلى يومنا هذا. وهل أوضح مما شاهدت من تولية الإمام المتوكل على الله أولاده. مات وقد وطدهم جهات اليمن وكلهم غير صالح إلا واحدا!} والواحد هذا كان هو الإمام المؤيد الصغير، محمد بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل .

وقد لخص نمط هذا المفارقة بين النظرية والتطبيق لدى الزيدية أحد المعاصرين[1] على شكل خطة تبدأ ب "الإمامة المثالية النظرية"، ثم تتطور بطروء الاهتراء والتصدع عليها إما بالتهجين أو الغفلة أو بتقادم العهد، أو بتسلط صبيان النظرية على الحكم وملابستهم شينا فشينا بأبهة الملك ودثار الترف، ليصبح الحكم على شكل مخضرم يجمع ما بين شبح الإمامة! وغولية الملك! سماه تهكما! : "ملك مام"، بدون حرف (إ)، لتنتهي سيرورة النمط إلى محطته الأخيرة على شكل "ملك" مبتذل مترهل مفضوح! (الملك العضوض : غول! المرجعية الإمامية)، ثم الفوضى السياسية لاحقا كمازق وخلاص!. هذا الخطأ الصيروري المميت، سيقع فيه ببلادة نمطية! وكأنها قدر مقدور، آخر "الملوك ~ المامية " الزيدية : يحيى بن محمد بن يحيى، حميد الدين الحسني (1268 هـ/1869 م ~ 1368 هـ/1949 م)، ملك! اليمن، المام! : المتوكل على الله!؟!؟، ابن المنصور بالله في القرن العشرين، عندما أبطل " الإمامة " بإعلانه سنة 1342 هـ/1923 م ل " المملكة المتوكلية اليمنية! " بدلا من " دولة اليمن الإسلامية " كما كانت تسمى!، بضغط من الداخل ومحاكاة للأجنبي، بل تحت ضغوطه!، لعدم مسايرة مستجدات العصر أولا، ثم بإهمال سنن التدافع بعزل أنفسهم عما يجري في العالم وحولهم، ثم قلة عنايتهم بالتمكين المادي، ثم أخيرا عدم حمل دعوة النموذج إلى الخارج وحصرها في بلد فقير الموارد، صعب المسالك، زراعي البيئة وقبلي النزعة كاليمن السعيد بقاته! في هذه الفترة المتأخرة المترهلة من تاريخ اليمن الإمامي.

هذه العوامل مجتمعة، أدت إلى ثورة الإصلاحيين الدستوريين سنة 1368 هـ/1948 الذين دفعوا أرواحهم ثمنا لها. وبفشل الثورة الدستورية، أطل من جديد غول الملكية العضوض من تحت درج منبر المام الذي فقد ألفه القدوة متحولا إلى قاطرة مامية : لعروش الملوك المفسدين، خارج المرجعية الإمامية، المبشرة بالنهاية الحتمية الحتوف التي لا مفر منها، وإن إلى حين!، والتي تظهر عوارضها بشكل مفضوح بانقلاب المام ضدا على الثوابت وعلى شعبه ليقع بين سندان الضغط الأجنبي المتربص به وببلده ومطرقة تذمر الشعب الذي لم يعد في مقدوره لا حل مشاكله ولا القدرة على التصدي لأطماع الأجنبي : رهينة سياسية فقدت أدوات سياستها وحالة نمطية تتكرر باستمرار وإلى اليوم في غير ما بقعة من العالم!.

تلك النهاية لم تتأخر استحقاقاتها طويلا!، إذ جاءت في أوانها، وكأنها على موعد مقطوع في الأزل سنة 1962م على يد أغيلمة ثورية، خرب إدمان القات المخدر مسارب خلاياها العصبية، ودمرت الأطروحات الثورية المستوردة، التي لا يفقهون من بنيتها حرفا، البقية الباقية من وعيها الاعتباري في ورشات التجهيل المطبق بداخل جامعات كل من القاهرة الناصرية أو موسكو البولشفية أو دمشق البعثانية المتفننة كلها في السفسطة والتيه الإيديولوجي الشرقي الذي لا يحلم سوى بالسراب، ولا يبدع سوى في الخراب، ولا يبشر سوى بالفشل المأزوم المتكرر، ولا يحمل بداخل جعبته من أمل لأجياله المقبلة، سوى الانتحار المرجعي! والجماعي!. وهو قريب من التنميط الخلدوني العام لنشوء الدول وذهابها[2]، وأنها لا تستمر لأكثر من أربعة أجيال في أحسن أحوالها. أي أن الحكم في التنظير المنتسب للإسلام، إشكالية بنيوية لنمطية التنظير السياسي الذي لم يستطع الخروج من أسر الموروث والعرف التاريخي، بتطوير آليات جديدة للحكم مؤسسة على الأصول الشرعية وضوابطها، لكن متنزلة دون مواربة على مستجدات العصر ومتطلباته، والمتفتحة على المستقبل وتحدياته، والقادرة وحدها بديناميتها الذاتية المؤطرة بالنص الشرعي على إخراجه من دوامة عنف الخروج الأزلي على حاكم الجور، الذي يتولد تلقائيا كابن لقيط! ولكن شرعي! من داخل النموذج ذاته بعد جيل أو جيلين!.

في خانات الإيجابيات الأخرى للحزب الزيدي كما لدى الإباضية، نجد أنه لم تظهر فيهما لا خرافات المتصوفة[3] ولا شطحات المتفلسفة، وهي موروثات للمنطقة خارج المنظومة الإسلامية التي جاءت أصلا لاجتثاثها من العقول

[1] زيد بن علي الوزير : "محاولة في تصحيح المسار"، مركز التراث والبحوث اليمني، ط. أولى 1412 هـ/1992 م، ريتشموند، بريطانيا.

[2] أنظر: مقدمة ابن خلدون حيث خصص لهذا الموضوع فصلا حمل عنوان : " في انقلاب الخلافة إلى ملك" ص. 223 ، دار الجيل، بيروت. بدون تاريخ.

[3] بل نجد حتى أواخر منتصف القرن الثاني الهجري أن جعفر الصادق سئل عن حال أبي هاشم الكوفي الصوفي؟ فقال : إنه فاسد العقيدة جدا، وهو الذي ابتدع مذهبا يقال له " التصوف " وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة!. أنظر : أبا الحسن، علي بن الحسين : ابن بابويه القمي في كتاب : "الإمامة والتبصرة من الحيرة "، ص. 88.

والأفئدة اجتثاثا بنجاحات أو إخفاقات متفاوتة، هي اليوم في ذمة التاريخ. وهذا خلاف ما سنجد عند الموسوية والإسماعيلية المتأخرة[1]، المتمثلة لهذا الدخيل والمُشْرَبَة به شُرب هيم وإدمان وموروث، لاختلاف بيئات المنشأ والتمكين السياسي عندهم، وإن لم يسلموا جميعاً من التأثير الوثني لتبنيهم لأطروحات الاعتزال المتأثر ببعض مقولات الفكر الأرسطي كما سوف نجد ذلك لا حقا في المؤلفات الكلامية للإمام يحيى بن حمزة[2]. أو كما عند أبي عمار، عبد الكافي الإباضي في كتاب : " الموجز ".

ثم إنهم ظلوا على وفاق ووصال مع التيار السني الراشدي العام على مجرى التاريخ، وهي شهادة أخرى لصالحهم، على خلاف حزبي الإسماعيلية والموسوية (الإحدى عشرية) الذين أحدثا قطيعة مرجعية مع هذا التيار ووقعا في صدام متكرر معه!. يكفي أن نعلم أن مالكا وأبا حنيفة والشافعي وهم من أبرز ممثلي التسنن الراشدي، أوذوا على التوالي، بسبب نصرتهم لبعض رموز الزيدية، وعدوا أنفسهم منهم، (الذين خرجوا على بني أمية وعاصروهم)، كمالك وفتواه الشهيرة في "بيعة المكره " تأييدا لمحمد بن عبد الله : النفس الزكية (ت: 145 هـ)، وأبا حنيفة ونصرته لإبراهيم بن عبد الله (ت: 145 هـ)، أخ النفس الزكية بالدعم المالي والسياسي، والشافعي وبيعته ليحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ت: 193 هـ)[3].

ثم هم أخراجوا مجتهدين خارج المذهب، كابن الوزير : محمد بن إبراهيم (ت : 840 هـ) وصالح بن مهدي المقبلي (ت : 1108 هـ) ومحمد بن إسماعيل الكحلاني، الأمير الصنعاني (ت : 1182 هـ) ومحمد بن علي الشوكاني (ت: 1250 هـ) وغيرهم..،

بينما الإحدى عشرية كانت ولا زالت وستظل، ما لم تتخلص من خرافتها المؤسسة على أسطورة مهديها المنتظر!، مصادمة للسنة الرشدية كل المصادمة!. ثم حتى وهي تحاول مثلا، (بعد أن أطل العلم الحديث، ومنذ القرن التاسع عشر، وبدأ يعري كل الخرافات الأسطورية عند الأمم)، مقاربة للتقريب!. فهي لم تبدأ تتحسس ضرورة وجود هذا التقارب إلا مع مطلع القرن العشرين وبتعثر ظاهر!. الفشل أعزوه أنا لعدم سلامة النية والمقصد أولا، وثانيا لقصر النظر وكثافة وثقل الموروث وخرابية التكتيك، وثالثا لأنه ظل فوقيا ورسميا ودردشيا دون إثمار يذكر إلى اليوم[4]!. إلا أنهم وباقي الأحزاب الإسلامية التي طورت نظريات للحكم في الإسلام، ظلوا محكومين بأفق العدل الفردي المشخصن

[1] على خلاف ما كان عليه الأمر أيام الصادق رضي الله عنه، حيث نجد رواية يوردها علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت: 329 هـ) في كتابه : " قرب الإسناد " في باب : " أحوال الصادق " فقال : { عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن عبد الجبار، عن الإمام الحسن العسكري (ع) أنه قال : سئل ابو عبد الله جعفر بن محمد(الصادق) عليه السلام، عن حال أبي هاشم الكوفي الصوفي؟ فقال : إنه فاسد العقيدة جدا، وهو الذي ابتدع مذهبا يقال له " التصوف " وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة } أنظر : أحمد بن محمد الأردبيلي (ت: 993 هـ) في كتاب : " حديقة الشيعة " ص. 578 ، طبعة انتشارات كلي، طهران لسنة 1394 هـ/1974 م.

[2] يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن محمد بن إدريس بن علي بن جعفر الحسيني (669 هـ/1270 م ~ 749 هـ/1344 م). أظهر دعوته بعد وفاة المهدي : محمد بن المطهر بن يحيى المرتضى، من سلالة الهادي إلى الحق (ت: 728 هـ/1328 م). تولى إمامة الزيدية باليمن للفترة (729 ~ 749 هـ) . ووصفه الشوكاني في " البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع: الشخصية رقم 576 بأنه : { من أكابر الزيدية في الديار اليمنية، وله ميل إلى الإنصاف مع طهارة لسانه وسلامة صدر وعدم إقدام على التكفير والتفسيق بالتأويل، ومبالغة في الحمل على السلامة على وجه حسن، كثير الذب عن الصحابة، وكان من الأئمة العادلين الزاهدين عن الظواهر في الدنيا المتقللين منها.. وبالجملة فهو ممن جمع الله له بين العلم والعمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توفي عام 749 هـ ودفن بمدينة ذمار وقبره فيها مشهور يزار }. له مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله ككتاب " الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل العلماء في المباحث الفقهية والمسائل الشرعية " في 18 مجلد والذي سوف يعتمده أحمد بن يحيى المرتضى في كتابه : "البحر الزخار"، أول مجموعة جامعة لمسائل الفقه على جميع المذاهب الإسلامية. وهذا ينبئك بتفتح الرجل وتفتح المذهب. وله كتب كذلك في الحديث والعقائد واللغة والنحو والبلاغة والزهد والمنطق والأدب وعلم الكلام والردود على المخالفين للزيدية وعلى الباطنية خاصة، من إسماعيلية وإثنى عشرية منها : " مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار" و " الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام" وكلاهما مطبوع. وفي الذب عن الصحابة في : " أطواق الحمامة في حمل الصحابة على السلامة " وهو لازال مخطوطا، و " الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين " وهو مطبوع. حارب حمزة الإسماعيلية في اليمن التي كان يرأسها علي بن إبراهيم الهمداني بالسيف والقلم معا، وهي حرب استمرت إلى ما بعد يحيى بن حمزة.

[3] بايعه كثيرون من أهل اليمن ومصر والعراقين العربي والعجمي. ومن العلماء : الشافعي وعبد ربه بن علقمة وبشر بن المعتمر وسليمان بن جرير والحسن بن صالح وغيرهم من وجهاء العلماء. أنظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (1 : 338).

[4] أنظر كتابنا : " التقليد والموروث والتقريب بين الشيعة والسنة ودعاوى الاجتهاد".

في رئيس الدولة، كما أسلفنا، وليس في تطوير المؤسسات العامة وحدها من الانزلاقات والانجرافات والانحرافات الغير شرعية، حتى مع اعترافنا أننا بهذا نسقط مفاهيم عصرنا على عصرهم، ونحملهم تبعات نموذج لم يكن مطروحا البتة بالنسبة لهم، بحكم النشأة والبيئة والتاريخ والجغرافيا!.

5-3-4- الشيعة الإسماعيلية

هذه الفرقة تقول بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق (ت: 143 هـ/760 م)، الذي توفي في حياة أبيه جعفر (80 هـ/699 م ~ 148 هـ/765 م) وكان أبكر أولاده. ويقولون إن سبب انشقاق أتباع جعفر الصادق إلى فرقتين إنما كان بسبب ما يدعيه هذا الحزب من وجود نص! على إمام الوقت، وأن جعفر نص على أن يتولى إسماعيل الإمامة من بعده، ولكن إسماعيل توفي في حياة أبيه، وبالتالي انتقلت الإمامة! إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر، لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب!، ولا تنتقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة الحسن والحسين!؟! ابني علي بن أبي طالب فقط!. أما الأئمة! بعد الحسن والحسين، فلا بد أن تنتقل من أب إلى ابن[1] !. ثم إن محمد بن إسماعيل كان أكبر من عمه موسى الكاظم، وبناءا على تقليد تخريفي شيعي متأخر، فقد أوجبوا تسلسل الإمامة في أكبر أهل البيت سنا. وعلى حسب هذا الإخراج، كان محمد بن إسماعيل أحق من عمه موسى الكاظم ب "الإمامة[2]" !. بينما نجد رواية أخرى تقول بأن جعفر الصادق لم يكن راضيا عن تصرفات ابنه إسماعيل وعزله من الإمامة قبل موت إسماعيل، لأنه كان مدمنا على الخمر ولوعا بالنساء[3] !. إلا أن أنصار إسماعيل اللاحقين أنكروا على جعفر هذا التصرف!، حسب خرافة هذا الحزب في العصمة!، لأن هذا يطعن في عصمة! جعفر! كما يطعن في عصمة! إسماعيل!، لأنه حسب خرافتهم المؤسسة هذه، فإن إسماعيل حتى لو شرب الخمر! وزنى! وفجر! وأتى بكل المنكرات! وركب مطي كل المحرمات!، ما طعن هذا في عصمته!؟. حتى تنزع منه الإمامة وتحول إلى موسى الكاظم[4] !. إذ هذا أمر محسوم أزلا عندهم حسب ذات الخرافة!.

إلا أن هناك سببا وجيها في نظرنا، نراه أقرب إلى الواقع من هذه الحكايات والأحبوكات التي يرمي بها المخالفون غرماءهم بالطعن في أخلاقياتهم[5]، وتتفق مع ما أجمع عليه علماء الأمصار بخصوص جعفر الصادق رضي الله عنه[6] وبيته وبيت عمه زيد وبيت عمومته الحسنيين الذين كان شيخهم عبد الله : "أهيب في صدر الناس من الأسد

---

[1] وهذا منطق تعيس لا غبار عليه! وحصل في أعصار متأخرة وليس في عصر الصادق رضي الله عنه.

[2] محمد حسين كامل، 1959 : طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة المصرية، ص. 12 .

[3] نفس المرجع ص. 13 .

[4] بدعوى "البداء"!؟!؟، الذي أسعف هذا الفريق في مثل هذه المآزق أو المدلهمات، الغير متوقعة والمربكة للحبكة الأسطورية.

[5] سوف تطعن الإمامية الإحدى عشرية في" باب النصيرية"، أبي شعيب محمد بن نصير البصري النمري (ت: 270 هـ) بذات الطعون. أنظر كتابنا : كيف تمت هندسة فيروس اسمه أدونيس، ص. 81 ، ط. أولى 1419 هـ/1998 م، مطبعة برودار، الرباط المغرب.

[6] الصادق مجمع على توثيقه وإمامته من طرف السنة الراشدية. أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين وأم أمه أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. ولذلك كان يقول : ولدني أبو بكر مرتين. روى الحديث عن عبيد الله بن أبي رافع كاتب جده الأعلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأبيه محمد الباقر، وعروة بن الزبير بن العوام، وعطاء بن أبي رباح، وجده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومحمد بن المنكدر، ونافع مولى عبد الله بن عمر، ومسلم بن أبي مريم. وروى عنه مشاهير علماء الأمصار : مالك بن أنس، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي، ومحمد بن إسحاق بن يسار، صاحب السيرة، وخلق كثير غير هؤلاء. ورغم وجود رواياته في صحيح مسلم وموطأ مالك وكتب السنن الأربعة وغيرها، إلا أن البخاري روى له في التاريخ والأدب المفرد وليس في الصحيح. وقال الدراوردي : لم يرو مالك عن جعفر (الصادق) حتى ظهر أمر بني العباس. وقال مصعب : كان مالك لا يروي عن جعفر بن محمد حتى يضمه إلى آخر من أولئك الرفعاء ثم يجعله بعده!. قلت (المؤلف) : وهذا خوفا من السلطة!. أما موقف مالك من آل البيت فمعروف. ونقل عن يحيى بن سعيد القطان حين سأله علي بن المديني عن الصادق فقال : في نفسي شيء منه!، قلت : فمجالد؟ قال : مجالد أحب إلي منه!؟!؟، فعدت من زلقات القطان ولم يلتفت النقاد لمقولته، لأنهم أجمعوا على أن الصادق أوثق من مجالد وأصدق بمراحل. وقال ابن حبان : كان من سادات أهل البيت فقها وعلما وفضلا يحتج بحديثه من غير رواية أولاده عنه..وقد اعتبرت حديثه من حديث الثقات عنه مثل ابن جريج والثوري ومالك وشعبة وابن عيينة ووهب بن خالد ودونهم فرأيت أحاديث مستقيمة ليس فيها شيء يخالف الأثبات. ورأيت في رواية ولده عنه أشياء ليس من حديث أبيه ولا من حديث جده، ومن المحال أن يلزق به ما جنت يدا غيره. وقال الساجي : كان صدوقا مأمونا، إذا حدث عنه الثقات فحديثه مستقيم.. وحدث حفص بن غياث فقال : سمعت جعفر بن محمد يقول : ما يسرني بشفاعة أبي بكر رضي الله عنه هذا العمود ذهبا، يعني سارية من سواري المسجد. ولقد ولدني مرتين. وقال عمرو بن أبي المقدام : كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين. وقال أبو حنيفة النعمان : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد. وقال سالم بن أبي حفصة : سألت أبا جعفر محمد بن علي(الباقر)، وجعفر بن محمد (الصادق) عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم تولهما وابرأ من

" كما نقل الطبري[1] . ذلك أن إسماعيل كان من أصدقاء أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مؤسس الحركة الخطابية، التي ادعت ألوهية جعفر الصادق[2] !. وكان جعفر رضي الله عنه قد تبرأ منه ولعنه ولم يرض بالتواصل الذي كان بينه وبين ابنه إسماعيل[3]. ثم إن محمد بن إسماعيل ارتبط بدوره بوريث الدعوة الخطابية ميمون القداح[4]، المؤسس الفعلي للدعوة الإسماعيلية. هاجر محمد بن إسماعيل من المدينة إلى خوزستان (جنوب غرب إيران)، ثم منها إلى الديلم (جنوب بحر قزوين) ثم انقطعت أخباره ولم يعد يسمع عنه شيء[5].

بعد ميمون القداح حمل الدعوة ابنه عبد الله الذي جمع من العرفان والفلسفة وموروثات المنطقة ما جمع وصب كل ذلك في قوالب دعوته. وكأنه يعيد التاريخ بما حصل للمسيحية تماما ما بين القرن الأول والرابع الميلادي. وهكذا نجد في تعاليمه شذرات ومقتبسات من كتب الهرطوقيين المسيحيين الذين متحوا بكل حرية من موروثات المنطقة في كل تشعباتها : الإسرارية البابلية والكلدانية والمصرية والمندائية والفيثاغورية والأفلاطونية والزرادشتية والمانوية الفارسيتين والبوذية الحلولية الهندية..الخ. بعده جاء ابنه أحمد، ثم خلف هذا ابنه الحسين، ثم أخوه محمد بن أحمد الشهير باسم "أبي الشلعلع"[6]. محمد هذا حسب هذه الرواية، بعث بدعاته إلى المغرب برأسهم أبو عبد الله

عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى، قال : وقال لي جعفر بن محمد : يا سالم أيسب الرجل جده؟. أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما. وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (6: 45 ~ 48) : مناقب جعفر كثيرة وكان يصلح للخلافة لسؤدده وفضله وعلمه وشرفه رضي الله عنه.

قلت : وهذا ما يتفق مع موقف عمه زيد رضي الله عنهما ويتفق مع أخلاقياتهما وإرثهما. على عكس ما سوف تلفق الروافض لاحقا!. أنظر ترجمته في تهذيب الكمال للمزي (5 : 74 ~ 98) وبه مراجع كثيرة ترجمت له.

[1] تاريخ الرسل والملوك (7 : 536)

[2] نقل الشهرستاني مذهبه في الملل والنحل (2 : 16) بقوله : { أن الأئمة أنبياء، ثم آلهة، وقال بألوهية جعفر وألوهية آبائه وهم أبناء الله وأحباؤه، والألوهية نور في النبوة، والنبوة نور في الإمامة، ولا يخلو العالم من هذه الآثار. وأن الجنة هي التي تصيب الناس من خير ونعمة وعافية، وأن النار هي التي تصيب الناس من شر وبلية ومشقة، واستحل الخمر والزنا وسائر المحرمات، وأباح ترك الصلاة وجميع الفرائض}. قلت : فإن زنى إسماعيل وسكر فهذا ينسجم تماما مع مذهب أبي الخطاب وليس مع مذهب جعفر رضي الله عنه ومذهب آل البيت ومذهب السنة الرشدية.

[3] هناك روايات تؤيد هذا التفسير نقلت عن جعفر الصادق تلعن أبا الخطاب هذا. فقد روى أبو عمرو محمد بن محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي (ت: 340 هـ) في كتاب " الرجال " ص. 246 . ط. كربلاء فقال : { عن أبي منصور قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول وذكر أبا الخطاب: اللهم العن أبا الخطاب فإنه خوفني قائما وقاعدا وعلى فراشي، اللهم أذقه حر الحديد }. وفي رواية أخرى عنه رضي الله عنه يرويها الكشي أيضا ص. 250 : { عن عمران بن علي قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : لعن الله أبا الخطاب ولعن من قتل معه ولعن الله من بقي منهم ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم. }. وروى الكشي أيضا، ص. 272 : { عن حماد بن عثمان قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول للمفضل بن عمر الجعفي : يا كافر! يا مشرك! مالك ولابني؟، يعني إسماعيل بن جعفر وكان منقطعا إليه يقول فيه مع الخطابية. }. ويقول الكشي ص. 274 : { عن إسماعيل بن جابر قال : قال أبو عبد الله : ائت المفضل وقل له : يا مشرك ما تريد إلى ابني؟، تريد أن تقتله!. } وانظر: الملل والنحل للشهرستاني (2 : 15). ورجح هذا الاحتمال المستشرق اليهودي برنارد لويس بناءا على أن أبا الخطاب كانت كنيته أبا إسماعيل مستنتجا أن أبا الخطاب هو الأب الروحي لإسماعيل. أنظر : برنارد لويس : أصول الإسماعيلية، ترجمة جلود خليل وصحبه، مكتبة المثنى، بغداد، ص. 110 .

قلت : المهم في كل هذا هو أن سنن الخلق لا تبديل لها كما قص القرآن وأن لا عصمة لأحد من الزلل سوى بتوفيق من الله ولم يجعلها خصلة تورث!.

[4] ميمون بن داود بن سعيد القداح (ت: 170 هـ/876 م) مولى جعفر الصادق ورأس الفرقة الميمونية من الإسماعيلية. في نسبه اضطراب كما في سيرته وينسبه بعضهم إلى سلمان الفارسي! بل هناك من يذهب إلى ترجيح أن الإسماعيليين من نسله وليس من آل البيت!.

[5] محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص. 14 .

[6] أول دولة للإسماعيلية تكونت سنة 266 هـ على يد الحسين بن حوشب، الذي سيلقب بمنصور اليمن. يقول عبد القاهر البغدادي في " الفرق بين الفرق " ص. 281 ~ 283 هـ، ط. الحلبي : { أن دعوة الباطنية ظهرت في أيام المأمون، وانتشرت في زمان المعتصم. وأن ميمونا القداح قد اجتمع بجماعة في سجن والي العراق ووضعوا أساس دعوتهم.. وكان لميمون أصحاب من أولاد المجوس الذين مالوا إلى دين أسلافهم. ولكن لم يظهروا ذلك مخافة من سيوف المسلمين، فوضعوا أساس المذهب على أن للقرآن ظاهرا وباطنا، وأن لكل تنزيل تأويلا. وأخذ ميمون القداح يجمع حوله الدعاة إلى المذهب ويرسلهم إلى الأمصار المختلفة. فأرسل إلى اليمن ابن حوشب وعلي بن فضل الجدني ليبثا الدعوة في تلك الناحية سنة 267 هـ. فما لبث ابن حوشب أن اتخذها دار هجرة له، وأصبحت إمارته بعد ذلك مدرسة للدعاة. ومن هناك أرسل الداعيتين الشهيرين : الحلواني وأبا سفيان إلى المغرب بعد أن تعلما في مدرسته أصول الدعوة والتفسير الباطني للقرآن. ثم ودعهما ابن حوشب قائلا : قولا لكل شيء ظاهر وباطن اذهبا فالمغرب أرض بور فاحرثاها واكرياها حتى يأتي صاحب البذر}

الحسين الصنعاني الملقب بالشيعي وبالمعلم. وهذا الأخير هو الذي وطأ لقيام دولة العبيديين الفاطميين في تونس بالتبشير بقدوم المهدي المنتظر! ، إلى أن قدم عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم : المهدي الفاطمي (259 ~ 322 هـ) فارا من سلمية جنوبي مدينة حمص بسوريا حيث كان يقيم هناك في طور"الكتم" أو "عهد التستر"[1] هو وابنه أبو القاسم مستترا بينما يدعو له الدعاة في الأمصار المختلفة[2]. ولما خشيا من افتضاح أمرهما أفلتا

صاحب البذر هذا هو أبو عبد الله الشيعي. ويقول ابن مالك الحمادي في " كشف أسرار الباطنية " ، ص. 17 ، ط. بغداد : { إنهم قد اعتمدوا في تأسيس دعوتهم على أن لكل آية تفسيرا ولكل حديث تأويلا. وأن ميمونا قد زخرف لهم الأقوال وضرب الأمثال. وجعل لآي القرآن شكلا يواريه ومثلا يضاهيه. وجعل أصل دعوته وأساسها الدعاء إلى الله. ويحتج بالكتاب ومعرفة مثله وممثوله والاختصاص لعلي بالإمامة والطعن في بقية الصحابة }.

إلا أن دعوة ابن حوشب في اليمن انحرفت، حيث سيدعي قائد جيشه علي بن فضل النبوة وأعفى أنصاره من الصلاة والصوم والحج!. وفي هذا يحكون شعرا :

خذي الدف يا هذه والعبي	وغني هزاريك واطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي	وإن صاموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب

أنظر: أبا محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي اليمني (ت: 569 هـ) في " أرض اليمن وتاريخها" المطبوع مع مختصر تاريخ دول اليمن لابن خلدون وأخبار القرامطة في اليمن لأبي عبد الله بهاء الدين الجنادي ومعه ترجمة انجليزية من إعداد :

H. C. Kay: Yaman, its early history,.. London, 1892, pp. 145.

وكذلك : د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ط. دار النهضة المصرية، ص. 401 .

[1] عهد التستر هذا خوفا من بطش العباسيين دام زهاء القرن من الزمان وعرف أيضا بعهد " الأئمة المتسترين ".

[2] داعيتهم في العراق مثلا ويدعى الحسين الأهوازي استطاع الاتصال بحمدان بن الأشعث الملقب قرمط وجنده في سلك الدعوة الإسماعيلية. فبث قرمط الدعوة في البحرين وسواد العراق، إلا أنه لما استشعر القدرة على الاستئثار بالدعوة لنفسه، استقل عن الإسماعيلية ودعا لنفسه. وفي تعاليم القرامطة يظهر موروث المنطقة بوضوح في نوع جمهوريتهم التي حاكت نموذج جمهورية أفلاطون حتى في أدق التفاصيل. عمل قرمط على تنظيم دعوته ما بين سني 261 إلى 287 هـ وما أن حلت سنة 278 هـ حتى أعلنوا الظهور ثائرين على الدولة العباسية التي عليها المعتمد على الله أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم العباسي (229 ~ 279 هـ) الذي أمضى ولايته التي ناهزت العشرين سنة بين الخمرة وندماء السوء!، ملحقين بها الهزيمة تلو الأخرى إلى أن استطاعوا إرساء دولتهم في سواد الكوفة والبحرين وهاجموا الحجيج وأخذوا الحجر الأسود من الكعبة ولم يقبلوا برده ببدل العباسيين لهم خمسين ألف دينار في ذلك إلى أن ظهر لهم إرجاعه إلى مكانه سنة 339 هـ. وسوف يستطيع العباسيون أخيرا القضاء على دولتهم في العراق إلا أن دولتهم في البحرين استمرت إلى سنة 398 هـ. وهؤلاء اعتمدوا في تنظيم دعوتهم على النموذج الفلكي البطليموسي المعروف للمنطقة حتى أن المستشرق آدم ميتز لاحظ في كتابه : "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (2 : 72) بتأثر القرامطة بالمذاهب القديمة التي كانت بالعراق. فهم جعلوا مراتب الدعوة سبعا حسب الأفلاك السبع للكواكب السيارة. وبدأت دعوتهم للإمام الإسماعيلي السابع على ما جرت عليه الدعوة الإسماعيلية في تقسيم مناطق الدعوة إلى اثني عشر شهرا والشهر إلى ثلاثين يوما، واليوم إلى أمرة، كل واحد منهم ثلاثون نقيبا، يأتمر بأمر كل منهم أربعة وعشرون داعية. وجعلوا مراتب الدعوة سبعا، لكل منها بلاغا، حسب رتبة المنتسب إليهم في هرمية التنظيم. فالبلاغ الأول للعامة، والثاني فوقهم والثالث لمن انتسب إليهم لمدة سنة، ثم يعطى بعد ذلك بلاغا عن كل سنة تقادما معهم إلى أن يصل إلى الدرجة السابعة حيث يتلقى البلاغ السابع الذي يتضمن أسرار المذهب. وأهم هذه الحقائق التي يكتشفها النقيب لمنتسب بعد الترقي في هذه الدرجات التدميغية من غسيل المخ طوال هذه المدة هي أن قرمط يدعو لنفسه وليس للإمام الإسماعيلي!، في حين أن كل من عداهم في التنظيم يحجبون عن هذا السر!. فكان الدعاة يتسلمون من النقباء خواتيم من الطين الأبيض مكتوب عليه : محمد بن إسماعيل الإمام المهدي المنتظر ولي الله!؟!. اختار قرمط النقباء من بين أقاربه وأصهاره وحدد لهم أقاليم الدعوة وتراسل معهم بالحمام الزاجل، وهو ذكاء ينم عن فهم لأهمية لوجستية الاتصال بالدعاة!. ورتب الدعاة إلى نوعين : المستجيب والمكاسر. والمستجيب يجب أن يكون حسن المظهر ذكيا فطنا قادرا على التأثير وجذب الأتباع، وتقف مهمته عند هذا الحد، فهو كلب صيد. وبالتمرس قد يصل المستجيب إلى رتبة المكاسر. والأخير له القدرة على محاججة الخصوم وتشكيك العامة في معتقداتها وإقناعهم بأن لا خلاص سوى بقدوم المهدي المنتظر الذي يدعو إليه. وهذا النوع من الدعاة لا زال متبعا إلى اليوم كما هو ملاحظ عند شهود يهوة والبهائية وغيرهم وهو فيثاغورسي النشأة وعرفته الفرق الإسرارية قديما في المنطقة. كما قنن قرمط للداعية الوسيلة وكذلك الخطة التي يجب اتباعها مع المدعو الضحية أو الطريدة لصيدها وجعلها سبعة مراتب : 1) التفرس، 2) المؤانسة، 3) التشكيك، 4) التعليق، 5) الربط، 6) الخلع، 7) السلخ.

ففي مرحلة التفرس يختار الداعية الضحية فيخاطبه بلغته المفضلة ويظهر أنه على نفس معتقده فإن لمس منه استجابة انتقل به إلى المرحلة التالية وهي التشكيك في معتقده ويربط بين معتقده والظلم السائد وأن فساد الحكم ناتج عن فساد المذهب، فإذا صادف استجابة من الضحية انتقل به إلى المرحلة التالية وأخذ عليه العهود والمواثيق. أما إذا تشكك فهذه نهاية المطاف معه ويعرض عنه. وتسمى هذه المرحلة مرحلة التعليق. فإذا ما أظهر التابع الاستعداد للالتزام بالطاعة لإمام آل البيت بتفان وإخلاص في ذلك، أخذ عليه الداعي العهد والميثاق. ومن هنا كان

إلى المغرب رغم محاولة عيسى بن محمد النّوشري (ت: 297 هـ) ،عامل العباسيين على مصر والإسكندرية، ترصد عبورهما دون جدوى.

ثم إن المعتضد العباسي : أحمد بن طلحة (ت: 289 هـ) أوعز إلى الأغالبة الأمراء من طرفه على إفريقيا بالقيروان ترصدهما بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما إلى أن عثر عليهما أليشع، صاحب سجلماسة الصفري من بني مدرار، فألقى عليهما القبض واعتقلهما في سجنه، قبل أن يتمكن أنصارهما من استنفار أشياعهما من قبائل كتامة ليخرجوهما منه ولتدور الدائرة بعد ذلك على الصفرية والإباضية ودولة الأغالبة، بحرب مزدوجة عليهم من أنصار المهدي والواصلية المعتزلية المتحالفة معهم في المنطقة[1].

ما نتج عن هذه السابقة وهذا العداء المستحكم المُقصي للمخالف، ظهرت نتائجه لاحقا في إحراق العبيديين للمكتبة " المعصومة" الصفرية بتاهرت وضياع كتب هذه الفرقة إلا ما نذر، ثم ليتم له إعلان دولته على أنقاض الإباضية والصفرية في تونس سنة 297 هـ. أول عمل قام به المهدي العبيدي، هو قتله لمن وطأ له أرضية الحكم، أي أبا عبد الله الحسين سنة 298 هـ وأخاه أبا العباس حين أظهرا شكهما في شخصه وأنه غير ذلك الذي عرفاه في مدينة سلمية بسوريا، يوم كانا في طور الكتم!. وهي سنة تعلمها ولا شك من العباسيين يوم أن تغذى المنصور بأبي مسلم الخرساني بعد أن وطأ لهم الحكم أيضا!، قبل أن يتعشى بهم!.

من تونس سيتمكن ملكهم الرابع : أبو تميم معد (المعز لدين الله) بن إسماعيل (المنصور) بن القائم! بن المهدي! عبيد الله الفاطمي (319 هـ/931 م ~ 365 هـ/975 م) من غزو مصر سنة 358 هـ بقيادة أبي الحسن جوهر بن عبد الله الصقِلّي (ت: 381 هـ/992 م) مع جيوش قبائل كتامة المغاربيين ويتخذها عاصمة لحكم العبيديين[2].

5-3-4-1- المهدي الإسماعيلي

قامت الفرقة الإسماعيلية على أساس المهدوية الخلاصية الوثنية للمنطقة، وسوف يكررون التاريخ القديم حذو القذة بالقذة بدقة مذهلة!. وكما حصل مع أشياع أبناء جعفر الصادق في خُلف نظريتهم، بعدم صدق دعوى النص وما قدر في الأزل!، فقد حدث أن نصّ!؟ أبا تميم : المعز! لدين الله أن يليه ابنه عبد الله!، إلا أن عبد الله، كإسماعيل جدهم، توفي في حياة أبيه!، فعاد ونص من جديد لاغيا لنصه القديم، الذي أتت الأقدار بخلافه!، أن يلي ابنه العزيز، مخالفا بذلك معتقد الطائفة!. بل نكاية بتخريفاتهم! وسوف يتجدد هذا مرة أخرى مع إمامهم المستنصر، الذي نص على

الربط. والخلع هنا يعني أن الضحية خلعت اعتقادها القديم وارتبطت بالدعوة لقدوم المهدي المنتظر!. وبالتزامه هذا يكون قد انسلخ من مذهبه القديم وجند في الدعوة القرمطية متدرجا ضمن بلاغاتها السبع. أنظر كتاب أبي حامد الغزالي : فضائح الباطنية. والنظام القرمطي حاول إقامة المدينة الفاضلة للفارابي المضاهية لجمهورية أفلاطون حيث ألغى الملكية الفردية التي أصبحت مشاعة للجميع مع توزيع العمل بين ثلاث طبقات : فلاسفة يحكمون وحراس متفرغون يحرسون ويدافعون ويتدربون على ذلك منذ نعومة الأظفار، وعمال يعملون.

أنظر للمزيد: "الفرق بين الفرق" ص. 298 ~ 303 . و"كشف أسرار الباطنية " ص. 11 ~ 44 . و " فضائح الباطنية " للغزالي بتحقيق عبد الرحمن بدوي، ط. الهيئة العامة للكتاب. مصر. و "التبصير في الدين " للاسفراييني، ص. 123 ، ط. النهضة المصرية. و " التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع " للملطي، ط. استنبول 1964 م، ص. 106 . و "نقد العلم والعلماء" لابن الجوزي ص. 102 ، الطبعة المنيرية.

[1] لا زالت مقبرة المعتزلة قائمة إلى اليوم عند سور مدينة العطف بوادي ميزاب في الجنوب الشرقي الجزائري.

[2] كل ما استطاعت الخلافة العباسية أن تفعله أمام خطرهم الداهم هو أن جمعت بطانة من مشايعيها من قضاة بغداد وأعيانها المخالفين عقائديا وسياسيا للعبيديين أمثال : نقيب الطوليين الإحدى عشرية ببغداد الشريف أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى الرضي الشاعر(359 ~ 406 هـ) وأخيه نقيب الطالبيين وشيخ الشيعة الإمامية الإحدى عشرية : أبي طالب علي بن الحسين بن موسى (355 ~ 430 هـ) والشيخ محمد بن محمد المفيد الشهير بلقب ابن المعلم (ت: 413 هـ) شيخ الطائفة الإحدى عشرية، والإمام أبي حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الاسفراييني (344 ~ 406 هـ) إمام الشافعية وشيخها ببغداد، والإمام أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري (362 ~ 428 هـ) شيخ الأحناف ببغداد، والقاضي أبي عبد الله الحسين بن علي الصيمري الحنفي (351 ~ 436 هـ) وقاضي القضاة أبي محمد عبد الله بن محمد الأسدي الأكفاني البغدادي (316~ 405 هـ) وغيرهم من علماء السنة وأعلام الدولة في أيام القادر بالله العباسي أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر (335 ~ 422 هـ) الغير قادر! فعلا لأنه كان من أفقر خلفاء بني العباس!، ليصدر عنهم سنة 402 هـ/1101 م بيانا عاما يطعن في نسب العبيديين باتهم زنادقة ينحدرون من سلالة ديصان بن سعيد الخرمي الملحد..إلخ. والدولة العباسية لا تحسد على وضعها المترهل في تلك الفترة حيث لم يبق لملك بني العباس من سلطة فعلية غير الخطبة باسمه في صلاة الجمعة والعيدين!. كثيرون شككوا تبعا في نسب العبيديين وحكوا حكايات من هذا القبيل، أنظر بهذا الصدد فخر الدين الرازي في" اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مكتبة النهضة المصرية، 1357 هـ/ 1938 م، ص. 77 . وانظر ابن خلدون في المقدمة ص. 32 يشكك بدوره في هذا الشك!. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (3 : 162) في أحداث سنة 402 هـ.

أن يتولى الأمر بعده ابنه نزار، إلا أن الوزير الوصي : الأفضل بن بدر الجمالي[1] نحى ! نزارا وأعلن إمامة المستعلي!: أحمد بن معد (ت: 495 هـ)، الابن الأصغر للمستنصر : معد بن علي (ت: 487 هـ)، الذي كان صغيرا!، إلا أنه من صلب أخت الوزير الجمالي!. بل تعدت جراة الجمالي إلى أكثر من تنحية نزار من الإمامة، بل إلى سجنه، بل حتى إقباره حيا إلى أن مات!، وكما كان منتظرا فهذا الحدث أعاد حبكة التاريخ بتولد فرقتين تلعن كل منهما الأخرى!. وهما الفرقتان اللتان ستعرفان بالمستعلية : أتباع المستعلي، والنزارية أتباع نزار[2] !.

فالمهدوية كخرافة وأسطورة عند هذا الحزب، مثلها عبيد الله نفسه دون مواربة عندما تسمى بالمهدي!، ووجدنا ذلك واضحا عند قرمط في نهج دعوته ما قبل البلاغ السابع!. وكما وجدنا عند الكيسانية شعراء يلهجون بمهدوية محمد بن الحنفية كحال الشاعرين كثير عزة والسيد الحميري. فللإسماعيلية شاعرها على قدر أسطورتها وزمانها، وكأنه وهي على ميعاد ليقدم لها خدماته!. الشاعر هذا هو ابن هانئ الأندلسي[3]. يقول مادحا المعز بن المهدي الفاطمي[4] :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول بكفر واضح[5] :

أرى مدحه كالمدح لله! إنه   قنوت وتسبيح يحط به الوزرا!

أو على ذات الوثيرة في كون المعز علة العلل! على ما أخذ من الفلسفة[6] :

هو علة الدنيا ومن خلقت له   ولعلة ما كانت الأشياء

وبأنه يعلم الغيب على ما ادعت كل الإمامية : إسماعيلية وإحدى عشرية في إمامها!، فقال في المعز[7] :

كأنك شاهدت الخفايا سوافرا   وأعجلت وجه الغيب أن يتسترا!

فعرفت في اليوم البصيرة في غد   وشاركت في الرأي القضاء المقدرا!

وقبل ابن هانئ نجد بداية هذا النوع من الغلو في هؤلاء التعساء عند الشاعر محمد البديل حيث جعل مرتبة عبيد الله المهدي! (الضال) والأنبياء سواء[8] ! :

حل برقادة المسيح   حل بها آدم ونوح

حل بها أحمد المصطفى   حل به الكبش والذبيح

حل بها الله ذو المعالي   وكل شيء سواه ريح

وابن هانئ غالى في المعز بن المهدي! هذا وأسبغ عليه أوصاف الألوهية[9] :

ندعوه منتقما عزيزا قادرا!   غفار موبقات الذنوب صفوحا!

كما أنه يعلم ما لايعلمه نبي مرسل أو ملك مقرب[1] :

---

[1] الوزير أبو القاسم أحمد بن بدر الجمالي الملقب بالملك الأفضل شاهنشاه (458 ~ 515 هـ).

[2] تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم، ص. 171 .

[3] أبو القاسم محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الإشبيلي الأندلسي (326 ~ 362 هـ). كان أبوه هانئ شاعرا وأديبا من قرية من قرى المهدية بتونس، ثم انتقل إلى الأندلس ، فولد له محمد بمدينة إشبيلية وشب فيها واشتغل. ويقولون عنه بأنه اتصل بصاحب إشبيلية دون ذكر اسم الصاحب هذا، وأنه حظي عنده بالمنادمة. وكان كثير الانهماك في الملاذ يتعاطى الفلسفة على ما اشتهر في عصره. ويشبهونه بأبي العلاء المعري أو المتنبي المعاصر له في الشرق، بل هو يحاذيه حذو القذة بالقذة كنموذج ويتقفى أثره، زيادة على ما جمع بينهما من قواسم مشتركة كالتشيع المفرط والزندقة المفضيين إلى الغلو، بل والمروق من الدين. فالمتنبي ادعى النبوة وابن هانئ رفع من شأن ممدوحيه من ملوك الإسماعيلية إلى درجة التأليه!.

[4] ديوان ابن هانئ، دار صادر، بيروت، ص. 146 .

[5] الديوان، ص. 135 .

[6] الديوان، ص. 12 .

[7] الديوان، ص. 145 .

[8] تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم حسن، ص. 327 ، ط. النهضة المصرية.

[9] أنظر د/ مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب، ص. 256 ، الدار المصرية اللبنانية، ط. ثامنة 1411 هـ/1991 م، القاهرة.

وعلمت من مكنون سر الله ما   لم يؤت في الملكوت ميكائيلا!

5-3-4-2- التأليه الإسماعيلي

لم يعد هناك من يجادل اليوم من المتخصصين، في كون عقائد الإسماعيلية والإحدى عشرية متحت من موروث المنطقة الغنوصي (العرفاني) القديم بكل حيلة ممكنة. وهم من خلال نهج دعوتهم التي شاركهم فيها القرامطة تعتمد التمويه على العامة بخطاب ظاهره الشريعة، بينما يسمع الخواص من داعي الدعاة خطابا آخر لا يختلف في شيء عما سمعه الفيثاغوريون[2] الإغريق في القديم بالنسبة لرمزانية العدد أو ما اعتاد أتباع الأفلاطونية المحدثة التي أسسها نومنيوس الأفامي بالنسبة للعقول المفارقة من "عقل كلي" و "نفس كلية" أو ما عرف أصحاب العرفان عامة في منتصف القرن الثاني المسيحي عند بازيليد (Basilide) وفالنتان (Valentin) في الأسكندرية والذي

---

[1] الشكعة، نفس المرجع السابق ص. 256 . وهذا يتفقون فيه مع الإحدى عشرية. فقد عقد محمد بن الحسن بن علي الملقب : الحر العاملي (1033 هـ/1623 م ~ 1104 هـ/1692 م) في كتاب "الفصول المهمة" ، ص. 152 طبعة طهران بابا جاء فيه : { باب في أن الأئمة الإحدى عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء! والأوصياء السابقين وغيرهم..} وأورد سندا لهذا التبويب رواية عن جعفر الصادق أن الله خلق أولي العزم من الرسل، وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضلنا عليهم في علمهم، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يعلمهم، وعلمنا علم رسول الله وعلمهم }. وهذا ما يكرره الخميني في كتاب "ولاية الفقيه" في القرن العشرين بقوله : { إن من ضروريات مذهبنا ألا ينال أحد مقامات الأئمة الروحية، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما وردت في رواياتنا أن الأئمة كانوا أنوارا!؟! تحت العرش!؟! قبل تكوين العالم، وعنهم نقل أنهم قالوا : إن لنا من الله أحوالا لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل!؟!. وهذه المعتقدات من القواعد والأسس التي قام عليها مذهبنا }. أنظر : ولاية فقيه خصوصي حكومي إسلامي، لنائب الإمام!؟! السيد الخميني. باب، ولاية تكويني، 58 طبع طهران - نقلا عن الشهيد إحسان إلهي ظهير في كتاب : " بين السنة والشيعة، ص. 50 ، ط. أولى، دار النصر للطباعة،1406 هـ/ 1985 م ، مصر.

[2] يعتبر فيثاغورس الساموسي (580 ق.م ~ 500 ق.م) شخصية أسطورية بكل معنى الكلمة، بعضهم ذهب حتى إلى الشك في وجوده! ولا يمكن تقرير أي شيء بالنسبة لحياته. فيقال إنه ولد في جزيرة ساموس جنوب إيطاليا وربما تتلمذ لأنكسيمندر الميليتي (610 ق. م ~ 545 ق. م)!. تنسب إليه الكثير من السفريات إلى مصر حيث أخذ عن كهنتها بعض معارفهم، وربما إلى فارس حيث يقال بأنه التقى بزرادشت!. بعد هذه الرحلة المعرفية عاد إلى بلدته وأنشأ مدرسته. إلا أن استقراره لم يدم بها طويلا، فاضطر إلى الهجرة إلى مدينة كروطون جنوب إيطاليا، إما لعدم توافق أفكاره مع حاكم المدينة الطاغية بوليكرات أو بسبب الزحف الوشيك للبحرية الفارسية على الجزر الإغريقية أيام الدولة الفارسية الأخمينية بقيادة داريوس (521 ق.م ~ 485 ق.م) فيما سوف يعرف بالحروب الميدية. هنا أسس مدرسته من جديد أو بالحرى طائفته الدينية التي وجدت مقاومة شرسة من طرف الأحزاب الديمقراطية فاضطر مرة أخرى إلى الهجرة فارا بجلده إلى مدينة ميتابونت إلى الشمال حيث لقي حتفه. تعرضت طائفته لعسف خصومه فقتل الكثير من أتباعه، إلا أن بعضهم استطاع الإفلات والنجاة بحياته ولجأ بعضهم إلى جزيرة صقلية وبعضهم الآخر إلى باقي الجزر الإغريقية حيث استمروا في تدريس مذهبه. كل كتب الطائفة اتسمت بالسرية، كما أن التعليم لا يعطى سوى لطبقة خاصة ممن يمكن إفشاء الأسرار إليهم. كما تميز التعليم بمستويين :

المنصتون (Acousmates) : يستمعون فقط إلى المواعظ والدروس الشفهية.

الرياضياتيون : وهؤلاء وحدهم من يحضرون الدروس الخاصة التي يطلعون فيها على المعارف الموسومة ب " الأسرار".

من بين الفيثاغوريين بعد فيثاغور نفسه نجد الكميون الكروطوني (Alcméon) و أريستي (Aristée) الكروطوني و هيباسوس (Hippasos) الميتابونتي وغيرهم بل نجد يامبليخوس (~ 250 ~ 330) (Jamblicos) الذي عاش في القرن الثالث والرابع الميلادي وأسس مدرسة في مدينة أفاميا درس فيها خليطا من الفيثاغورية والأفلاطونية والعقائد الإسرارية الكلدانية والمصرية القديمة. نشر قائمة بالفيثاغوريين المشاهير أوصلها إلى 218 ترجمة. وهذا العدد يعطي فكرة عن مدى انتشار الطائفة في المنطقة وإن شح بذكر المؤلفات التي تدخل نطاق الأسرار التي لا يمكن البوح بها سوى للأعضاء الخواص!. وليامبليخوس مؤلفات منها : " حياة فيثاغور" و " حول الأسرار " وغيرهما.

أما بالنسبة لمعتقد هذه الطائفة فيقول ديوجين اللأيرسي في كتاب " الحيوات " (Diogène Laërce, Vie, Doctrines et sentences des Philosophes illustres, trad. R. Genaille, (2 Vol.), Paris, 1965, (VIII, 4 – 5):

{ هذا ما كان يقوله فيثاغور عن نفسه حسب هيراكليد (Hèraclide du pont) : بأنه ولد يوما باسم إيطاليديس (Aéthalidès) وكانوا يعدونه ابن " هرمس ". هذا الأخير قال له بأنه يمكن أن يهبه أي شيء سوى الخلود. فطلب أن تكون له القدرة على الاحتفاظ في حياته وبعد مماته على تذكر الأحداث. وهكذا تذكر طوال حياته كل شيء وحافظ بعد موته على هذه القدرة. ثم تجسدت روحه بعد ذلك في جسد أوفورب (Euphorbe) الذي جرحه مينيلاس (Ménélas). أوفورب يقول بأنه كان يوما أيطاليديسو وبأنه حصل على هبة التناسخ من " هرمس "، وكان يقص كيف تتنقل روحه. أي حيوان وأي نبات سكنت، ما هي التجارب التي مر منها في جهنم وكل ما تعاني منه باقي الأرواح. بعد ذلك عندما توفي أوفورب تجسدت حياته في هيرموبوتيم (Hermopotime).. وبعد موت هيرموبوتيم، صار بيروس (Pyrhoss) بحار ديلوس (Délos)،.. وعندما توفي بيروس صار فيثاغور ويتذكر كل ما قصصنا!؟!. }.

قلت : وهذه عقيدة الدروز اليوم بالحرف!، أما كيف وجد الفيثاغوريون ضالتهم في قبائل لخم وتيم العربيتين الأميتين الذين ينعشهم سفهاء مشايخهم الجهلة ب " الجهال!"، فهذا ما لا أجد له جوابا سوى أن الإنسان يمكن أن ينقلب إلى دابة! لاتعي ولا تتفكر!.

كانت نشأته الأولى في فلسطين وسوريا في زمن المسيح عليه السلام، قبل أن يكتسح المنطقة كلها، في دورات التهجين وإعادة الإنتاج الملفقة اللاحقة بين العقائد والأديان والفلسفات المختلفة. فطور السر الذي مرت به هذه الفرقة كان أساسياً للتمويه والمتح من هذا التراث الموروث الذي لم يغب قط من المنطقة وله سدنته المروجين له[1]. ورسائل إخوان الصفا إعادة إخراج إسماعيلي طبق الأصل وبكل التفاصيل! لهرمسية[2] المنطقة.

أما في فترة الظهور، فلم يطل الأمر بالفاطميين إلا قليلاً حتى أعلن الحاكم بأمر الله ألوهيته!؟ على الملأ[3] سنة 408 هـ/1017 م على يد ثلاثة من الدعاة المحيطين بالحاكم الذين أسسوا لمثل هذه الإخراج المسرحي الفرعوني وهم: حمزة بن علي[4] والدّرزي[1] والفرغاني[2]. بعضهم فسر ذلك بقوله[3] :

---

[1] ظل العرفان الشرقي مجهول المصادر ولا يعرف عنه شيء سوى من خلال منتقديه من المسيحية الأورثودوكسية المتتبعة لهذه الهرطقات في المسيحية الهرطقية! التي لم تخل منها حتى المسيحية الرسمية، لأن بولس نفسه متح من هذا الموروث في سفراته إلى دمشق قبل تحوله إلى المسيحية، عدا بعض المؤلفات التي عثر عليها في مصر مثل كتاب : " الحكمة الإيمانية " (Pistis Sophia) وكتاب " اللوغوس (الكلمة) في كل إسرارية " (Logos en chaque mystère) وكتاب " الألهة المتسترة " (Les Invisibles Divins) إلى أن اكتشف الفرنسي جان دوريس في الصعيد المصري 44 وثيقة غنوصية أصلية. أنظر : جان دوريس : الكتب السرية للغنوصيين (العرفانيين) المصريين.

Doresse,J. ,1958: Les livres Secrets des Gnostiques d´Egypte, Paris.

ويستنتج دوريس أن الأفكار المتداولة فيها هي ذاتها ما سجله كتاب الكنيسة في القرن الثالث الميلادي. وهو اكتشاف مهم ليس فقط للوقوف على تسرب الهرطقات إلى الديانة المسيحية، بل كذلك كيف وجدت طريقها إلى الإسلام السياسي من خلال كتابات الشيعة الإسماعيلية والإحدى عشرية. وقد وصف ج. ويلتر هذا التراث الهجين بقوله : { يقدم لنا الغنوص عرضا غير منسق للتلفيقية الدينية. فنجد خلط ملط من الإسراريات الوثنية، والطقوس السحرية، وكونيات غريبة وتأويلات نزوية للعهدين القديم والجديد. كل مخترع لغنوصية معينة يظهر وكأنه يجد لذة في أن يثبت أنه أكثر أصالة وأكثر إغرابا وأكثر جنونا من غريمه. } أنظر: ج. ويلتر : تاريخ الطوائف المسيحية. (W elter,G., 1950 : Histoire des sectes chrétiennes, éd. Payot, Paris, pp. 31.). لقد كشفت هذه الدراسات أن الغنوص يتعدى بكثير إطار هرطقة داخل الكنيسة، لأنه يستوعب في نسقه الفلسفي عناصر من كل ديانات الشرق زيادة على المسيحية. فنجد مثلا أن بازيليد وفالنتان الأسكندرانيين ذهبا بكثرة في عروضهما التعليمية إلى المتح من الكونيات والمفاهيم الدينية المصرية. فقد استوقف الفرنسي أميلينو التشابه بين النظام الرباني التساعي الفالنتيني الذي يتكون من إله أولي اسمه بوثوس (Buthos) { الهاوية } مع تساعية كهنة مدينة هرمس (هرموبوليس) المكون من إله وحيد وثمانية آلهة أخرى. ثم تتابع العوالم الثلاثين التي يجب أن تمر منها الروح المختارة قبل وصولها إلى إله الحق تشبه إلى حد كبير المناطق الإثنتى عشرة لساعات الليل التي يجب أن تمر منها روح التقي قبل مثولها أمام محكمة أوزيريس. ثم هناك ظاهرة أخرى في هذه الاستعارة من الديانات القديمة في مفهوم الغنوص نفسه أي العرفان الذي هو أيضا "الخلاص" ، الذي هو نخبوي بالأساس ولا يستحقه سوى الخواص القلة أما العامة وهي طبقة رذيلة فيكفيها الإيمان!. وهذا يفسر نجاح العرفان كخلاصية بين طبقة المترفين الأسكندرانيين بينما لم تستطع أن تستهوي العامة دون تمويه!. أول الغنوصيين كان منشؤهم في فلسطين مثل ميناندر (Ménandre) الذي درس بأنطاكية مع نهاية القرن الأول المسيحي وتخرج عنه تلميذه بازيليد (B asilide) الذي درس في الأسكندرية حوالي سنة 130 م. خلال هذه الفترة وإلى منتصف القرن الثاني الميلادي ظهرت كل الكتب المخفية التي نسبها الأباء المسيحيون إلى الهرطقة وضاع أكثرها، أمثال: "إنجيل المصريين" والذي لا علاقة له بكتاب آخر اكتشف في صعيد مصر وحمل إسم : " الكتاب المقدس للروح الكبير المستور". بينما نجد أن "إنجيل الحق" المكتشف من طرف جان دوريس يحتوي ذات المفاهيم التي عبر عنها العرفاني فالنتان (ت: 161 م) الذي درس بالأسكندرية لأكثر من 20 سنة ولأربع سنوات بروما (136 ~ 140 م). ونجد أن كوربوكراط (C orpocrate) الإسكندري المعاصر لفلنتان مثل الجانب الإباحي اللاأخلاقي في هذا المنحى. أنظر : أميلينو، " مختصر تاريخ مصر" (Amélineau, 1894 : Résumé de l`histoire de l`Egypte, Paris, pp. 96.) والإسكندرية لم تكن وحدها حاملة هذا الموروث إبان الانتشار الإسلامي في المنطقة بل كانت له مراكز في كل من حران ونصيبين وأنطاكية في العراق وسوريا وجنديسابور في فارس. وقد تتبع هذا التراث من جانبه التلفيقي الهرمسي أيضا الفرنسي فيستوجير في أربع مجلدات في " رسالة هرمس مثلث الحكمة" أنظر : (Festugière, L. R. P.,1944 – 1953 : La Rèvèlation d`Hermès Trimégiste, èd. GABALDA, Paris).

[2] نسبة إلى هرمس ابن الإله "زوس" (Zeus) في أسطورة آلهة الإغريق نسبوا إليه اختراع الكتابة وهو يقابل في التراث الفرعوني "تحوث " أو طوط (Thoth) كاتب الإله أوزيريس في الأساطير المصرية. وتنسب إليه العلوم المختلفة من سحر وطب وتنجيم..إلخ. ويرد مقرونا بلقب : " مثلث بالحكمة" أو " مثلث بالعظمة ". وهو اسم علم تنضوي تحته كل تلفيقات المنطقة الدينية والإسرارية والمعرفية والسحرية والفلسفية أنتجت في القرنين الثاني والثالث الميلاديين لأغراض شتى.

[3] أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز! لدين الله الفاطمي (375 ~ 411 هـ)

[4] حمزة بن علي بن أحمد الزوزني الخراساني (375 ~ 422 هـ). غالبية المؤرخين تجعل قدومه إلى مصر سنة 405 هـ وأنه اتصل بالحاكم وصار صاحب حظوة عنده. ويتضح من خلال رسائله أنه قد اتفق مع دعاته ألا يعلن عن تأليه الحاكم إلا بعد تلقي الأوامر من حمزة نفسه، ولكن الداعي الآخر نشتكين الدرزي التركي تعجل الأمر وكشف أسرار الدعوة الجديدة سنة 407 هـ، مما أثار الناس وحمل حمزة على الكشف عن دعوته هو الآخر سنة 408 هـ. وهذا ما يوضحه حمزة نقمة على الدرزي في رسالة له سماها : " رسالة الغاية والنصيحة" جاء فيها :

فالحاكم تولى مقاليد الحكم وهو صغير السن، وقد أحيط بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الإسماعيلية على أئمتها، فتأثر بهذه العقائد، إلى جانب أنه رأى حاشيته ورعيته يسجدون كلما مر بهم، فشاء طموحه- وهو في مثل هذا السن الصغير (11 سنة) - أن يكون إلها مثل الملوك الأقدمين - من الفراعنة -، واختمرت الفكرة في نفسه، ولكنه لم يعلنها للناس، ولعله أسر بها إلى بعض الدعاة حوله، فتسابقوا إلى إشباع نزوته وتنميتها على مرور الزمن.

المقاربة بين الحاكم والفراعنة في هذا النص كتفسير، تجد سندها في الموروث الوثني لهذا الحزب، ومنه بدون شك الموروث المصري القديم، الذي لم يكن قط غائبا على الدعاة الإسماعيليين. أما افتراضه كون الفكرة اختمرت في ذهن الحاكم لصغر سنه فقط، فليس بمسلم لأن كل أجداده بدأ بعبيد الله المهدي نعتوا بأوصاف الألوهية، فقبلوا بها برضى وانشراح صدر!، ثم هل يختلف ما تعرض له الحاكم في شيء مما ألف فرعون موسى في تنشئته وسط كهنته وبلاطه حتى خاطب الملأ من قومه بتلك الخطابات الهوسية كما يقص القرآن :

﴿ أنا ربكـــــــــــــــم الأعلى[4] !. ﴾

﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري[5] ﴾

أو ما أعاد تمثيله البطالمة الإغريق عندما حكموا مصر كما مر بنا!.

المفارقة الثانية في هذا الحزب الباطني المخضرم الذي يخلط الإسلام بالموروث القديم، هي كيف أمكنه ادعاء أكبر دعوى كفرية في الإسلام على الإطلاق، دون رد فعل رادع من جانب المسلمين؟ والأنكى أن يدعي ذلك تحت عباءة دعوى الانتساب إلى آل البيت وهم براء منه براءة الذئب من دم يوسف!. والأشد نكاية، حكم المسلمين أو أشباههم بمثل هذه الدعوى الكفرية الكفر البواح لقرنين كاملين؟.

فهل مرد ذلك إلى جهل القبائل الكتامية المغاربية، قوام جيش الإسماعيليين، لأبسط مبادئ الإسلام؟

ثم ماذا عن المصريين والشوام واليمن وإفريقية وما وراء النهر والهند، التي كان أو صار للإسماعيلية امتداد

وغطريس هو نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين، وهو الضد الذي سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الإمام، ويدعي منزلته..} مما يعني أن اتهام العبيديين في نسبهم غير مستبعد في ظل الستر الذي مرت منه الحركة الإسماعيلية لمدة قرن قبل إعلانها من طرف عبيد الله المهدي! . يضيف حمزة في نقده للدرزي : { وكذلك الدرزي كان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب، والثوب هو الداعي، والسترة التي أمره بها إمامه حمزة بن علي بن أحمد الهادي إلى توحيد مولانا (الحاكم بأمر الله) جل ذكره!. وكانت مدة ظهور حمزة ثلاث سنوات : 408 هـ، 410 هـ و 411 هـ. أما سنة 409 هـ فكانت سنة غيبة! خوفا على حياته، ثم اختفى بعد موت الحاكم بأمر الله سنة 411 هـ، حيث طورد من قبل الملك الإسماعيلي الجديد الظاهر بن الحاكم وارتحل إلى الشام حسب خير الدين الزركلي في "الأعلام" (2 : 310) ط. ثالثة. ظل يراسل اتباعه خلال تستره هذا إلى أن جاء في رسالة بهاء الدين المعروف بالمقتنى الموسومة "رسالة السفر" والتي كتبت سنة 430 هـ يطلب فيها من "المؤمنين" بحمزة : الإيمان برجوعه! وإلى طاعة ولي الحق! : الإمام المنتظر!؟!، أي الحاكم بأمر الله!. أنظر : عبد الله النجار، 1965 م : مذهب الدروز والتوحيد، ص. 125 . دار المعارف، مصر. وحسب معتقد الدروز في حمزة هذا بناء على التناسخ والأدوار التي يؤمنون بها، والتي هي موروث في الإسراريات الشرقية، فقد ظهر حمزة في الأدوار الكبرى والأدوار الصغرى بأسماء مختلفة، فهو شطنيل! في دور آدم، وفيثاغورس في دور نوح، وداود في دور إبراهيم، وشعيب في دور موسى واليسوع في دور عيسى. وأن حمزة هو المسيح الحقيقي الأبدي!؟!؟، وسلمان في دور محمد. وأن حمزة في دور سليمان الفارسي هو الذي أفتى القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. أنظر : النجار، ص. 123 . فالتلفيق بين المعتقدات القديمة والرموز الجديدة الذي ألفته المنطقة ظاهر هنا بكل وضوح.

[1] محمد بن إسماعيل الدرزي الملقب "نشتكين التركي (ت: 411 هـ/1020 م) كان يضرب الدنانير والدراهم وتعرف على حمزة بن علي في مصر. وعندما أعلن عن ألوهية الحاكم سنة 407 هـ دون وفاق مع حمزة بن علي اختفى في قصر الحاكم إلى أن هدأت العاصفة ثم جهزه الحاكم بالمال وسار إلى الشام صحبة علي بن أحمد الحبال، الذي كان السبب في اصطياد الدرزي للدعوة الإسماعيلية، والبرذعي، الذي لم يستجب لدعوة حمزة حتى أتاه بتوقيع من الحاكم. أنظر : مصطفى غالب : الحركات الباطنية في الإسلام، ص. 243 ، دار الكتاب العربي، بيروت. نزل ببعض قرى بانياس وأذاع هناك دعوته المؤلهة للحاكم التي أخذها عنه سكانها وتلقبوا باسمه. هناك حاول الانقلاب على حمزة ويدعي الإمامة والرئاسة لنفسه بدل حمزة، فلم يؤجله حمزة الذي أرسل له من اغتاله سنة 411 هـ.

[2] الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم (ت: 409 هـ) لا يعرف عنه شيء إلا ما كان من ظهوره سنة 409 هـ. يدعو لتأليه الحاكم وأن الحاكم خلع عليه خلعا سنية من اجل ذلك وحمله على فرس مسرج في موكبه وأنه اغتيل من طرف رجل من الكرخ. أنظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (3 : 194).

[3] أحمد الفوزان، 1979 : أضواء على العقيدة الدرزية، ص. 23 .

[4] سورة النازعات، الآية، 24 .

[5] سورة القصص، الآية 38 .

فيها؟

وإن اعتبرنا أن كل هؤلاء لم يطلعوا على مكامن المذهب، الذي كانوا يتسترون في إظهاره للعامة[1]، ولم يعلن عنه على الملأ إلا أيام الحاكم (عدا لقلة من الدعاة : النواة الصلبة للمذهب، الذين كانوا يتدارسون فيما بينهم شقه الباطني العرفاني في مجامعهم الخاصة، دون اكتراث من باقي المسلمين). فهل يفسر هذا كون الدروز وإلى اليوم، وهم قبائل عربية صرفة من لخم وتنوخ، أمية في مجملها!، تؤله الحاكم وتعبده؟. بل رضي ويرضى أكثرهم اليوم أن ينعتوا ! من طرف أقلية منهم تطلق على نفسها اسم "العقال" و " الأجاويد "!!؟، وتنعت باقيهم بأنهم الجهال! تحكمهم !. فهل الجهل وحده يفسر الجهل بهذا الموروث حتى أشربه هؤلاء على أميتهم المطلقة[2] ؟. والفيثاغوريون كونوا على وثنيتهم وضلالتهم، مدرسة رياضياتية كان لها سبق وريادة في نظريات الأعداد والهندسة. فهل ينتظر أحد

[1] من الملاحظ أن الإسماعيلية في مجال علم ظاهر الشريعة كالفقه لا يختلفون كثيرا عن باقي المذاهب الإسلامية وإنما دخلتهم الآفة من دعواهم في التفسير الباطني والإمامة كما حصل لكل فرق الشيعة الغلاة عامة، بعد أن خلطوا موروث المنطقة الوثني بمنطوقات الشريعة، يقرءون الإسلام بعيون فيثاغور وأفلاطون على ما اعتادت المنطقة كما حصل للمسيحية تماما. من دعاتهم المبرزين :

أبو حاتم لأحمد بن حمآن الورساني الليثي الرازي (297 ~ 322 هـ). فقد ألف كتاب " أعلام النبوة " يرد فيه على الملحد أبي بكر محمد بن زكريا الرازي المتطبب وكانت له معه مناظرات، كما له كتاب " الزينة " يتكلم فيه على الحروف وأسماء الله والفرق الإسلامية. و " كتاب الإصلاح " ويتضمن بعض الكونيات بتأويل لآي القرآن تأويلا باطنيا حسب اعتقاد الإسماعيلية.

أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزي (ت: ما بعد 361 هـ) وله كتاب " سلم النجاة " و " كتاب الينابيع " وهما من الكتب الأساسية عند الإسماعيلية وغيرها.

القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله التميمي القيرواني (ت: 363 هـ) اشتغل لدى عبيد الله المهدي أول إئمة الإسماعيليين للفترة (313 ~ 322 هـ) وعظم أمره بعد تولية المعز له قاضيا وهو أكبر منصب من مناصب الدعوة الإسماعيلية. وهو مؤسس الفقه الإسماعيلي وصار كتابه " دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله" أكبر مدونة فقهية وكلامية عند الفاطميين. وله " المناقب والمثالب " أو " مناقب بني هاشم ومثالب بني أمية " و " شرح الأخبار في فضائل النبي المختار وآله المصطفين الأخيار من الأئمة الأطهار " و " افتتاح الدعوة وابتداء الدولة " وغيرها.

أما مؤولتهم الأكثر التصاقا بالتأويل الباطني فهو جعفر بن منصور اليمن (ت: ما بعد 380 هـ) وله كتاب " الكشف " و " أسرار النطقاء " و " سرائر النطقاء " وكلاهما يؤول القصص الوارد في القرآن تأويلا نزويا يحمل الأيات ما لا تحتمل. و كتاب " الرضاع في الباطن! " و " تأويل الزكاة " و " تأويل سورة النساء " و " تأويل الحروف المجموعة " وكلها تشهد بها عناوينها. وكتاب " الفترات والقرانات العشرة من كتب الحدثان وتصاريف الزمان " وهو يحوي موضوعات لها صلة بالموروثات الوثنية للمنطقة. وغيرها.

ويحتل حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرماني (ت: 411 هـ) مركزا هاما في الدولة الفاطمية لأنه عاصر فترة الحاكم بأمر الله المجاهر بألوهيته!، ثم هو كان أكبر الدعاة في العراق العربي والعجمي سواء. دعاه الحاكم سنة 407 هـ وكلفه بإعادة صياغة تعاليم الإسماعيلية. وطغت عليه النزعة الفلسفية في مؤلفاته كما أكثر من استعمال مقتبسات عبرية وسريانية ونظر للإمامة باقتباسات من نصوص العهدين القديم والجديد! وهذا أقصى ما بلغه التلفيق على الطريقة التي سادت في القرون الأولى للمسيحية تبعث من جديد بثوب يتدثر بالإسلام ليتم دورته الكاملة في فرقة الدروز كنموذج مبتذل لهذا النوع من التلفيقية الشرقية!. وهو غزير التأليف في مثل ما انتدب نفسه له وبما حمل من معارف من هنا وهناك من كتبه " كتاب راحة العقل! " وهو فلسفي يتناول خلق الكون والحدود الإسماعيلية العشرة التي يعرفونها بالجسمانية والروحانية!. و " المصابيح في إثبات الإمامة! " و " الرسالة اللازمة في صوم شهر رمضان " وهي تؤول رمضان تأويلا باطنيا على ما اعتاد الباطنية! وغيرها.

[2] أنظر: عقيدة الدروز لمحمد أحمد الخطيب، مكتبة الأقصى، الأردن. ففيه العجب العجاب من تخريفات القوم ومثل حي لكيفية إعادة الموروث القديم للمنطقة بتغليفه بكل معتقد طارئ كنهج في الاعتقاد. وهم ليسوا مسلمين، بل يطعنون على المسلمين ويسمون أنفسهم بالموحدين!. ثم هي نموذج حي لما يمكن لطبقة من السدنة أن تفعله بعقول أتباعهم الأميين، كما فعل كهنة مصر وكهنة زرادشت وماني بعقول معاصريهم في القديم. بل لا زالوا ينتجون النصوص التي يحشونها ويدبجونها ببعض آي القرآن التي يؤولونها حسب هواهم لأتباعهم. وفي عصرنا أخرج لهم كمال جنبلاط زعيمهم السياسي في السبعينات من القرن العشرين مع عاطف العجمي وبخط أحد أشياخهم وهو عبد الخالق أبو صالح، كتابا سموه " المصحف المنفرد لذاته " حاول فيه محاكاة آي القرآن بركاكة تنم عن سخافات أصحابها، سماها : " أعرافا "!. ونجد فيه نموذجا للتلفيق الشرقي لكل معتقدات شعوب المنطقة مجموعة في كتاب. فنجد التعبيرات الهندية محتفظا بمنطوقها الهندي مثل " هري اد هاري " اسم الإله الهندي " فيشنو " و "برهمان " و "أرهات كرما" ويعني في البوذية الكامل الذي تم فيه الإشراق. ويورد أسماء لثمانية من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة مثل أيا مبلي وهو ياmبليخوس (ت: 320 م) (Jamblicos) الأفامي وغيره . ويذكر " هرمس الهرامسة " ويفسره بأنه "زوزر" (Zoser) من الأسرة الثالثة المصرية المعروف ب " ايمحوتب" وهو باني هرم سقارة بمصر، وسماه الإغريق " هرمس الهرامسة " ذي الثلاث شعب، فيذكره صاحب " مصحف المنفرد بذات ويقول بعده : صلوات الله عليه!؟! وبأنه شفيع الكتاب والمؤلفين في العالم القديم. وهو يعتبر الفلاسفة من فيثاغورس وأفلاطون وهرمس كالأنبياء لذلك كلما ورد ذكرهم أتبعهم ب " عليهم السلام!" أو " صلوات الله عليهم!". أنظر : د/ عبد المنعم النمر، 1408 هـ/1988 م : الشيعة ، المهدي، الدروز : تاريخ ووثائق، ص. 264 ، العدد رقم 15 من سلسلة كتاب الحرية، القاهرة.

اليوم أو مستقبلا، من أجاويد عقال الدروز في جبل حوران السوري أو الشوف والمتن وقرى جبل كسروان اللبناني أن يخرج منهم رياضياتيون وإلى قيام الساعة!؟.

وتنوعت الإسماعيليات بتنوع مواطن الانتشار، فقد تكونت إسماعيلية شرقية على يد الداعية الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي (428 ~ 518 هـ) الذي صادف وأن كان موجوداً في مصر حاجاً إلى إمامه! المستنصر(ت: 487 هـ/1094 م) وشهد النزاع بين نزار والجمالي فانتصر هو لنزار[1]. ولما رجع إلى فارس أخذ يدعو لمذهبه الجديد وجعل من نفسه نائبا للإمام المستور، على ما عهدت هذه الفرق المتخفية تحت التشيع لآل البيت، بث مذاهبها الهدامة لقواعد الإسلام. استطاع هو وأتباعه أن يستولي على قلعة " ألموت" جنوب بحر قزوين ثم قلاع أخرى حصينة إلى أن استطاع تأسيس الدولة الإسماعيلية الشرقية النزارية واشتهر أصحابه بالحشاشين. وهذه أول مرة تظهر فيها هذه الطريقة المبتكرة في غسيل مخ الأتباع بتحشيشهم وتخذيرهم[2]. هؤلاء المخدرين كون منهم الحسن بن الصباح طبقة "الفدائيين " الذين كان يرسلهم لاغتيال أعدائه[3].

[1] يقال بأن نزار فر إلى الإسكندرية مع أسرته ومجموعة من مؤيديه حيث بايعه ناصر الدولة "أفتكين"، إلا أن الجمالي توجه بجيوشه إلى الإسكندرية وتمكن من القبض عليه وإقباره حيا!. في حين ادعى بعض النزارية على ما اعتاد الشيعة الغلاة في حبكتهم المكرورة! أن نزار لم يمت، بل اختفى وسيعود إلى الظهور باعتباره المهدي المنتظر!. بل ذهبت أسطورة أخرى تقول بأن جاريته كانت حاملاً منه، وأنها أخذت إلى قلعة "ألموت" حيث وضعت حملها الذي أصبح الإمام الجديد!.

[2] فهم أجداد الطوائف الخلاصية المعاصرة التي جنحت إلى استعمال المخدرات في محو ذاكرة الأتباع، كما في طائفة معبد الشمس التي بثت تلفزيونات العالم طريقة انتحارهم.

[3] من أشهر ضحاياهم بالاغتيال الفدائي "نظام الملك" الذي اغتاله أبو طالب أراني متخفيا بملابس الصوفية في 12 رمضان سنة 485 هـ/1092 م. ثم تمكنوا من اغتيال ابنه فخر الملك سنة 500 هـ/1107 م وحاولوا اغتيال ابن نظام الملك الآخر أحمد إلا أن جراحاته لم تكن مميتة! في شعبان سنة 503 هـ/1103 م، ثم نقلوا حربهم إلى مصر فاغتالوا في 23 رمضان سنة 515 هـ/1121 م أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر. وبعد موت الحسن الصباح سنة 518 هـ تولى بزرك آميد زعامة الحركة إلى سنة 532 هـ فاغتيل فيها أمير الموصل قسيم الدولة البرسقي وكذلك وزير الدولة معين الملك سنة 521 هـ/1127 م إلى أن قاموا بضربتهم الكبرى باغتيال الإمام الفاطمي " الآمر بأحكام الله " في العاشر من ذي القعدة سنة 524 هـ، ثم أتبعوه باغتيال الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة 529 هـ. وبعد موت بزرك آميد في 26 جمادى الأولى سنة 532 هـ خلفه ابنه محمد فافتتح عهده باغتيال الخليفة العباسي " الراشد بالله ". وفي أواخر أيامه أعلن ابنه الحسن نفسه إماما، ويقال بأنه خلف أباه واستهل عهده بإعلان " العهد الألفي السعيد !" مما يوضح الصلة بين الفرقة والديانة الزرادشتية بجلاء!. ففي 17 رمضان 559 هـ/(18 أغسطس 1164 م) تم الإعلان عن هذا الحدث في " ألموت " وجعلوا ظهورهم إلى الكعبة، ثم أعلن لهم أن الإمام المختفي قد أرسل إليه رسالة يبلغه فيها بتحرير أتباعه من قواعد الشريعة استعدادا ليوم القيامة وأن الإمام قد عينه وكيلا عنه. وبعد أن خطبهم صلى ركعتين سماهما ركعتي " صلاة الاحتفال " وأمر بمائدة كبيرة ملئت بشتى أنواع الطعام ودعا الناس إلى قطع صيامهم لأن الفروض الشرعية سقطت عنهم!، ثم خلفه بعده ابنه محمد بن الحسن وسار على درب أبيه ولما توفي بدوره خلفه ابنه جلال الدين (ت: 618هـ/1221 م) الذي تبرأ من أعمال أبيه وجده وأرسل مبعوثا إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يخبره بولايته له وأنه عاد إلى التمسك بظواهر الشريعة. ثم خلفه علاء الدين محمود الذي اغتيل سنة 653 هـ ليتولى ركن الدين خورشاه أمر الحركة وتكون نهايتها على يد عباد الله أولي الباس الشديد تتر هولاكو في أيامه سنة 654 هـ.

كلمة " الحشاشين " كنعت لأصحاب حسن الصباح تختلف في أصلها فمنهم من أرجعها إلى الحشيش، المخدر المعروف، ومنهم من أرجعها إلى أكلهم حشاش الأرض أي عشب الأرض نظرا لاضطرارهم لأكله بسبب الحصارات التي تعرضوا لها من طرف ملكشاه ثم من جاءوا بعده من سلاطين السلاجقة.. أما في الغرب فقد عرفوا الإسم من خلال رسالة بعث بها قس فلامندي يسمى غليوم روبرويك (Guillaume de Rubroeck) الذي أرسله لويس التاسع ملك فرنسا، إلى بلاط الخان الكبير التتري سنة 1253 م، ووصفهم بكلمة " أساسان " (Assassin) وتعني " المقتال " وادعى الرحالة الإيطالي ماركو بولو زيارته لقلعة ألموت سنة 672 هـ/ 1273 م في كتاب صدر بالبندقية سنة 1295 سماه " كتاب عجائب العالم " ووصفها بأنها جنة من نعيم الفردوس كانت تمثل إغراء للفتيان الذين يستعدون لتنفيذ أوامر الحسن الصباح للفوز بنعيم هذه الجنة الدنيوية!؟. وهو اختراع محض ضمن صناعة الصور الأوروبي عن الشرق لم يكتشف اختلاقه إلا في سنة 1996 عندما صدر كتاب لمتخصصة بريطانية اسمها فرانسيس وود من قسم " الصين " التابع للمكتبة البريطانية بعنوان ملفت : "هل ذهب ماركو بولو إلى الصين؟"، مشككة في كون ماركو بولو قام برحلته إلى الصين متبعا طريق الحرير التجاري وزيارته للقلعة!. بل الأرجح أنه نقل الوصف إما من كتاب عربي أو فارسي ولعب خياله بالباقي!. أنظر : (Frances,W., 1996: Did Marco Polo visit China?, Secker & Warburg, London)

هؤلاء الفدائيين كان يعتني بتربيتهم منذ الصغر بقسوة بالغة. بل لتشدده لم يتردد في قتل ابنيه وأوصى بعده لاثنين من قواده : كيابزرك وجعله قائدا للفدائيين مختص بالأمور الدنيوية، وأبي علي داعي الدعاة، الذي جعله منوطا بأمور الدعوة والزعامة الباطنية. وهؤلاء هم السبب في لبس أبي حامد الغزالي لخرقة التصوف، بعد أن كان الحشاشون الفدائيون اغتالوا ولي نعمته الوزير السلجوقي نظام الملك، الذي كان من أتراب حسن الصباح في الدراسة أيام طفولتيهما. وكما كان منتظرا فالخرافة لا تموت بسهولة في منطقة ما وراء النهر!، لذلك أشاع

5-3-5- الإمامية الإحدى عشرية تاريخياً (الإثنى عشرية! أسطورياً !)

لفظ الإمامية جامع لكل فرقة تدعي وجود نص على إمامة علي بن أبي طالب. وهي فرق كثيرة خضعت للتاريخ والجغرافيا والسياسة والموروث الوثني للمنطقة، منها :

- الباقرية : الذين أوقفوا تسلسل الإمامة في محمد (الباقر) بن علي زين العابدين، الأخ الأكبر لزيد بن علي.
- الزيدية : أصحاب زيد بن علي، الذين ينفون وجود نص جلي على علي والحسن والحسين، وينفون وجود أي نص لا جلي ولا خفي على أحد بعد هؤلاء الثلاثة.
- الجعفرية الواقفة : الذين وقفوا بتسلسل الإمامة في جعفر الصادق ولم يتعدوه إلى أحد من ذريته.
- الناوسية : التي قالت بأن جعفر الصادق لم ولن يموت! حتى يظهر!، أي : (أحبولة عنق الزجاجة!).
- الأفطحية : قالوا بانتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر عبد الله الأفطح (وجعفر الصادق يتكنى به، أي: أبا عبد الله) وهو أخ من أم واحدة لإسماعيل، رأس الفرقة الإسماعيلية، بدليل! أنه غسّل أباه عند موته وأخذ خاتمه! وجلس مجلسه وواراه التراب!. إلا أنه مات بعد أبيه بسبعين يوماً ولم يعقب ولداً، فماتت أسطورة هذه الفرقة بموته!.
- الشمطية : أتباع يحيى بن أبي شميط. قالوا: إن جعفر الصادق قال : إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم، وقد قال له والده (أي محمد الباقر) : إن ولِد لك ولد فسميه باسمي فهو الإمام!. ولذلك فالإمام بعد جعفرالصادق هو ابنه محمد!.
- الإسماعيلية : الذين سلكوا الإمامة في إسماعيل بن جعفر الصادق.
- الموسوية : لما رأت شيعة جعفر الصادق أن دعاواها في أولاده، على مثل هذه الدرجة من الإحباط!: فمن مختلف في موته! : حال الناوسية، ومن ميت من ذريته في حياة أبيه! : حال إسماعيل، ومن قائم بعد موته بمدة يسيرة مع خلوه من العقب! : حال الأفطح.، رجعوا إلى البقية الباقية، التي تغاضوا عنها! : ابنه موسى بعد أن أعياهم المطاف وراء السرابات الأخرى! فاجتمع عليه بعض التلاميذ الرواة المنتسبين للصادق أمثال : المفضل بن عمر[1] وزرارة بن أعين[2] وعمار بن موسى الساباطي[1] وغيرهم على شاكلتهم ودعوا إلى إمامته!.

الاتباع أن طفلاً صغيراً لركن الدين خورشاه اسمه شمس الدين عاش ليخلف أباه في الإمامة وليمتد نسله. والأغاخانية تنسب نفسها لهذه الأسطورة!.

[1] المفضل بن عمر الجعفي. قال عنه النجاشي في رجاله ص. 295 ، طبعة إيران : { فاسد المذهب مضطرب الرواية لا يعبأ به، وقيل إنه كان خطابياً وقد ذكرت له مصنفات لا يعول عليها }. ووصفه هاشم معروف الحسني الشيعي المعاصر في كتابه : " دراسات في الحديث والمحدثين "، ص. 307 ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، بدون تاريخ. : { المعروف بالغلو والكذب وقد وصفه الصادق بالكفر والشرك ونهى عن الأخذ بمروياته. } دليل هاشم معروف وإن لم يورده في كتابه لشيوعه عندهم، ما رواه الكشي في رجاله، ص.272 : { عن حماد بن عثمان : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول للمفضل بن عمر : " يا كافر! يا مشرك! ما لك ولابني ؟ يعني: إسماعيل بن جعفر وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطابية }. ويروي الكشي أيضاً ص. 274 : { عن عبد الله بن مسكان قال : دخل حجر بن زائدة وعامر بن جداعة الأزدي على أبي عبد الله (ع) فقالا له : جعلنا فداك، إن المفضل بن عمر يقول : " إنكم تُقدِّرون أرزاق العباد!، فقال : " والله ما يُقدِّر أرزاقنا إلا الله، ولقد احتجت إلى طعام لعيالي فضاق صدري وأبلغت إلى الفكرة في ذلك حتى أحرزت قوتهم. فعندها طابت نفسي. لعنه الله وبرئ منه. قالا: أفتلعنه وتتبرأ منه؟ قال : نعم! فالعناه وابرءا منه، برئ الله ورسوله منه}

وروى الكشي أيضاً، ص. 274 : { عن إسماعيل بن جابر قال : قال أبو عبد الله : إنت المفضل وقل له: يا كافر! يا مشرك! ما تريد إلى ابني (يعني إسماعيل)، تريد أن تقتله؟}

[2] أبو الحسن زراره بن أعين بن سنسن الشيباني بالولاء الكوفي (ت: 150 هـ/767 م) رأس الفرقة الزرارية من غلاة الشيعة، وتنسب إليه. عده أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي القمي (ت: 274 هـ/887 م) في " كتاب الرجال " ص. 16 ، ط. طهران لسنة 1383 هـ/1963م في أصحاب الباقر وابنه جعفر وحفيده موسى الكاظم.. كان جده سنسن راهباً في بلد الروم. وكان أبوه أعين عبداً رومياً لرجل من بني شيبان فلما رآه تعلم القرآن أعتقه وعرض عليه أن يدخله في نسبه فأبى وقال : أقِرَّني على ولائي وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيع حسب ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت: 438 هـ/1047 م) في الفهرست ص. 308 ~ 309 ، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ. قال أبو القاسم الخوئي في " معجم رجال الحديث (7 : 249) ط. النجف : { وقع بعنوان زرارة في إسناد كثير من الروايات تبلغ 2094 مورداً. فقد روى عن أبي جعفر (ع) روايات عنه تبلغ 1236 مورداً وروى عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع). ورواياته عنهما بهذا العنوان تبلغ 82 مورداً. وروى عن أبي عبد الله (ع)، ورواياته عنه بهذا العنوان، وقد يعبر عنه بالصادق (ع)، تبلغ 449 مورداً. وروى عن أحدهما (ع) ورواياته عنهما بهذا العنوان تبلغ 156 مورداً } وقال أبو العباس أحمد بن علي بن العباس النجاشي الصيرفي (372 ~ 450 هـ) في " كتاب الرجال"، طبعة الداوري، قم، إيران، ص. 125 : { زرارة بن أعين، شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم. }.

من بين هؤلاء الفرقاء كلهم لم تكتب الاستمرارية التاريخية سوى لأحزاب ثلاثة : الزيدية، الإسماعيلية والموسوية. قد مر بنا كيف صار البون شاسعا، لم يزدد مع مرور الزمن سوى اتساعا ، بين مقولات الزيدية ومقولات الإسماعيلية!. نفس الشيء سنجده يتكرر بينهما معا وبين هذا الفريق الثالث، مع أن موسى الكاظم وأخاه عبد الله بن جعفر الصادق ناصرا ابن عمومتهما الحسني محمد النفس الزكية حين خرج على المنصور العباسي، مثلما ناصره ابني

قلت : هذا الراوية المكثر، الذي لا يخلو منه ديوان من دواوين الإحدى عشرية سواء في الفقه أم الأحكام أم المواعظ أم الأصول...الخ شهد عليه جعفر الصادق رضي الله عنه بالكذب عليه وصح عنه لعنه!. أخرج الكشي في رجاله ص. 148 بسنده عن مسمع بن كروين قال : {سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول : " لعن الله بريدا (هو أبو القاسم بريد بن معاوية العجلي) ولعن الله زرارة ! } وهذه الرواية أخرجها الخوئي في معجمه أيضا (7 : 243). ولأخرج الكشي بسنده أيضا ص. 160 فقال : { عن ميسر قال : كنا عند أبي عبد الله (ع) فمرت جارية في جانب الدار على عنقها قمقم قد نكسته قال: فقال أبو عبد الله (ع) : فما ذنبي أن الله قد نكس قلب زرارة كما نكست هذه الجارية القمقم؟!}. وأخرج الكشي أيضا في رجاله ص. 144 بسنده عن أبي مسكان قال : { سمعت زرارة يقول : رحم الله أبا جعفر (محمد الباقر). أما جعفر فإن في قلبي عليه لفته!. فقلت له : وما حمل زرارة على هذا؟. قال : حمله على هذا أن أبا عبد الله أخرج مخازيه! } وأورد هذه الرواية أيضا الشيخ عبد الله بن حسن المامقاني النجفي (ت: 1351 هـ/1932 م) في " تنقيح المقال في أحوال الرجال" (1: 444) المطبعة المرتضوية النجف. ونقل الكشي ص. 149 طبعة دانشكاه، مشهد إيران عن أبي بصير ليث بن البختري المرادي : { سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : لا يموت زرارة إلا تائها!. }.

قلت : ورجال الحديث السنة يصدقون هذا الطعن من جعفر الصادق رضي الله على زرارة هذا. فقد نقل الذهبي في ميزان الاعتدال (2 : 69 /2853) فقال : حدثنا أبو يحيى بن أبي مسرة، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا ابن السماك، قال : حججت فلقيني زرارة بن أعين بالقادسية فقال: إن لي إليك حاجة وعظمها. فقلت : ما هي؟. فقال : إذا لقيت جعفر بن محمد فاقرئه مني السلام، وسله أن يخبرني أنا من أهل النار أم من أهل الجنة. فأنكرت ذلك عليه. فقال لي" إنه يعلم ذلك!، ولم يزل بي حتى أجبته. فلما لقيت جعفر بن محمد أخبرته بالذي كان منه، فقال لي: هو من أهل النار!. فوقع في نفسي مما قال جعفر. فقلت : ومن أين علمت ذلك؟ فقال : من ادعى علي علم هذا فهو من أهل النار. فلما رجعت لقيني زرارة فأخبرته بأنه قال لي هو من أهل النار. فقال : كال لك من ج ـراب النـ ورة!. قلت : وما جراب النورة؟ قال: عمل معك بالتقية!؟!؟!؟.

قلت : ومن هذا يتبين لك إشكالية الشيعة الإحدى عشرية مع رجالها. فهذا الرجل الدجال الكذاب المفتري، الكافر بشهادة جعفر الصادق رضي الله عنه ورواة السنة الرشدية الثقات ومع ذلك تجد من متأخري الإحدى عشرية من يريد تبرئة ساحته بدعوى التقية!؟!؟. وما دور التقية في مثل ما روي عن جعفر في هذا وما ورد في رواية الذهبي؟. ومن هنا يظهر لك أن الكذب خصلة متوارثة هنا. بل نجد السيد شرف الدين عبد الحسين الموسوي في كتابه المفبرك " المراجعات " الذي لا يمكن أن يغتر بما ملأ به كتابه من تلفيقات واختراعات، سوى من لا إلمام له بأصولهم، وهم غالبية شيعة إيران وما وراء النهر الأعاجم اللسان، لأنهم لا يستطيعون قراءة ولا فهم هذه المصادر التي لا يعرف ما بها سوى رجالات الدين. ثم حتى من كان منهم عربي اللسان فهو بدوره يجهل هذا لعمله بالتقليد البليد!. وها نحن نوقفك على ما ندعي بدليل ملموس لتحكم على مؤلف المراجعات وكتابه الحكم الفصل. يقول عبد الحسين في كتاب المراجعات ص. 388 ، دار البيان العربي، ط. 1410 هـ/1989 م،بيروت : بخصوص الرواة الشيعة : { وهناك أبطال لم يدركوا الإمام زين العابدين، وإنما فازوا بخدمة الباقرين الصادقين (عليهما السلام). فمنهم: أبو القاسم بريد بن معاوية العجلي، وأبو بصير، ليث بن مراد البختري المرادي، وأبو الحسن زرارة بن أعين، وأبو جعفر محمد بن مسلم بن رباح الكوفي الطائفي الثقفي وجماعة من أعلام الهدى!؟!؟، ومصابيح الدجى!؟!؟، لا يسع المقام استفاضتهم!؟. أما هؤلاء الأربعة فقد نالوا الزلفى!؟، وفازوا بالقدح المعلى!؟، والمقام الأسمى!؟!، حتى قال فيهم الصادق (ع) (وقد ذكرهم!؟!؟) : هؤلاء أمناء الله!!؟؟ على حلاله وحرامه!!؟؟، وقال ما أجد أحدا أحيا ذكرنا إلا زرارة وأبا بصير ليث، ومحمد بن مسلم، وبريد...

قلت : وقد مر بك لعن الصادق لزرارة بن أعين. أما أبا القاسم بريد بن معاوية العجلي وأبا جعفر محمد بن مسلم الطائفي فقد جمعهم جعفر الصادق رضي الله عنه تحت اسم المتريسين الهالكين في دينهم كما جاء في رواية عنه لخرجها عناية الله (زكي الدين) بن علي (شرف الدين) بن محمود بن علي القـهباني النجفي (ن: ما بعد 1019هـ/1610 م) في كتابه " مجمع الرجال " (1: 255)، طبعة 1384 هـ/1964 م بتحقيق السيد ضياء الدين العلامة، مطبعة رباني/أصفهان، إيران فقال : { عن أبي الصباح قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : يا أبا الصباح! هلك المتريسون في أدياتهم. منهم : زرارة وبريد ومحمد بن مسلم.و..} أما الرجل الرابع من أعلام الهدى! ومصابح الدجى! الملعونين! من طرف جعفر الصادق رضي الله والذين يزكيهم عبد الحسين! فهو أبا بصير الأصغر، ليث بن مواد البخـتري المرادي فقد لخرج الكشي في رجاله ص. 173 عن حماد الناب قال : { جلس أبو بصير على باب أبي عبد الله عليه السلام ليطلب الإذن فلم يأذن له فقال : لو كان معنا طبق لأذن!. قال : فجاء كلب فشغر(بال) في وجه أبي بصير قال: أف! أف! ما هذا؟ قال جليسه : هذا كلب شغر في وجهك! }. فهذه منزلته عند الصادق ما دام لم يأذن له!. وأخرج الكشي أيضا ص. 172 بسنده عن شعيب بن يعقوب أن قال : { سألت أبا الحسن (ع) عن رجل تزوج امراة ولها زوج ولم يعلم ؟ قال : ترجم المرأة وليس على الرجل شيء إذا لم يعلم. فذكرت ذلك لأبي بصير المرادي قال : قال لي والله! جعفر : ترجم المرأة ويجلد الرجل الحد. وقال بيده على صدره يحكها: أظن صاحبنا ما تكامل علمه!؟!؟.

قلت : فهنا إشكاليتان بالنسبة لنظرية الشيعة الإحدى عشرية في دعواها عصمة أئمتها ! وأن علمهم أزلي!، إذ رواية أبي بصير تجعل أحد الأئمة يكذب الأخر!، وتطعن في كمال علم الثاني!. وقس على هذا ما يجب على الداعية الحواري أن يلم به من أصول هذه الفرق حتى لا يترك المجال لهؤلاء المخرفة لتمرير أساطيرهم باسم الإسلام.

عمومتهما الحسينيين : الحسين وعيسى، ابني زيد بن علي الشهيد!. بل سنجد أباهما جعفرا الصادق (80 ~ 148 هـ) لا يخرج عن إجماع الهاشميين عندما قرروا بالإجماع بيعة محمد بن عبد الله : النفس الزكية، سوى بتذرعه أنه صغير السن ويرى أن الأولى بالبيعة أباه عبد الله، نقيب وشيخ الهاشميين جميعا يومها[2] !.

5-3-5-1- كيف ربع الجاحظ الدائرة وتنبأ بتولد الخرافة؟

لن نعرج كثيرا على تفاصيل التاريخ مع الحزب الموسوي وتعثراته التي واكبته منذ نشأته سنة 148 هـ غداة التحاق جعفر الصادق رضي الله عنه بربه إلى ذلك اليوم المشؤوم من سنة 260 هـ، حيث أقفلت الدائرة بالتحاق الحسن (العسكري)، الإمام الحادي عشر لهذا الحزب الموسوي بربه دون أن يعقب خلفا!. بل سوف نطوي الزمن طيا ونحط رحالنا زمنيا إلى ست سنوات، ما قبل نزول القضاء المقدور الذي سيوصل هذا الحزب إلى عنق زجاجة تنظيره!

في سنة 254 هـ انتقل إلى جوار ربه الإمام العاشر للحزب الموسوي، أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد في مدينة سر من رأى وخلفه على زعامة الموسويين ابنه الحسن العسكري (232 ~ 260 هـ). كان المتوكل، جعفر بن محمد الخليفة العباسي (ت: 247 هـ) قد أحضر علي الهادي من المدينة، موطن مولده إلى سر من رأى، التي سميت "مدينة العسكر[3]"، ليكون على مرأى من السلطة وعيونها حتى لا يأتي من هذا الحزب أو زعيمه أية مفاجئات!.

وغير هذا الحزب الشيعي وإمامه، كان هناك حزبان آخران، معاصرين له لهما أشياعهما ومنظريهما.

1) الحزب السني الرشدي :

ومثله ثلة من الفقهاء والقضاة والمحدثين بوقفتهم الشهيرة ضد السياسة العباسية، التي استنها المأمون العباسي بتبنيه لأطروحة حزب المعتزلة القائلة ب " خلق القرآن" وتسخير كل إمكانيات الدولة لفرضها كاعتقاد على سائر المسلمين!. هذه الفترة، التي لا مثيل لها في تاريخ الإسلام السياسي، من حيث العسف بالمخالف والمصادرة على اعتقاده بما لم ينزل الله به سلطانا!، عرفت بفترة " المحنة "، لكثرة ما تعرض له المخالفون من العنت والتعذيب والسجن وقطع الأرزاق وتشتيت الأسر، بل حتى الموت في سجون المامون. ثم استمرت كسياسة دولة أيام خلفه المعتصم، ثم الواثق[4]، وردحا من خلافة المتوكل قبل أن يرفع الأخير سيفها المصلت عن رقاب الناس، ويظهر تبنيه،

---

[1] هذا واسمه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، شيخ الطائفة الإحدى عشرية الملقب بالصدوق (ت: 460 هـ)) في كتاب " الفهرست" ص. 235 ، طبعة دانكشاه، مشهد، إيران بكونه فطحي المذهب، أي أنه يؤمن بإمامة عبد الله الأفطح بدل أخيه موسى الكاظم!

[2] جاء في مقاتل الطالبيين وأخبارهم ص. 206 لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (284 ~ 356 هـ) ط. الحلبي. أن الهاشميين اجتمعوا بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة 125 هـ وأنهم أجمعوا على عقد البيعة لمحمد بن عبد الله : النفس الزكية وأن السفاح والمنصور من بني العباس كانا من المبايعين عدا جعفر الصادق الذي قال لعبد الله، شيخ الهاشميين وأب النفس الزكية، عندما طلب منه المبايعة لابنه : { إنك شيخ، وإن شئت بايعتك، وأما ابنك فوالله ما أبايعه وأدعك! }.
وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فالثابت أن أكثر البيت الهاشمي خرج مع محمد، من بينهم : عبد الله الأفطح وموسى الكاظم ابني جعفر الصادق، وعيسى والحسين ابني زيد بن علي.. والإمام مالك وشيخه عبد الله بن يزيد بن هرمز والفقهاء محمد بن عجلان وأبي بكر بن أبي سبرة والمحدث عبد العزيز بن محمد الدراوردي والمقرئ عبد الله بن عامر السلمي وغيرهم من المشاهير والوجهاء والعلماء، كما أن حكومته جمعت بين المخزومي والعمري والزبيري والزهري كما أيدته القبائل المجاورة: جهينة، غفار، أسلم، مزينة..الخ. فالثورة لم تفشل لقلة الناصرين وإنما لقلة الدربة بأمور الحرب!. أنظر تاريخ الرسل والملوك للطبري الطبري (7 : 559) ومقاتل الطالبيين ص. 282 .
قلت : فإن لم يخرج الصادق معه، فقد خرج معه ابناه' بل إمام الموسوية نفسه! وبالتالي إمام الإحدى عشرية!. وسوف يلفق الملفقون لا حقا خرافاتهم وأساطيرهم في عصمة الأئمة!. وأنت ترى أن هذا تخريف لا يسنده التاريخ ولا الواقع!. لأن عصمة ما سوف يدعون تحت المؤثرات الوثنية، لم يكن لها من وجود في هذه الفترة المبكرة. وقد لفقوا حكايات بأن الصادق توقع بفشل الثورة، بل وبأماكن استشهاد كل من محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم وأبيهم عبد الله! مدعين فيه علمه بالغيب! ولم يخطر على هؤلاء الملفقين الردينين، عندما ادعوا هذا في آل البت الكرام أن الغيب الذي بموجبه تخلف الصادق، لم يمنع ابنه الذي ادعوا له ذات العلم من مخالفة تصرف والده والخروج مع ابن عمومته كما فعل كل وجهاء المدينة!. لذلك لجزم أن هذا تلفيق لاحق عن الفترة التي نتحدث عنها في أواخر العقد الخامس من القرن الثاني الهجري.

[3] لأن المعتصم، محمد بن هارون الخليفة العباسي (ت : 227 هـ) بناها وانتقل العسكر إليها فسميت بذلك. أقام علي الهادي رحمه الله عشرين سنة في هذه الإقامة الجبرية فنسب هو أيضا إلى مدينة العسكر هذه.

[4] استعمل المأمون على بغداد سنة 206 هـ لإمضاء هذه السياسة ، إسحاق بن إبراهيم الخزاعي. وهذا الأخير هو الذي كان يمتحن الناس ب " خلق القرآن " طيلة أيام المأمون، ثم المعتصم ثم الواثق. وفي سنة 218 وبينما كان المأمون يعد للخروج إلى طرسوس على حدود بلاد الروم

من منطلق سياسي صرف ! لآراء الحزب السني بزعامة الإمام أحمد بن حنبل. وبهذا الانقلاب السياسي المحسوب!، يكر الدور على المعتزلة، ليذوقوا بدورهم وبال أمرهم، من حنظل محنة ردة الفعل الشعبي، على ما اقترفوه من شطط في حق المخالفين مسايرة للسلطة!، يوم كانت الدولة السياسية لهم!. وهكذا ضرب العباسيون حزبين كبيرين من أحزاب المعارضة بحجر واحد أضعفهما معا ولم يقم لهما كبير شأن بعد ذلك.

2) الحزب المعتزلي :

هذا الحزب يمثله خير تمثيل في تلك الفترة الجاحظ[1]، الذي عاصر"المحنة" وشاهد وقائعها وكان أحد مؤيدي مرتكبيها!. ونموذج الجاحظ يمثل كل المأزق الشرقي في النظر إلى المخالف. فرغم علمه وتبحره في شتى علوم عصره لم يسلم من داء التسلط والحجر على المخالف بما لا يرتضيه لنفسه!. فقد كان من أصحاب أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة المعتزلي المنوط به تطبيق سياسة المأمون "المحنوية". وهو يروي واقعة امتحان المعتصم للإمام أحمد ويقول في حق المعتصم والمعتزلة[2] :

إن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر!

بينما هو يحرم فريق السنة الرشدية مما أباحه لحزبه!، حين جعل مقولة أصحابه في " خلق القرآن" تندرج تحت باب الاجتهاد!، حيث المصيب له أجران والمخطئ له أجر واحد!. بينما رفض على المخالف يقينه بأن هذا ليس اجتهاداً بقدر ما هو خوض فيما لا طائل تحته! وما لا نفع يعود على الأمة من وراءه!. كيف؟ وقد أودى بهم الشطط والعسف إلى اقتراف ما اقترفوا، وبلغت بهم الجرأة على الدماء تحت هذا التخريج الفاسد، إلى قتل الأنفس والتضييق

كتب إلى عامله اسحاق بن إبراهيم بإشام منشور تطاولاً على العلماء إلى تلك الفترة، حيث ينعت العلماء بأفظع ما نطق به حاكم!. جاء في منشور المامون الذي عمم إلقاؤه من فوق منابر مساجد الأمصار معرضا بالحزب السني الرشدي :
{ فرأى أمير المؤمنين! أن أولئك شر الأمة! ورءوس الضلالة!، المنقوصون من التوحيد والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة! وأعلام الكذب! ولسان إبليس! الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله!، وأحق من يتهم في صدقه! وتطرح شهادته! ولا يوثق بقوله ولا عمله!، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد، ومن عَمِيَ رشده وحطه عن الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمّا سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى وأضل سبيلاً. ولعمر أمير المؤمنين!، إن أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته، من كذب على الله في وحيه ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله.
فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك. فابدأ بامتحانهم! فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون! في خلق الله القرآن وإحداثه!، واعلمهم أن أمير المؤمنين! غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله!!!!???? واستحفظه من أمور رعيته! بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه!، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين! فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم على علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لا يقر أنه (أي القرآن) مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده..واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله. }
قلت : فهذا تحكم في معتقد الناس بتسليط سيف منعهم من وظائفهم وقطع أرزاقهم، وهو فعل إجرامي يتجدد مع كل الطغاة وإلى اليوم. كان الإمام أحمد بن حنبل صلبا في موقفه ضد أباطل المأمون بالحجة والدليل، فما كان من المأمون سوى أن أمر بإشخاصه إليه في طرسوس، هو ومحمد بن نوح. فيموت المأمون قبل وصولهما إليه، فيردون إلى بغداد، ليموت ابن نوح رحمه الله في الطريق مصفدا في أغلاله وليودع أحمد بن حنبل السجن حتى يبث في أمره الخليفة الجديد المعتصم. سار المعتصم على خطى المأمون يمتحن الإمام أحمد أمام رأس الفتنة وموقد تنورها: قاضي القضاة المعتزلي : أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الأيادي (160 ~ 240 هـ) دون أن تلين له قناة. فكان رحمه الله بموقفه هذا، كأنما أحيا شجرة الإسلام الرشدي التي كادت معاول الهدم الممثلة في ترجمة التراث الوثني للمنطقة وسبغه بصبغة الإسلام، تقضي عليه، بواسطة ما ألفت المنطقة من تهجين وتلفيق وإعادة إنتاج !. أنظر : تاريخ الرسل والملوك للطبري (2 : 1112) وطبقات الحنابلة (1 : 164) لأبي الحسن محمد بن محمد بن أبي يعلى (ت: 526 هـ)، مطابع السنة المحمدية، القاهرة.

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري (ت : 255 هـ). ولد بالبصرة في حدود سنة 160 هـ وأدرك فطاحيل الأدب واللغة وتتلمذ لهم أمثال : أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن علي الأصمعي (122 ~ 216 هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (112 ~ 209 هـ)، الذي قال في حقه الجاحظ: لم يكن في الأرض خارجي ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم منه. وأبي زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (122 ~ 215 هـ) وغيرهم. كما خالط مشاهير الكتاب والمترجمين الفرس والسريان الذين زخر بهم العهد العباسي. وكان من الناحية السياسية منقطعا إلى الوزير محمد بن الزيات في عهد وزارته وأقام مدة طويلة في مدينة سر من رأى (سامراء الحالية). اشتهر كأديب حتى قال عنه المسعودي في مروج الذهب : لا يعلم ممن سلف وخلف أفصح من الجاحظ وهو يتفق في هذا مع ما قاله أبو هفان في معجم الأدباء حين قال في حقه : لم أر قط ولا سمعت من أحب العلوم أكثر من الجاحظ. فإنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر. ومؤلفاته شهيرة سارت بها الركبان مثل البيان والتبيين وكتاب الحيوان..الخ.

[2] أنظر وجهة نظره كاملة في مقدمة كتاب " أحمد بن حنبل " ص. 12 وما بعدها لمحمد رجب البيومي، ط. دار المقاومة، مصر.

على الأرزاق وسجن المخالف وتعذيبه وفتنته في دينه ويقينه.. الخ؟.

إلا أن الذي يهمنا من الجاحظ هنا، ليس موقفه من المحنة وحزب السنة الرشدي كغريم سياسي لا يشاطره آراءه ومعتقده، بقدر ما يتعداه إلى رؤيته للأحداث السياسية في زمنه وتقييمه لها من وجهة نظر حزبه، بعد أن أزيح عن الحكم ونزل إلى واجهة المعارضة من جديد. فإن كان موقفه من المحنة ما وقفنا عليه، فما هو موقفه وموقف حزبه الذي عرف باسمه : "الجاحظية " من الحزب الثالث : الحزب الموسوي؟.

هنا تسعفنا رسالة صغيرة ألفها الجاحظ بعد تولية الحسن العسكري منصب الإمامة الموسوية، سنة 254هـ. وعمر الحسن يناهز اثنتين وعشرين سنة. الرسالة حملت عنوانا ملفتا جدا! بالنسبة للبيئة الإسلامية آنذاك : " كتاب التربيع والتدوير ! ". فماذا قصد الجاحظ أو أراد من وراء تربيعه أو تدويره في رسالته هذه؟. فتربيع الدائرة أو تدوير المربع مفهومان رياضياتيان وصلا الجاحظ من خلال ما ترجم من تراث الإغريق[1]. وكان يعلم أن لا حل لها!. لكن الجاحظ لم يأخذ من الرياضيات سوى عنوان كتابه. أما موضوعه فارضي جدا ويلامس الواقع السياسي لعصره بتحليل وتمعن وتفرس وبعد نظر، قلما نجدها عند غيره من معاصريه، بل لا يضاهيها كلها سوى جحوظ عينيه اللتين لم تملا قط من كثرة القراءة وتنزيلها على واقع عصره ثم انطلاقا منها استشرافا للتوقع بمستقبله!. يقول الجاحظ مداعبا أحمد بن عبد الوهاب :

لو قتلت هلكت الأمة، لأنك لا عقب لك. والإمامة اليوم لا تصلح في الاخوة، ولو صلحت في الاخوة كانت تصلح في ابن العم، ثم إنها دنت في الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد. وفي هذا القياس أنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد، وهذا هو علة المناسخة!

ولتربيع هذا النص الجاحظي المدور نحتاج أن نأخذ بيد القارئ إلى بداية نشأة الحزب الشيعي ونتتبع أدواره وأطواره وتعثراته وانقساماته المتتالية وشظاياه اللاحقة إلى موت علي الهادي وتولية ابنه الحسن العسكري مكانه سنة 254 هـ. فقد رأينا فيما تقدم من فصول كيف نشأت شيعة لعلي بن أبي طالب ترى أنه كان الأحق بالخلافة العظمى من غيره، ثم تطورت أيام خلافته إلى الغلو في شخصه بادعاء الألوهية فيه من طرف عبد الله بن سبأ اليهودي إحياء لموروث المنطقة القديم، ثم بعد استشهاده بايع أشياعه لابنه الحسن، ليتخلى عن الخلافة بدوره، لمعاوية بن أبي سفيان تحت ضغط عدم الانضباط في عموم أشياعه، ثم ليقتل مسمما ويتزعم آل البيت أخوه الحسين، ليستشهد بدوره في فاجعة كربلاء، ولتنتقل الزعامة السياسية للحزب الهاشمي إلى ابن علي الآخر محمد بن الحنفية، من غير ذرية فاطمة الزهراء. إلى هذه الفترة كان البيت الطالبي والعباسي والجعفري موحدا تحت زعامة ابن الحنفية بمشاركة من عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر. فعندما حاصر عبد الله بن الزبير الهاشميين بمكة لإرغامهم على البيعة له وجدنا أنهم أنقذوا منه بواسطة شيعتهم التي أو صلتهم بأمان إلى الطائف. ولما توفي عبد الله بن عباس بالطائف سنة 68 هـ، إنما صلى عليه محمد بن الحنفية.

ثم لما توفي محمد بن الحنفية سنة 81 هـ بالمدينة خلفه في أمر الشيعة ابنه أبو هاشم عبد الله بن محمد. وهو حين رأى دنو أجله ولا عقب له، لم يجد حرجا من إسناد أمر الشيعة وأسرار الدعوة إلى ابن عمه من فرع العباس وهو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وقال له : إن الأمر صائر إليكم . وعندما خرج زيد بن علي سنة 122 هـ خرج

[1] لا شك أن لا مسالة رياضياتية شغلت القدماء وألهبت قريحتهم ما ألهبته مسالة بناء مربع تساوي مساحته مساحة دائرة معينة. وبرجوعنا القهقرى إلى حدود سنة 1800 ق.م. نجد أن المصريين القدماء وجدوا حلا للمشكلة بأخذ طول ضلع المربع مساويا ل (8/9) (ثمانية أتساع) من قطر الدائرة المعنية. بعدهم اشتغل بالمسالة آلاف الرياضياتيين. ورغم وجود برهان في عصرنا يقول باستحالة بناء الحل بواسطة الأدوات الإقليدية فقط،(نسبة إلى إقليدس) أي البيكار والمسطرة، فلا تمر سنة دون أن يطلع علينا من يدعي توصله إلى طريقة لتربيع الدائرة!. أما الإغريق فكان أول من اشتغل بالمسالة أنكزاكوراس (Anaxagoras) (499 ~ 429 ق.م)، ثم معاصره أبقراط اكيوسي (Hypocrates of Chios) ثم بعدهما هيبياس الإليسي (Hippias of Elis) (~ 425 ق.م)، ثم دينوستراتوس (Dinostratus) (~ 350 ق.م.) إلى أن وجد أرشيميدس حلا انيقا بواسطة الحلزون الذي يحمل اسمه حوالي سنة 225 ق.م.
نسبت الترجمات العربية للتراث الإغريقي وجود كتاب لأرشميدس بعنون: " حول المسبع بداخل دائرة " لم يصل الغرب ووثاقة وجوده تمثلت في حل قدمه الصابئ الحراني ثابت بن قرة (211 هـ/826 م ~ 289 هـ/901 م). وثابت معاصر للجاحظ الذي يقرأ كل شيء يقع تحت بصره أو يده!. ومن هنا هذا العنوان الملفت من أديبنا الجاحظ. أنظر هاوارد إيفز : المدخل إلى تاريخ الرياضيات ص. 88 ~ 89 و 200 ~ 201 في : Howard, E., 1969: An Introduction to the History of Mathematics, 3d ed. Holt, Rinehart &Winst

معه الكثير من أبناء عمومته من البيتين واستشهدوا معه حتى نجد الصادق رغم عدم خروجه مع عمه زيد لعدم موافقته له في أمر الخروج، فإنه مع ذلك كان يجله ويحترمه ويقدر فيه ليس فقط قرابته، بل علمه وصدقه ووفاءه حتى قال فيه عندما بلغه استشهاده رضي الله عنهما[1] :

رحمه الله، أما إنه كان مؤمناً، وكان عارفاً، وكان صدوقاً، أما إنه لو ظفر لوفّى، أما إنه لو ملك لعرف كيف يضعها.

ولا ننتظر من الصادق اتجاه عمه غير ذلك. بل لام من دعوه وخذلوه وقام بتفريق الأموال في أسر المقتولين معه.

وعندما توفي أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة 125 هـ، وهي ذات السنة التي توفي فيها الملك أبو الوليد هشام بن عبد الملك الأموي، انتقلت رياسة الدعوة إلى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام وهو أخ لكل من السفاح والمنصور. وإلى هذه الفترة انتقلت الدعوة من المطالبة بالحق إلى اللجوء إلى القوة. كان مولى إبراهيم بن محمد أبو مسلم الخرساني يجبي الأموال لإبراهيم من خراسان ويحملها إليه في مدينة الحميمة بالأردن، حيث اتخذها مقرا لدعوته. ولما حبسه مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية وعرف أنه مقتول لا محالة، أوصى بأمر دعوتهم إلى أخيه السفاح. ثم خرج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالجوزجان من بلاد خرسان أيام الوليد بن يزيد سنة 126 هـ منكرا للظلم وما عم الناس من جور وفساد حكام، فسير إليه عامل الأمويين نصر بن سيار سالم بن أحوز المازني فاستشهد يحيى من سهم أصابه في صدغه، فاحتز رأسه وحمل إلى الوليد بن يزيد الفاسق[2] وصلب جسده بالجوزجان. ولم يزل مصلوبا رحمه الله إلى أن استولى أبو مسلم الخرساني سنة 131 هـ على خراسان فأنزل جثته وصلى عليه ثم دفنه بقرية "أرعونة" هناك رحمه الله. ثم كانت بيعة آل هاشم جميعهم عدا الصادق لمحمد النفس الزكية سنة 125 هـ وباسمه كان الدعاة يدعون للرضا من آل هاشم إلى أن ظهر ما كان مضمرا من طرف بني عمومتهم العباسيين حين بويع للسفاح سنة 132 هـ.

وهكذا نكث بنو العباس ببيعتهم لمحمد النفس الزكية وغدروا به، وانتهى بهم الأمر إلى قتله عندما خرج هو وأخوه إبراهيم سنة 145 هـ بعد أن كان قد استشهد في سجن المنصور أبوهما واخوته وبني عمومته قبل هذا التاريخ.

وبهذه الفاجعة الغير متوقعة سيقلص الحزب الزيدي الأهلية للخلافة في أبناء فاطمة فحسب : حسنيين أو حسينيين، ثم بعد موت الصادق ستضيق شروط الإمامة نسليا لتنحصر في أبناءه فحسب. فكانت في أبنائه حسب أنصار كل منهم، إلى أن ضاقت لدى كل فرع سواء منه الإسماعيلي، الذي سلسلها في ذرية إسماعيل دون سواه من إخوته، أو الموسوي الذي حصرها بدوره في نسل موسى فحسب وحجبها عن أبناء العم المباشرين، بعد أن كانت قد ضاقت عن الأبعدين!، ثم ضاقت مرة أخرى بدعوى الوصاية حتى حجب منها الإخوة.

هذا هو ما استقرأه الجاحظ من صيرورة الحزب الموسوي عندما حل بمدينة سر من رأي وعلم أن الحسن العسكري تولى الإمامة سنة 254 هـ وهو لم يعقب بعد!. كانت النتيجة الحتمية لهذا التضييق النظري أن وقع الحزب الموسوي في عنق زجاجة تنظيرية لا مخرج له منها سوى بما توقع به الجاحظ، أي : أن يصير الإمام خالدا!.

فكرة جنونية!. لا شك في ذلك. لكن ليست فوق جنون الشرق والمشارقة!.

توفي الجاحظ سنة 255 هـ وتبعه الحسن العسكري سنة 260 هـ عن عمر يناهز 28 سنة وورثه أخوه جعفر بمحضر قانوني شرعي، حضره الأشراف ووقعوه كما وقعته السلطة، وذهب جعفر أخ الحسن بكل تركته، لأن الأشراف لهم سجل بالولادات يسجل فيه كل مولود جديد. هذه وقائع التاريخ المدونة كما سجلتها المصادر الموثوقة. لكن!، هل ينتهي الحزب إذن بمثل هذه النهاية الدرامية المأساوية نزولا عند القدر، ويسدل عليه ستار التاريخ بعد كل هذه التضحيات من الأجيال المتعاقبة قرابة القرنين؟ أتتفرق كل هذه الجموع بمثل هذه السهولة، وهي التي قاومت بطش

[1] رجال الكشي . 184 .
[2] كان الوليد بن يزيد (ت : 126 هـ) صاحب شراب وطرب ولهو وسماع للغناء، مع تهتك ومجون وخلاعة.، حتى اشتهر باسم " خليع بني مروان " وهو أول من حمل المغنين إليه من البلدان وجالس الملهين وأظهر الشرب والملاهي والعزف. واشتهر في أيامه الغناء واللهو منذرا بقرب أفول الدولة. واشتهر من المغنين في أيامه: معبد والفريض وابن سريج وابن محرز وابن عائشة ودحمان وطويس وغيرهم حتى غلبت شهوة الغناء في أيامه على الخاص والعام. والناس على دين ملوكهم. وفي جداته من أمه كسراويتين وقيصرية وكان يفاخر بذلك!.

الإلغاء وبطش الإقصاء طوال هذه السنين؟ لاها الله! وقد قدم الجاحظ، عدو الحزب اللدود، الحل الأمثل! ظانا استحالة تربيع الدوائر!.

الجاحظ، الموسوعي المعرفة، الداهية في السياسة، القوي العارضه! غاب عنه أن المنطقة مذ كانت، ما تخصصت سوى في تربيع الدوائر، دوائر الخرافات والأساطير. ثم أولم يبدأ بتربيع الدوائر، كل الدوائر، في مصر ومنذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد؟.

6- الحزب الموسوي : طور صناعة المهدي

قتل الملك العباسي المتوكل على الله، أبو الفضل جعفر بن محمد (المعتصم) بن هارون (الرشيد) سنة 247 هـ. فتكوا به في مجلس لهوه بأمر ابنه المنتصر[1]. وكان فيه نصب ظاهر، أي كره آل البيت. وغلب عليه الانهماك في اللذات والتبذير والمكاره، على ما اعتاد العباسيون في أطوارهم ما قبل انفراط عقد دولتهم، ليصبحوا دمى يتلاعب بهم العسكر يخلع منهم ويرفع حسب الرغبة والطلب!. ثم قتل المنتصر مسموما وعمره لم يتجاوز 26 سنة في سنة 248 هـ وبايع الجيش التركي لأحمد بن محمد بن المعتصم بعد وسموه : المستعين! بالله، وهو لقب من تلك الألقاب الفضفاضة، التي هي من النقائض اللغوية والتي ستشيع في هذه الدولة!. أما عند المحاققة، فهو إنما يستعين بالأتراك!. وسيظل المستعين مقهورا، لا حول له ولا قوة، مع قواده الترك إلى أن أرغموه على خلع نفسه لينتهي به المطاف مغتالا من طرف المعتز سنة 252 هـ.

وتلا موت أبي الحسن علي الهادي، الإمام الحادي عشر سنة 254 هـ وقوع ثورة الزنج في السنة بعدها بزعامة رجل ادعى أنه : علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد الشهيد[2]!، فالتف حوله زنج أهل البصرة ليدوخوا الدولة قرابة عقدين. ثم قتل المعتز بالله، أبو عبد الله بن المتوكل سنة 255 هـ، بعد أن خلعه قائد الجيش التركي صالح بن وصيف، لتأخر أعطياتهم[1] وهو ابن 23 سنة!. ثم بايع الأتراك للمهتدي بالله، أبا إسحاق محمد بن الواثق بالله بعده، ليقتلوه بدوره السنة التي تليها أي سنة 256 هـ ، عن عمر يناهز 38 سنة. ثم نصبوا بعده المعتمد على الله، بينما استمرت ثورة الزنج تلحق الهزائم بجيش العباسيين في كل من البصرة والبطيحة والأهواز. بل مما زاد الطين بلة، ظهور ثائر جديد، هو يعقوب بن الليث الصفار الذي استولى على إقليم خراسان وأسر أميرها محمد بن طاهر. وبلغ من ضعف العباسيين وانشغالهم بالفتن حولهم، أن عرض المعتمد على الله علي يعقوب هذا أن يوليه خراسان وجرجان فأبى!. واستمر الزنج في ثورتهم وإغارتهم إلى أن نزلوا بواسط وأشاعوا الرعب فيها ففر أهلها حفاة عراة وحرقت عليهم ديارهم سنة 264 هـ، ثم استباحوا رامهرمز سنة 266 هـ واستمروا في حروبهم للدولة العباسية إلى سنة 270 هـ حيث استطاع أخيرا الموفق، أخ المعتمد على الله، القضاء عليهم في عقر دارهم بمدينتهم المحصنة المعروفة ب " المختارة "، ليبدأ طور آخر من الفوضى السياسية بظهور القرامطة سنة 278 هـ بسواد الكوفة. المعتمد على الله عاصر كل هذه الأحداث ليقضي بدوره سنة 279 هـ، بعد أن أرغمه المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق أن يقدمه في العهد على ابنه المفوض!.

هذه هي الخلفية السياسية التي عاصرها كل من علي الهادي والحسن العسكري آخر إمامي الشيعة الموسوية. ومنها يتضح أن أمر الموسويين لم يكن ليشغل بال العباسيين ولا ليقض مضجعهم أمام الشرور الأخرى التي داهمتهم.

---

[1] سبب نقمة ابنه عليه لم تكن بسبب فجور والده وإنما لأن أباه عقد العزم على عزله من ولاية العهد وتولية ابنه الآخر المعتز، من محظيته صبيحة. (أم ولد). دخلوا عليه في جوف الليل وقتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان. وكان للمتوكل 500 وصيفة للفراش، لم تكن فيهن لحظى من صبيحة أم ولده المعتز. بل كان الناس لوقوفهم على ولعه بالجواري يتفننون في الحصول عليهن لإهدائهن له! كل على حسب قدره! فأهدى له محمد بن عبد الله بن طاهر 300 من أصناف الجواري التي كانت تنشأ وتربى كما تنشأ وتربى الخيول الأصيلة بغية تغليب صفة من صفات الوراثة فيها. فالعباسيون أول من تفنن في تهجين النسل قبل أن يصير موضوع الساعة في العصر الحديث! ومن له مثل هذا الولع بالفساد فلا تسأل عن تدينه!. أنظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (2 : 114).

[2] بينما علي الحقيقي هذا بلحمه ودمه كان لا يزال حيا يرزق بالبصرة عندما دخلها صاحب الزنج. فخرج ولقي صاحب الزنج مما اضطره إلى ترك الانتساب إلى عيسى بن زيد وتحول إلى الانتساب في يحيى بن زيد!، ليظهر في الأخير أن اسمه الحقيقي هو: علي بن محمد بن عبد الرحيم العبقسي، من عبد القوس صليبة، من قرية من قرى الري اسمها " ورزنين"أنظر : ابن حزم الأندلسي في: جمهرة أنساب العرب" ، ص.57 .

فمن ضعف ملوك صوريين وصبية في مهب ريح شهواتهم ونزواتهم، إلى ضعف في هيبة الدولة وكثرة الخارجين عليها، إلى كثرة الفتن والملاحم: يمكن الجزم دون خلف، أن الإمامين الموسويين العسكريين، لم يحظيا بانصراف الدولة العباسية عنهم في هذا الفترة من تاريخهم، ما حظي به إمام سابق في كل تاريخهم، لولا تدخل القدر الذي أفسد عليهم حبكتهم البليدة ودخل عليهم من عنق زجاجة تنظيرهم! الأكثر بؤسا[2]!.

هذا الواقع التاريخي لا يسعف بحال منظري الأساطير، لأن من مميزات الأسطورة أن تكون خارج التاريخ.

يقول أحد المخرفين المعاصرين عن أسطورة ولادة خرافة اسمها المهدي![3]للحسن العسكري :

وقد ولد (المهدي) هكذا معلنا عنه، مستورة ولادته في سر من رأى في العراق، نظيفا منظفا، مفروغا منه، مختونا ـ كما هو شأن كل إمام!؟! ـ يتلقى الأرض بمساجده السبعة. وكان ذلك عند بزوغ الفجر من صبيحة الجمعة من النصف من شعبان سنة 255 هجرية..وتناولته السيدة حكيمة، عمة أبيه، بنت الإمام الجواد (ع) وناولته لأبيه، وكان مكتوبا على عضده بالنور!؟!: جاء الحق وزهق الباطل[4] !.

ذلك أنه سيحق الحق بثورته العالمية[5] ؟! ويزهق الباطل ويسحق الظالمين!. ومن العادة أن يكون مكتوبا على عضد الإمام عند ولادته!؟!؟ : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا [6]﴾

وقد جاء عن الإمام الرضا (ع) قوله :

وسقط من بطن أمه جاثيا على ركبتيه، رافعا سبابته نحو السماء، ثم عطس فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله، عبد ذاكر لله، غير مستنكف ولا مستكبر. زعمت الظلمة أن حجة الله داحضة. لو أذن لنا في الكلام لزال الشك[7] ؟!..

(وروت السيدة حكيمة (عمة أبيه) هذا الكلام بلفظه).

وكان يومئذ في مدينة قم منجم يهودي مشهور، قصده أحمد بن إسحاق وكيل أبيه (الحسن) العسكري في قم وصاحبه الجليل وقال له : قد ولد مولود في وقت كذا، فاعمل له ميلادا وطالعا!؟!. فنظر اليهودي في الطالع وعمل عملا وقال لابن إسحاق : لست أرى النجوم تدلني فيما يوجبه الحساب..لا يكون هذا المولود إلا نبيا!!!؟؟ أو وصي نبي!!؟. وإن النظر يدلني على أنه يملك الدنيا شرقا وغربا، وسهلا وجبلا، حتى لا يبقى على وجه الأرض أحد إلا دان له وقال بولايته[8] !!؟؟

نلاحظ بتفكيك حبكة هذا النص الأمور التالية :

أ. استعار من سيرة المسيح عليه السلام كونه تكلم في المهد، وهي من معجزاته وحده عليه السلام فأضافها هذا

---

[1] سوف يصادر صالح بن وصيف أموال والدة المعتز صبيحة التي بلغت ثلاثة ملايين دينار وينفيها إلى مكة.

[2] ففي فترة المخاض التي امتدت منذ دخول المعتصم العباسي إلى "سامراء" سنة 227 هـ مرورا بالواثق المبايع له سنة 232 هـ ثم المتوكل المبايع له سنة 247 هـ ثم المنتصر لمدة 6 أشهر، ثم بيعة المستغيث سنة 248 إلى خلعه سنة 252 هـ وبيعة المعتز إلى خلعه سنة 255 هـ وبيعة المهدي إلى قتله سنة 256 هـ وبيعة المعتمد إلى سنة 279 هـ وبيعة المعتضد بالله، أي ثمانية من ملوك العباسيين، وسط شغب الجيش والأطراف، نجد أن كل ثورات العلوية إنما قامت على يد "الزيدية" بشعارها المعلن "الرضا لآل محمد" حتى عد المؤرخون منهم ثمانية عشر ثائرا زيديا، ليس من بينهم موسوي واحدا، نجد تفاصيلهت في كتب أبي الفرج الأصبهاني في "مقاتل الطالبيين" وابن الأثير في "الكامل في التاريخ" والمسعودي في "مروج الذهب" وغيرهم. بل سنجد أن هذا الحزب الموسوي ظل خاملا طوال هذه الفترة وإلى انقراض الإمامة اللحمية بموت الحسن العسكري إلى ظهور الإمامة الخرافية الأسطورية الممثلة ب "المهدي المغيب في السرداب " حتى قيام دولة الصفويين بإيران في القرن الحادي عشر الهجري، السابع الميلادي. التي لحيت التراث الخرافي والأسطوري والفلسفي لموروث المنطقة من جديد على يد كل من "المير داماد"{ت : 1040 هـ / 1630 م} وتلميذه "الملاصدرا" الشيرازي ت {: 1050 هـ / 1640 م} وتلامذتهما المباشرين و الأبعدين الذين سوف يعيدون إحياء المدرسة السيناوية (نسبة إلى بن سينا) ذات المنحى الإشراقي الباطني المشوب بالفكر السهروردي الممزوج بوحدة وجود ابن عربي الحاتمي، الذي هو عرفان غنوص قديم للمنطقة ! وهو موروث حوزات قم والنجف إلى اليوم خارج التاريخ والواقع والإسلام.

[3] كامل سليمان، 1405 هـ/1984 م : " يوم الخلاص في ظل القائم المهدي عليه السلام" ط. سادسة، ص. 86 دار الكتاب اللبناني، بيروت. لاحظ أن العنوان زرادشتي لا يخطئ !

[4] عزاه إلى بهاء الدين أبي الحسن، علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي (ت: 693 هـ) في كتابه: " كشف الغمة في معرفة أحوال الأئمة" (3 : 310)، ط. إيران لسنة 1382 هـ

[5] هذا ما ألهمنا صورة غلاف هذا الكتاب!

[6] عزاه إلى كتاب الشيخ علي اليزدي الحائري في كتابه: " إلزام الناصب في إثبات حجوية الغائب!!؟؟ " ص. 10 ، ط. طهران لسنة 1351 هـ

[7] عزاه لكشف الغمة (3 : 288) وإلزام الناصب، ص. 100 وغيرهما.

[8] عزاه لمحمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي المجلسي الأصفهاني (1037 ~ 1111 هـ) في كتاب: بحار الأنوار الجامعة لعلوم الأئمة الأطهار " (51 : 23) طبعة طهران لسنة 1385 هـ.

المخرف إلى أسطورته!. (تلفيق + تهجين).

ب. **صاحب هذه الحبكة يؤمن بشركيات وادي الرافدين في تعلق الأجرام السماوية بصيرورة الآدميين على الأرض وهو(** كفر اعتقاد محض!.) .

ت. **تقويل اليهودي المختلق هذا بأن هذا المولود إما نبي أو وصي نبي، يجعل اليهودي يقول بالوصي!، وهو ممتنع، إذ لا وجود له في دينه وإنما هو من ابتكارات الشيعة المتأخرة. وهو أيضا تلفيق يحاكي أصحاب السير المسيحية في العلامات الكونية! عند ولادة المسيح عليه السلام كما نجد في إصحاح متى (1:2 ~ 2):**

ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في الشرق، وجئنا لنسجد له!..[1].

فالذين لفقوا هذه الخرافات لا يختلفون في شيء عن أولئك الذين لفقوا تلك السير للمسيح عليه السلام!. فهذا إرث المنطقة بأكملها منذ فجر الحضارات. (تلفيق + تهجين + تبديل أدوار) **حسب عرف العصر، بين المجوسي أيام المسيح والمنجم اليهودي! أيام العباسيين. إذ اشتهر ملوك بني العباس بمثل هذه الاستشارات التنجيمية قبل الإقدام على أي أمر ذي بال!)، وهو شرك محض كما لا يخفى.**

ث. **كون الأئمة ومنهم حسب تخريفاتهم : علي والحسن والحسين..يولدون مختونين! حسب هذه الأسطورة السمجة يدحضها التاريخ.** (الجهل بالتاريخ).

ج. **كون الكتابة على العضض بالنور! : تلفيقات تليق بعقول العصافير!** (مخالفة السنن التكوينية).

هذه التخريفات مجتمعة، بصمة لا تخطئ للتهجين القديم المتعدد المؤثرات مبرقعا في لباس الإسلام!. وهي خاصية شرقية صرفة في إنتاج الأساطير وإعادة تدويرها، وتختلف كلية عن نمطية الأسطرة لدى الشعوب الأخرى لاختلاف البيئات كما نجد ذلك مثلا في الأساطير الألمانية أو السلافية.

والغريب هو أن هذه النمطية من الأسطرة في المنطقة، لا زالت لها استمرارية في التاريخ!، كما يستشف من خلال عنوان الكتاب نفسه : " يوم الخلاص! "**. ثم هو عنوان نمط، من بين عناوين عدة، لازال لها رواد ومستهلكين، كما نستشف من مؤلف آخر[2] تحت عنوان ملحمي! :** " الإمام المهدي من المهد إلى الظهور!"**. وإلقاء نظرة ولو عابرة، على عناوين محتويات فصوله الأربع والعشرين تنبئ بما يفوح به من عطر الأسطرة والمأثور الذين أوقفناك على بعض نماذجها المبتذلة! :**

(1) من هو الإمام المهدي؟ (2) اسمه ونسبه!، (3) البشائر في القرآن بالإمام المهدي!؟، (4) البشائر في الأحاديث النبوية!؟، (5) البشائر في أحاديث الأئمة الأطهار!؟، (6) من ولد الإمام المهدي؟، (7) كيف غاب عن الأبصار؟!؟!، (8) الغيبة الصغرى!؟، (9) النواب الأربعة!؟، (10) من الذي رآه! في الغيبة الصغرى؟!، (11) الغيبة الكبرى!؟، (12) من الذي رآه! في الغيبة الكبرى!؟، (13) كيف عاش إلى هذا اليوم!؟، (14) متى يظهر؟!، (15) أوصاف الإمام المهدي وعلامته!، (16) علائم الظهور!، (17) الذين ادعوا المهدوية كذبا!؟ وزورا!؟، أو نسبت إليهم!، (18) كيف يظهر ومن أين يبدأ؟، (19) كيف تخضع له الدول والحكومات!؟!؟!؟، (20) كيف يحكم إذا ظهر؟!؟، (21) حياة المجتمع في عصر الإمام المهدي!؟، (22) كم سنة يحكم؟!، (23) كيف تنتهي حياته؟!!!؟، (24) كيف يحكم إذا ظهر؟!!.

وكنموذج من هذا التمثل الردئ لموروث المنطقة، يكفينا أخذ عينة من هذه الفصول تكون بمثابة الشاهد على الباقي:

ففي الفصل الأول : " من هو المهدي؟" **يتحفنا السيد القزويني بقوله المفحم! والمفعم! في آن[3] :**

إن شخصية الإمام المهدي تعتبر حقيقة!!!؟؟ إسلامية!!؟ أو مسألة من أهم! المسائل الدينية!، وتعتبر من صميم الدين

[1] وقد جاء لفظ " مجوس" في الأصل اليوناني بصيغة الجمع مجوي (Magoi) على الجمع من مجوس (Magos) حيث السين (S) زائدة للرفع. وهي الصورة اليونانية للفظة (ماج) العبرية المأخوذة من (ماجو) الفارسية. وأخطأ متى هنا بخلطه بين كهنة بابل عبدة النجوم (فإننا رأينا نجمة في المشرق) وبين كهنة المجوس أتباع زرادشت عبدة النيران. زيادة على أنه وحده من أورد مثل هذا الخبر ولم يشاركه أحد من أصحاب السير الأربعة المعتمدة للمسيحيين وهم : متى، لوقا، مرقس ويوحنا.

[2] كاظم القزويني 1415 هـ/1995 م : "الإمام المهدي من المهد إلى الظهور"، مؤسسة النور!؟ للمطبوعات. بيروت. ط. أولى.

[3] نفس المرجع ص. 19 .

(الشيعي الموسوي) الخيف!..، وليس أسطورة!؟ كتبها الشيعة تسلية لأنفسهم المضطهدة، وترويحا عن قلوبهم المجروحة من جراء المصائب التي انصبت عليهم طيلة قرون طويلة، كما زعم بعض الكتاب المنحرفين!!؟؟

وليست نظرية أو فكرة اختمرت في بعض الأذهان تخفيفا أو تخديرا للآلام التي كانت الشيعة تشعر بها من سوء تصرفات الحاكمين، كما ذكر بعض المتفلسفين!؟.

وليست خرافة اختلقها القصاصون وألصقوها بالإسلام، كما تصورها بعض الجهال!؟!؟ ممن يدعي العلم والثقافة!؟.

وليست مهزلة تاريخية كي يستهيء بها المعاندون!؟ المستهزؤون!؟. }

وبعد سرده لكل هذه " الليسات" التي عارض بها أصحاب العقول والأفهام خرافته المؤسسة، شرع في سرد حقائقه!؟ :

{ إنها حقيقة!؟ إسلامية (شيعية موسوية) واقعية!؟!؟، تليق بالاهتمام!، وتجدر بالدراسة (في مصحة مجانين!) والوعي!؟، وتستحق كل تقدير وانتباه!.

إنها امتداد للإسلام!؟ والقرآن!!!؟؟. إنها مسألة جوهرية!؟ مهمة؟ بشر!؟!؟ بها القرآن الكريم!؟.

إذن فالموضوع استراتيجي جدا!!؟، فريد من نوعه!، وحيد في ذاته!، يمتاز بمزايا كثيرة خاصة!؟، كثر حوله النقاش، وتضاربت في رحابه الآراء!، وطاشت الأقلام!، وطغت عليه الأقوال، فآمن به قوم (عقولهم نخرة!)، وسكت آخرون (عقولهم مجمدة!) وسخرت طائفة من طائفة!. كل ذلك حول شخصية الإمام المهدي!؟!.

فالإمام المهدي ليس من الذين قد أكل عليهم الدهر وشرب! (بل وتعب!)، وصار نسيا منسيا، بل هو نداء! للعالمين، ومهوى أفئدة الأجيال!، ومحط أنظار الأمم، ومعقد آمال الشعوب!!؟؟}.

يعد من الحقائق!؟ الدامغة! والمدمغة! في آن، يدمغنا السيد القزويني بالمزيد مما تؤمن به الموسوية الإحدى عشرية :

{ الإمام المهدي إنسان ولد قبل ألف ومائة واثنين وأربعين سنة بالضبط!؟!؟ إلى حين تأليف هذا الكتاب سنة 1397 هـ/1976 م!؟!؟. ولا يزال حيا!!!؟؟، ويعيش الآن!!!؟ على وجه الأرض!؟، ويأكل! ويشرب!، ويعبد الله!؟(عند والت ديزني في ديزني لاند!) وينتظر الأمر! له بالخروج والظهور! (في فيلم كارتوني!). غائب عن الأبصار، وقد يراه الناس!؟ ولا يعرفونه!؟، وهو لا يعرف نفسه!؟!؟! ويحضر في كل مكان أراد! وله إشرافا على العالم!؟!، وإحاطة بالعباد والبلاد!؟!؟. }.

ما بين قوسين من عندي لعدم التمالك! أمام هذا الجنون!، ثم هذا نموذج فقط لما يمكن لهذه العدوى العقلية أن تفعله بأصحابها!. ولا يظهر أن هنالك من ترياق يجدي مع من أصيب بهذا الهوس، وهذا الفصام العقلي وإلا لكان نفع المنطقة في القديم!، والباقي أطم وأظلم! وبكل المقاييس والمعايير[1]!.

[1] بل نجد أن كل المنتسبين لهذا الحزب مطبقين على وجود هذه الخرافة " لأنها من صميم الدين" و "أصل من أصول الاعتقاد عنده!" كما يستشف بوضوح في كل كتاباتهم عنه. فهذا النموذج من الرؤى والاعتقاد واضح جدا عند السيد محمد الصدر الذي ألف ما يشبه الموسوعة عن هذه "الخرافة المسلية سودها في أربع مجلدات بالعناوين التالية :
1-) تاريخ الغيبة الصغرى!، 2 -) تاريخ الغيبة الكبرى!، 3-) تاريخ ما بعد الظهور، 4-) اليوم الموعود بين الفكر المادي والفكر الديني!.
وصدر سفره الأول بإهداء للأسطورة جاء فيه :
{ سيدي ومولاي ومولى المؤمنين! بقية الله! في أرضه والمدخور لنشر عدله! في بريته ... الحجة !!!؟؟ بن الحسن المهدي ع . أرفع إلى مقامك السامي ... بكل خشوع هذا المجهود! المتواضع! عسى أن يخدم بما بذلت فيه من مجهود – قضيتك الكبرى! التي كنت ولازلت! وستبقى الرائد الأول! لرفع رايتها وغرس بذرتها وجني ثمارها.
وغاية أمله!؟ – يا سيدي – وفخره !؟ ... أن يحظى منك بنظرة!! رحمة !؟! ولمسة دعاء!! وأن تراه!!!؟؟عملا خالصا مخلصا نقيا من شوائب الانحراف!؟! ... وخطوة موفقة لانتظار مستقبلك!؟! مستقبل الإسلام!؟ ! (قلت (المؤلف) أي إسلام ؟) ... حين تملأ الأرض قسطا وعدلا! كما ملئت ظلما وجورا الخ! }.
قلت (المؤلف): الشق الأخير من ملء الأرض قسطا وعدلا زرادشتي المنشأ والمعاد! كما لا يخفى!.
وهذه المجموعة قدم لها باقر الصدر (صاحب "فلسفتنا!!؟؟") بمقدمة عصماء جاء فيها بعناوين لا تقل أسطورة! في مبحث سماه:ب"حث في المهدي" ضمنه الأسئلة المحيرة التالية!:
1) كيف تأتى للمهدي أن يعيش قرونا ؟! : المعجزة والعمر الطويل!، 2) لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره!؟، 3) كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر ؟، 4) كيف نؤمن بأن المهدي قد وجد!؟، 5) لماذا لم يظهر القائد إذن!؟، 6) وهل للفرد كل هذا الدور ؟!، 7) ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود ؟.

لن نتحفك إذن، بأكثر من هذا بالحديث عن أم المهدي، التي لم يقف ابنها على اسمها الحقيقي رغم علمه بكل ذرة من ذرات الكون! كما لفق الملفقون. فهي إما! : نرجس!، سوسن!، صقيل!، صيقل!، حديثة!، حكيمة!، مليكة، ريحانة!، خمط!، مريم!، سبيكة!.. أو حدوثة! الزمان[1] ! . لا يهم! حتى وإن امتلأت كتب الفرقة بهذا الحكي!. كما لن نحدثك عن الغيبة الصغرى للذي لم يوجد قط! ولا عن النواب الأربعة له الذين ظلوا على اتصال به كوسائط بينه وبين شيعته ينقلون الرسائل في الاتجاهين[2] ! ؟ على الخط الساخن الأحمر اللامرئي واللاسلكي في آن!، بين عالم الواقع وعالم الوهم والخرافة والأسطرة والخيال الجامح البليد!، وإنما نقنعك بأن الجاحظ أعطى لهذا الحزب فعلا " الخطاطة الكاملة " للخروج من عنق زجاجته التنظيرية ومن التاريخ معا، وليلج رأسا، على ما اعتاد الشرق إلى عالم الأسطورة!.

في السنة التي توفي فيها النائب الرابع سنة 329 هـ، توفي اثنان من أقطاب الموسوية الإحدى عشرية، الأول ببغداد وهو أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي صاحب كتاب " الكافي"، أحد الأصول الأربعة لدى الموسوية، والثاني بمدينة قم وهو الشيخ أبو الحسن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي[3]. أهمية القمي تكمن في كونه عاصر فترة حرجة من حياة هذا الحزب، فيما تسميه الموسوية ب "الغيبة الصغرى " أو " فترة النواب الأربعة " من أول بدايتها إلى نهايتها. وهو وإن لم يثبت له ارتباط بالنائبين الأولين، إلا أنه اتصل بالنائبين الثالث والرابع وارتبط بهما ارتباطا مباشرا، ليغيب هو والرابع بانقضاء أجلهما مع إعلان الغيبة الأسطورية الكبرى!. القمي إذن، وإن لم يكن له ضلع في حبك ميلاد الأسطورة المهدوية عند المهد، ولا كان له من دور في مسألة السفراء، نواب الإمام! الغائب،

ويقول باقر الصدر في هذه الموسوعة (1: 17):

{ وإذا كانت فكرة المهدي أقدم من الإسلام! وأوسع منه!? !?، فإن معالمها التفصيلية التي حددها الإسلام!!؟؟ (قلت (المؤلف): لم يحدد الإسلام من هذه الخرافة شيئا بقدر ما هي موروث المنطقة كما يعترف هو بنفسه!. أما أن تكون هذه الأسطورة أوسع! من الإسلام! فينبئك بأن هذه الدودة طمست تماما على ما سواها من فطرة العقول!) جاءت أكثر إشباع!! لكل الطموحات! التي أنشدت إلى هذه الفكرة!! (الزرادشتية بالأساس!!) منذ فجر التاريخ الديني!!؟؟ وأغنى عطاء!!! وأقوى إثارة!! لأحاسيس المظلومين!! والمعذبين!! على مر التاريخ!!. وذلك لأن الإسلام!!؟! حول الفكرة من غيب!؟ إلى واقع!؟ ومن مستقبل إلى حاضر!!، ومن التطلع إلى منقذ تتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد { وهي الفكرة الزرادشتية الصرفة في ديانة الفرس } المجهول! إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلا !؟!(كخرافة مسلية أسطورية لا يتفتق بمثلها سوى معتوه مخلول في خلاياه العصبية)، وتطلعه مع المتطلعين إلى اليوم الموعود!!، واكتمال كل الظروف التي تسمح له بممارسة دوره العظيم!!!. فلم يعد المهدي! عليه السلام! !، فكرة تنتظر ولادتها،ونبوءة تتطلع إلى مصداقها!!، بل واقعا !!(افتراضيا كما في الحاسوب) وإنسانا معينا! يعيش بيننا!! بلحمه! ودمه!، نراه! !!! ويرانا!!؟! ...الخ}

قلت: هذا من باب: "إنه يراه هو وقبيله من حيث لا يراه الإسلام ولا تراه ولا تعلم بوجوده باقي الأحزاب الإسلامية والأسوياء منهم"

فهذا نمط ما تفعله الدودة بالعقول بعد أن تنشأ بداخل الحوزات. و لا أحتاج أن أقنع القارئ العادي بأن هذه الخرافة موروث فارسي، كما مر بنا من خلال الجرد التاريخي لأفكار الشوق، لأن الصدر كفانا هنا مؤنة ذلك باعترافه بنفسه بخارجية هذه الخرافة كمصدر، دون لف ولا دوران، أما أنها من الإسلام!، فلا أدري عن أي إسلام يتحدث الباقر؟ مادامت حسب قناعته: أوسع من الإسلام!؟!

انظر السيد محمد الصدر : موسوعة الإمام! المهدي!، دار التعارف للمطبوعات ط . 1412 هـ / 1992 م ، بيروت لبنان.

[1] هذه الأسطرة تجدها مسطرة في أكثر كتب الفرقة. أنظرها في بحار الأنوار (51 : 6) . وجعلوها ابنة لقيصر بيزنطة سموه : " يشوع" حتى وإن كان البيزنطيون لا يعرفون لهم قيصرا بهذا الإسم!؟!، ونسبوها من جهة أمها إلى شمعون! حواري المسيح، حتى بعد انقراض هذا النسب منذ قرون! وخرفوا أن والدها علمها العربية لتباع كجارية في سوق السبايا ببغداد ليشتريها الحسن العسكري بعد أن كان قد خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم هو وابنته فاطمة الزهراء من المسيح عليه السلام وشمعون للحسن العسكري!؟!. والقصة الكاملة لهذه الخرافة أوردها الشيخ يوسف الجواهري في كتاب " مثير الأحزان، طبع النجف لسنة 1373 هـ، ص. 291 ~ 295 وكتاب "إلزام الناصب" ص. 92 ~ 94 وكلاهما نقلها عن الطوسي في كتاب الغيبة ص. 128 كما نقل ذلك كامل سليمان في " يوم الخلاص" ص.88 ~ 89 .

[2] الذين اختلقوا هذا الإفك المبين هم على التوالي : أبو عمرو عثمان بن سعد العمري السمان. كان وكيلا للهادي ثم لولده الحسن العسكري، الإمام الحادي عشر. هو مبتدع هذه الحبكة السفارية الأسطورية، حيث ادعى السفارة مباشرة بعد وفاة العسكري سنة 260 هـ وانتهت بوفاته سنة 264 أو 265 هـ. ثم خلفه بعد موته في هذا السفارة الخيالية ابنه أبو جعفر محمد بن عثمان، ثم لما قضى بدوره في جمادى الآخرة سنة 305 هـ سلمت السدانة والسفارة! لأبي القاسم الحسين بن روح، بن أبي روح، النوبختي النائب الثالث، الذي قضى في 18 شعبان سنة 326 هـ ليتسلمها منه النائب الرابع أبو الحسن علي بن محمد السمري وانتهت بوفاته في 15 شعبان سنة 329 هـ لتدخل الأسطورة طور الغيبة الكبرى أو طور التشرنق الأسطوري إلى اليوم!. والحمق أنواع!.

[3] قال أبو العباس أحمد بن علي النجاشي (ت: 463 هـ) في كتاب " الرجال " ص. 198 مطبعة نشر كتب، طهران، في ترجمته : { كان قدم العراق، واجتمع مع أبي القاسم الحسين بن روح (النائب الثالث) رحمه الله وسأله مسائل، ثم كاتبه بعد ذلك على يد علي بن جعفر بن

بعد وفاة الحسن العسكري، إلا أنه سيضطلع بدور طلائعي مجادلاً ومنافحاً عن هذه الأسطورة عندما طال على الشيعة انتظار ظهورها دون جدوى!.

لأجل درء انفراط عقد هذا الحزب من جديد، ألف القمي كتاباً مميزاً، غاية في التلفيق! يعتبر الترجمة الحرفية التطبيقية الميدانية للبرنامج الجاحظي!. الكتاب ناطِق من عنوانه حيث سماه : " الإمامة والتبصرة من الحيرة![1] " ومادة أبوابه تتقفى الخِطاطة الجاحظية في كل تفاصيلها ودقائقها كما يتضح من العرض التالي، رغم ضياع بعض أبواب الكتاب! :

1) باب الوصيّة من لدن آدم عليه السلام[2].
2) باب أن الأرض لا تخلو من حجة.
3) باب أن الإمامة عهد من الله تعالى.
4) باب أن الله عز وجل خص آل محمد عليهم السلام بالإمامة دون غيرهم! (إقصاء قريش من غير الآل).
5) باب أن الإمامة لا تصلح إلا في ولد الحسين دون ولد الحسن!؟ (ع) (إقصاء بني العم من ضمن الآل!).
6) باب إمامة الحسن والحسين عليهما السلام (الحصر في أبناء فاطمة الزهراء).
7) باب العلّة في اجتماع الإمامة في الحسن والحسين عليهما السلام (التذكير بالسَّعَة السابقة للتضيق اللاحق)
8) باب أن الإمامة لا تكون في أخوين بعد الحسن والحسين عليهما السلام (إلغاء الإخوة من إرث الخرافة!).
9) باب أن الإمامة لا تكون في عم! ولا خال! ولا أخ! (عنق الزجاجة التنظيرية، الذي أخرجهم من التاريخ).
10) باب إمامة علي بن الحسين (ع) وإبطال إمامة محمد بن الحنفية! (الدم السّاساني في علي من أمه!).

الأسود، يسأله أن يوصل له رقعة (رسالة) إلى الصاحب (المهدي الأسطورة!) يسأله فيها الولد!؟!. فكتب ! إليه : " قد دعونا الله لك بذلك!، وسترزق ولدين خيرين!

[1] لم يكن ابن بابويه وحده من شغل نفسه بالتنظير الماوراتي الأسطوري لهذه الخرافة، بل نجد آخرين ساروا على نفس الدرب والنهج أمثال :

1) أبي الحسن، سلامة بن محمد الأرزني، تلميذ ابن بابويه في كتابه : " كتاب الغيبة وكشف الحيرة!".
2) الشيخ أبي عبد الله الصفواني بذات العنوان السابق : " كتاب الغيبة وكشف الحيرة".
3) أبي جعفر، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، ابن صاحبنا والشهير باسم الصدوق في :" كتاب إكمال الدين وإتمام النعمة في إثبات الغيبة وكشف الحيرة" و " كتاب الغيبة ".
4) أبي عبد الله، محمد بن إبراهيم بن جعفر النُّعماني (ت: 360 هـ) تلميذ الكُلَيْني، المعروف بابن أبي زينب وله " كتاب الغيبة".

[2] اورد خبراً ظاهر التلفيق والوضع يرويه مقاتل بن سليمان عن جعفر الصادق فقال : { قال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا سيد النبيين، ووصيِّي! سيدُ الوصيين، وأوصياؤه سادة الأوصياء، إن آدم عليهم السلام سأل الله تعالى أن يجعل له وصيّا صالحا!، فأوحى الله عز وجل إليه : " إني أكرمت الأنبياء بالنبوة، ثم اخترت خلقي وجعلت خيارهم الأوصياء" فقال آدم : يا رب اجعل وصيّي خير الأوصياء. فأوحى الله إليه: يا آدم، أوص إلى شيث، فأوصى آدم إلى شيث، وهو هبة الله! ابن آدم، وأوصى شيث إلى ابنه شبان!؟!؟..وأوصى عيسى إلى شمعون بن حمون الصفا، وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا، وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر!؟!، وأوصى منذر إلى سليمة!؟؟، وأوصى سليمة إلى برده!؟!. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ودفعها إليّ برده!!!؟؟، وأنا أدفعها إليك يا عليّ، وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واد، حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك!؟. ولتكفرن بك الأمّة، وليَخْتَلِفَنّ عليك اختلافاً شديداً، الثابت معك كالمقيم معي، والشاذ عنك في النار، والنار مثوى الكافرين.}. أنظر : أبا الحسن بن بابويه القمي في " الإمامة والتبصرة من الحيرة" ص. 153 ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، طبعة ثانية، 1412 هـ/1992 م بيروت.

قلت: وهذا نموذج للتلفيق بإعادة تدوير الإنتاج. فهو ابتكر سلسلة من الأسماء ما بعد آدم لا وجود لها سوى في مخيلته آخذا بعض الأسماء مما ورد في سفر التكوين (5: 1 ~ 31) و (10 : 1 ~ 32). إلا أنه ذكر أن شيث أوصى إلى شبان!، وشبان إلى مخلث!، ومخلث إلى محوق!، ومحوق إلى عتميشا!، وعتميشا إلى أخنوخ!. ولا وجود لشبان وغيره في هذا المصدر الوحيد لمثل هذا التسلسل! فما بالك ب " منذر!" و " سليمة! " و " بردة!" الذي سلم لمحمد صلى الله عليه وسلم هذه الوصية!؟!؟. وهو تخريف محض!.

قلت : وليس هذا غريبا، فمقاتل بن سليمان البلخي (ت: 150 هـ) المفسر، يكذب كما قال النسائي ووكيع بن الجراح. وقال لجوزجاني: كان دجالا جسورا. وقال ابن حبان : كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان يشبه الرب بالمخلوقات وكان يكذب في الحديث. أنظر ميزان الاعتدال للذهبي (4 : 173 /8741). لكن فيما يخص هذا الأثر فلم يروه غير القمي ونقله عنه ابنه أبو جعفر محمد الشهير بلقب الصدوق! (306 ~ 381 هـ) في كتابه : " من لا يحضره الفقيه" (4 : 174) وكتاب " إكمال الدين وإتمام النعمة (1 : 211) المطبعة الحيدرية، النجف وفي كتاب " الأمالي" (3 : 328) مطبعة النعمان، النجف لسنة 1384 هـ. ونقلها عنهما من جاء بعدهما. فالتهمة لا تفارق في آخر المطاف القمي نفسه وابنه الذي نقل الخبر عنه!.

11) باب إمامة الباقر عليه السلام (لم يدعيها!).
12) باب إمامة أبي عبد الله (جعفر الصادق) عليه السلام (لم يدعيها!).
13) باب إمامة موسى بن جعفر عليه السلام (كان آخر الخيارات بعد أن فشلت كل الرهانات على إخوته!).
14) باب إبطال إمامة إسماعيل بن جعفر (هو عند أتباعه إمام ونجح أتباعه فيما فشل فيه الحزب الموسوي).
15) باب إبطال إمامة عبد الله بن جعفر (لو لم يمت بعد أبيه بشهرين لما كان فيها من حظ لأخيه موسى).
16) باب السبب الذي من أجله قيل بالوقف (الشظية الأخرى من أصحاب الصادق التي انقرضت).
17) باب إمامة أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام (ولاه المأمون العباسي ولاية العهد!)[1].
18) باب من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية! (الجاهلية جاهليات! وهذا التخريف من أبرزها!).
19) باب معرفة الإمام وانتهاء الأمر إليه بعد مضي الأول! (تنظير حر من وحي الموروث القديم !).
20) ما يلزم الناس عند مضي الإمام عليه السلام (لزوم ما لا يلزم!).
21) باب من أنكر واحدا من الأئمة عليهم السلام (أنكرهم القرآن والسنة والعرف والعقل والتاريخ).
22) باب من أشرك مع إمام هدى إماما ليس من الله تعالى (تخريف حر!).
23) باب النوادر. (تخريف حر في أسطورة المهدي).

قلت : وكل باب لفقت له أخبار ظاهرة الوضع والصنعة، تلوح منها الهجنة عجينة وطينة، مما يدفع بالمرء بداهة أن ينكرها ويصر جازما باستحالة نسبة أي خبر منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو عترته!. ويكفيك نماذج مما مر بك، بحيث لا نحتاج إلى سرد مزيد منها. وما يميز هذا الحزب بالذات، منذ نشأته الأولى، هو الجرأة على تلفيق الأخبار مما هو متواتر فيهم على ما سوف نوقفك عليه.**أما السبب الداعي لابن بابويه في تأليف هذا الكتاب فقد أوضحه في مقدمته بقوله[2] :**

ورأيت كثيرا ممن صح عقده، وثبتت على دين الله وطأته، وظهرت في الله خشيته، قد أحارته الغيبة!، وطال عليه الأمد!، حتى دخلته الوحشة، وأفكرته الأخبار المختلفة والآثار الواردة!.

جمعت أخبارا تكشف الحيرة، وتحسم الغم، وتنبئ عن العدد!؟!، وتؤنس من وحشة طول الأمد!؟!؟.

قلت : ويتهم الحسين بن حمدان الخصيبي المصري ثم الجنبلاني (260 ~ 358 هـ) الداعية النصيري الشهير **في كتابه " الهداية" ابن بابويه بأنه كان يقول بإمامة جعفر (أخ الحسن العسكري) بن علي الهادي وأنه يجمع المال باسمه ويأكله دونه! وأن جعفرا كان يلعنه لهذا التصرف منه![3]. ثم في صناعة مربحة كهذه، فلا بد وأن يظهر من باب**

---

[1] علي الرضا بن موسى الكاظم (151 ~ 203 هـ) ولاه المأمون العباسي ولاية العهد بعده، إلا أنه توفي قبل المأمون، بعضهم قال محموما وبعضهم قال بالسم! وصلى عليه المأمون ودفنه بجانب قبر أبيه هارون الرشيد. وكان المأمون قد أرسله لرد أخيه زيد بن موسى الكاظم الذي ثار بالبصرة.

[2] الإمامة والتبصرة ن الحيرة، ص. 142 .

[3] قال الخصيبي في الهداية : { اجتمعت الشيعة كلها - من المهتدين! - على أبي محمد (الحسن العسكري) عليه السلام بعد أبيه، (علي الهادي) إلا أن أصحاب فارس بن حاتم بن ماهويه، فإنهم قالوا بإمامة أبي جعفر محمد(أخ الحسن العسكري) بن أبي الحسن (علي الهادي) صاحب العسكر عليه السلام. قال : ولقيت أبا الحسن علي بن بابويه وأبا عبد الله، أحمد بن عبد الله الجمال - شيخا كان مع أبي الحسن ابن بابويه - في داره ببغداد بالجانب الشرقي، في عسكر المهدي، وسألتهما عما علماه من أمر الإمام بعد أبي محمد (الحسن العسكري) عليه السلام. فقالا لي : إن أبا الحسن (علي الهادي) عليه السلام كان أشار في حياته إلى أبي جعفر، محمد ابنه وقضى أبو جعفر في حياة أبي الحسن عليه السلام (المؤلف : لاحظ كيف تكررت حادثة إسماعيل بن جعفر الصادق هنا، مربكة لتخريفات المخرفين!)، وعاش أبو الحسن بعده أربع سنين وعشرة أشهر، وكان فارس بن حاتم بن ماهوية يدعي أنه باب!؟ أبي جعفر، فأمرنا سيدنا أبو الحسن (علي الهادي) بلعن فارس بن حاتم. ووقعت الشبهة! عند المقصرة والمرتابين من الشيعة، وكان الحق والأمر لأبي الحسن (علي الهادي عليه السلام، وادعى جعفر(بن علي الهادي) أنه كان باب أبي جعفر(محمد بن علي الهادي) بعد فارس بن حاتم بن ماهويه، وأمر ذلك من سيدنا أبي محمد (الحسن العسكري)، وألقاه إلى رجلين قبلا ذلك عنه، ودعيا الناس فأمر سيدنا بطلبهما، فهربا إلى الكوفة، فأقاما بها إلى أن مضى أبو محمد (الحسن العسكري) عليه السلام.

قال : سئل أبو الحسن (علي الهادي) عليه السلام : من القائم من بعدك والإمام والوصي؟ فقال : أكبر ولدي، وكان أبو جعفر (محمد بن علي الهادي) مات قبله..

التنافس الحر والتجارة في الدين آخرون يجربون حظهم في دعوى النيابة أو السفارة عن هذه الخرافة الوهمية. فظهر كل من :

1) أبي محمد الحسن الشريعي : صحب الهادي والعسكري، يخرفون أن جاء توقيع من الخرافة تتبرأ منه!
2) محمد بن نصير النمري : زعيم الفرقة النصيرية المؤلهة لعلي بن أبي طالب. وهو عندهم ساكن بالقمر. صاحب العسكري، ولما توفي ادعى السفارة للمهدي!
3) الحسين بن منصور الحلاج : المتصوف مدعي الحلول والألوهية المقتول سنة 309 هـ. ادعاها بدوره!.
4) محمد بن علي الشلمغاني، الشهير بابن العزاقر : أعلى من شأنه النائب الحسي بن روح، ثم قال بالتناسخ والحلول، ثم ادعى الألوهية والقدرة على إحياء الموتى! وتبعته غوغاء بغداد، إلى أن أفتى الفقهاء والقضاة بإباحة دمه، فأحرق في ذي القعدة سنة 320 هـ. يخرف مخرفوا الأسطورة أن جاء توقيع! من المهدي الشبح الغائب! لنائبه ليتبرأ منه ففعل!.
5) أحمد بن هلال العبرتاني : صحب الهادي والعسكري وكان من خاصة الأخير. أنكر نيابة محمد بن عثمان وأصر على ذلك، فجاء التوقيع من الخرافة المهدي على الخط الساخن بينه وبين النائب الثاني! يلعنه ويتبرأ منه!؟
6) أبي دلف، محمد بن المظفر، الكاتب الأزدي : قال بالسفارة، فلم يقبلوها منه!
7) أبي بكر، محمد بن أحمد البغدادي : حفيد عثمان بن سعيد، النائب الأول. ادعى السفارة وصحب أبا دلف!، جرب حظه!

ولعل للمرء أن يتساءل : ما الذي جعل خرافة تنتصر على خرافة!، لولا الخلفية الخرافية للمنطقة ككل؟.

7- العقيدة الموسوية الإحدى عشرية في المهدي

يقول الشيخ الصدوق في كتاب الهداية[1] :

ويجب أن يعتقد أن حجة الله في أرضه وخليفته على عباده في زماننا هذا هو: القائم المنتظر!، ابن الحسن، بن علي، بن محمد، بن علي، بن موسى، بن جعفر، بن محمد، بن علي، بن الحسين، بن علي، بن أبي طالب. وأنه هو الذي أخبر النبي! به عن الله عز

قال الحسين بن حمدان (الخصيبي): حدثني أبو القاسم، نصر بن الصباح البلخي: أنه كتب إلى جعفر الكذاب! (جعفر بن علي الهادي وارث تركة أخيه الحسن العسكري بعد موته): لقيت أبا الحسن ابن بابويه، وأبا عبد الله الجمال، وأبا علي الصائغ وغيرهم، فقالوا : إن أبا جعفر (محمد بن علي الهادي، أخ الحسن العسكري) أوصى إلى أخيه جعفر (بن علي الهادي)، وأبو محمد (الحسن العسكري) لم يكن إماما!. فقال جعفر (بن علي الهادي) : لعن الله أبا الحسن ابن بابويه وأصحابه، فإنهم يكذبون علي ويقولون ما لم أقل، ويخدعون الناس، ويأكلون اموالي، وقد اقتطعوا مالا كان لي في ناحية، فصار في أيديهم، وهيهنا من هو أشر من ابن بابويه!. فقلت : من؟ جعلت فداك فقال : القزويني علي بن أحمد. فقلت : سمعت باسمه، وأردت أن أذهب إليه، فقال: إياك فإنه كافر!، وأخاف أن يغشك إن ذهبت إليه و يغير عليك ما أنت عليه من دينك!، على علي بن أحمد القزويني وأصحابه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين!!؟؟. فقلت : نعم، لعنهم الله بلعنتك المنتظرة.

فقلت لأبي الحسن ابن بابويه، وأبي عبد الله الجمال، وأبي علي الصائغ والقزويني، عند عودتي إلى بغداد، كل ما قاله، وقصصت عليهم قصتي معه فضحكوا!، فقالوا هو أحق باللعنة التي لعننا بها، لأنه يقول : إننا أخذنا ماله، وليس هو ماله!، وقد ادعى الوصية والإمامة!، وقد براه الله منها!!؟؟

فقلت لهم : لم تأخذون مال الله بغير حق؟ فقالوا : لإنا محتاجون إليه!، وليس له طالب في هذا الوقت!؟!؟.

فقلت لهم : أليس أبو عمرو عثمان بن سعيد (النائب الأول فترة الغيبة الأسطورية الصغرى)، يأخذ عن أبي محمد (الحسن العسكري) أموال الله، وهذا ابنه أبو جعفر محمد بن عثمان (النائب الثاني)، وينفقها حيث يأمر الخلف (الأسطورة!؟!) عن أبي محمد (الحسن العسكري)، وهو المهدي!؟، سمي رسول الله صلى الله عليه وآله جده وكنيته (المؤلف : يعني يكنون الأسطورة أبا القاسم!). فضحكوا فقالوا : إن للمهدي التسليم، إذا ظهر بدأ بكل دين على المؤمنين فقضاه عنهم!؟!؟، فكيف لا يهب لنا ماله!؟!؟. فقلت لهم : في نفسي عليكم أن تكونوا مؤمنين!. فقالوا : والله ما عندنا شك أن الإمام بعد أبي الحسن (علي الهادي أبو محمد (الحسن العسكري) عليه السلام، وما لأبي جعفر (محمد بن علي الهادي) بن أبي الحسن، ولا لجعفر (بن علي الهادي) هذا الكذاب!؟!؟ في الإمامة!؟ والوصية!!؟؟ حظ ولا نصيب، وإن المهدي هذا أبو القاسم محمد بن الحسن!؟ لا شك فيه!!!؟؟، وإنما نأخذ هذه الأموال لنري الناس أنا مخالفين على جعفر!!؟؟.}

قلت : هذه مذاهب حبكت في ظلمة من طرف مافيا تلك العصور! لا يرتاب في ذلك من له مسكة من عقل!. أنظر مقتطفات من هذا النص في كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة" ص. 66 ~ 70 .

[1] هذا النص موجود في كتاب الهداية ص. 47 ضمن كتاب " الجوامع الفقهية" الذي أهدانيه إياه مشكورا آية الله، الشيخ عبد المجيد الشربياني التبريزي عندما حللت عليه ضيفا أثناء جولة استطلاعية لإيران بعد انتهائي من أداء مناسك حج سنة 1400 هـ/1979 م، الذي عاينت فيه عن قرب احتلال الحرم المكي من طرف مدعي المهدوية في ذلك الموسم.

وجل! باسمه! ونسبه!، وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً!. وأنه هو الذي يظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون. وأنه هو الذي يفتح الله عز وجل على يده مشارق الأرض ومغاربها!؟، حتى لا يبقى مكان لا ينادى فيه بالأذان، ويكون الدين كله لله.

فإنه هو المهدي، الذي إذا خرج نزل عيسى بن مريم ثم صلّى خلفه. ويكون إذا صلى خلفه وصليا خلف الرسول، لأنه خليفته.

ويجب أن يعتقد أنه لا يجوز أن يكون القائم غيره!؟!؟، بقي في غيبته ما بقي!. ولو بقي في غيبته عز الدنيا، لم يكن القائم غيره!؟!، لأن النبي والأئمة! عرّفوا باسمه ونسبه ونصّوا به وبشّروا!!

ويجب أن يتبرأ إلى الله عز وجل من الأوثان الأربعة(يعني بهم : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعائشة وحفصة أمي المؤمنين رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم!) والأناسي الأربعة (يعني بهم : رؤوس مذاهب السنة الراشدية الأربعة : أبا حنيفة النعمان ومالك بن انس ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل الشيباني رحمهم الله!) ومن جميع أشياعهم وأتباعهم، ويعتقد فيهم انهم أعداء الله وأعداء رسوله وأنهم أبغض خلق الله!!؟؟!؟. ولا يتم الإقرار بجميع ما ذكرنا إلا بالتبرّي منهم!؟.

ويجب أن يعتقد فيمن يعتقد ما وصفنا (أي في شيعتهم المتبرئين مما ذكرا) أنه على الهدى!؟ والطريقة المستقيمة!؟. وأنه أخ لنا في الدين، واجب علينا نصيحته ومؤامنته ومواساته ومعاونته ومعاضدته. وأن نرضى له ما نرضى لأنفسنا ونكره ما نكره لأنفسنا، ونقبل شهادته ونجيز الصلاة خلفه ونُحَرِّمُ غيبته.

ويعتقد فيمن يخالف ما وصفنا (وهم أهل السنة الراشدية) أو شيء منه أنه على غير الهدى!؟!!؟؟، وأنه ضال!؟ على الطريقة المستقيمة!؟؟ ونتبرأ منه كائناً من كان!، من أي قبيلة كان!، ولا نحبُّه! ولا نُعينه! ولا ندفع إليه زكاة أموالنا ولا حجّةً يحِجُّ بها عنا وعن واحد منا، ولا زيارة! ولا نظرة! ولا لَحْمَ أضحيَّة ولا شيئاً نُخرجه من أموالنا لنتقرب به إلى الله عز وجل.

ولا نرى قبول شهادته! ولا الصلاة خلفه!. هذا في حالة الاختيار!؟، فأما في حال التقِيّة! فجائز لنا أن ندفع بعض ذلك إليهم! ونصلي خلفهم! إذا جاء الخوف!. أما أداء الأمانة، فإنا نرى أداءها للبرّ والفاجر : أدوا الأمانة ولو إلى قاتل الحسين بن عليّ!.

قلت : الرجل الذي سطر هذا السُّم الرعاف، هو المسمى عند الإحدى عشرية ب " الصدّوق[1] !؟"، وهو ابن صاحبنا أبي الحسن، ابن بابويه القمي السابق الوصف والسيرة. بل هذا الحزب يطلق على الابن وأبيه لقب : "الصدّوقان!؟".

والصدوق لم يفصح باسم القائم في هذا النص عملاً بخبر ينسبونه على ما اعتادوا بهتاناً وتلفيقاً لآل البيت! إذ قولوا جعفر الصادق أنه قال[2] :

صاحب هذا الأمر لا يسمِّيه إلا كافر!

وفي خبر ملفق آخر[1] :

ملعون! ملعون! من سمّاني في مجمع من الناس باسمي!؟

8- هل للسنة مهدي؟

ما دامت الموسوية الإحدى عشرية اضطرت اضطراراً للخروج من مأزقها التنظيري إلى ابتكار مهديها الزرادشتي النكهة، كما توقع لها بذلك غريمها الجاحظ. وما دامت كل شظايا أحزاب الشيعة الأخرى ادعت في مهاديها

---

[1] أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى، ابن بابويه القمي (ت: 381 هـ). ولد بمدينة قم وبها نشأ. وفي سنة 329 هـ رحل في طلب الحديث إلى الري وجرجان ونشابور ومرووذ والحرمين والعراقين ومشهد وسمرقند حتى وصل إلى درجة عالية في المروي الشيعي. قال الشيخ الطبرسي : كان محمد بن علي بن الحسين حافظاً للأحاديث بصيراً بالفقه والرجال ناقداً! للأخبار لم يُر في القمّيين مثله في حفظه وكثرة علمه. وقال السيد بحر العلوم فيه : شيخ مشايخ الشيعة وركن من أركان الشريعة! رئيس المحدثين والصدوق!؟!؟ فيما يرويه عن الأئمة!؟!.

[2] أنظر الشيخ علي اليزدي الحائري في كتاب: " إلزام الناصب في إثبات!!؟؟حجية!!؟؟ الغائب "، طبعة طهران لسنة 1351 هـ/1932 م، ص. 82 .

من قبل مثل ما ادعوا عندما ووجهوا هم أيضا بعنق زجاجتهم، وما دام هذا النوع من الإنتاج صناعة تخصصت فيها المنطقة منذ آلاف السنين، يمكننا الجزم بالمطلق، أنه بمجرد اختلافهم فيه، إن لم نخرجهم من أهل القبلة ودائرة الإسلام، يجعلنا نوقن أن هذه الأسطورة لا علاقة لها بالإسلام، لا من قريب ولا من بعيد!.

لكن ماذا عن تلك المرويات التي زخرت بها كتب الحديث من مصنفات ومسانيد لدى السنة الراشدية عن المهدي هذا!؟، والتي كانت أساس كل تلك الفواجع التي حصلت في التاريخ، بادعاء أقوام لها، وبأنهم التجسيد الحي المشخصن في ذواتهم لتلك الأسطورة الخرافية؟!.

أقول : هذا ما سوف نثبت لك، بطلانه بالحجة والدليل والبرهان، علما وسندا ومتنا، لنقتل هذه الدودة العقلية ونخرجها من عقول المسلمين، بالنظافة العقلية، كما نجحنا في إخراج الدودة الشصية من بطونهم بالنظافة الصحية، إلى أن نتمكن من محوها من عقولهم وذاكرتهم بالعلم واليقين وإلى الأبد، بإذن الله تعالى.

8-1- موارد أخبار المهدي! لدى السنة

رويت أخبار في المهدي عزيت إلى الصحابة وأمهات المؤمنين ووضعت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم رضوان الله عليهم كالرسول الكريم لا ولم يتفوهوا بخرافاتها قط!، على كثرة المروي في ذلك!. فأوردوها عن الصحابة وأمهات المؤمنين التالية أسماؤهم :

(1) عثمان بن عفان، (2) علي بن أبي طالب، (3) عبد الرحمن بن عوف، (4) طلحة بن عبيد الله، (5) الحسين بن علي بن أبي طالب، (6) عائشة، (7) حفصة، (8) أم سلمة، (9) أم حبيبة، (10) صفية بنت حيي، (11) عبد الله بن عباس، (12) عبد الله بن مسعود، (13) عبد الله بن عمر بن الخطاب، (14) عبد الله بن عمرو بن العاص، (15) أبو سعيد الخدري، (16) جابر بن عبد الله (17) عمار بن ياسر، أبو هريرة، (18) أنس بن مالك، (19) عوف بن مالك، (20) معاوية بن أبي سفيان، (21) ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (22) حذيفة بن اليمان، (23) قرة بن إياس بن هلال المزني، (24) عمران بن حصين، (25) عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي، (26) علي الهلالي، (27) أبو الطفيل، (28) جابر بن ماجد الصدفي، (29) أبو أيوب الأنصاري، (30) أبو أمامة الباهلي، (31) تميم الداري، (32) عبد الرحمن بن قيس بن جابر الثقفي (33) المغيرة بن شعبة، (34) سلمة بن نفيل السكوني، (35) مرة بن كعب البهزي، (36) جابر بن سمرة بن جنادة، (37) سعد بن أبي وقاص، (38) عقبة بن عامر الجهني، (39) عمرو بن العاص (40) أبي الطفيل، عامر بن واثلة الليثي.

هذا زيادة على من أسندت الرواية في شأنه إلى التابعين، إما كمراسيل أو من أقوالهم أمثال :

(1) محمد بن الحنفية، (2)عاصم بن عمر البجلي، (3) مجاهد بن جبر، (4) محمد بن سيرين، (5) أبي الجلد جيلان بن أبي فروة، (6) شهر بن حوشب، (7) علي بن عبد الله بن عباس، (8) أبي قبيل، حي بن هانئ المعافري، (9) كعب الأحبار، (10) سعيد بن المسيب، (11) سالم بن أبي الجعد الغطفاني، (12) خالد بن معدان الكلاعي...، وغيرهم ودونهم من أتباع التابعين.

قلت : لم يخرج منها البخاري[2] في صحيحه شيئا صريحا، لوقوفه على علا ـها في كتابيه : "التاريخ الكبير" و " التاريخ الصغير"، بينما أخرج مسلم[3] منها أطرافا مجملة دون تفصيل، وخرجها الباقون بأفرادها وغرائبها وشواردها مفصلة، بعجرها وبجرها[4] !.

---

[1] أنظر محمد باقر المجلسي (الثاني) في كتاب : " بحار الأنوار الجامعة لعلوم الأئمة الأطهار"، (51 : 33) و (53 : 184)، طبعة طهران لسنة 1385 هـ/1965 م . وكذلك أورده اليزدي في إلزام الناصب، ص. 82 .

[2] محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي (194 ~ 256 هـ) صاحب الصحيح.

[3] أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (22 ~ 261 هـ) صاحب " الجامع الصحيح ".

[4] من الذين أخرجوا بعضها مسندة في كتبهم أو انتقدوها :

1) أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (202 ~275 هـ،) في سننه،
2) ابن ماجة ، أبو عب الله، محمد بن يزيد القزويني (209 ~ 273 هـ) في سننه،
3) أبو عيسى، محمد بن عيس بن سورة الترمذي (202 ~ 297 هـ،) في جامعه،
4) أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري (168 ~ 230) في كتاب : "الطبقات"،

وأفردها آخرون بالتأليف[1]، بل وادعى لها التواتر ! الشوكاني[1] في كتاب " التوضيح في تواتر ما جاء في

5) أبو حاتم، محمد (بن حبان) بن أحمد بن معاذ اليمني الدارمي البستي الخراساني (ت : 354 هـ) في صحيحه، المعروف ب " التقاسيم والأنواع". و "المجروحين".
6) الإمام أبي عبد الله، أحمد بن محمد (بن حنبل) الشيباني المروزي البغدادي (ت: 241 هـ) في مسنده،
7) أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي الكوفي : بن أبي شيبة (159 ~ 235 هـ) في مصنفه،
8) أبو عبد الله، محمد بن عبد الله: ابن البيع الحاكم النيسابوري (321 ~ 405 هـ) : في" مستدركه"،
9) أبو بكر،عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (126 ~ 211 هـ) في مصنفه،
10) أبو عوانة،يعقوب بن إسحاق النيسابوري الإسفراييني (ت: 316 هـ) في " المسند المخرج على كتاب مسلم بن الحجاج "
11) أبو جعفر، محمد بن عمرو بن موسى العقيلي } (ت: 322 هـ) في كتاب" " الضعفاء الكبير"،
12) أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (260 ~ 360 هـ) في معاجمه الثلاث : الكبير والأوسط والصغير،
13) أبو عبد الله، محمد بن إسحاق ن يعقوب بن منده الأصبهاني (310 ~ 395 هـ) في : "تاريخ أصبهان"،
14) أب نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (336 ~ 430 هـ -) في كتابيه : "أخبار المهدي" و "حلية الأولياء"،
15) أبو الحسن، علي بن عمو السكري الحربي (296 ~ 386 هـ) في " الأول من الحربيات"،
16) أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت: الخطيب البغدادي (392 ~ 463 هـ) في " تاريخ بغداد " و " المتفق والمفترق ". و "تلخيص المتشابه "،
17) أبو العباس، الحسن بن سفيان بن عامر، النسوي (213 ~ 303 هـ) في مسنده،
18) أبو بشر محمد بن أحمد الدولابي (224 ~ 310 هـ) في كتاب " الكنى والأسماء"،
19) أبو الحسن، علي بن عمر الدارقطني (305 ~ 385 هـ) في كتاب " الفوائد الأفراد"، و " السنن"،
20) أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (210 ~ 307) في مسنده،
21) أبو بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار البصري (ت: 292 هـ) في " المسند الكبير المعلل" (البحر الزاخر)،
22) أبو أحمد، عبد الله بن عدي بن عبد الله : ابن القطان الجرجاني (277 ~ 365 هـ) في " الكامل في الجرح والتعديل (الضعفاء) "،
23) أبو محمد، الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي البغدادي (186 ~ 282 هـ) في مسنده،
24) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310 هـ) في " تفسيره" و " تهذيب الآثار"،
25) يحيى بن عبد الحميد بن عبد ارحمن بن بشمين الحماني الكوفي (ت:228 هـ) في مسنده،
26) أبو الحسن، أسلم بن سهل بن أسلم بن زياد الوزاز : بحشل الواسطي (ت: 292 هـ) في : " تاريخ واسط "
27) أبو غنم الكوفي في : " كتاب الفتن"،
28) أبو بكر محمد بن محمد بن أحمد بن مالك الإسكافي البغدادي (ت: 352 هـ) في: " فوائد الأخبار"،
29) أبو عمرو، عثمان سعيد بن عثمان الداني (371 ~ 444هـ) في سننه،
30) أبو بكر، أحمد الحسين البيهقي في " دلائل النبوة"، وفي " البعث والنشور"،
31) أبو بكر، محمد بن إبراهيم بن علي : ابن المقرئ الأصبهاني (291 ~ 381 هـ) في " المعجم الكبير"
32) أبو محمد قاسم،بن علي بن الحسن : ابن عساكر الدمشقي (ت : 600 هـ) في " تاريخ دمشق"،
33) أبو الفرج، عبد الرحمن : ابن الجوزي، البغدادي (508 597 هـ) في " الموضوعات" و " العلل المتناهية"
34) أبو الحسين، أحمد بن جعفر: ابن المنادي البغدادي (256 ~ 336 هـ) في " كتاب الملاحم"،
35) أبو القاسم، تمام بن محمد عبد الله بن جعفر الرازي، ثم الدمشقي (ت: 410 هـ) في فوائده،
36) أبو عبد الله، الفارض نعيم بن حماد الخزاعي المروزي، نزيل مصر (ت : 228 هـ) في " كتاب الفتن"،
37) أبو بكر، محمد بن هارون (ت: 307 هـ) في مسنده،
38) أبو بكر، محمد بن إسحاق ن خزيمة، السلمي النيسابوري (223 ~311 هـ) في صحيحه،
39) أبو منصور محمد بن سعد الباوردي الخراساني (ت: 301 هـ) في : " معرفة الصحابة "
40) أبو شجاع، شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي (435 ~ 509 هـ) في مسند الفردوس.

[1] أمثال :

1) أبي خيثمة، زهير بن حرب النسائي، نزيل بغداد (160 ~ 238). ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته ولم يصلنا.
2) أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (336 ~ 430 هـ) في كتاب : "المهدي"،
3) يوسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي الشافعي السلمي (من علماء القرن السابع) في كتاب : " عقد الدرر في أخبار المنتظر".
4) أبي عبد الله، شمس الدين محمد بن أبي بكر الحنبلي الشهير بلقب : ابن قيم الجوزية (691 ~ 751 هـ) في : " المنار المنيف في الصحيح والضعيف" كفتوى أجاب فيها عن سؤال ورد إليه عن خبر : " لا مهدي إلا عيسى بن مريم "،
5) أبي الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي (701 ~ 774 هـ) في كتاب : " الفتن والملاحم"،
6) أبي الحسن، نور الدين، علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (735 ~ 807 هـ) في جزئه السابع من " مجمع الزوائد ونبع الفوائد" : (باب ما جاء في المهدي) مستعرضا لها ولرجال سندها في باقي الأصول التي أوردتها. وكذلك خصص بابا للمهدي في

المهدي المنتظر!، والدجال، والمسيح " فقال[2] :

{ والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها، منها خمسون[3] حديثاً فيها الصحيح! والحسن! والضعيف المُنجبر!. وهي متواترة؟!؟! بلا شك! ولا شبهة؟!، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار المصرحة بالمهدي فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع!، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك }.

وتبعه في سردها أو في دعوى "التواتر" لها، من باب التقليد آخرون!، يرددون كلام مَن سبقهم بتكرارية نمطية، زيادة على مصادفتها لأهواء في أنفسهم بحكم البيئة التي نشئوا فيها أولاً، والتي تخصّصت في تفريخ هذا المأثور لقرون بتقمُّصات وإمْساخات وتمظهرات شتى على ما مرّ بك من سردنا التاريخي لخلفية المنطقة!. ثم ثانياً، لعدم قدرتهم، بحكم زمن الانحطاط الذي أنتجهم وأدارهم، أن يسألوا الأسئلة الكبيرة أو الصغيرة في مثل هذه الأمور بنقد منهجي رزين[4]. بل الأدهى والأمر!، هو أنه ولا أحد منهم انتبه إلى أبسط أبجديات ما كان يجب أن يكون حاضرا

كتابه : " موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان" وهي الزيادات التي أضافها الهيثمي على ما أورده الحافظ أبو حاتم، محمد (ابن حبان) بن أحمد البستي (ت: 354 هـ) في كتابه : " التقاسيم والأنواع" وخص الهيثمي ذلك بعنوان : " باب ما جاء في المهدي".
7) أبي الفضل، شهاب الدين، أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني الشافعي المصري (794 ~ 852 هـ) في كتاب" القول المختصر في علامات المهدي المنتظر "
8) جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (849 ~ 911 هـ) في رسالة سماها : " العرف الوردي في أخبار المهدي"، حيث لخص فيه الأربعين أثرا التي أوردها أبو نعيم وأضاف لها زيادات إلى أن بلغت ما ينيف عن 236 خبرا مع عزوة إلى من رواها من الصحابة أو التابعين أو أتباع التابعين وإلى من خرجها في كتابه، دون ذكر السند كله. والرسالة توجد ضمن كتابه : " الحاوي للفتاوي" وهو أشملها. وكل من جاءوا بعده عالة عليه فيما جمع منها.
9) علاء الدين، علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهانفوري (ت : 975 هـ) في كتاب : " كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" : "خروج المهدي"،

وغير هؤلاء، ممن جاءوا بعدهم، ممن ادخلوا هذه الأخبار تصنيفاتهم دون أن يضيفوا جديدا إلى الموضوع.

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (1172 ~ 1255 هـ/1839 م) تفقه على مذهب الإمام زيد وبرع فيه وألف وأفتى فيه ثم نبذ التقليد وأخذ بالدليل الذي يلوح له وإن كان خارج المذهب.

[2] أورده محمد صديق خان القنوجي البخاري (1248 ~ 1307 هـ/1889 م) في كتاب : " الإذاعة لما كان وما يكون بن يدي الساعة "، مطبعة المدني، ص. 113 ، 1379 هـ/1959 م، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة.

[3] قال الشوكاني في كتابه " الفتح الرباني " : { الذي أمكن الوقوف عليه من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر خمسون حديثا وعشرون اثرا..} أورد ذلك محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (1283 ~ 1353 هـ) في شرحه على جامع الترمذي المسمى: " تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي " (6 : 485)، نشر محمد عبد المحسن الكتبي، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

[4] أمثال :

1) أبي الحسين، محمد بن الحسين بن إبراهيم الآبري السجستاني (ت : 363 هـ) في : "مغاني الوفا بمعاني الاكتفا"، و " مناقب الشافعي"
2) أبي عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي (ت: 671 هـ) في : " التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ".
3) أبي الجامع، صدر الدين، إبراهيم بن سعد بن محمد بن المؤيد بن عبد الله حمويه الجويني الخرساني (644 ~ 730 هـ) في : " فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام ".
4) أبي حفص، سراج الدين، عمر بن مفر بن عمر المعري، الشهير بابن الوردي (ت، 749 هـ) في : " خريدة العجائب وفريدة الغرائب "
5) أبي عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي الدمشقي : ابن قيم الجوزية (691 ~ 751 هـ) في : " المنار المنيف ".
6) أبي الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري نزيل دمشق (701~ 774 هـ) في : " كتاب النهاية" أو " كتاب الفتن والملاحم ".
7) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: 902 هـ) في : " فتح المغيث" وكذلك أفردها في كتاب " ارتقاء الغرف ".
8) أبي الفضل، جلال الدين السيوطي (849 ~ 911 هـ) في : " الفوائد المتكاثرة في الأحاديث المتواترة " وكذلك في مختصر هذا الكتاب الموسوم : " الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة" وعدة الأخبار التي جمعها فيه كما صرح بنفسه : مائة حديث فقط، منها لأخبار خروج المهدي!، إلا أن محمد بن جعفر الكتاني عندما أعاد عدها وجدها قد زادت باثني عشر خبر زائد على ما قرره السيوطي!. مما يعني أن بعض النساخ قد أضافوها!.. أنظر : محمد بن جعفر الكتاني في : " نظم المتناثر من الحديث المتواتر"، ص. 10 ، ط. ثانية : 1407 هـ/1987 م دار الكتب العلمية، بيروت.

أمام أعينهم جميعا كفرضية عمل منذ أول وهلة! : لماذا لم يخرج منها البخاري شيئا في صحيحه، بينما ملأ منها من لا يشترط الصحيح كتبه؟. لقد ذهل الجميع عن هذه البديهة ولم تثر قريحتهم ولا حفز كون البخاري أخرجها في تاريخيه " الكبير " و "الصغير" ومع ذلك، لم يسود بها جامعه الصحيح!؟ أيكون الضعيف عنده صحيحا عندهم؟!. فأين يذهبون، وكل من جاءوا بعده إنما هم عالة عليه وعلى علمه في هذا الشأن؟.

أول من اعترض على هذه الأخبار وحاول التصدي لها من وجهة نظر النقد المنهجي الحديثي والتاريخي والاجتماعي هو : العلامة عبد الرحمن بن خلدون في " المقدمة ". ولكي نتتبع خيط أفكاره في نقده هذا ونقييم منهجه، توجب البدء بالتعرف على بيئته[1] ومنهجه من خلال بعض نصوصه. يقول ابن خلدون[2] :

إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل، غثا وسمينا، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط.

ويقول أيضا منتقدا أحوال المؤرخين الذين أتوا بعد الرواد الأول من حجم ابن إسحاق[3]، ومحمد بن جرير الطبري[4] والواقدي[5] والمسعودي[6] متبرما[7] :

---

9) أبي العباس، أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيثمي (909 ~ 974 هـ) في : "الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة" و "القول المختصر في علامات المهدي المنتظر!" و " الفتاوى الحديثية ".

10) ملا علي القاري، نور الدين، علي بن سلطان محمد الهروي المكي الحنفي (ت: 1014) في : "المشرب الوردي في حقيقة (مذهب) المهدي".

11) محمد بن عبد الرسول بن عبد السيد بن عبد الرسول بن قلندرين الحسيني الشافعي البرزنجي نزيل المدينة (1040 ~ 1103 هـ) في : " الإشاعة لأشراط الساعة".

12) أبي العون، شمس الدين، محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني النابلسي الحنبلي (1114 ~ 1188 هـ/1774 م) في : " لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيئة في عقد أهل الفرقة المرضية ".

13) أبي عبد الله، محمد بن جعفر الكتاني (ت: 1346 هـ/1927 م) في : " نظم المتناثر من الحديث المتواتر". وهو فيه جمع ما قاله الذين قبله!.

[1] توافر لابن خلدون من خلال تجربته الشخصية في مغامراته الفاشلة في السياسة وعدم الاستقرار، ثم ما زخر به عصره في القرن الثامن الهجري من تراجع للعالم الإسلامي على كل الصعد شرقا وغربا ما دفع به إلى طرح التساؤلات الكبرى، التي هي أساس كل إبداع. لأن من لا يسأل ولا يتساءل قلما يبدع في شيء!. والمؤسف حقا هو أنه وضع يده على بعض الداء وشخصه بدقة بالغة، ولكن أنى لجرح بإيلام بعد فوات الأوان! يقول في المقدمة، ص. 36 .ط. دار الجيل، دون تاريخ، بيروت :

{وكأني بالمشرق قد نزل به مثل المغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها. وإذ تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث!.فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها}.

[2] المقدمة، ص. 10 .

[3] أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار (ت: 151 هـ) صاحب " السيرة النبوية ".

[4] أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري الآملي (ت: 310 هـ) الفقيه المحدث المؤرخ المفسر.

[5] أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (130 هـ/748 م ~ 270 هـ/823 م) درس الحديث على رجاله لمدة تناهز الخمسين سنة. أخذ فيها عن ابن جريج ومالك بن أنس وسفيان الثوري وغيرهم. ثم تحول من المدينة إلى العراق حيث ولي القضاء لعبد الله بن هارون (المأمون) بعسكر المهدي (الرصافة) لأربع سنين. له تآليف عدة في المغازي والفتوح والوقائع..الخ. وكان لا يرضى بسماع الأخبار حتى يذهب إلى عين المكان لمعاينتها. إلا أنه ليس بالمرضي عند المحدثين من جهة روايته. لجمعه في متن واحد روايات من طرق مختلفة دون تعيين للقائل بما قال !

[6] أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي المسعودي البغدادي (ت: - 346 هـ) المؤرخ الرحالة، صاحب " مروج الذهب".

[7] المقدمة، ص.5 .

ولم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد بليد الطبع والعقل، أو متبلد ينسج على ذلك المنوال، ويحتذي منه المثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال.

ويقول بخصوص الجرح والتعديل لدى المحدثين[1] :

وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية، أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها. وسبيل صحة الظن، الثقة بالرواة بالعدالة والضبط. وأما الأخبار من الواقعات، فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه.

وقال أيضا بخصوص الأهواء والتحزب كخرم من خوارم الرواية[2] :

ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر، أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة. وإن ذلك الميل والتشيع غطاءا على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله!.

هذا هو ملخص منهجه إذن، وهو منهج المحدثين بعينه في خطوطه العريضة، إلا ما تفطن له من مؤثرات المجتمع، وهي لب منهجه كإضافة. وهي إضافة مهمة لبطارية النقد، لا يشك لبيب في كونها لبنة متينة من لبنات البناء النقدي يعم كل الأخبار التاريخية و الخبر الحديثي سواء لتقاطع مخارجهما.هذا المنهج طبقه في انتقاد أحاديث المهدي في فصل خاص عقده في المقدمة تحت عنوان : " فصل في أمر الفاطمي وما يذهب الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك " **جاء فيه[3] :**

إعلم أن في المشهور بين الكافة من أهل الإسلام، على ممر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي. ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو نزل معه فساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته. ويحتجون في الشأن بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون، ولذلك وربما عارضوها ببعض الأخبار. وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال! وربما يعتمدون في ذلك على الكشف!؟!؟ الذي هو أصل طريقتهم.

ونحن الآن، نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند، ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى. فنقول إن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي منهم : الترمذي، وأبو داود، والبزار، وابن ماجة، والحاكم، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل: علي، وابن عباس، وابن عمر، وطلحة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأنس، وأبي سعيد الخدري، وأم حبيبة، وأم سلمة، وثوبان، وقرة بن إياس، وعلي الهلالي، وعبد الله بن الحارث بن جزء، بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل!. فإذا وجدنا طعنا في بعض رجال الأسانيد، بغفلة، أو بسوء حفظ، أو ضعف، أو سوء رأي، تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها. ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين!، فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما. وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفعا. وليس غير الصحيحين! بمثابتهما في ذلك. فقد نجد مجالا للكلام في أسانيدها، بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال : { ومن أغربها إسنادا ما ذكره أبو بكر الإسكاف في " فوائد الأخبار " مستندا إلى مالك بن أنس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كذب بالمهدي فقد كفر! ومن كذب بالدجال فقد كذب!.. وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك!، فيما أحسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس!. على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم بالوضع}

---

[1] المقدمة، . 41 .

[2] المقدمة، ص. 39 .

[3] المقدمة، الفصل الثاني والخمسون، ص. 344 .

وبعد أن استعرض الأخبار الواردة في هذه الأصول، وتعرضه لما ذكره نقاد الحديث في رجالات سندها، حكم عليها بقوله[1] :

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان!. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل والأقل منه. وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي، عن أبان بن صالح بن أبي عياش، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا مهدي إلا عيسى بن مريم. وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد : إنه ثقة. وقال البيهقي : تفرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه : إنه رجل مجهول واختلف عليه في إسناده!. فمرة يروونه كما تقدم، وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي، ومرة يروونه عن محمد بن خالد، عن أبان، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا!. قال البيهقي : فرجع إلى رواية محمد بن خالد، وهو مجهول، عن أبان بن أبي عياش، وهو متروك!، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو منقطع!. وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب!. وقد قيل : }أن لا مهدي إلا عيسى { أي : لا يتكلم في المهد! إلا عيسى، يحاولون بهذا التأويل!؟؟ رد الاحتجاج به!، أو الجمع بينه وبين الأحاديث!، وهو مدفوع بحديث ابن جريج ومثله من الخوارق!؟!؟.

ثم تعرض للمتصوفة وما يدعون بدورهم في شأن مهديهم الخاص بهم! فقال[2] :

وأما المتصوفة، فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد! والأحوال!. وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته، وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبرؤ! من الشيخين (يعني بذلك أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب) كما ذكرناه في مذهبهم، ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم! وكثرت التآليف في مذهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة! بنوع من التناسخ!، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم!، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت!، مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها. ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف! وفيما وراء الحس!. وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة، وحلول الإله فيهم!. وظهر منهم أيضا القول بالقطب! والأبدال، وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء. وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقتهم في لبس "الخرقة"! أن عليا رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد! بالتزام الطريقة!. واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم!. ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح!. ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه، بل الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدى. وفي تخصيص هذا بعلي دونهم، رائحة من التشيع قوية، يفهم منها ومن غيرها من القوم دخلهم في التشيع وانخراطهم في سلكه. وظهر منهم أيضا القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر!. وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض!. وكله مبني على أصول واهية من الفريقين! وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات، وهو من نوع الكلام في الملاحم..وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي : ابن عربي الحاتمي في كتاب : "عنقاء مغرب!" وابن قسي في كتاب "خلع النعلين" وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واصل، تلميذه في شرحه لكتاب "خلع النعلين". وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال!. وربما يصرحون في الأقل، أو يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واصل: أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى، وأنها تعقبها الخلافة، ثم يعقب الخلافة الملك، ثم يعود تجبرا وتكبرا وباطلا.!. قالوا : ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت!، وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية، ثم بخلافتها، ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط، ثم يعود الكفر بحاله!. يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها، والملك بعد الخلافة!. هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي، والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره، والكفر من بعد ذلك. فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى. وقالوا: ولما كان أمر الخلافة لقريش! حكما شرعيا بالإجماع!، الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه!، وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم، إما ظاهر كبني عبد

---

[1] المقدمة، ص. 356 ~ 357 .
[2] المقدمة، ص. 357 ~ 359 .

المطلب، وإما باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل!، من إذا حضر، لم يلقب من هو آله. وابن عربي الحاتمي سماه في كتابه "عنقاء مغرب" من تأليفه : خاتم الأولياء! ". وكنى عنه بلبنة الفضة.. ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر، وذلك (محمد صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء!..وهذا الإمام المنتظر هو من أهل البيت، من ولد فاطمة، وظهوره يكون من بعد مضي (خ.ف.ج) من الهجرة. ورسم حروفا ثلاثة، يريد عددها بحساب الجمل، وهو "الخاء "المعجمة بواحدة من فوق : ستمائة، و"الفاء" أخت القاف ب : ثمانين، و "الجيم" بواحدة من أسفل : ثلاث. وذلك ستمائة وثلاث وثمانون (683) سنة وهي آخر القرن السابع. ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر!!، حمل ذلك بعض المقلدين لهم، على أن المراد! بتلك المدة مولده!؟!؟..

نقد ابن خلدون هذا، وإن لم يحسم الموضوع بشكل قاطع لقصر نظر على ما سوف نبين، إلا أنه مثل أول خطوة ومحاولة على الدرب الصحيح، لتنحية هذا الموروث الوثني من عقول المسلمين، حتى وإن لم يسعفه منهجه النقدي التاريخي الفضفاض! لبلوغ ما توخاه منه!. ثم يجب أن لا نحمل الرجل أكثر مما يطيق!، خصوصا إذا ما تذكرنا أن فترته، وهي القرن الثامن الهجري، كما شخص حالتها هو نفسه، كانت فترة انحطاط حضاري وانكماش واضمحلال سياسي ومعرفي في كل الميادين، حتى أنه توجس منه أفول عالم الإسلام جملة وتفصيلا. ثم إن أعراض ما يعتري ويصيب الأمم عند منعطفها على منحدر السقوط، من أعلى قمة مجدها الغير مستقرة، لتتدحرج نحو قعر حضيضها القار، تكاد تكون نمطية وتتمظهر عادة في مظاهر سريرية معروفة بما فيه كفاية : التقليد البليد، اجترار الموروث القديم، ثم التمسك بخيوط العنكبوت أو بأي حبل نجاة، حيث لا نجاة!. لذلك لن ننتظر أن نجد أحدا يتطرق للموضوع من جديد، سواء من معاصريه أو ممن جاءوا مباشرة بعده!. وسننتظر مرور ستة قرون أخرى، قبل أن نعثر على من يثير الموضوع من جديد، بأية درجة من التقييم أو النقد الوجيه الرزين أو إعادة نظر!.

وقصارى جهد كل من حاول رد أخبار المهدي، ممن جاءوا بعد ابن خلدون (ت: 808 هـ)، هو أن لاحظوا تعارض أخبارها لدى كل حزب من الأحزاب الساسية الإسلامية. وهي ملاحظة وجيهة في حد ذاتها، إلا أنها غير كافية من وجهة نظر النقد المنهجي العلمي، لغربلة هذا الكم الهائل من المرويات، الذي برعت الأحزاب السياسة والعقائدية في تفريخه وتلفيقه! بأكثر ما تستطيع أن تستوعب ذاكرة المنطقة، على ما سوف يتضح للقارئ الكريم عند تخريجنا لها. فهناك مهدي لكل حزب! ولكل طائفة! : من المهدي السني الحسني! الذي كنيته كنية النبي (أبو القاسم) واسمه يوافق اسمه واسم أبيه يوافق اسم أبيه (أي أن اسمه الكامل هو : أبو القاسم محمد بن عبد الله!)، ثم هو لم يولد بعد!، وسوف يكون في مقدمة جنده شعيب بن صالح التميمي في أربعة آلاف فارس[1]!؟، إلى المهدي الشيعي الحسيني السامرائي! (محمد بن الحسن العسكري : ابن سوسن!، أو نرجس!، أو صقيل!، أو حكيمة!..الخ!)، إلى المهدي العباسي!، إلى المهدي الأموي السفياني!، إلى المهدي اليمني القحطاني!..الخ. بل لفقت ملاحم يلتقي فيها هؤلاء المهادي! بجيوش تناهز العشرة ملايين مقاتل من الروم! في مكان يسمى " الأعماق" أو " دابق"، مكانان بين مدينتي حلب وأنطاكية!؟!؟ السوريتين، فيما سماه المخرفون : " الملحمة الكبرى[2] **!" في إخراج لحروبهم الأسطورية والخيالية التي تليق بأساطير الخيال العلمي في وقتنا الحاضر[3]، أو عوالم الكرتون لدى الصغار، مما تملأ به شركة أفلام الكرتون الأمريكية والت ديزني (Walt Disney) خيال الأطفال، أو عوالم الإفتراض الحاسوبيية الأكثر إثارة وفرجة ومتعة!. ثم فريق آخر تمسك بالخبر المروي عند ابن ماجة في سننه عن محمد بن خالد الجندي اليمني، عن أبان بن صالح، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم : {** لا مهدى إلا عيسى بن مريم **} الذي رواه عنه**

---

[1] لم يكن هؤلاء المخرفون ليتوقعوا بانقراض الفرس ولا بحرب النجوم، التي لا تحتاج إلى تكديس أجناد في البيداء يمكن إبادتهم دون أن يعلموا حتى بمن أبادهم!؟

[2] أنظر : "الإشاعة لأشراط الساعة" للبرزنجي ص. ص. 99 و 100 .

[3] لفقوا على لسان الصحابي حذيفة بن اليمان في خروج المهدي على الدجال فقال : { ثم يأتون مدينة يقال لها " القاطع" طولها ألف ميل وعرضها خمسمائة ميل ولها ستون وثلاثمائة باب، يخرج من كل باب ألف مقاتل وهي على البحر!؟! لا يحمل جارية، يعني سفينة فيه. قيل يا رسول الله ولم لا يحمل جارية؟ قال : لأنه ليس له قعر!!؟؟ وإنما يمرون من خلجان من ذلك البحر. } قلت : وهذا الملفق البليد الطبع لا يعرف الحساب ولا الجغرافيا، لأن مدينته هذه لا يسعها الهلال الخصيب برمته!. وهذا نموذج وغيض من فيض من خيال الشرق الأسطوري الخرافي!. أنظر " الإشاعة " ص. 497 .

الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله[1]. والذي اعتمده أبو محمد بن الوليد البغدادي وغيره لرفض هذه الأخبار في المهدي، كما حكى ذلك عنه ابن تيمية[2] في كتابه : " منهاج السُّنة النّبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية[3] " **. ثم تظافر كل فريق يُنابز ويُلاجج بما صحّ لديه في هواه قبل عقله!، ما صح لدى الآخرين بخلافه! بذات الدعوى. وكان البَيْهقي (ت: 458 هـ) قد طعن في رواية الجَنديِ هذه بما مرّ بك من : جَهالةِ حالـه!، ثم تفردُه بـه!، ثم اختلافهم عليه فيه : مُرسَلاً له مرّة وموصلاً له أخرى!، ثم روايته له عن طريق أبان بن أبي عِياش وهو متروك لشهرته بوضع وصناعة وتلفيق الأحاديث!. ثم جاء ابن قيم الجَوْزية[4] (ت:751 هـ) بعد ابن تيمية وألف** " المنار المنيف[5] " **فقال :**

وهذه الأحاديث أربعة أقسام : صحاح!؟!؟، وحسان!؟!؟، وغرائب، وموضوعة. وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال :

(1) أنه المسيح عليه السلام..(ذكر فيه الخبر السابق لمن يستشهد به!).

(2) أنه المهدي الذي ولي من بني العباس، وقد انتهى زمانه..(ذكر فيه أخبارا يستشهدون بها!).

(3) أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، من ولـد الحسن يخرج في آخر الزمان!، وقد امتلأت الأرض جورا وظلما، فيملأها قسطا وعدلا. وأكثر الأحاديث على هذا تدل!.

(4) أنه الأسطورة السردابية!في سر من رأى بخصوص مهدي الإحدى عشرية الذي أضافوه إلى قائمة أئمتهم التاريخيين الإحدى عشر ليتمموا بمثل هذه الخرافة الخيالية العدد 12. وهو تلفيق لا يصح لا في التاريخ ولا في الواقع ولا في عالم الأعداد في الحساب المعقد أو المركب (**complex Numbers**) حيث نكتب هذه الخرافة { 11 + ت (ترمز لتخيلي) } لأن الأعداد التخيلية لا تجمع مع الأعداد الصحيحة الحقيقية سوى في عقول الشرق ! وهذه علق ابن القيم عليها ببيتي شعر[6] !، ثم قال : لقد أصبح هؤلاء عارا على بني آدم وضحكة ليسخر منهم كل عاقل!.

وهؤلاء كلهم سابقون عن جيل ابن خلدون. وممن عاصره وكانت لهم عناية بالحديث، أبو الحسن الهيثمي[7] (ت: 807 هـ) في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد[8] " **وكذلك أفردها في :** " موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان " **بأن أضاف ستة أخبار في** " باب ما جاء في المهدي " **من كتابه هذا مسرودة سردا، دون الكلام عليها ولا على رجالاتها!. وجاء الجلال السيوطي (ت: 911 هـ) وجمع ما في** " أخبار المهدي" **للحافظ أبي نعيم الأصبهاني وهي أربعين خبرا وأضاف لها هو زيادات من مصادر مختلفة، إلى أن أوصلها هو إلى حوالي 235 خبرا وسمى مؤلفه"** العرف الوردي في أخبار المهدي"**. والمضمن في** " الحاوي في الفتاوي " **. وهو أوسع جمع لها إلى زمنه. وهي أيضا مسرودة سردا ومجردة من السند، مما يقلل من قيمتها العلمية بالنسبة للناقد لها، خصوصا وهو قد استعمل مصادر مفقودة العين**

---

[1] الرواية اوردها أبو عبد الله ابن البيع : الحاكم النيسابوري في " المستدرك (4 : 442). حيث علق أنه لم يورده في كتابه هذا محتجا على الشيخين البخاري ومسلم لعدم إخراجهما له في صحيحيهما وإنما تعجبا؟!.

[2] أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام : ابن تيمية الحراني الحنبلي المشقي (661 ~ 728 هـ)

[3] طبعة بولاق لسنة 1321 هـ ، مصر (4: 211). وألفه للرد على رافضي ادعى المهدوية لمهديه الأسطوري السامراني،بناء على ما لفقه أسلافه فيه، مثبتا لها، بينما ينقضها ابن تيمية ويثبتها للحسنى ! محمد بن عبدالله !! بناء على الأخبار الملفقة على السنة!.

[4] أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (691 ~ 751 هـ). تلميذ ابن تيمية وصاحبه في تحمل رسالته. أوذي في ذلك وحبس معه في السجن مرات. وهو كشيخه مؤلف موسوعي مكثر.

[5] العنوان الكامل : " المنار المنيف في الصحيح والضعيف" طبع بتحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب الفرافرة، سورية. وعقد الفصل الخمسين لبعض أخبار المهدي ساردا لثمانية عشر خبر منها . من رقم 326~ إلى 344 صفحات (141 ~ 151). دون التعرض لها بجرح أو تعديل إلا ما أثر عن غيره فيها !.

[6] أما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم كلمتم العنقاء والغيلانا

[7] أبو الحسن، نور الدين، علي بن الحسن بن أبي بكر بن سليمان الشافعي الهيثمي (735 ~ 807 هـ) الحافظ. ولد بالقاهرة وفيها نعلم وعلم.

[8] جمع فيه زوائد على ما في الكتب الستة (البخاري، مسلم، أبي عيسى الترمذي، أبي داود السجستاني، ابن ماجة، النسائي) مما في مسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى الموصلي، ومعاجم الطبراني الثلاث. في ست مجلدات.

اليوم!. ثم جاء ابن حجر الهيثمي المكي[1] (ت: 974 هـ) وألف " الصّواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة "[2] **و كذلك** " القول المختصر في علامات المهدي المنتظر" **وكتاب** " الفتاوى الحديثية "[3] **ساردا لها بدوره وطاعنا بما تجمع له منها على المخالفين الروافض!، الذين لهم كَمّهم الهائل من سردهم الخاص بهم (أكثر من 5000 آلاف خبر ملفق!)، لا يشاركهم فيه أحد! خارج فرقتهم. وكذلك جمعها المتقي الهندي[4] (ت: 975 هـ) في كتاب :** " كنز العُمّال في سنن الأقوال والأفعال[5] " **. وكتاب** " البرهان!؟ في علامات مهدي آخر الزمان " و " تلخيص البيان " **وكلها تلف وتدور حول المهدي! وعرض لها أيضا الملا علي القاري[6] (ت: 1014 هـ) في** " المشرب الوردْي في حقيقة (مذهب أو أخبار) المهدي "**، وكذلك ملأ بها شرحه على** " مشكاة المصابيح[7] " **للخطيب التبريزي[8] الذي سمّاه** " مِرقاة المفاتيح لمشكاة المصابيح " **على ما اعتاد المقلدون في هذه الأعصار المتأخرة. وعلى ذات النهج سلك السيد مرعي المقدسي[9] (ت: 1033 هـ) في :** " فرائد فوائد الفكر في المهدي المنتظر "**. ثم جاء البرزنجي[10] (ت: 1103 هـ) وألف كتاب :** " الإشاعة لأشراط الساعة " **على ذات النهج وإن تميز بنكتة عن سابقيه حيث قال في إحدى تنبيهاته[11] :**

لم أقف على اسم أم المهدي! بعد الفحص والتتبع، فلعلهم يعرفونها من طريق الكشف! لا من طريق النقل[12] !؟

كما يورد قول ابن عربي الحاتمي الأندلسي[13] الذي سود به الفصل 360 من كتابه " الفتوحات المكية " **عما سيفعله المهدي إذا خرج[14] :**

يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص. أعداؤه مُقلّدة العلماء أهل الاجتهاد، لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم. فيدخلون كرهاً تحت حكمه، خوفاً من سيفه[15] وسطوته ورغبة فيما لديه. فليس له عدوّ مبين! إلا الفقهاء!؟

---

[1] أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن محمد بن علي بن حجر المصري الشافعي (909 ~ 974 هـ) ولد بمصر ثم جاور بمكة سنة 940 هـ إلى وفاته فنسب لها.

[2] قال في خطبة الباب : أنه سئل قديماً في تأليف كتاب يبين أحقية خلافة الصديق وإمارة عمر بن الخطاب فأجابه إلى ذلك.

[3] وهي جواب عن سؤال وُجِّه إليه: عن طائفة يعتقدون في رجل مات منذ أربعين سنة، أنه المهدي الموعود بظهوره آخر الزمان وأن من أنكر كونه المهدي المذكور فقد كفر. فما يترتب عليه؟.

[4] علاء الدين، علي بن حسام الدين، عبد الملك بن قاضيخان المتقي الهندي التاوري المدني الشاذلي (885 ~ 975 هـ).

[5] حيث عقد فصلاً بعنوان : خروج المهدي" وهو مطبوع على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل. طبعة المكتب الإسلامي في ست مجلدات. وطبع طبعة منقحة ومحققة بحلب في سوريا في 14 مجلد سنة 1395 هـ وجمع فيه 52 خبراً، مرقمة من 38651 إلى 38709 ابتداءً من صفحة 261 .

[6] نور الدين، علي بن سلطان محمد الهروي الشهير بالملا القاري المكي الحنفي (ت: 1014 هـ). وُلد بهراة ثم رحل في طلب العلم إلى مكة وأخذ بها عن الشهاب أحمد بن حجر الهيثمي وأبي الحسن البكري وغيرهما واشتهر ذكره وطارت في الأمصار شهرته وتآليفه. كما اشتهرت مسائله في الاعتراض على الإمامين مالك و الشافعي رحمهم الله، من منطلق مذهبيته الحنفية وامتحن في ذلك.

[7] عمل فيه على تكميل " مصابيح السنة للبغوي وذيل أبوابه. وله شروح عدة.

[8] أبو عبد الله، ولي الدين، محمد بن عبد الله، محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي (ت: 741 هـ) المحدث.

[9] مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر الكرمي، المقدسي الحنبلي (ت: 1033 هـ) ينسب إلى طور كرم، قرية قرب نابلس بفلسطين. دخل مصر وتوطن بها ودرس الفقه والحديث إلى أن عُدّ أحد أكابر الحنابلة في مصر وشغل أيامه ما بين فتاء وتدريس وتصنيف وبلغت مصنفاته زهاء سبعين مصنفاً.

[10] محمد عبد الرسول بن عبد السيد بن عبد الرسول بن قلندرين الحسني الشافعي البرزنجي (1040 ~ 1103 هـ). ولد ونشأ بشهرزور وارتحل في طلب العلم ولبس خرقة التصوف على يد الصفي أحمد القشاشي ثم توطن المدينة ودرس بها.

[11] أنظر الإشاعة ص. 94 ، طبعة أولى، لطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، لسنة 1370 هـ القاهرة. وله طبعة قديمة من دار السعادة سنة 1325 هـ/1907 م.

[12] وسوف ينقل عنه هذه الجملة بتمامها دون الإشارة للبرزنجي شمس الدين، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني النابلسي الأثري الحنبلي (1114 ~ 1188 هـ) لاحقاً في مؤلفه " لوائح (أو لوامع) الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية " مع أنه ينتسب إلى الحنابلة الذي لا يقولون بترهات الكشف! في المجلد الثاني، الفائدة الخامسة!، الطبعة الأولى، ط. مجلة المنار الإسلامية، 1324 هـ، مصر. وهو عنده أن الروايات الواردة في المهدي تفيد العلم القطعي!!!؟؟ وأن الإيمان به واجب!؟!؟. وعنده أيضا أن الخبر الذي يرويه أبو بكر الإسكاف : " من كذّبَ بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدي فقد كفر" سند مَرْضي عنده، مع أنه مطعون فيه من قبل الحدثين قبله! وأورده ابن خلدون في أول طعونه!.

[13] أنظر ما كتبناه بشأنه في كتابنا : " الانقلابات البولصية في الإسلام " ضمن هذه السلسلة من كتب الحوار المُحَضَّر.

[14] أنظر الإشاعة ص. 107 .

[15] (ابن عربي مُدّعي الكشف!؟ لم يكشف له أن السيوف سترفع!)

خاصّة. فإنهم لا يبقى لهم رياسة ولا تميز عن العامة، بل لا يبقى لهم علم بحُكْم إلا قليل. ويرفع الخلاف عن العالم في الأحكام بوجود هذا الإمام!. ولولا أن السيف! بيده لأفتى الفقهاء بقتله! ولكن الله يظهره بالسيف! والكرم فيطمعون ويخافون فيقبلون حكمه من غير إيمان، بل يضمرون له خلافه. يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم. أسعد الناس به أهل الكوفة. يبايعه العارفون! بالله من أهل الحقائق!؟!؟ عن شهودا وكشف! وتعريف إلهي. له رجال إلَهيون يقيمون دعوته وينصرونه. وهم الوزراء يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلده الله. وهم تسعة!؟ على أقدام رجال من الصحابة. قال الله تعالى : فيهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وهم من الأعاجم ما فيهم عربي!، لكن لا يتكلمون إلا بالعربية!؟. لهم حافظ ليس من جِنسهم!؟ ما عصى الله قط، هو أخص الوزراء وأفضل الأمناء!؟..الخ.

ولِكلٍّ سيناريوه الخاص به وإخراجه المختلف، حسب هويّة مهديّهِ وقبيله، ويتفق كل الاتفاق مع هوس وهلوسة الموروث الوثني القديم للمنطقة ، بل يَتنزّل وفق سعة خيال ومِخيال المخرفين الجدد، في تكرارية لا تَكِلُّ ولا تَمِلُّ من إعادة الإنتاج والتدوير، إما بالتهجين وإما بالتلفيق على ما اعتادت المنطقة وأَلِفت!.

وجمع منها الشوكاني (ت 1250 هـ) خمسين أثراً وادعى لها التواتر! في : " التوضيح فيما تواتر! في المنتظر والدجال والمسيح " **وكذلك في كتابه الآخر :** "قطر الولي على حديث الولي ". **وعلى نهجهم سار أحمد زيني دحلان[1] (ت 1304) في :** " عقود الدُرَر في تحقيق القول بالمهدي المنتظر ". **وأورَدها من وجهة نظر المتصوّفة الغنّوصية الشيخ الحمزاوي[2] (ت: 1303 هـ /1885 م) في كتابه :** " مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار!" **مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، مما لا حاجة بنا إلى تكراره. ثم ظهر في شبه القارة الهندية، السيد محمد صديق خان (ت: 1307 هـ/1889 م)[3]، المعاصر للحمزاوي بكتاب :** " الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة[4] ". **حيث نجده يشير إلى تواتر! هذه الأخبار وإلى نقد ابن خلدون لها[5]، ليقوم هو بدوره باستعراض ثمانية وعشرين أثراً لينتهي به المطاف ملخّصا[6] :**

هذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وهي كما رأيت يقوي!؟ بعضها بعضاً، وفيها ثمانية وعشرون أثراً عن الصحابة الكبار عند أهل العلم بالحديث، ومثله لا يقال بالرأي!.

ثم عرّج على انتقادات ابن خلدون[7] :

فقول ابن خلدون : فإن صحَّ ظهوره لا يخلو من مسامحة ونوع إنكار من خروجه، وتلك الأحاديث واردة عليه، وليست بدون منَ الأحاديث التي ثَبَتت بها الأحكام الكثيرة المعمول بها في الإسلام. وما ذكره من جرح الرواة وتعديلهم يجري في رجال الأسانيد الأخرى أيضاً بعينه أو بنحو، فلا معنى للريب في أمر ذلك الفاطمي الموعود! المنتظر! المدلول عليه الأدلّة!. بل إنكار ذلك جرأة!؟؟؟ عظيمة في مقابلة النصوص المستفيضة المشهورة البالغة إلى حد التواتر!!؟؟، وإما أنه لا تتم شوكة أحد إلا بالعصبية فنعم، ولكن الله تعالى قادر على خرق العادة، ويؤيد دينه كيف يشاء.

---

[1] أحمد بن زيني بن أحمد بن دحلان امكي الشافعي (1232 ~ 1304 هـ) ولد بالحجاز واشتغل بالإفتاء للشافعية وتولى نظارة أول مطبعة ادخلت إلى الحجاز في زمنه ونشر بواسطتها كتبه وكتب غيره

[2] الشيخ حسن العدوي الحمزاوي المصري (1221 ق 1303 هـ/1885 م)

[3] أبو الطيب، محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني، البخاري القنوجي الهندي (1248 هـ/1832 م ~ 1307 هـ/1889 م) من موالد بلدة قنوج بالهند. بدأ تعليمه في دلهي وهي يومها بلد علم وعلماء، فأخذ عن الشيخ صدر الدين الدهلوي وغيره من مشاهير مشايخها ثم انتقل إلى بهوبال ومنها سافر إلى الحجاز وحج وأخذ عن علماء اليمن، وظل عاكفاً بالحرم لمدة ثمانية أشهر، ثم عاد إلى بهوبال، حيث يقول عن نفسه : { ألقى عصا الترحال في محروسة بهوبال فأقام بها ووطن وتموّل واستوزر وناب وألف وصنف}. وما عناه هنا بالاستوزار والنيابة، فهو كونه تزوج بملكة بهوبال وناب عنها. فكان لقبه " نواب عالي الجاه، الأمير الملك بهادر" . اهتم بالعلم وجمع الكتب حتى كون مكتبة نفيسة صارت وردا لنهضة المسلمين بالهند. له مؤلفات كثيرة في الأصول التفسير والحديث واللغة. والأنساب والمواعظ. وله في الحديث : " السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج" و " عون الباري لحل ادلة البخاري".

[4] طبع أولا في بهوبال والأستانة سنة 1293 هـ / 1876 م، ثم في القاهرة سنة 1379 هـ/1959 م من طرف المؤسسة السعودية بمصر بمطابع المدني. وقد عالج نفس الموضوع في كتابه الآخر: حجج الكرامة في آثار القيامة".

[5] أنظر الإذاعة، ص. 112 طبعة المدني، مصر.

[6] الإذاعة، ص. 144 .

[7] الإذاعة، ص. 146 .

وهذا الاحتمال وإن كان مطابقا لما في الخارج، فلا يصلح لأن ترد به الأحاديث النبوية، فهذه زلة!!؟؟ صدرت من ابن خلدون رحمه الله تعالى، وليست من التحقيق في صدر ولا وردا. فلا تغترن به! واعتقد ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفوض حقائقه إليه تعالى تكن على بصيرة من أمر دينك.[1] !؟!

أما الرد المباشر أو انتقاد ابن خلدون ، فلن يحصل إلا في السنة التي تلتها، سنة 1347 هـ/ 1927 م عندما صدر لصنوه المغربي البعيد، الشيخ أحمد بن الصديق الغماري[2] (ت: 1380 هـ/1960 م) كتاب : " إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون " أو "المرشد المبدي، لفساد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي[3] ".

قال ابن الصديق[4] :

فقد وجدنا خبر المهدي واردا من حديث :

(1) أبي سعيد الخدري، (2) عبد الله بن مسعود، (3) علي بن أبي طالب، (4) أم سلمة (أم المؤمنين)، (5) ثوبان (مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، (6) عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، (7) أبي هريرة، (8) أنس بن مالك، (9) جابر بن عبد الله الأنصاري، (10) قرة بن إياس المزني، (11) ابن عباس (عبد الله)، (12) أم حبيبة (أم المؤمنين)، (13) أبي أمامة، (14) عبد الله بن عمرو بن العاص، (15) عمار بن ياسر، (16) العباس بن عبد المطلب، (17) الحسين بن علي، (18) تميم الداري، (19) عائشة (أم المؤمنين)، (20) عبد الرحمن بن عوف، (21) عبد الله بن عمر بن الخطاب، (22) طلحة (بن عبيد الله)، (23) علي الهلالي، (24) عمران بن حصين، (25) عمرو بن مرة الجهني، (26) معاذ بن جبل. ومن مرسل شهر بن حوشب. وهذا في المرفوعات (إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) دون الموقوفات والمقاطيع التي هي في مثل هذا الباب من قبيل المرفوع!!!؟؟؟. ولو تتبعنا ذلك لذكرنا منه عددا وافرا ولكن في المروع منها كفاية. ولنذكر عزو أحاديث هؤلاء الصحابة إلى مخرجيها إيضاحا للمقصود وتتميما للفائدة ولا نورد ألفاظها اختصارا واستغناء بما سيأتي.

ثم شرع في سرد هذه الروايلت عمن خرجها نقلا عن السيوطي في "الحاوي للفتاوي" ليستطرد قائلا[5] :

وقد كثر في الناس اليوم من يخفى عليه هذا التواتر! ويجهله! ويبعده عن صراط العلم جهله ويضله، من ينكر ظهور المهدي وينفيه ويقطع بضعف الأحاديث الواردة فيه، مع جهله بأسباب التضعيف وعدم إدراكه معنى الحديث الضعيف، وتصوره مبادئ هذا العلم الشريف، وفراغ جرابه من أحاديث المهدي الغنية! بتواترها!!؟ عن البيان لحاها! والتعريف. وإنما استناده في إنكاره مجرد ما ذكره ابن خلدون في بعض أحاديثه من العلل المزورة! المكذوبة! ولمز به ثقات رواتها! من التجريحات الملفقة! المقلوبة!؟. مع أن ابن خلدون ليس له في هذه الرحاب الواسعة مكان، ولا ضرب له بنصيب ولا سهم! في هذا الشأن ولا استوفى منه بمكيال ولا ميزان!. فكيف يعتمد فيه عليه ويرجع في تحقيق مسائله إليه؟. فالواجب دخول البيت من بابه والحق الرجوع في كل فن إلى أربابه فلا يقبل

---

[1] قلت : وهذا الطعن على المنطلق النظري لابن خلدون بخصوص نظريته في" العصبية " في محله هنا. أولا لأنه أي صديق خان أصبح ملكا لبهوبال بالهند بطريقة ألف ليلة وليلة!، حيث أصبح ملكا دون أن تكون له عصبية!. ونقده للقاعدة الخلدونية ولو لمرة يجعلها قابلة للنقض مرات!. ثم ما كان ليخطر لابن خلدون أن يتصور المجتمع المدني المعاصر الذي تحكمه أحزاب تتعصب لأفكار وسياسات وليس لعصبيات الدم!. ونحن مقبلون في عصرنا الحاضر على حكم قاروني، ربما كانت الثروة قوام عصبيته الوحيدة، كما أن الفقراء المهمشين القليلي الحظ منها كونوا حزبا آخر قوامه الشراكة القصرية في الفقر والعوز وليس الدم بحال!. مما يعيدنا القهقرى إلى الثنائية القديمة الأزلية بين حزب المترفين وحزب المستضعفين بتقمص جديد!.

[2] أبو الفيض، شهاب الدين، أحمد بن (شيخ الطريقة الصديقية) محمد بن الصديق بن أحمد الغماري الحسني المغربي نزيل مصر (1320 هـ ~ 1380 هـ) ولد بقبيلة بني سعيد بناحية مدينة تطوان المغربية.درس على والده في زاويتهم الصوفية وفي الجامع الكبير بمدينة طنجة الفية ابن مالك ومختصر الشيخ خليل المالكي في فقه مالك وصحيح البخاري وأوراد الزاوية وطقوسها. ثم انتقل إلى الأزهر سنة 1339 هـ/1920 م وانتظم في سلك طلابه. من شيوخه في الأزهر : الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي في الفلسفة وعلم الكلام، الشيخ محمد بن إبراهيم السمالوطي المالكي في التفسير وفقه مالك، الشيخ أحمد بن نصر العدوي المالكي في الحديث وغيرهم. وله إجازات كثيرة على الطريقة القديمة وإنتاج غزير. تعرضنا في مؤلفنا : " كيف يرد الخطأ على المحدثين المعاصرين الكبار : الشيخ الألباني نموذجا " ضمن سلسلة كتب " الحوار المحضر " لمعتقده الجني ! الخارقي ومشرب زاويتهم الصوفي فراجعه هناك.

[3] نشرته مطبعة الترقي بدمشق.

[4] إبراز الوهم المكنون، ص. 437 ~ 438 .

[5] إبراز الوهم المكنون ، ص، 443 .

تصحيح أو تضعيف إلا من حفاظ الحديث ونقاده.

فاعن به ولا تخض بالظن ولا تقلد غير أهل الفن

ولما لم أر أحدا تصدى للرد عليه فيما علمت، ولا بلغني ذلك عن أحد فيما رويت وسمعت، بعثني الغيرة الدينية الأثرية، وحثني فضل الانتصار والذب عن السنة النبوية، على أن أدحض حججه الباطلة! وأرد شبهه الفاسدة العاطلة فكتبت على ضعف في الاستعداد!، وقلة من المواد! هذه الرسالة، واختطفت من بين أنياب العوائق هذه العجالة، بعد أن فهمت مرامه وتدبرت كلامه. فإذا هو مموه بشبه واهية يعارض بعضها بعضا، مركب من مقدمات وهمية موهمة!، تناقض نتائجها نقضا، مؤلف من مغالطات! يخيل للناظر أنها حجج قوية! ترفض النزاع رفضا، محشو بتعسفات تغض من صاحبها غضا! ومجازفات تحط من قدره وتنقص منه طولا وعرضا!، كما ستعلم ذلك وتتحققه عند عرضنا له عليك عرضا وسميناه: "إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون والمرشد اليهدي لرد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي"..

ثم بدأ في يتتبع ما جاء من كلام ابن خلدون في مقدمته حديثا حديثا ثم علق قائلا [1] :

وقال (ابن خلدون) أيضا بعد نقله كلام الصوفية في المهدي :

{ هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا }.

أقول (ابن الصديق) : ادعاؤه استيفاء أخبار المهدي باطل. فن جميع ما ذكره من الأحاديث ثمانية وعشرون والوارد في الباب ضعف أضعاف ذلك وها أنا مورد من أخباره ما أكمل بالمائة من مرفوعات وموقوفات دون المقطوعات، إذ لو تتبعتها، خصوصا الوارد عن أهل البيت لأتيت منها بعدد كبير وقدر غير يسير مما ينبغي أن يفرد بالتأليف ولكن فيما سأذكره كفاية.

ثم ثنى في سرد مرويات من مظانها عادا لها من رقم 29 إلى 100 زيادة على ما عالج ابن خلدون، دون التعرض لها على نمط :

الحديث التاسع والعشرون: عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2] : { إذا رأيتم الرايات السود أقبلت من خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي } رواه أحمد!.

وهكذا دأبه مع الإحدى والسبعين خبر الباقية! إلى أن قال[3] :

وقد نقل الطاعن[4] كلام بعض الصوفية في المهدي وإخبارهم به من طريق الكشف! المؤيد بالكتاب!!؟؟ والسنة!

وطعن في جميع ذلك، ونسب إليهم ما هم برآء!!؟؟ منه من اختلاق ألفاظ وابتداع أشياء لا دليل عليها من الكتاب والسنة. والقول بوحدة الوجود! التي لم يفهم معناها!!!؟؟ وغير ذلك مما لم يعرف أصله من السنة أو تغافل عن معرفته، كإنكاره وجود الأبدال!!!؟؟ الوارد خبرهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!!؟؟ بطريق التواتر!!! الموجب للإيمان!!!؟؟ بوجودهم!!!؟؟ كالإيمان بوجود المهدي!!!؟؟. ولعلنا نفرد في ذلك كتابا مستقلا فيما بعد إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

قلت : ولا يثير متن هذا الخبر في : "الرايات السود الخراسانية!" ولا ما هو أبعد تحققا أية مساءلة! عند ابن الصديق!. وهو ما ينبؤك بأفق فهمه للرواية والتاريخ معا!. ولا عجب في ذلك، إذا ما وقفت على مشربه وعقيدته في وحدة الوجود كما أشار لها هنا!. ثم تجهيل ابن خلدون وتجريده من المعرفة!، بمثل هذه الدعوى!، نكهة لا تخطئ من التعالم الواهم الذي يدعونه لأنفسهم[5]. وهي دعوى الغنوصيين (العرفانيين) قديما وحديثا. أما أبداله! كأقطابه! وكأغواثه! فابتكارات صوفية ما أنزل الله بها من سلطان وإنما تلفيقات وتهجينات حرة للمنطقة. بل لا نجد مدلولا

---

[1] إبراز الوهم المكنون، ص. 562 .

[2] لا حظ أنه لا يصلي على الصحابة بعد الآل!، وما ذلك سوى أنه ينتسب إلى الشيعة الحسنية الغلاة! وهو مشهور في زاويتهم. ثم هو صوفي حتى النخاع، ثم هو أخيراً تختلط عليه الأحوال الشيطانية التي يحكيها عن أبيه ويحسبها ضمن الكرامات! بينما لا يشك لبيب أنها من الشرك الأكبر. أنظر للمزيد ما سطرناه في حقه وحق إخوته ووالده في كتابنا : " كيف يرد الخطأ على المحدثين المعاصرين الكبار..". وابن خلدون هنا على الطرف النقيض بما كتبه في المقدمة.

[3] إبراز الوهم المكنون، ص. 589 ~ 590 .

[4] يشير بذلك ابن الصديق إلى ابن خلدون

[5] أقلها زيادة على الكشف ومساءلة الحضرة الربانية، دعوى العلم اللدني!، مع أن هذا حظ مشترك في زمنه!

لمعناها لا من القرآن ولا من السنة الصحيحة ولا عرف الصحابة شكلها ولا التابعون، بل لن يسمع أهل المدينة بشيء اسمه "التصوف[1] " إلا في أيام أبي جعفر، محمد (الباقر) (ت: 114 هـ) مع مطلع القرن الثاني الهجري، كما نقل عنه ابنه جعفر الصادق[2]. وهو ما تسنده وقائع التاريخ والعرف.

ونجد محمد حبيب الله الشنقيطي[3] (ت: 1363 هـ/1944 م) مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين، يوضح مقولته ودعواه من خلال عنوان كتابه : " الجواب المقنع! المحرر في الرد على من طغى وتجبر بدعوى أن عيسى هو المهدي المنتظر! " **دون إضافة جديد للموضوع!. ولا جديد كذلك عند الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع[4] (ت: 1385 هـ/1965 م) في كتابه :** " تحديق النظر بأخبار المنتظر ".

وهذا رأي يشتركون فيه مع معاصريهم، الذين بقت لهم بعض عناية بمثل هذه الأمور إلى هذه الأعصار المتأخرة حتى وإن لم يجهدوا أنفسهم جهد ابن الصديق.[5] وهكذا نجد أحمد شاكر في تخريجه لأسانيد مسند الإمام أحمد بن حنبل يقول :

أما ابن خلدون فقد قفا ما ليس له به علم! واقتحم قحما لم يكن من رجالها!.. وأنه تهافت في الفصل الذي عقده في مقدمته للمهدي تهافتا عجيبا وغلط أغلاطا واضحة!.. وأنه لم يحسن قول المحدثين : الجرح مقدم على التديل ولو اطلع على أقوالهم وفقهها ما قال شيئا مما قال!؟

وهذه كما أسلفنا دعاوى يلوح بها كل طرف اتجاه غريمه المتخندق هو الآخر وراء ما ورث وأشرب، دون حسم لأحد!. وسوف يرافع أبو الأعلى المودودي في محاكمته الشهيرة، دفاعا عن نفسه بما عرف ب " البيانات" ليقول[6]:

والأحاديث في هذه المسألة (المهدي) على نوعين :

أحاديث فيها الصراحة بكلمة " المهدي "،

أحاديث إنما أخبر فيها بخليفة يولد في آخر الزمان ويعلي كلمة الإسلام. وليس سند أي رواية من هذين النوعين من القوة حيث تثبت أمام مقياس (شرط) الإمام البخاري لنقد الروايات. فهو لم يذكر منها أي رواية صحيحة وكذلك ما ذكرَ منها الإمام مسلم إلا رواية واحدة في صحيحه ولكن ما جاءت فيها أيضا الصراحة بكلمة المهدي.

وسوف نرى لاحقا أن هذا الكلام مسلم في جزئية مهمة منه، لم يتنبه مع الأسف أحد لأوليتها ولا ألهم الإشارة لتبعاتها، بينما الكلام حول المسائل الأخرى المثارة! يلغي تلقائيا ومنطقيا ذاته بذاته تبعا.

ثم حصلت حادثة مسجد الحرم الشهيرة موسم حج سنة 1400 هـ/1979 م[7]، التي ادعى فيها أحد الطلاب

---

[1] أنظر كتابنا : شطحات لفقهاء بضاعتهم في الحديث الشريف بضاعة مزجاه : أبو حامد الغزالي والمهدي بن تومرت الموحدي نموذجا.

[2] روى علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي في كتابه " قرب الإسناد" عن سعد بن عد الله، عن محمد بن عبد الجبار، عن الإمام الحسن العسكري (ع) أنه قال : سئل أبو عبد الله جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) (ع)، عن حال أبي هاشم الكوفي الصوفي؟ فقال : إنه فاسد العقيدة جدا، وهو الذي ابتدع مذهبا يقال له { التصوف } وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة!. أنظر : ابن بابويه : " الإمامة والتبصرة من الحيرة" ص. 88 . مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط. ثانية، 1412هـ/1992 م، بيروت.

[3] محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد ماياي الجكني الشنقيطي (1295 هـ ~ 1363 هـ) عالم محدث.

[4] الشيخ محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مانع بن شبرمة الوهيبي التميمي (1300 ~ 1385 هـ) الفقيه.

[5] مثل ما قرره تقليدا الشيخ عبد الرحمن المباركفوري (ت: 1352 هـ/1933 م) في شرحه المسمى : " تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي" وهو عينه ما كرره معاصره محمد أنور شاه الكشميري (ت: 1352 هـ/1933 م) في كتاب : " عقيدة الإسلام"

[6] ألقى أبو يعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان هذا البيان أمام المحكمة التي كانت تحاكمه على موقفه من " القاديانية " أصحاب ميرزا غلام أحمد القادياني الذي ادعى المهدوية في أول أمره. وعقدت المحاكمة في يوم 14 أغسطس 1953 م وعرب البيان من طرف محمد عاصم الحداد ونشرته مطبعة العلوم والآداب ببيروت ص. 114 .

[7] كان ذلك يوم الثلاثاء أول شهر المحرم وكان المؤلف شاهد عيان على الحادث وعلى من قام به. واتصل بالطلبة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وقرأ رسائل جهيمان منظر الجماعة واستفسر إبانها مشايخ الجامعة في الموضوع وبالخصوص الشيخ أبي بكر الجزائري (الواعظ أيضا بداخل الحرم النبوي الشريف، والرئيس الشرفي لجمعية " الدعوة إلى الله "التي كان المؤلف كاتبها العام في فرع مدينة الرباط المغربية) والشيخ حماد الأنصاري رحمه الله.. وهذه الحادثة هي أساس بحثي لهذا الموضوع منذ تلك الواقعة الكاريكاتورية!. وكانت قد ظهرت رسالة للطالب الهندي عبد العليم عبد العظيم نال بها درجة الماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة تحت عنوان : " الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل " جمع فيها الآثار الواردة في المهدي ودرس أسانيدها وما قاله الحفاظ في رجالها من جرح

المنتسبين إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أنه المهدي المنتظر!، وشاهد إخراج مسرحيتها الهزلية سكان المعمورة قاطبة على شاشة تلفازهم مشدوهين!.

هذا الحدث سقى الإشكالية المهدوية بدماء جديدة وبعث المسألة من جديد على محك الجدل، فظهرت فتاوى وكتب لا تخرج في مضمونها عن المحكين السابقين، أي بين قابل لها اعتمادا على كثرة المأثور المروي في ذلك، ليجعلها من موجبات الاعتقاد، وبين رافض لها منطلقا مما انطلق منه مدعي " العقلنة! " في الإسلام (المعتزلة ومن نحى منحاهم أو نهج نهجهم من الأصوليين القليلي الأصالة! في الأغلب.) بعدم حجية أخبار الآحاد! في مسائل الاعتقاد، التي لا تثبت سوى بالقطعيات وليس بالظنيات كما هو حال أخبار الآحاد!، لكن دون انشاغلهم أولا بتحقيقها قبل الرجم بعقولهم خارج مجال العقول والمعقول!.

المحك الأول ظهر في ذات السنة 1400 هـ على يد محمد إسماعيل تحت عنوان معكوس المنطوق والمنطق! :
" المهدي حقيقة! لا خرافة ! ".

أما المحك الثاني الرافض فظهر واضحا في كتاب صدر للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، رئيس الشؤون الدينية والمحاكم الشرعية في دولة قطر بعنوان : " لا مهدي ينتظر بعد الرسول محمد خير البشر ".

وعيب الشيخ آل محمود في مؤلفه هذا، هو أنه لا يقدم لما بين يديه من طروحات، ما يسندها به من دعائم سوى ما اعتادت المدرسة العبدوية[1] (نسبة إلى الشيخ محمد عبده)، التي أعياها الإلمام بالتراث ومناهجه، فلم تجد طريقة مثلى للتعامل معه سوى بالقطيعة! المعرفية إلى أن انقطعت دونه!. فأقوى مستند له لرفضها كمن في تعويله: إما على افتراضات مجانية أو تقريرات حرة فضفاضة ومرسلة من الشيخ محمد عبده ومن تابعه من تلامذته المباشرين كتلميذه رشيد رضا صاحب " مجلة المنار "، أو غير المباشرين أمثال : أحمد أمين في كتاباته " فجر الإسلام " و " ضحى الإسلام " أو محمد فريد وجدي في موسوعته الموسومة : " دائرة معارف القرن العشرين[2]"

من تقريرات السيد ابن محمود[3] :

يا معشر العلماء والمعلمين والناس أجمعين أنه يجب علينا بأن يكون تعليمنا واعتقادنا قائما على أنه : لا مهدي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا نبي بعده.

أو[4] :

والحق الذي نعتقده وندعو الناس إلى العلم به والعمل بموجبه هو أن لا مهدي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا نبي بعده.

قلت : فليس العيب فيما قرره، بل في كيفية اختياره لحججه وبراهينه للتدليل على ذلك! مما عرض كتابه للانتقاد اللاذع والمصيب شكلا في أكثره.

جاء الرد على كتاب ابن محمود من طرف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد[5]، المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في رسالة تحت عنوان : " الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي "، حيث تتبع ابن محمود في كتابه السابق مفندا حججه الغير الصامدة أصلا! لأي نقد إن في الشكل أم المضمون، لاعتماده التشكيك العبدوي الذي لا يقدم ولا يؤخر من قطمير في مثل هذه الأمور!.

وتعديل وكذلك من صححها أو ضعفها..الخ. الرسالة اعتمدها الجهيمانون كمنيفستو لمهديهم وقاسوا دوره وإخراج مسرحية الحرم عليها : من مبايعة ما بين الركن والمقام والصلاة بالناس..الخ، بعد أن كانوا قد روجوا لها بين أتباعهم من طلبة الجامعة.

[1] أنظر كتابنا : المدرسة العبدوية والتحصين الاستشراقي للفيروسات الثقافية : طه حسين نموذجا.

[2] يورد محمد فريد وجدي في دائرته (10 : 481) ما يلي بخصوص المهدي : { وقد ضعف كثير من أئمة المسلمين أحاديث المهدي واعتبروها مما لا يجوز النظر فيها!. وإننا إذ أوردناها مجتمعة لتكون بمرأى من كل باحث في هذا الأمر حتى لا يجرأ بعض الغلاة على التضليل بها على الناس! }

[3] لا مهدي ينتظرن ص. 14 .

[4] نفس المرجع، ص. 29 .

[5] صدر هذا النقد للشيخ العباد في " مجلة الجامعة الإسلامية " بالمدينة المنورة، العدد الخاص رقم 45، لشهور : محرم، صفر وربيع أول لسنة 1400 هـ. وأتمه في العدد 46 لشهور : ربيع الآخر، جمادى الأولى وجمادى الآخرة لنفس السنة .

وآخر ما صدر مما وقفت عليه في مثل هذا المنحى العبدوي وهذا الاتجاه المتدثر بدعوى العقلانية! الغير معقولة ولا مُعَقلنة! مقالة[1] للثنائي حسن أحمد ابراهيم[2] وإبراهيم أحمد من زين[3] تحت عنوان : " تطور فكرة المهدية في الصناعة الحديثية : دراسة في العلاقة بين التجديد والتقديس[4]! ". منهجهما العبدوي الذي لا يخطئ عبرا عنه بوضوح في الفقرة الآتية[5] :

ولا بد أن نؤكد أن اتجاهنا في التحليل ينطلق من الآثار التي خلفها أهل العلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما صحَّ عندهم يَصِحُّ عندنا. أما حينما يصير الأمر معلقاً بأصول الدين! و كيف يمكن أن تترتب هذه الأمور، و كيف يمكن الاحتجاج بهذه الأحاديث لإثبات أمر يتعلق بالعقائد، فهذا أمر يخرج من دائرة علم أهل الحديث!!!؟؟ برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دائرة أصول الدين!!؟؟، وليست بضاعتهم في هذا الشأن بالتي تفي بغرض الفهم!!!؟؟، فكلٌ مُيسر لما خلق له!!!؟؟. وهذا يعني الفصل!!!؟؟ بين مجال علم الحديث!؟ وعلم أصول الدّين! حتى يستقيم الفهم!!!؟؟.

ومثل هذا الكلام الذي ينقض آخره أوله وتتشاكس مقدماته مع نتائجه، خاصية لهذا المنهج العقيم!. فكيف تصح الأحاديث عندهما كما صحّت عند أصحابها دون أن يترتب عليها عمل عندهما؟. ثم ما هي أصول الدين هذه المشاكسة كل المشاكسة للأصل الثاني من أصول الدين الذي يتحدثان عنه والذي لا يقيم وزناً لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم كمبلغ ومبين في آن، وصحّ كما يقولان وروده عنه صلى الله عليه وسلم!؟!..

بهذا نكون قد أحطنا القارئ الكريم بالإشكالية في أبعادها التاريخية والجغرافية والسياسية والبيئية وبالملابسات التي صاحبتها وواكبتها لدى كل الفرقاء المعنيين بها إلى يوم الناس هذا لنقفل الموضوع وإلى الأبد إن شاء الله وبإذنه تعالى.

9- مهدي البرتغال الدّون سيباستيان.

في يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى سنة 982 من الهجرة، الموافق للرابع من شهر آب (أغسطس) 1578م وقعت معركة شهيرة بين المسلمين المغاربة بقيادة الملك السّعْدي عبد الملك وأخيه أحمد المنصور وملك البرتغال الدون سيباستيان[6]. قدم الدون سيباستيان بجيشه البرتغالي لتنصير المغاربة! ومعه شراذم من مرتزقة ألمان وإيطاليين انضموا إليه على ملء بطونهم والفوز بالمغانم مع النصر الموعود!. نزلوا أولاً بثغر مدينة طنجة ومنها تحركوا إلى الرّملة المسمّاة بأبي غاض من فحص مدينة طنجة، قرب قنطرة " عصماء " على وادي مضى من أعمال مدينة القصر الكبير.

كان الملك المغربي المخلوع أبو عبد الله المتوكل (ت: 986 هـ/1578 م) يحاول استرداد ملكه من عمّه عبد الملك (ت: 986 هـ/1578 م) الذي كان قد خلعه من المُلك وطارده في كل أنحاء المغرب إلى أن أعيته الحيل وأدرك أن لا رجعة لملكه سوى بالتحالف مع الشيطان!. الشيطان هذا بالنسبة للمغاربة لم يكن ليجسده أحد من الأحياء يومها، ممن يدب على الأرض، أكثر من الدون سيباستيان نفسه!، وإن كان البرتغاليون سيكتشفون فيه قديسهم ومهديهم اللاحق!. جاء أبو عبد الله إذن صحبة البرتغاليين محارباً في صفوفهم!: صفوف الكُفار!، علّه يسترد مُلكه الذي لم يبايع المغاربة لسلالته سوى بدعواهم القيام بفرض جهاد الكفار!. لكن طال على أبي عبد الله الأمد، كما طال دائماً على غيره

---

[1] أنظر : مجلة " إسلامية المعرفة " ، العدد الرابع، ذو القعدة 1416 هـ/ أبريل 1996 م ص. 17 ~ 58 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ماليزيا.

[2] أستاذ تاريخ ورئيس قسم التاريخ والحضارة بالجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا. دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن.

[3] أستاذ مساعد في قسم معارف الوحي بالجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا. دكتوراه في مقارنة الأديان من جامعة تنبل بالولايات المتحدة الأمريكية.

[4] قالا بأن هذه المقالة جزء من بحث يعدّانه للجامعة التي يدرسان بها وأنهما قد أفادا من الملاحظات التي قدمها لهما مدير الجامعة د. عبد الحميد أبو سليمان : مدير الجامعة.

[5] نفس المرجع، ص. 31 .

[6] أنظر : أبا العباس أحمد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (5 : 58) وتعرف ب " وقعة وادي المخازن " أو " معركة الملوك الثلاثة ".

ليعيد الكرة بدون حياء!. وأصبح الحاكم المشروط البيعة بقيام الجهاد، يتنصل منها ليعدّ الملك حقاً موروثاً موصولاً بدمه الفاتر!.

وقعت المعركة مع الظهر ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى كانت حصيلتها مصرع ثلاث ملوك. الملك السعدي الذي توفي من مرض كان يعاني منه قبل التحرك من عاصمته مراكش إلى فحص طنجة ووافاه أجله ليلة المعركة فأخفي أمره على الجند والمتطوعة حتى لا يبث فيهم ريح الفشل والخذلان وتلحق بالجيش السعدي الهزيمة المحققة. الملك المتوكل الذي غرق في وادي مضى، بعد محاولته الفرار من وطيس المعركة وقد دارت الدائرة على الجيش البرتغالي ولم يُعثر له على أثر.

عند البرتغاليين قتل الدون سيباستيان بالسيف وسلبت ثيابه وترك عاريا في ميدان المعركة، وهلك معه أربعة عشر ألف جندي وأسر عشرون ألفا آخرين، بينهم الأمراء والنبلاء ورجالات الدين الذين اصطحبهم الدون معه في حربه المقدسة زيادة على الجند ولم يفلت من القتل أو الأسر من البرتغاليين وينجو بجلده سوى خمسين نفوا يقلون أو يزيدون. في اليوم التالي للمعركة بايع المغاربة لأخ عبد الملك السعدي وتسمى بالمنصور.

استجوب المنصور نبلاء الأسرى عن مصير ملكهم؟ فأجاب بعضه أنهم يجهلون مصيره، وقال آخرون بأنه نجا من المعركة وفر دون شك! إلا أنه لم يحن وقت ظهيرة ذلك اليوم، حتى أقبل نبيل شاب يدعى " سيباستيان دوريزيند"، كان يعمل خادما لدى الدون سيباستيان وأكد موته. أمر المنصور باستصحاب الرجل إلى جثة القتيل للتأكد من ذلك من طرف الجميع. فوجدوه عاريا تماما، بعد أن سلبه المجاهدون لباسه الحربي وما تحته. لف الجسد بغطاء وحمل على بغل ووضع مسجى أمام السلطان أحمد المنصور على حصير من القصب وفحص جسده. كانت جراحات رأسه خمس جراحات، اثنتان منها فوق العين اليمنى، إلا أن جسده ككل، لم يصب بأذى بسبب الدرع الواقي الذي كان يرتديه أثناء القتال وعراه منه سالبوه لاحقا.

تأثر السلطان أحمد لرؤيته الجثة، كما يشير إلى ذلك المؤرخون الإسبان والبرتغاليين، ثم طلب من الأمراء والنبلاء الإقرار والشهادة على ما عاينوا، وبأنهم تعرفوا على ملكهم. شهد الجمع وصدر الأمر من المنصور بنقل الجثة إلى الكاردينال "دون هنري".

حنط الجسد ونقل إلى مدينة القصر الكبير القريبة من مسرح المعركة واختير النبيل " بيلشيور أمرال" للسهر على عملية النقل والقيام بالمراسيم الأخيرة للجثة الملكية. وضع الثابوت في صالة قصر الحاكم " ابراهيم السفياني" في يوم الجمعة الموافق للسابع من شهر آب (أغسطس).

بعد أن أنهى بيلشيور ما أمر به استسمح السلطان أحمد في السفر إلى مدينة أرزيلا (أصيلا الحالية) لجلب المال على متن الأسطول الذي حمل الغزاة لدفع فدية الأسرى. الفدية الأولية هذه، وإن لم تفك كل الأسرى النبلاء، إلا أنها مكنت الأكثر نبلا والأكثر شرفا من بين الأسرى، من فك أسرهم والتمتع بحريتهم وليتجندوا بدورهم ما بقوا على قيد الحياة، للعمل على جمع ما تبقى لفك أسر الباقين. ثروة هائلة ستمكن المنصور من بناء دولته وجيشه كما لم يخطر بباله ولا ببال أخيه من قبل!.

وصل بلشيور أرزيلا في التاسع عشر من شهر آب، ومنها انتقل إلى مدينة طنجة فلم يجد الأسطول بها!، لأن أمير البحر " دون ديغو دا سوسا " نقل على متنه بعض الجرحى وبعض الفارين من المعركة وأبحر بهم على عجل إلى العاصمة البرتغالية لشبونة. مثل هذا لبيلشيور أول إحباط صادفه في مهمته، فكتب تقريرا مفصلا إلى الكاردينال " دون هنري " والي الحكام السبعة بالمملكة البرتغالية وأرسله للمعنيين، ثم عاد أدراجه إلى فاس عاصمة المنصور من أجل تسليم نفسه للأسر كما أخذ على نفسه العهد بذلك أمام المنصور.

أول ما قام به السلطان أحمد المنصور للدخول إلى السياسة الدولية من بابها الواسع، هو مكاتبته فيليب الثاني ملك إسبانيا، عارضا عليه السلم وتسليمه جثة ابن أخته "الدون سيباستيان" دون طلب فدية من أجل ذلك وإطلاق سراح سفيره " دون خوان دا سيلفا " فورا كمبادرة عن حسن النية.

ونظرا لحساسية القضية سياسيا، فقد قبل فيليب الثاني من هذا العرض نصفه فقط، أي : فك أسر سفيره وأعرض عن الشق الثاني الملغوم في نظره، والخاص بتسلم جثة ابن أخته!. بل طلب أن تسلم جثة دون سيباستيان إلى البرتغاليين رأسا، كي لا يثير حوله الشكوك، وكأنه تعاون مع المغاربة من أجل التخلص منه ووراثة عرشه

وإمبراطوريته الواسعة في البرازيل وغيرها!، إلا أنه مع ذلك، أرسل إلى المنصور النبيل " بيير فينيغا" محملا بهدية سنية وثمينة من الأحجار الكريمة، وطلب إطلاق سراح الشاب الدوق " بارسيلو " البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة آنذاك دون سواه!.

9-1- ونادى مناد أن دون سيباستيان لم يمت وبدأت الأسطورة!

وصل الخبر المفجع لنتائج المعركة سريعا إلى مدينة سبتة، ثم منها انتقل عبر مضيق جبل طارق إلى الجانب الآخر من الضفة. ومن هناك انتقل إلى لشبونة، التي لم يصلها إلا في اليوم الرابع عشر من شهر آب. وما أن علم اللشبونيون بالمصاب الجلل حتى خرج الكثيرون منهم إلى الشوارع لا يلوون على شيء من هول الصدمة. بل خرج الكثير منهم، ممن لم يتمالك نفسه، عن طوره وأبان عن نمط تلك الهستيريات التي تخالج النفوس عندما تعترضهم مثل هذه الأمور الغير المتوقعة!. ثم تضاربت الأخبار حول مصير الدون سيباستيان، بين من يقول أنه غرق!، ومن يقول أنه قتل!، إلا أن الأكثر كان يقول بأنه نجا!.

في الليلة التي تلت المعركة، دق ثلاثة من الناجين أبواب مدينة أصيلا وطلبوا إدخالهم إلى المدينة على عجل لأن أحدهم ادعى أنه الملك الناجي!. ظهر أحد الثلاثة متلففا والآخران يقدمان بين يديه من فروض الطاعة وطقوس الاحترام ما يشعر الرائي أنه هو الملك!، لا محالة!. ثم ما لبث أن دخل بيتا واختلى فيه. لم تمر سوى برهة من الزمن حتى شاع الخبر في المدينة الصغيرة بأن الملك قد نجا من المعركة! وأنه بداخل البيت المعلوم، فتقاطر السكان زرافات إلى عين المكان وتجمهروا حول البيت دون أن يتجرأ أحد على ولوجه على الملك!.

بدأت دوائر الإشاعة تتسع في الجغرافيا إلى أن وصلت أسماع قائد الأسطول أمير البحر " دون ديغو دا سوسا" وقاضي المدينة " دون ديغو دا فونسيكا ". تقدم أمير البحر نحو البيت وكم كانت دهشته عندما اكتشف أن الرجل ليس الملك!، وإنما هو أحد النبلاء الذين أفلتوا من القتل بعد جراحات أصابته، إلا أنها لم تكن بالقاتلة.

لم يسع القاضي " فونسيكا " سوى تأنيب الرجل على هذا الاحتيال الذي بسببه فتحت له أبواب المدينة. وعندما جوبه، أقسم النبيل بأغلظ الأيمان أنه لم يقل قط أنه الملك! وإنما قال أنه قدم من مكان المعركة الذي يوجد به الملك، ثم توسل إلى القاضي بأن يرحله على عجل إلى البرتغال. وافق القاضي على نقله واتخذ كل الاحتياطات اللازمة لحفظ حياته من غضب الجمهور المتجمع حول البيت لأنهم يرون أنه خيب آمالهم وتلاعب بمشاعرهم!. الغريب!، هو أن هذه الاحتياطات أتت بعكس ما كان منتظرا وأولها الإجماع! على أن الرجل فعلا هو الملك!. هذه كانت قناعة الناس على البر وكذلك كانت قناعة البحارة على الأسطول!.

أمام هذا الجنوح اللاعقلاني، لم يجد القاضي بدا من الدعوة إلى اجتماع عام ورسمي حضره كل من النبلاء الناجين من المعركة ونبلاء المدينة وأمير البحر وقواد أسطوله، حيث شرح لهم بتفصيل حيثيات القضية، من أولها إلى آخرها، ثم طلب ممن حضروا المعركة أن يدلوا بشهاداتهم ومن بينهم أربعة رأوا جثة الملك، ثم قدم لهم محضرا وقعه الجميع وأرسله إلى الكاردينال هنري.

إذا كان هذا هو ما جرى على الصعيد الرسمي، فإن البحارة الذين ظلوا فوق سفن الأسطول ما برحوا يتكلمون عن ذلك الشخص السري المهيب الذي حل بأحد بيوت أصيلا، ملتحفا في ردائه الواسع. وكل الدلائل بالنسبة لهم تشير إلى كونه الملك دون سيباستيان لا محالة!. وما أن رسا الأسطول في مرفأ العاصمة لشبونة حتى انتشر الخبر مع ما أضاف له الرواة من حبكاتهم الشخصية، في كل أرجاء المدينة وبدأ المؤولون يؤولون والمفسرون يفسرون!. إذ الأسطورة تبدأ دائما من التفسير. وكلما كان المفسر واسع الخيال كلما كبر احتمال قبول تفسيره كالتفسير الأوحد!.

أحد تلك التفاسير التي شاعت بين الجماهير إبان تلك الفترة هي : أن الملك فعلا حي يرزق! إلا أنه خجول مما آلت إليه نتائج المعركة ومن أثر الهزيمة النكراء التي أوقعها جيش المغاربة بالجيش البرتغالي وبسمعته سواء!، فهو ينتظر أن تهدأ الأمور وتنزل درجة حرارة عواطف الناس حتى يستأنف مهامه ويعاود صلاحياته من جديد!.

لم يصل الخبر المرسل من مدينة طنجة من طرف أمير البحر إلا في اليوم السابع والعشرين من شهر آب. قرأه الكاردينال هنري ووجده مقنعا فأعلن نفسه ملكا على البرتغال. كانت مصيبة البرتغال بموت الدون سيباستيان فعلا مصيبتين من جراء هذا الفعل الطائش من ملك البرتغال الأكثر طيشا وحمقا وهوسا. فهو أولا بحربه الخاسرة ضيع

هيبة الإمبراطورية البرتغالية. ثم إن ترهبه ثانية، وقد ربي على يد البابا جعلته يعزف عن الزواج، مما ضيع استمرارية الملك ذاته على البرتغال بترك العرش بدون وريث أو خلف!.

في الرابع من كانون أول (ديسمبر) سنة 1578 م (985 هـ) قام " أندريا كورسو غاسبارو " صديق السلطان أحمد المنصور بالتسليم الرسمي لجثة دون سيباستيان إلى " دون ديونيسيو بيريرا " حاكم مدينة سبتة المغربية المحتلة من طرف البرتغال وكتب المحضر التالي :

أنا أندريا كورسو، أسلم جثمان جلالة الملك دون سيباستيان، ملك البرتغال أدام الله مجده، إلى الأب الجليل " فري روك دا سبيريتو سانتو "والسيد دون ديونيسيو بيريرا "، حاكم مدينة سبتة هذه، و"دون رودريغو دا منيزس "بأمر من الملك مولاي أحمد الذي سلمني الجثمان المذكور لتقديمه إلى الملك الكاثوليكي. وتم هذا بكل طيبة خاطر أكدها بقسم، حسب عقيدته، أنه لو كان بين يديه حيا أو سجينا لأعاده بالطريقة ذاتها. وطلب مني الملك مولاي أحمد، بعد تلقيه رسالة من البابا الكاثوليكي وأخرى من ملك البرتغال، ألا أنقل الجثمان المذكور إلى إسبانيا، كما أوصاني به سابقا، بل إلى هذه الساحة في سبتة لإجراء التسليم الرسمي. وأقوم بهذا بحرية وبطيبة خاطر وبدون أية مصلحة. وأشهد أن مولاي أحمد قد أعاد الجثمان المذكور لجلالة ملك البرتغال بشجاعة ونزولا عند رغبة الملك فيليب الثاني.

حرر في سبتة في الرابع من كانون أول 1578 م.

دون ديونيسيو بيريرا، دون رودريغو دا مينزس وفري روك دا سبيريتو سانتو.

حفظ التابوت بكنيسة الثالوث بمدينة سبتة حتى سنة 990 هـ/1582 م، حيث طلب فيليب الثاني في هذه السنة نقله إلى كنيسة " بيليم " وأقام لاحقا الملك "دون بدرو الثاني" ضريحا فوقه.[1]

بعد سنتين من المعركة توفي الملك الكاردينال دون هنري الذي خلف ابن أخيه دون سيباستيان على عرش البرتغال. وبين عشية وضحاها فقد البرتغال استقلاله وإمبراطوريته لينتقل إلى ولاية فقط ضمن التاج الإسباني بإرث الملك الإسباني فيليب الثاني لتركة ابن أخته بشعبها ومستعمراتها!. خضعت البرتغال لهذا القدر على مضض وقاومته بكل حيلة ممكنة لأكثر من نصف قرن، من سنة 1582 م إلى سنة 1640 م، السنة التي أعاد فيها آل براغنس عرش البلاد.

خلال حرب الاستقلال هذه قام حلف بين المغرب وأنجلترا من أجل احتلال لشبونة وإرجاع ملك البرتغال إلى البرتغاليين، إلا أن الحملة التي قادها الإنجليز وشارك فيها السفير المغربي لدى البلاط الإنجليزي فشلت.

هذه الهزيمة الغير منتظرة، ثم انتقال البرتغال من دولة عظمى كان يحسب لها حسابها إلى مصاف الدول المستعمرة التابعة، مع فقدان جوهرة الإمبراطورية دفعت بالبرتغاليين إلى حالة من اليأس وفقدان الأمل بالتغيير إلى التمسك بأي حبل. وأمام الحواجز النفسية الهائلة، والموانع المادية والسياسية القاهرة، لجأ البرتغاليون إلى ما لجأ إليه الإسبان[2] أنفسهم والإنجليز قبلهم، عندما فقدوا استقلالهم. نفس الصورة تتكرر وتتجدد بتهجين من الماضي والحاضر وإن بأشكال وتمظهرات مختلفة!. ولن يتحقق هذا سوى على يد رجل واحد : "المخلص" أو " المنقذ " (المهدي! أو الضال!) الدون سيباستيان!.

9-1-1- رقصة المهادي البرتغالية!.

لم يمض وقت قصير حتى بدأ يظهر أناس يدعون أنهم " الدون سيباستيان "!.

أول المنتحلين لهذه الأسطورة الناشئة، كان راهبا، ابن عشرين سنة ، يوم أن خرج وادعى أنه " الدون سيباستيان ". الراهب هذا كان قد تعرف على أرملة رجل قضى في المعركة واعتنت به. بدأ أمره بالتجوال في الأرياف مدعيا أنه نفسه شارك في المعركة، ثم يشرع في الرطن بكلام يقول لمستمعيه انه لهجة مغربية! حفظها من وطيس

[1] أنظر : يونس نكروف، 1987 : معركة وادي المخازن، ص. 199 .

[2] يقول ستانلي لين بول (Stanley Lane Poole) في كتابه : " العرب في إسبانيا " ، ترجمة علي الجارم، دار المعارف، 1962 ، ص. 19، القاهرة : { أن الإسبان رفضوا هزيمة ملكهم رونريق (يسميه المسلمون لودريق) على يد العرب وخلعوا عليه صفات " المنقذ المخلص "!، كما فعل الإنجليز بالملك " آرثر " فاعتقدوا أنه سيعود مرة أخرى من مقره في إحدى جزر المحيط، وقد برنت جراحه ليقود النصارى في قتال الملحدين من جديد!؟!؟. }. قلت : فهذا النمط الخرافي عالمي كما ترى!.

المعركة!. بعض السذج ظن أنه ربما يكون الملك الذي اختفى!، ثم هاهو يظهر بعد سبع سنوات من العقوبة الذاتية!. أما الدعي فقد بدأ يتعلم من مما يدعيه الأتباع فيه، ليحكم إخراجه على مسرح الخرافة. اتفق أولا مع شخصين ليصحباه وليمثلا حاشية الملك الغائب في غيبته الصغرى!. كان أحدهم يقول بأنه " كريستوفار دا تافورا " : الحاجب المقرب لدون سيباستيان! وادعى الآخر أنه الأسقف " غاروا "!. أأخذ الراهب هذا كله من "أبواب" الشيعة! أو" نوابها؟" ، ربما! فالرجل راهب وإلى ذلك التاريخ لم يكن بالمستحيل على الرهبان، بعد سقوط الأندلس، الوقوف على مقولات الفرق الإسلامية، وإن المرء لا يحتاج إلى استدعاء مثل هذه الفرضية ما دام التخريج يكاد يكون نمطيا لدى الكثير من الشعوب كما مر!.

تسامعت أخبار ما يقوم به هذا الثلاثي المرح إلى سلطات لشبونة وتعرفوا على الدعي بسهولة، لأن الدون سيباستيان كان عمره في حدود الثلاثين، ذا طول، مع بياض بشوة، وشقرة شعر، بينما الدعي في العشرين من عمره بقامة متوسطة وبشرة سمراء وشعر ولحية ضاربة كلها إلى السواد!.

ألقت السلطة القبض على الرجل وصاحبيه، إلا أنه أصر أمام التحقيق أنه لم يدع قط أنه الملك دون سيباستيان، وإنما الناس هم الذين كانوا يطلقون عليه ذلك!. اقتنعت المحكمة بعد مقارنة شهادته مع شهادة غيرة وحكمت عليه بالأشغال الشاقة إلا أن صاحبيه، لم تسعفهما شهادة الشهود فأعدما. وما دامت هناك حياة، فلن يدفن الأمل! لذلك عندما انهزم الأسطول الإسباني أمام الجزر البريطانية على يد أسطول السير فرانسيس دريك سنة 1588 م فر الدعي إلى فرنسا وأمضى ما تبقى من عمره بإعانات مالية من فرنسا!. وتوالى الأدعياء[1] !.

ثم انتقلت السيباستيانية إلى البرازيل، المستعمرة البرتغالية. في الطور البرازيلي تكاد نلمس طور الحشاشين أصحاب الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي (428 هـ ~ 518 هـ/1124 م) في قلعة "ألموت" ما وراء النهر، مع حشاشيه. أنطونيو فيسنت مندس ماسيل، مستشار العبيد الذين حررتهم الجهورية البرازيلية رغما عنهم! ومدعي النبوة! جان أنطونيو قبله لم يكونوا يعلمون بالهندسة ولا بالحساب وعلم النجوم ما كان يعلم منها الحسن الصباح في قلعته المنيعة، رغم بعد الشقة بينهم وتقادم الزمان، إلا أنه عندما أعلنت جمهورية البرازيل سنة 1889 م أو جمهورية الشيطان كما كان يسميها الوعاظ العبيد بعد مرور 311 سنة على موت الدون سيباستيان نعلم يقينا أن الأسطورة تعيش

[1] بدأ الدعي الثاني كالأول راهبا، ثم تحول ناسكا وأقام بمدينة إيريسيرا. بعد أن استقر به المقام بدأ القرويون يحملون إليه طعامهم إلى أن تساءلوا : ألا يمكن أن يكون هو الدون سيباستيان؟. ومتى طرح سؤال بهذا الشكل فلا بد أن يوجد من يكسوه باللحم والدم!. الإشكالية هنا، هي من صميم علم النفس!. ذلك أن الدعي صدق فعلا أنه الملك ما دام الناس يقولون ذلك!. أيصدق نفسه ويكذبهم؟! إذن لرموه بالجنون!. وما دام الآمر يتأرجح بين جنونين فقد استقر الأمر عنده أنه من الأفضل أن يجن كملك للبرتغال بدل أن يجن كناسك! فأخذ منصبه الجديد بجد وعمل على تنظيم بيته الملكي بما هو أهل له!. تزوج أولا من ابنة رئيس أركانه العامة بيدرو أفونسو وتوجها ملكة واضعا على رأسها تاجا كان قد سرق من فوق رأس صنم يمثل العذراء مريم من إحدى الكنائس، ثم شرع في مراسلة باقي المدن البرتغالية يمنيهم بأن الفرج قريب وأنه سيظهر لاسترداد عرشه وملكه وطرد المحتل الإسباني الأجنبي من البلاد!. بدأ أتباعه يتنامون إلى أن قرر الدخول إلى العاصمة لشبونة ذاتها في يوم القديس يوحنا!. هذه جرأة الرجل! وهذا خطره على النظام القائم.
تصرفت الحكومة بحزم فألقت القبض عليه وعلى رجالاته، ثم قطعت يداه ورأسه وعلقته على عمود للتشهير به، ثم أخذت ما تبقى من الجثة وقطعتها إربا إربا ووزعتها على باقي المدن عبرة لمن اعتبر!!!؟؟.
الدعي الثالث كان حلوانيا ومع ذلك استطاع أن يخدع الأميرة " دونا أنا " النمساوية التي استطاع مرشدها الراهب " فري ميغل " أن يربطها بالحلواني موهما إياها أنه الملك دون سيباستيان!. انطلت الحيلة على المسكينة وساعدته بكل حيلة ممكنة دون أن تعلم بأمره خالها ملك إسبانيا والبرتغال فيليب الثاني!. قبض على الجميع صدفة فكان أن حكم عليها خالها بأن تدخل ديرا تصوم الدهر فيه ولا تفطر سوى على خبز وماء وألغى كل امتيازاتها الشرفية. أما الدعي الحلواني غبريال دا سبينوزا فحكم عليه بالموت وقطع إربا إربا وعلق رأسه شهرا كاملا عبرة لمن اعتبر!!؟؟. ولم يعتبر أحد!.
الدعي الثالث ظهر هذه المرة من مطلع الشمس في مدينة البندقية الإيطالية في شهر حزيران (يونيو) سنة 1595 م. بدأ هذا طوره المهدوي بإطلاق إشاعات بأن الدون سيباستيان قدم ليكشف نفسه إلى المهاجرين البرتغاليين بهذه المدينة. لم يجد السفير الإسباني صعوبة في إثبات أن الرجل كالبري، وولد في تافيرنا ولا يعرف حرفا من البرتغالية!، إلا أن هذه الحجج إن كانت قد أقنعت سلطات البندقية، فالأمر مخالف تماما بالنسبة للمهاجرين البرتغاليين! الذين صدقوا أنه الدون سيباستيان المنتظر ولو طارت عنزة!. فما بالك وأنه نفسه صدق نفسه! حتى انه عندما ألقي عليه القبض أصر على دعواه، بل وقع محضر تجريمه تحت اسم دون سيباستيان!. في اليوم التالي حضر رجل إيطالي ادعى أن له سابق معرفة بالدعي وأن اسمه " ماركو توليو كاتيزون " وأنه من موالد " ما شيانو " قرب تافيرنا. وأنه متزوج من امرأة تسمى " بولا

حياتها الخاصة بها بعيدا عن التاريخ وبمعزل منه.

هنا في البرازيل تغنى المحرومون بعد أن شربوا مسكر " الجورما " وبعد أن دخنوا "العشب المقدس[1] "، وبعد أن خرجوا خارج العالم :

إن عالما رائعا سيظهر!،
ويختفي الفقير!،
ويعود الشيخ إلى صباه!،
ويصبح الأسود أبيض البشرة،
ويدخل الجميع مرحلة الخلود!،
ويأتي هذا العالم الرائع، عندما يظهر الملك سيباسان!،
وعندما تتفتح الأرض لتحرره!،
ولا بد أن تتفتح الأرض،
ولا بد أن نساعدها وندفعها لذلك!،
ولكن الأرض لا تسمع!،
والأرض تتخلى!،
وسنستخدم أنفاسنا حتى النفس الأخير!،
الأرض الدم!،
الأرض عطشى!،
الأرض عطشى للدماء!،
ولتحرر الأرض المشبعة الملك سيباستيان!،
بالدم وحده!..بالدم!..بالدم.!..

لا نحن لسنا في حسينية ولا في عاشوراء! وإنما في البرازيل، في جمهورية الشيطان!. وتسيل الدماء غزيرة، لأنهم وهم تحت التخدير يقتلون قربانا بشرية!. وفي سنة 1930 م، بعد مرور 352 سنة على تغييب الدون سيباستيان في معركة وادي المخازن، حدثت أزمة تموين في مدن الصفيح وخرج أنبياء يبشرون برجوع الدون سيباستيان وهم يكرزون[2] :

بعد ليلة النار سيظهر دون سيباستيان،
وعندها ستفتح الخزائن ثانية، وستمتلئ بالمؤن!،
وبفضل الملك، سيعم الرخاء،
وسيظهر دون سيباستيان ثانية!،
ويتحقق الرخاء!.

في سنة 1416 هـ/ 1995 م، وبعد 1260 سنة من اختلاق خرافة السرداب بسر من رأى، صدر كتاب للسيد محمد كاظم القزويني يكرز فيه ببشارة المهدي الذي لا يوجد سوى في مخه[3] !:

أنظر إلى الناس وإلى نواقص حياتهم ومحروميتهم، وإهدار كرامتهم، ومآسيهم ومصائبهم ومشاكلهم، فالسجون مملوءة بالملايين!، والحروب تأكل وتسحق وتمزق وتدمر وتحرق!.

غالاردينا "!. لم يتمالك الدعي أمام هذا الفضح فانهار واعترف!. فأخذ وقطعت يده اليمنى التي كان يوقع بها باسم الملك دون سيباستيان وشنق. ثم أنزل وقطعت جثته إربا إربا ووزعت على الطرقات في 23 أيلول (سبتمبر) 1603 م. ربع قرن بعد غياب الدون!.

[1] معركة وادي المخازن. ص. 223 .

[2] نفس المرجع، ص. 242 .

[3] القزويني : " الإمام المهدي: من المهد إلى اللحد "، ص. 483 .

بعد هذا العرض الخاطف!..اقلب مظاهر الحياة كلها مائة في المائة!؟ عند قيام! المهدي. فالفقر يرحل عن المجتمع البشري! والحرمان يزول عن الناس!؟، وجحيم الحياة ينقلب نعيما، والذبول المستولي على الوجوه يتبدل طراوة ونضارة!؟، والخوف يرتفع!، والأمان يسود العالم!، والعدالة تخيم على رؤوس البشر!؟، والظلم يتبخر!؟، فلا ترى ظالما ولا مظلوما، والمسلمون (الإحدى عشريون) تتحقق أمنياتهم!!؟؟، والسلام يشمل الكرة الأرضية، والإسلام ينتشر في كل بقاع الأرض!، فلا يعيش على وجه الأرض إلا من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن عليا ولي الله وحجته!!؟؟.

كل ذلك ببركات نهضة المهدي! وقيامه! وإنجازاته! وخطواته الإصلاحية!، ومشاريعه العمرانية!، وتعاليمه القيمة!، وتطبيقه للقوانين الإلهية!؟؟.

فهل تستطيع أيها القارئ الكريم أن تتبين الفرق بين تخريفات صاحب السرداب بالعراق وتخريفات صاحب جمهورية الشيطان بالبرازيل؟.

أتحداك!.

أما أن هذا التخريف له علاقة بالإسلام كما خرف هذا المخرف، فنحتاج فيه إلى مسح طبي كاشف لمخ السيد القزويني ومن على شاكلته، ثم تصليح ما أصابه الإعطاب من خلاياه العصبية إن أمكن. فإن تعذر لأسباب تقنية أو غيرها، فأوصي لوجه الله تعالى بإعادة زرع غيرها رأفة بالرجل، ثم إن تعذر هذا ثانية، فوصيتي أن يوضع بداخل ثلاجة مبردة إلى درجة الصفر المطلق، علـه أن يأتي في المستقبل القريب أو البعيد من يكتشف مرهما أو علاجا أو مضادا ينفع ضد هذه الأسطورة العقلية، ما نفعت المضادات الحيوية ضد الدودة الشخصية!. وإلى ذلك الحين فعلى مخ السيد القزويني ومن على شاكلته العفاء!، لأنه فعلا أحد عجائب الدنيا الثمان!، بزيادة هذه العجيبة على عجائب العالم القديم السبع!.

10- المنهج النقدي ووأد أسطورة المهدي في المهد واللحد!

إلى هنا نكون قد أحطنا بالموضوع المهدوي من كل جوانبه ووقفنا على مقولات الخصوم بعضهم في بعض. فإن كان الإحدى عشريون قد حسموا أمرهم في أسطورة مهديهم السمراني واختلقوا له دون وجل، وعلى لسان أئمتهم ما يزيد على خمسة آلاف خبر!، وإن كانت هذه الأخبار على كثرتها والعنقاء تخرجان من مشكاة واحدة!، وإن كان كل السنة وباقي الأحزاب الأخرى من زيدية وإباضية ومعتزلة لا يعيرونها اهتماما سوى للتنذر على عقول أصحابها كما يقول الاسفرايني[1] :

وأما زعم الشيعة أن اسمه محمد بن الحسن وانه محمد بن الحسن العسكري فهذيان!

بل نظم بعضهم في ذلك شعرا[2] :

أما آن للسرداب أن يلد الذي	كلمتموه بجهلكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فإنكم	ثلثتم العنقاء والغيلانا

واطرد هذا القول عند هذا الفريق "سابق عن لاحق" كما نجد نكهته عند أحد المعاصرين[3] :

وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة (الإحدى عشرية) وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا!، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة!.

فإن كان هذا ما تقوله به باقي الأحزاب السياسية الإسلامية في هذه الخرافة الإحدى عشرية، التي جعلوها ركنا من أركان الاعتقاد عندهم، زيادة على ما عند جميع الفرقاء المسلمين!. وإن كانا معا بالمرصاد لخرافة الإسماعيلية!، وكان

---

[1] الاسفرايني، لوائح الأنوار الإلهية، باب : " المهدي : اسمه ولقبه، ترجمة محمد بن العسكري، المجلد الثاني. ط. أولى، مطبعة مجلة المنار، 1324 هـ. مصر.

[2] أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي (909 ~ 974 هـ) أورد البيتين في كتابه : " الصواعق الحرقة " ، ص. 166 ولم ينسبه. طبعة دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

[3] عبد المحسن العباد : "عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر" ، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد الثالث، السنة الأولى، ذو القعدة 1388 هـ/ شباط 1969 م.

ثلاثتهم يتفكهون ويتهكمون، مع باقي الأحزاب السياسية الأخرى، من الخرافة السبأية أو المختارية في مهدوية ابن الحنفية!..الخ. فماذا عن خرافة المهدي أو بالحرى "المهادي"، بالجمع،المنسوبة للسنة الذي ادعوا له التواتر!؟.

لنصل بك إلى هذا المحك، عرضنا عليك من موضوع المهدي والمهدوية ما عرضنا، ثم أحطناك بكل شوارده ونوادره. ولم نك من الغافلين ولا من المتنطعين ولا من المتجرئين على العلم دون خبرة به، حتى نجازف بعنوان جازم كالذي اخترناه للكتاب : " المهدي اللامنتظر!.." ولا لنصنف بالانتساب إلى فريق ضدا على باقي الفرقاء!، ولا لنخوض في تقليب الحجارة بحثا عن العقارب دون قتلها، على ما اعتادت المدرسة المعتزلية في القديم أو أشباح ممثليها المعاصرين في ثوبهم العبدوي العقيم!. وإنما عرضنا للموضوع لإقفاله إلى الأبد، وبرمته!، بحيث لن يتمسك به كموضوع بعد الذي عرضنا وسنعرض عليك منه، سوى مخرف ظاهر الإفك والبهتان! أو مهرف لا يعرف ما يخرج من رأسه!.

ثم تبين لك أن المآخذ التي أخذت على ابن خلدون هو كونه لا يجيد الصناعة الحديثية، فكان لنا أن نجيدها كأهلها[1]، فطاحيلها الأول أو أكثر في الجانب النقدي منها، لما تجدد من مناهج النقد الحديث والمعارف ذات الصلة الوثيقة بالموضوع في عصرنا، فألممنا بها ولم يكن في وسعهم ولا في مقدورهم، رحمهم الله الوقوف عليها ولا تصورها!: والناس أبناء أزمانهم وبيئتهم في كل الأحوال والظروف. ثم لأننا نريد أن ننفي ما أجازه أكثرهم رحمهم الله بحكم غشاوة موروثهم أو بتقليدا!، لنفنده نحن بدليل. دليل يستطيع أن يلمسه لمس اليد أي مسلم عادي، لا هو بالأمي ولا هو بالمعتوه! إن في عقله أو حسه!.

10-1- في الاصطلاح وتبعاته.

قبل جرد الأحاديث لنبدأ باستعراض بعض التعريفات، ثم ما نراه فيها من ملاحظات تستوجبها، أو تلازمها قبل أن نخوض في صميم المنهج.

---

[1] **تحضرني هنا طرفة أحب أن يطلع عليها القارئ الكريم. بدأ اهتمامي بالحديث سنة 1974 م، لما كان يصادفني في كتب الدعوة من استعمال لأحاديث، لا يرتاح المرء أن تكون قد صدرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وبحكم تكويني العلمي يومها، لم أستطع هضم خلق التربة يوم السبت الوارد في صحيح مسلم. ومن كنت أسائله في مثل هذه المواضيع من شيوخ الوقت كان إما ظاهر العي لا يقدم ولا يؤخر، أو من الولعين بتلك المماحكات التي لا تصدر سوى عمن لم يخامر منطق السوية مخه. فعزمت على الالتحاق بالمدرسة الحسنية للحديث بمدينة الرباط. خضت غمار مبارتها وقبلت فيها. إلا أن حضوري لليوم الأول بها صادف لقائي بصديق قديم فتعجب من وجودي بالدار وأنا المتخصص في الفيزياء! في نظره!. فبادرني مستفسرا فأعلمته بما كان وبخلفياته. فما كان منه رحمه الله إلا أن قال : { إننا ندرس هنا كل شيء عدا الحديث! }. فكان هذا فراق بيني وبين المدرسة. ثم ذهبت للدراسة في الولاية المتحدة لتحضير ماجستير أرصاد.**
ولدى عودتي أسست مع بعض الاخوة الحاملين لهموم الدعوة : فرع جمعية " الدعوة إلى الله " بالرباط وهي جمعية تأسست بمبادرة شخصية من واعظ الحرم النبوي الشريف والمدرس بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة الشيخ أبي بكر الجزائري. وظل الموضوع هاجسي ومختمرا في عقلي على أحر من جمر تزداد كل يوم أهميته لدي من خلال ما أراكم من قراءاتي. فجددت العزم ثانية على خوض مبارة الإلتحاق بالمدرسة الحسنية للحديث ثانية، عل الدار تكون قد تطورت منذ عهدي الأول بها !. قبلت مجددا! إلا أن صدمتي بالحال كانت أفجع من تجربتي الأولى. وهكذا قر القرار عندي أن إذا لم تكن هناك جدوى من أخذ الحديث عن طريق الدرس المؤكدم فلما لا نحيي الطريقة القديمة للمشايخ في مقر دار الدعوة ذاتها كتجسيد عملي لإحياء مثل هذه الدراسات؟. وفعلا استقدمنا المشايخ الذين توسمنا فيهم الإحاطة بمثل هذه الأمور إلى الدار وجهزنا مكتبة متكاملة في علوم الحديث والرجال ..الخ، وظللنا على هذه الحال نستفيد من دروسهم إلى حلول موسم حج سنة 1400 هـ/1979 م، حيث توجهت لأداء مناسك الحج عازما الالتحاق بالجامعة الإسلامية للتخصص في الحديث. فحضرت درسا واحدا من دروس الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد صحبة بعض طلبتنا المسجلين بالجامعة لأخذ فكرة عن الدروس. وكم كانت الحصة طويلة في نظري! وانتظرت بفارغ صبر انقضاءها فخرجت ولم أعقب!. وعلمت أن هذا العلم لا مستقبل له أبدا على يد أمثال هؤلاء المشايخ!.
لم يعد من الصعب متابعة هذا الحقل بعد أخذ ميادنه وأصوله من أصحابه من خلال قراءاتي الخاصة إلى أن تفرغت جزئيا لذلك أثناء اشتغالي بالتدريس بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، بكلية الأرصاد وحماية البيئة وزراعة المناطق الجافة، ثم ضمن بحثنا المشترك بالكلية في إطار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالتعاون مع الشيخ عبد المجيد الزنداني سني (1407 هـ/ 1986 م ~ 1410 هـ/ 1989 م) فكان علي تخريج كل أحاديث الرعد والبرق والصواعق ذات الصلة بالموضوع جرحا وتعديلا وقدم البحث في المؤتمر الدولي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقد بإسلام آباد بباكستان في الفترة (18 ~ 21 أكتوبر 1408 هـ/ 1987 م) ثم التفرغ الكامل بعد ذلك ابتداء من صيف سنة 1411 هـ/ 1990 م حيث صدر لنا كتابان : "كيف يرد الخطا على المفتين الكبار رواة ودراية لعدم إمامهم بالعلم" : الشيخ ابن باز نموذجا " ثم " كيف يرد الخطأ على المحدثين العاصرين الكبار رواية ودراية لعدم إلمامهم بالعلم : الشيخ الألباني نموذجا "، ولم نتمكن من طباعة الباقي بعد!.

10-1-1- في تعريف الصحيح.

عرف ابن الصلاح الحديث الصحيح بأنه[1]:

الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ولا يكون شاذا ولا معللا.

ثم نبه ابن الصلاح على ما يقتضيه هذا التعريف وما يلحق به، فأضاف[2]:

وفي هذه الأوصاف احتراز عن المرسل، والمنقطع، والمعضل، والشاذ، وما فيه علة قادحة، وما في راويه نوع جرح..فهذا هو الحديث الذي يحكم له بالصحة بلا خلاف بين أهل الحديث. وقد يختلفون في صحة بعض الأحاديث لاختلافهم في وجود هذه الأوصاف فيه!، أو لاختلافهم في اشتراط بعض هذه الأوصاف كما في المرسل!.

ومتى قالوا: هذا { حديث صحيح }، فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس من شرطه أن يكون مقطوعا به في نفس الأمر!، إذ منه ما ينفرد بروايته عدل واحد وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة على تلقيها بالقبول!

و كذلك إذا قالوا في حديث: { إنه غير صحيح }، فليس ذلك قطعا بأنه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صدقا في نفس الأمر! وإنما المراد به أنه لم يصح على الشرط المذكور!.

قلت : فهذا التعريف فضفاض كما ترى وليس هو بالجامع المانع. بل تنقصه الدقة العلمية من وجهين :

أولا : في سوء الاختيار الغير الموفق للفظ "الصحة " للتعبير عن الاصطلاح بتلك الشروط الاصطناعية، لأنه يموه على عرف اللغة التي تطابق بين مفهوم "الصحة" وما في نفس الأمر المقطوع به!. ثم هو تشويش على المسلم الغير متخصص الذي لا يفهم من " الصحة " سوى " الصحة " بمعناها اللغوي!. وهذا عيب في اختيار المصطلح أصلا!.

ثانيا : عدم اتفاقهم على هذه " الصحة الاعتبارية" حتى في حدها الأدنى الملزم، يفرغ المصطلح كلية من محتواه وإجرائيته التي كان يجب أن تصبح آلية ملزمة وغير قابلة لإعادة التعريف مع كل مشتغل جديد بالميدان!.

فكيف يعقل أن يكون للبخاري مثلا شرطه في " الصحة " ولمسلم شرطه الآخر وللباقين أصحاب من اشترط "الصحة" صحة دون صحة؟.

وهذا التشويش وجد حتى لدى كبار الحفاظ !. فهذا أبو عبد الله الحاكم النيسابوري يقول في أنواع الصحيح[3]!:

والصحيح من الحديث منقسم على عشرة أقسام!. خمسة متفق عليها! وخمسة منها مختلف فيها!

فالقسم الأول من المتفق عليها: اختيار البخاري ومسلم! وهو الدرجة الأولى من الصحيح!؟. ومثاله الحديث الذي يرويه الصحابي المشهور بالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وله راويان ثقتان. ثم يرويه عنه التابعي المشهور بالرواية عن الصحابة وله راويان ثقتان. ثم يرويه من أتباع التابعين الحافظ المتقن المشهور، وله رواة ثقات في الطبقة الرابعة. ثم يكون شيخ البخاري ومسلم حافظا متقنا مشهورا بالعدالة في روايته. فهذه الدرجة الأولى من الصحيح!. والأحاديث المروية بهذه الشريطة لا يبلغ عددها عشرة آلاف حديث!.

وهذا الكلام من الحاكم علق عليه الحافظ أبو الطاهر المقدسي بقوله[4] :

أن البخاري ومسلم لم يشترطا هذا الشرط ولا نقل عن واحد منهما أنه قال ذلك!. والحاكم قدر! هذا التقدير وشرط لهما هذا الشرط على ما ظن!. ولعمري هو شرط حسن لو كان موجودا في كتابيهما!، إلا أنا وجدنا هذه القاعدة التي أسسها الحاكم منتقضة في الكتابين جميعا؟!

---

[1] **أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (577 ~ 643 هـ) : " علوم الحديث " بتحقيق نور الدين عتر، ص. 11 دار الفكر، ط. ثالثة، 1404 هـ/1984 م دمشق.**
[2] **نفس المرجع، ص. 12 ~ 14 .**
[3] **أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: 405 هـ) : " المدخل إلى كتاب الإكليل " تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، ص. 33 ، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر.**
[4] **أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي (ت: 507 هـ) : " شروط الأئمة الستة "، ص. 22 . دار الكتب العلمية، ط. أولى، 1405 هـ/1984 م، بيروت**

وبعد إيراد الحاكم لأقسام الصحيح الخمسة المتفق عليها قال :

وهذه الأقسام الخمسة مُخرجة في كتب الأئمة مُحتجٌ بها ولم يخرج في الصحيحين منها حديث، لما بينا في كل قسم منها!.

فطق الحازمي [1] على هذا القول [2] :

ولم يصب في قسم من هذه الأقسام، وسنبين أوهامه فيما بعد، وربما لو روجع وطولب بالدليل، وكُلِّف البحث والسبر عن مخارج الأحاديث المخرجة في الكتابين بالاستقراء وتتبع الطرق وجمع التراجم والمشايخ وتأليف الأبواب، لاستوعر السبيل ولم يتضح له فيه دليل، إلا في قدر من ذلك قليل وآفة العلوم التقليد. وبيان ذلك إما إيثار الدّعة وترك الدأب، وإما حسن الظن بالمتقدم!. ولعمري إن هذا القسم الثاني لحسن غير أن الاسترواح إلى هذا غير ممكن لأنه يفضي إلى سد باب الاجتهاد والبحث عن مخارج الحديث وأحوال الرجال.

بل عقد الحازمي باباً حمل عنوان : " في إبطال قول من زعم أن شرط البخاري إخراج الحديث عن عدلين وهلم جرا إلى أن يتصل الخبر بالنبي صلى الله عليه وسلم " **ينتقد به الحاكم فقال :**

وقد تقدم منا القول بأن هذا حكم من لم يمعن الغوص في خبايا الصحيح!. ولو استقرأ الكتاب حق استقرائه لوجد جملة من الكتاب ناقضة عليه دعواه!، وأمّا قول الحاكم في القسم الأول: إن اختيار البخاري ومسلم إخراج الحديث عن عدلين إلى النبي صلى الله عليه وسلم!، فهذا غير صحيح طرداً وعكساً، بل لو عكس القضية وحكم كان أسلم له، وقد صرح بنحو ما قلت من هو أمكن منه في الحديث وهو أبو حاتم محمد بن حبان البستي...

ثم أضاف بسنده إلى ابن حبان [3] :

قال (ابن حبان): وأما الأخبار فإنها كلها أخبار الآحاد، لأنه ليس يوجد عن النبي صلى الله عليه وسلم خبر من رواية عدلين روى أحدهما عن عدلين و كل واحد منهما عن عدلين حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما استحال هذا وبطل، ثبت أن الأخبار كلها أخبار الآحاد. ومن اشترط ذلك فقد عمد إلى ترك السنن كلها لعدم وجود السُّنَن إلا من رواية الآحاد!.

هذا آخر كلام ابن حبان. ومن سبر مطالع الأخبار عرف أن ما ذكره ابن حبّان أقرب إلى الصواب.، وأمّا قوله (يعني الحاكم) : إن الموجود المروي من الأحاديث على الوتيرة التي لم تسلم يبلغ قريباً من عشرة آلاف!، فهذا ظن منه بأنهما لم يخرجا إلا على ما رسم وليس كذلك، فإن أقصى ما يمكن اعتباره في الصحة هو شرط البخاري. ولا يوجد في كتابه من النحو الذي أشار إليه إلا القدر اليسير. وأما قوله : إن شرط الشيخين إخراج الحديث عن عدلين وهلم جرا إلى أن يتصل الحديث، فليس كذلك أيضاً!، لأنهما خرجا في كتابيهما أحاديث جماعة من الصحابة ليس لهم إلا راو واحد، وأحاديث لا تعرف إلا من جهة واحدة، وأنا أذكر من كل نوع أحاديث تدل على نقيض ما ادعاه.. الخ.

وبعد سرد أمثلة من البخاري ومسلم مناقضة لدعوى الحاكم قال [4] :

ومن أمعن النظر في هذه الأمثلة المذكورة بان له فساد وضع الأقسام التي ذكرها الحاكم!

قلت : فإن كان عدم التحقق من مطابقة الدعوى لما في نفس الأمر، جعلنا نحكم بأن قول الحاكم " غير صحيح " وتيقنا من ذلك وجزمنا أنه هو الحق المقطوع به في نفس الأمر، فما السبيل إلى الوصول إلى ذات القناعة فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لأن هذا هو المِحك في آخر المطاف! : أقال الرسول ذلك القول أم لم يقله؟ وبأية درجة من اليقين نتحقق من ذلك!. والتعريف الفضفاض السابق ل " الصحيح " لا يفي، مع الأسف، بهذا الغرض كما رأيت. وهو عيب في الحد والتعريف معاً!، لا يليق بالعلم كعلم. لأن من خواص التعريفات المصطلحية العلمية أن تكون جامعة مانعة غير مشتركة في مدلولاتها ولا تتنزل سوى على ما وُضِعت له بالعرف أو الاصطلاح، بحيث لا تلتبس مطلقاً على جمهور المشتغلين بذلك العلم. ف " الصحة دون الصحة! " عند كل مصنف، حسب اختراعه لشروطه الخاصة به، ذاتانية بعيدة كل

---

[1] أبو بكر، زين الدين، محمد بن موسى بن عثمان الهمذاني الحازمي (548 ~ 584 هـ) الحافظ البغدادي.

[2] الحازمي : " شروط الأئمة الخمسة " ، ص. 38 ، طبع مع "شروط الأئمة الستة "لابن طاهر المقدسي، دار الكتب العلمية،ط. أولى، 1405 هـ/1984 م.

[3] شروط الأئمة الستة، ص. 44 .

[4] شروط الأئمة الستة، ص. 49 .

البعد عن منهج العلم الصحيح، وتفرغ التعريف أو المصطلح من مدلوله، بل تُعلقه بحيث لا يشير إلى شيء بعينه فيصير فارغ الدلالة فاقداً لكل معنى!.

هذا عن عيب المصطلح، فماذا عن دعوى التواتر التي ادعيت لبعض الأخبار؟ قال الحازمي [1] :

ثم الحديث الواحد لا يخلو إما أن يكون من قبيل التواتر أو من قبيل الآحاد. وإثبات التواتر في الأحاديث عسر جداً، سيما على مذهب من لم يعتبر العدد في تحديده!.

من هذين الملاحظتين الوجيهتين على مصطلحي " الصحيح " و " المتواتر "، **نجد أنفسنا عراة من يقين نسبة الأخبار إلا بدرجة من غلبة الظن تقل أو تزيد حسب قرائن، بعضها داخلي مرتبط بالراوي حامل الخبر وبعضها خارجي، مرتبط بالمروي ذاته. وتغليب الظن المفضي لأية درجة من اليقين لا يتحقق سوى بإعمالهما معاً. لذلك نوجز ونشرع في وصف منهجنا في التعامل مع الأخبار**

10-1-2- في شروط الرواية.

10-1-2-1- شرط البخاري في الأفراد :

لن نعتبر الرواية المفردة التي لا يرويها سوى راو واحد فرد، عن مثله إلى منتهى السند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، على مقتضى الاصطلاح القديم ل " الصحة "، أي : (بنقل العدل عن العدل برواية الثقات الحُفاظ إلى الصحابي، وليس لهذا الصحابي من الرواة إلا راو واحدا!)، **سوى كونها شرط ضرورة للرواية وتفتقر كل الافتقار إلى شرط كفاية، أي :** " ضرورة الاحتفاء بالقرائن الخارجية الصامدة للنقد المتعدد التخصصات"، **حتى ترقى إلى احتمال صدق الخبر. ثم بالتحقُّق من توافر شرط البخاري الملزم في** " اللقاء " **بين الرواة، أي بتضييق مجال احتمال عدم السماع، وليس الاكتفاء ب** " المعاصرة " **فقط حسب شرط مسلم!.**

شرط البخاري هذا سوف نُخضِع له البخاري نفسه فيما خَرَّج في صحيحه، فيخرج بذلك من دائرة الاحتجاج المباشر عند تفرد الرواية :

أ. كل ما انتقد به البخاري نفسه، في الرجال والأحاديث في صحيحه، من طرف الحفاظ النقاد [2]،

ب. كل روايات الأفراد والوِحْدان التي لا تعرف سوى براو واحد أمثال روايات الصحابة : عُمير بن قتادة اللَّيثي، أبو لَيْلى الأنصاري، مالك بن نضلة الجُشمي، جابر بن طارق الأحمسي، عبد الرحمن بن أبي سبرة، أبو شريح، هانئ بن يزيد، عدي بن عُميرة، الصنابح بن الأعسر الأحمُسي، ..الخ. الذين لا يروي عنهم سوى أولادهم المباشرين!.

ت. كل روايات تفرد بروايتها الحفدة عن الأجداد، كما في صحيفة بهز بن حكيم، التي يرويها بهزعن أبيه، عن جده، أو صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده..الخ.

ث. كل روايات المنفردين بصحابي لا يروي عنه أحد سواهم، مثل تفرد زيد بن وهب الجُهني بالرواية عن الصحابي عبد الرحمن بن حَسنة، وتفرد عمرو بن ميمون الأوْدي عن الصحابي عبيد بن خالد..الخ.

ج. كل رواية تفرد بها راو عن شيوخ لا يروي عنهم أحد سواه مثل ما تفرد به أبو إسحاق، عمرو بن عبد الله السبيعي عن

---

[1] شروط الأئمة الستة، ص. 50 .

[2] كالتي انتقدها الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (306 ~ 385 هـ/995 م) على الشيخين البخاري ومسلم في كتابه " التتبع وهو ما أخرج على الصحيحين وفيه عِلة " وكتاب " الإلزامات " والأخير قال بأنه يورد فيه : { ما حضرني ذكره مما أخرجه البخاري ومسلم أو أحدهما من حديث بعض التابعين وتركا من حديثه شبيهاً به، ولم يخرجاه، أو من حديث نظير له من التابعين الثقات ما يلزم إخراجه على شرطهما ومذهبهما. }. ورد أبي مسعود الدمشقي : إبراهيم بن محمد بن عبيد (ت: 400 هـ)، صاحب كتاب " الأطراف على الصحيحين "، دفاعاً عن مسلم فيما اعترض به الدرقطني، في جزء صغير له يرويه عنه الخطيب البغدادي من طريق الحافظ أبي طاهر، حمزة بن محمد بن طاهر الدّقاق، كان قد سمعه منه سنة 424 هـ، " . أو التي أشار إليها بالنقد أبو علي، الحسين الغساني الجَيّاني (ت: 498 هـ/1105 م) في : "تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين " أو " التنبيه على الأوهام الواردة في الصحيحين "، وكذلك من ضعفه النسائي كما أورد ذلك الحافظ الدارقطني في كتابه : " ذكر قوم ممن خرج لهم البخاري ومسلم في صحيحيهما وضعفه النسائي في كتاب الضعفاء "أو غيره بجرح مفسر، بعد ملاحظة ما قاله ابن حجر في مقدمة فتح الباري منافحاً عن البخاري أو مسلماً للنقاد في نقدهم. وانظر رسالة ربيع بن هادي : " الإمامين مسلم والدارقطني ".

شيوخه المجهولين الذين ينيفون عن التسعين شيخاً، لا يروي عنهم ولا يعرفهم أحد سواه!، وشيوخ محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري الستين، وشيوخ قتادة بن دِعامة السدوسي الإثني والأربعين، وشيوخ سِماك بن حرب الست والثلاثين، وشيوخ سليمان بن مهران الأعمش الأربعة عشر..الخ.

ح. كل المعلقات والمرسلات والموقوفات التي يستعملها البخاري كشواهد ومتابعات وليست من صميم شرط كتابه.

خ. كل الروايات التي بها مدلس بين السّماع أم لم يبين، ما لم يتابعه أو يشهد له راو آخر غيره بذات الشروط.

د. كل رواية بها مجهول حال لم يوثقه أحد معاصريه : شرط الحفاظ المغاربة.

ذ. كل رواية أغرب بها راو عن صحابي أو تابعي..الخ مشهور بأصحاب ملازمين له ولا يروون ذلك الخبر متابعة له.

ر. ويدخل ضمن هذه الاحترازات، كل خبر توفرت فيه الشروط السابقة وإن لم يخرجه البخاري ووجد بشرطه عند غيره، إذ العبرة بشرطه وليس بتخريجه للحديث في صحيحه[1].

[1] مات البخاري رحمه الله ولم يفرغ من تبييض كتابه بعد وتركه ناقصاً فيما رواه الحافظ أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (403 ~ 474 هـ/1081 م) في كتاب : " التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح " (1: 287)، طبع وزارة الأوقاف المغربية، بتحقيق أحمد لبْزار، 1411 هـ/1991 م) : { أخبرنا أبو ذر عبد بن أحمد الهروي الحافظ~ رحمه الله ~ حدثنا أبو إسحاق المستملي ابراهيم بن أحمد قال : انتسخت كتاب البخاري من أصله، كان عند محمد بن يوسف الفِرَبْري، فرأيته لم يتم بعد، وقد بقيت عليه مواضع مبيضة كثيرة، منها تراجم لم يثبت بعدها شيئاً، ومنها أحاديث لم يترجم عليها، فأضفنا بعض ذلك إلى بعض!؟}. وأضاف الباجي : { ومما يدل على صحة هذا القول : أن رواية أبي إسحاق (المستملي) ورواية أبي محمد (السرخسي) ورواية أبي الهيثم (الكشميهني) ورواية أبي زيد (المَرْوَزي) وقد نسخوا من أصل واحد، فيها التقديم والتأخير، وإنما ذلك بحسب ما قدّر كل واحد منهم في ما كان في طُرّة أو رقعة مضافة أنه من موضع ما، فأضافه إليه. ويبن ذلك أنك تجد ترجمتين وأكثر من ذلك، متصلة ليس بينها أحاديث. }.
قلت : هذه من جهة! ثم إن الرواة الأول المجازون لرواية صحيح البخاري لم يتجاوزوا خمس رواة :
رواية حماد بن شاكر النَّسَوي (ت: 290 هـ/902 م)
رواية إبراهيم بن معقل النسفي (ت: 295 هـ/907 م)
رواية أبي عبد الله، محمد بن يوسف بن مطر الفَرَبْري (ت: 320 هـ/932 م)،
رواية أبي طلحة، منصور بن محمد بن علي بن قرينة البَزْدوي (ت: 329 هـ/940 م)،
أبي عبد الله، الحسن بن إسماعيل بن محمد المحاملي (ت: 330 هـ/941 م).
ويزيد عدد أحاديث البخاري في رواية الفربري على عدده في رواية إبراهيم بن معقل النسفي بمائتين!، ويزيد عدد النسفي على عدد حماد بن شاكر النسوي بمائة. واختلف من اهتم بهذه الإشكالية : أهي روايات أم فوت؟. ثم إن رواية جعفر بن محمد بن المعتز المستغفري النسفي (350 ~ 432 هـ/1041م) عن حماد بن شاكر وجادة لأن المستغفري لم يولد بعد ليدرك وفاة ابن شاكر سنة 290 هـ!.
ثم عن الرواية الوحيدة التي اتصلت بالسماع أكثر من غيرها إلى عصر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773 ~ 852 هـ) كانت رواية الفربري كما يقول ابن حجر في هدي الساري مقدمة فتح البخاري ص. 493 : { والرواية التي اتصلت بالسماع في هذه الأعصار وما قبلها هي رواية محمد بن يوسف بن مطر الفربري، لأن صاحبها آخر من روى صحيح البخاري. فهو أتقن الرواة عنه وآخرهم سماعاً عنه وحياةً بعده. }. وهذه الرواية التي ترجع إلى نص نسخة أبي جعفر، محمد بن أبي حاتم، كاتب البخاري، سمعه الفربري من البخاري مرتين : الأولى في مدينة فِرَبْر سنة 248 هـ والثانية في بخارى سنة 252 هـ. أربع سنوات قبل وفاة البخاري رحمهم الله جميعاً. ورواية الفربري بدورها اشتهرت منها ست روايات : رواية أبي علي بن السكن: سعيد بن عثمان بن سعد المصري (ت: 353 هـ/1054 م)، وأبي زيد المروزي: محمد بن أحمد بن عبد الله (ت: 371 هـ/982م)، وأبي أحمد الجرجاني : محمد بن محمد بن يوسف (ت: 373 هـ/983)، وأبي إسحاق المستلي : والسرخسي وأبي الهيثم لكشميهني وعن الثلاثة المتأخرين رواها أبو، ذر، عبد بن أحمد الهرَوي (355 ~ 434 هـ) .
وهي أتقن الروايات حسب ابن حجر في فتح الباري (1: 4).وعن الهروي أخذ الباجي، ثم "عالم لا يحصى من أهل الأقطار من شيوخ شيوخنا " كما قال القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المغربي (ت: 544 هـ/1149 م) في كتابه : " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك " (4 : 697) نشر وزارة الأوقاف المغربية. وفي القرن السابع الهجري اهتم المحدثون فقط بالاختلافات الراجعة لنص الفربروي، فقام علي بن محمد بن عبد الله اليونيني المصري (ت: 710 هـ/1302 م) بتحرير النص المتداول حالياً في كل أرجاء العالم الإسلامي. بل هذا النص الذي قامت عليه طبعة بولاق لسنة 1313 هـ/1895 م ضاع بدوره ولم يعثر له على أثر!!؟؟.
وألف متأخرون في اختلاف روايات نص صحيح البخاري مثل : يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي بن المبرد (ت: 909 هـ/1503 م) في : " الاختلاف بين رواة البخاري عن الفربري وروايات عن إبراهيم بن معقل النسفي " وبقي منه 106 ورقات محفوظة لمخطوطة كتبت سنة 1367 هـ/1947 م بدار الكتب المصرية، ملحق 27/1 .
وكذلك مؤلف بعنوان " منحة الباري في جميع روايات البخاري " لعابد بن عبد الله السندي المدني (ت: 1213 هـ/1889 م) المحفوظ بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة تحت رقم 149 .
قلت : فاختلاف الرواية بفارق 300 رواية بين أصل حماد بن شاكر الحنفي ورواية الفربري، ليس بالأمر الهيِّن لمن يعتمد النص كأساس مرجعي. فهل ما انتقد به البخاري في نص الفربري من الزائد على نص حماد؟، أين يلتقيان وأين يفترقان؟. ومع الأسف لا يمكن الإجابة عن

10-1-2-2- شرط التعزيز الضروري

بما أننا نبحث في أمر يدخل في باب الاعتقاد، كما رأينا عند كل فرق الشيعة، والذي لا يثبت سوى بنص قطعي متواتر لا لبس فيه، فأقل ما نقبل به الاحتجاج كشرط ضرورة أولي في هذا الباب هو : شرط الحاكم في العدلين في كل الطبقات، أي أن يكون الخبر عزيزاً. والعدد هنا مُعتبر تماشياً مع مطلب اليقين في الاعتقادات، على عكس ما توهم بعض المحدثين الذين لا يقدرون تبعات اصطلاحاتهم المخترعة على ما في نفس الأمر!، فما بالك أن اشتهر بينهم، (وتأسى به فيه ببلادة نمطية المقلدة اللاحقون!)، من قال بأن الله كرّه له المنطق[1]!؟!؟. فنحن نبحث هنا عن العلم اليقيني القطعي لنجزم باعتقاد وارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس غلبة الظن المجيزة للعمل عند الفقهاء!. ولا يخفى أن الخبر الذي يرويه ثقتان أقوى وأقرب إلى التصديق مما يرويه ثقة مفرد، لأنه معرض للوهم والخطأ والنسيان وكل ما يعتري الذاكرة من وهن. فثقتان مستقلين غير متواطنين شفاء لمثل هذه العوارض التي لا ينفك عنها خبر ولا راو. وزيادة العدد مع اطراد التطابق زيادة في اليقين، وهذا أساس حجية التواتر[2].

10-1-3- في التلفيق والتهجين لدى المحدثين كموروث.

10-1-3-1- الهُجنة في الاصطلاح.

المحدثون كالفقهاء كغيرهم أبناء بينتهم، ويصيبهم ذات العوار الذي أصاب من قبلهم حذو القذة بالقذة. ويتضح لك ذلك بوضوح من تهافت ما جاء عند ابن الصلاح في " علوم الحديث " من تقسيم الصحيح!؟ إلى سبع مراتب! ووافقه على ذلك كل من جاءوا بعده، دون تدبر ولا تمعن!، مع أنه كلام، ينقض بعضه بعضاً، ويمحو آخره

هذه الأسئلة في وقتنا الحاضر لضياع النصوص الأربعة الأخرى لروايات البخاري من تلامذته المباشرين، ثم للنقص الذي اعترى رواية الفربري واختلاف نصوص من نقل عنها!. ولهذا يتعذر الحكم على روايات النص الذي بين ايدينا إلا بإعادة النظر في كل رواية رواية والتثبت من نسبتها إلى البخاري رحمه الله بعرضها على حد سيف شرط البخاري نفسه!. فما اجتاز منها هذه الرانز نسب إليه، وما لم يف بذلك عدّ مدخولاً عليه في كتابه أو مزيداً من طرف النساخ. لذلك لن نكتفي هنا في تخريج أحاديث المهدي بعزو الرواية إلى البخاري كقنطرة مرور بل سوف نعاملها معاملة أية رواية أخرى. ومن هنا يتبين أن الخلود كتب لشرط البخاري كمفتاح استرجاع، إذ حتى لا قدر الله، لو ضاع كتابه كله لاستطعنا مجدداً استخراجه بكل يسر بشرطه من المسانيد والمجاميع والمصنفات!.
[1] أنظر تفصيل هذا عند الجلال السيوطي في "حسن الحاضرة " حاكياً عن نفسه!.
[2] هناك اهتمام في وقتنا الحاضر بعملية الاستذكار وتداعياتها مع الزمن. ففي تجارب ميدانية مراقبة قام بها بارليت (B arlett) انطلاقاً من تحليل نص متن على شكل قصة صغيرة طلب من بعض القراء قراءته مرتين. وعندما تتم القراءة يطلب من القراء استرجاع القصة بعد مهل متصاعدة في الزمن : أسبوع، شهر، شهران..سنة، سنتين..الخ. القصد من التجارب الميدانية هذه هي محاولة اكتشاف التغيرات الحاصلة بانتظام في المتن بفعل الاستذكار.
التجربة الميدانية الثانية تنويع على الأولى، وتعمل على تحريك استذكارات متكررة، لكن مع عملية نقل للقصة من فرد إلى آخر. القصد هنا هو دراسة التحولات الحادثة بانتظام في نص أصلي أثناء عملية التواصل المتتابعة. تمخضت هذه التجارب عن ملاحظة الآتي :
أن الشكل الحرفي للمتن تضرر بعمق أثناء الاستذكارات المتوالية. وهو لا يسترجع عملياً مرة ثانية أبداً.
أسلوب السرد لا يحتفظ به عند استعادة النص.
تظل الحبكة العامة للمتن دائمة الحضور وتتقولب بصورة بالغة أثناء إستعادة النص بشكل متتابع. وعندما يقل التتابع ويتضاعف الفارق الزمني بين القراءة والاسترجاع تظهر بوضوح بعض التبسيطات والحذف.
عندما يقرأ بعض الأفراد نفس المتن أو يستمعون إليه، فإن بعض الأفكار المعبر عنها فيه تُسْترجع تقريباً من الجميع، بينما لا تسترجع الأفكار الأخرى ثانية إلا من طرف قلة من الأفراد. وهذا الاسترجاع ليس بمأمن من التداخل مع العناصر التي لم تكن موجودة ضمن الصيغة الأصلية للمتن، بل يمكن أن يتحد به!.
قلت : الرواية بالمعنى، قبل شيوع ضبط الأخبار بالكتابة لا تخرج في تفاصيلها عن هذه الخطاطة العامة لعملية نقل الأخبار في الرواية الحديثية. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم كخبر عانى ولا شك من هذا التنميط المصاحب للأخبار. وعلى عكس النص القرآني المتواتر لفظاً ومعنى، فإن النص الحديثي لا يرقى أبداً إلى هذه المرتبة بالاستذكار أو الاسترجاع حتى في النصوص القصيرة جداً المكونة من جملة أو جملتين إلا فيما نذر!. ومن هنا كان لعملية التعزيز بتعدد طرق الرواية مقاربة " النص الأصلي " الذي تلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال طيف المعاني المقاربة له من خلال عملية الاسترجاع. فإن كان ما تلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم كلاماً أبيضاً، فلا مندوحة لاسترجاعه من توافر كثرة طرق بقدر ألوان طيف قوس قزح!. أنظر: ف. بارليت: " الاستذكار " في :
(Barlett, F.,1964: Remembering, Cambridge Universty Press, Cambridge, 5th ed.)

أولـه ، ثـم هو لا يستقيم إن من جهة المنطق أم مـن جهـة الإجرائيـة[1] :

صحيح! اتفق على إخراجه البخاري ومسلم، (قلت : كيـف يتفقـان وشـرطاهما مختلفـان والصحيـح بشـرط مسـلم ضعيـف بشـرط البخـاري؟)

صحيح انفرد البخـاري بإخراجه دون مسلم،(هـذا هـو أقوى مـا يمكن اعتبـاره كخبر لشرط البخاري باللقاء)

صحيح! انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري (إذا كان على شرط مسلم بالمعاصرة فحسب، فهو ضعيف عند البخاري)

[1] ابـن الصـلاح، علـوم الحديـث، بتحقيـق نـور الديـن عـتر، ص. 27 . دارالفكـر، ط. ثالثـة 1404هـ/1984 م، دمشـق. وقـال ابـن الصـلاح : { هـذه أمهات أقسامه، وأعلاها الأول وهو الذي يقول فيه أهل الحديث كثيراً : " صحيـح!؟ متفـق!؟ عليـه ". يطلقـون ذلـك ويعنـون بـه اتفـاق البخـاري ومسلم، لا اتفاق الأمة عليه. لكن اتفاق الأمة عليه لازم!؟! من ذلك وحاصل معه!؟!: لاتفاق الأمة على تلقي ما اتفقا عليه بالقبول!!!؟؟. وهـذا القسم جميعه مقطوع!!؟؟ بصحته!؟ والعلم اليقيني النظري!!؟؟ واقع به!!؟؟. خلافـا! لقول من نفى ذل محتجاً بأنه لا يفيد في أصلـه إلا الظن!!؟؟. وإنما تلقته الأمة بالقبول لأنه يجب عليهم العمل بالظن، والظن قد يخطئ. وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قويـاً، ثـم بـان لـي!!!؟؟ أن المذهب الذي اخترناه أولاً هو الصحيح!!؟، لأن ظن من هو معصوم من الخطأ لا يخطئ. والأمة في إجماعها معصومة من الخطـأ، ولـهذا كـان الإجماع المَبْنِي على الاجتهاد حجة!! مقطوعاً!!؟؟ بها، وأكثر إجماعات العلماء كذلك. }

قلت : وهذا كلام لا يتابع عليه ابن الصلاح و ظاهر الخطأ من أوله إلى منتهاه!. فكيف تجمع الأمة على ما اتفقا ألا يتفقا عليه وهو اختلاف شرطيهما؟. وكيف يكون مقطوع به إن أتى على شرط البخاري باللقاء وتابعه مسلم بخبر على شرطه بالمعاصرة فقط، الضعيف عند البخاري أصلاً؟. فهو لم يرتق بعد إلى أدنى درجة العزيز، وهو رواية بشرط البخاري بعدلين في كل الطبقات؟. ثم ما معنى كلامه : لأن ظن من هو معصوم من الخطأ لايخطئ!!؟؟!. وهو حشو في حشو!. وعلق محيي الدين، أبو زكريا، يحيى بن شرف النَوَوي (631 ~ 676 هـ) بعد إيراد قول ابن الصلاح السابق في : " شرح مسلم " (1ك 20)، ط. مكتبة المثنى، بيروت، قال : { وهذا الذي ذكره الشيخ (ابن الصلاح خلاف ما قاله المحققون الأكثرون فإنهم قالوا : أحاديث الصحيحين التي ليست بمتواترة، إنما تفيد الظن. فإنها أخبار آحاد، والآحاد إنما تفيد الظن، على ما تقرر. ولا فرق بين البخاري ومسلم وغيرهما في ذلك. وتلقي الأمة بالقبول إنما أفادنا وجوب العمل بما فيهما، وهو متفق عليه (أي أن الاتفاق حاصل على العمل وليس العلم)، فإن أخبار الآحاد التي في غيرهما يجب العمل بها إذا صحت أسانيدها ولا تفيد إلا الظن. فكذا الصحيحان، إنما يفترق الصحيحان وغيرهما من الكتب في كون ما فيهما صحيحاً!؟، لا يحتاج إلى النظر فيه، بل يجب العمل به مطلقاً. وما كان في غيرهما لا يعمل به حتى ينظر. وتوجد فيه شروط الصحيح ولا يلزم إجماع الأمة على العمل بما فيهما إجماعهم على أنه مقطوع به بأنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وقد اشتد إنكار ابن برهان الإمام (هو أبو الفتح، أحمد بن علي الفقيه (479 ~ 518 هـ/1124 م)) على من قال بما قال الشيخ وبالغ في تغليطه! }.

قلت: وابن برهان أصولي!. وموقف الأصوليين من أخبار الآحاد معروف وأشدهم إنكاراً لحجيتها بذرائع مختلفة أصوليو الأحناف. وهذه التراتبية السُبعية في درجات الصحيح يعمل بها الشيخ ناصر الدين الألباني في مؤلفاته. وشرطه هو عند التحقيق دون السابع!. لأن الخبر عنده يتقوى بالشواهد والمتابعات التي لا يعبأ حتى بقراءتها في مظانها !؟!، على ما بيّناه في كتابنا: " كيف يرد الخطأ على المحدثين المعاصرين الكبار رواية ودراية لعدم إلمامهم بالعلم: الشيخ الألباني نموذجاً " فانظره. فهو يصرح بذلك في تخريجه لأحاديث "العقيدة الطحاوية"ص. 18 ، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة لسنة 1391 هـ /1971 م، بيروت. ليقول في هذا الصدد في معرض ردّه على بعض انتقادات الشيخ عبد الفتاح أبي غُدَة على تخريجاته هذه، بأن أبا محمد، الحسين بن مسعود الفراء البغوي (436 ~ 510 هـ/1117 م) يعمل بها!. وهو منهج عقيم كما تبين، لأن ما غربله البخاري بشرطه من الباب الواسع دخل من النوافد والشُقق بشروطهم المتدرجة في الضعف إلى درجة التهالك الغبي!. وهاك بعض ردّه على أبي غدة ص. 25 :

{وهكذا قال هذا المسكين!؟! (يعني به أبا غدة !) ولم يدر أنه بهذه الفلسفة! التي تلقاها من شيخه (يعني به زاهد الكوثري الحنفي المتحامل جداً على السلفية) يجعله كما تقول العامة: كنا تحت المطر، فصرنا تحت المزراب لأنه فتح على نفسه باباً للشباب الذن لا علم لهم بالسنة! أن يردوا كل حديث صحيح!!؟؟؟ ورد في الأمور التي ليست من الأحكام، وإنما هي من المعجزات، أو بدأ الخلق والجنة والنار. وبكلمة واحدة في الغيبيات التي تتوقف على اليقينيات بزعمه!!!؟؟؟. ويعني بذلك الأحاديث المتواترة!!؟؟. ثم تحفَظ فقال: " أو ما قاربها ". ويعني الأحاديث المشهورة التي رواها أكثر من اثنين. أما الحديث الذي تفرد به الثقة، وهو صحيح!!؟؟ عند أهل العلم!، فليس حجة في الغيبيات عنده. }.

قلت: ويكفي التدليل على ضعف قول الشيخ لألباني حديث أبي ذر الذي أخرجه الشيخان وأصحاب السنن فيما قوّلوه للرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر: { أتدري أين تذهب الشمس يا أبا ذر ؟..} والذي لا يرويه سوى إبراهيم التيمي عن أبيه وأثبتنا مع ذلك ضعفه متناً وسنداً وعلماً بما لا يستطيع المكابرة فيه إلا جاهل بيِّن الجهل!. وما دمنا قد ثبت لنا هذا، ولو في هذا الحديث الواحد، في غيبيات من هذا القبيل، فقد ثبتت الدعوى. هذا أثبتناه في كتابنا : " كيف يرد الخطأ على المفتين الكبار رواية ودراية لعدم إلمامهم بالعلم: الشيخ ابن باز والشيخ العثيمين نموذجاً ". وكم حاولت الاتصال بالشيخ لأثنيه عن فتواه الشهيرة في : " الصعود إلى الكواكب " دون جدوى!. وتوفي الشيخ ابن باز رحمه الله سنة 1420 هـ/1999 م دون أن يتراجع. فهلا يتراجع الشيخ العثيمن!..

وبما أن كل أحاديث مسلم الواردة في صحيحه، على شرطه هو في " المعاصرة فقط " تخرج ضمناً من اعتبارها فيما يمكن أن يتفقا عليه، فلا يبقى سوى ما خرج مسلم في كتابه مما اتفق أنه على شرط البخاري في اللقاء كي نقول بأنهما اتفقا على تخريج هذا الحديث بشرط البخاري عند كليهما. وهذا ما لم يصنف فيه أحد بعد فيما أعلم. ومن هنا تهافت كلام من يدعون لهما الاتفاق!!؟؟ لأنه ليس بدهي أولاً، وإنما لا يتحصل إلا بعد بحث!. وهو أساس منهجنا هنا.

صحيح! على شرطهما معا ولم يخرجاه، (كلام ينقض بعضه بعضا كما في رقم (1) أعلاه)

صحيح! على شرط البخاري ولم يخرجه، (هو في درجة رقم (2) ما دام يفي بشرط البخاري)

صحيح! على شرط مسلم ولم يخرجه، (هو ضعيف عند البخاري كما تقدم)

صحيح! لم يخرجاه ولم يكن على شرطهما معا ولا على شرط واحد منهما. (كيف يكون هذا؟!).

ونحن لن يصح عندنا في هذا البحث في مجال العقائد والإعجاز العلمي، حسب المنهج النقدي المتعدد التخصصات والمنطق السليم، الذي لا يمكن أن يعارضه عاقل، سوى بالشروط الموضوعية التالية :

الخبر الوارد بعدلين (عزيزا على الأقل) في كل الطبقات،محفوفا بشرط البخاري في اللقاء[1] بين رواة عدول ثقات، ضابطين، مشهورين بالرواية، ليس بينهم مدلس، ولا مختلط، ولا مجهول حال، ولا منفرد أو مغرب أو شاذ برواية عمن اشتهر بالرواية.

10-1-3-2- التلفيق في الرواية

قال البرزنجي في الإشاعة[2] :

في بعض الروايات أن الجيش الذي يخسف بهم يبعث من الشام وفي بعضها من العراق! ولا منافاة!؟ كما قال ابن حجر!، لأن البعث من العراق! لكنهم لما كانوا من أهل الشام نسبوا إليها في الروايات الأخرى!.

وقال أيضا :

في بعض الروايات يحمل (المهدي !) السيف على عاتقه ثمانية أشهر!؟، وفي بعضها ثمانية عشر شهرا!؟، وفي رواية اثنين وسبعين شهرا!؟ وهي مدة ست سنين!، وفي بعض الروايات أن المهدي بيبت المقدس!، وفي رواية فلا يبلغه حتى يموت!، وفي رواية فتلتقي رايات الهاشمي (مهدي الرضا من آل محمد: النفس الزكية تاريخيا) مع خيل السفياني (المهدي الأموي الذي اخترعه خالد بن يزيد الأموي وتلقفه ملفقة الأخبار!، وصنعوا به الملاحم!)، فيكون بينهم مقتلة عظيمة، وتنهزم خيل السفياني، ثم تكون الغلبة للسفياني فيهرب الهاشمي ويأتي اليمني (أو القحطاني المهدي الثالث في هذه الملاحم الأسطورية المسلية!) مستخفيا إلى بيت المقدس يعهد للمهدي إذا خرج من الشام.

ولا يظهر للبرزنجي أي تعارض أو خلف في كل هذا فيشرع في التلفيق[3] :

وطريق الجمع بين الروايات، الأول: أن اثنين وسبعين باعتبار جميع مدته، ويدل له!!؟ (لاحظ كيف يشهد بباطل للتدليل على باطل آخر!، وهي عملية تلفيقية توليدية لا نهائية!) ما في بعض الروايات أن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءا وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود (أصحاب أبي مسلم الخرساني تاريخيا) فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلون حتى يسلموه إلى المهدي!؟!. وثمانية عشر باعتبار ما بعد مدة قتاله مع خيل السفياني واجتماع شعيب بن صالح! به!؟. وثمانية أشهر باعتبار مدة ما بعد نزوله الكوفة وبعثه البيعة إلى المهدي. وهذا جمع حسن!!!!؟؟ لا بأس به!. وطريق الجمع بين الروايات الأخيرة هو أن يقال: إن ضمير يموت يعود إلى السفياني، أي فلا يلقى الهاشمي المهدي (لا حظ الإبهام المقصود في هذه الدعاية العباسية هنا بكل جلاء: المهدي الهاشمي: إن كان المتشيع علويا ظنه النفس الزكية! أما العباسيون فلا يعنون به سوى الانتساب إلى أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية الذي أفضى بأسرار الدعوة إلى بني العباس!) حتى يموت السفياني أو يرجع إليه ويكون القادم بالرايات التميمي ونسبته إلى الهاشمي مجاز!!!!؟؟..

وابن حجر العسقلاني، على علو كعبه في علوم النقل، لم يسلم بحكم البيئة والموروث من هذا النوع من التلفيق، بل هو مشهور به في سائر كتبه ويسميه هو أيضا جمعا!. وكذلك هي دندنة وشنشنة عند سميه ابن حجر الهيثمي المكي في كتابه : "القول المختصر في علامات المهدي المنتظر!؟" بخصوص المدة التي يدوم فيها حكم المهدي وهي روايات مختلفة! ، كلها ضعيفة متهافتة!، تتدرج ما بين 7 سنين، و 19 سنة وأشهر!، و 20 سنة!

[1] لاحظ أن هذا الشرط أقل من شرط اشتراط وجود " السماع "، لأن اللقاء يمكن أن يتوفر إلا أنه لا يضمن حصول السماع فعلا!.

[2] الإشاعة لأشراط الساعة ، ص. 96..

[3] نفس المرجع 98 ~ 99 .

وأربعين سنة! ليقول لنا بخصوصها[1] ! :

ويمكن الجمع!؟ على تقدير صحة الكل!!!؟؟(قلت: كيف تُقدّر الصحة هذه!؟، أليس هناك منهج يعرف الصحيح من الضعيف أولاً قبل أي جمع أو ترجيح!؟) بأن مُلكَه متفاوت الظهور! والقوة!، فيحمل الأكثر على أنه باعتبار جميع مدة الملك!، والأقل على غاية الظهور!، والوسط على الوسط!!!؟؟.

ونكتفي بهذا القدر دالين على غيره، لأن تتبعه يملأ قراطيس!.

10-2- المنهج النقدي المتعدد التخصصات في قبول الأخبار.

سوف نعمل الآن على تخريج أخبار المهدي على شكل لوحات خطاطية، تسهيلاً للعرض أولاً وليسهل على القارئ الغير المتخصص تتبع منطق الأشياء في كل هذا الكم المتنافر من الأخبار! ثم ثانية لتسهيل هضمها من طرف القارئ، حيث ندرج فيها كل وجه مع الطرق التي أوردته. ولن نشير سوى إلى الحلقات الضعيفة في رجال كل سند، مع ما يتطلبه المقام، بحيث يستهل على القارئ الحكم بداهة على الأخبار من تلقاء نفسه بما وفرنا له من مادة، حتى وإن لم يكن ملما بمصطلحات علوم الحديث، بدل تسويد ذلك على الطريقة القديمة بإيراد أقوال الحفاظ في كل الرواة، كما كان دأبنا في بعض كتبنا. بل سوف نكتفي بقول واحد مجمل في كل راو مركزين فقط على الحلقات الضعيفة الموهنة للسند كوجود : الوضاعين والكذابين والضعفاء ضمن كل سند.

لكن من خلال عرضنا التاريخي نستشرف بادئ ذي بدء الملاحظات التالية على المتون الخبرية :

أ. كل متن خبر ورد صريحا بالجملة : "يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا " أو في معناها، فهو زرادشتي المنشأ لا تتناطح بشأنه عنزتان، إلا ممن يجهل التاريخ!. وسنجد السند دالا برجاله على ذلك.

ب. كل متن خبر ورد صريحا بالجملة: "عائذ بالبيت " أو "يخسف بهم ببيداء "، فهو من الدعاية لعبد الله بن الزبير، لأنه اشتهر بذلك الإسم، أي "العائذ بالبيت ".

ت. كل متن خبر ورد صريحا بجملة : " الرايات السود من الشرق" فهو من الدعاية للحزب الهاشمي المطلبي يوم كان أمرهم واحدا ويظهرون الدعوة للنفس الزكية. وصاحب الرايات السود ما هو سوى : "أبو مسلم الخرساني ".

ثم بعد هذا لكل مقام مقال، إلى أن نأتي على كل الأخبار محققين دعوة غلاف الكتاب، بإذن الله تعالى.

[1] نقله عنه مستشهدا به!، صاحب الإشاعة لأشراط الساعة، ص. 105 . وكذلك نقله محمد البلبيسي بن محمد بن أحمد الشافعي في كتاب " العطر الوردي شرح القطر الشهدي " ص. 70 ، ط. بولاق، مصر، 1308 هـ/1890 م. وهو شرح على منظومة شهاب الدين، أحمد بن إسماعيل الحلواني الخليجي المصري) 1249 ~ 1308 هـ) المسماة: " القطر الشهدي في أوصاف المهدي ".

فهرس الكتاب

الحوارُ المُتَحضّرُ: أيُّ إسلام؟

تصحيح المسار | داعية 21 | أوراق القرن | تصحيح الاعتقاد

THE CIVILIZATIONIST DIALOGUE ; WHAT ISLAM ?

DER CIVILISATORISCHE DIALOG ; WELCHER ISLAM?

13

هل سيرجع المسيح ثانية؟
ماذا يقول الإسلام؟
{لم يطبع بعد}

هل هناك مسيح دجّال؟
ما هو قول الإسلام؟
{لم يطبع بعد}

أحاديث في السياسة لا تصح
(1) الأئمة من قريش
{لم يطبع بعد}

أحاديث في السياسة لا تصح
(2) الخلافة للنبوّة
{لم يطبع بعد}

16

17

أحاديث في السياسة لا تصح
(3) الخوارج كلاب النار!
{لم يطبع بعد}

أحاديث في السياسة لا تصح
(4) يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمّة دينها.
{لم يطبع بعد}

أحاديث في السياسة لا تصح
(5) القدرية مجوس هذه الأمة
{لم يطبع بعد}

الجدل العقائدي في العلوم
علم الكونيات نموذجا
{لم يطبع بعد}

20

21

العبدوية والتحصين الاستشراقي للفيروسات الثقافية: طه حسين نموذجاً {لم يطبع بعد}

جدل القرآن والسنّة: التفسير التسخيري للبيان ومنهج التحقق من التبيان { لم يطبع بعد }

الأسس العلمية لدعاوى القرآن
{لم يطبع بعد}

الأسطورة وصناعة الأمم الأوروبية في التاريخ: فرنسا نموذجا
{لم يطبع بعد}

24

الدعوة الإسلامية فرض من فروض العين على كل مسلم ومسلمة. فبوعيك الحي كشاهد قرن وبدعمك اللامشروط وبمؤازرتك تحت كل الظروف والأحوال يتم البلاغ عن رب العالمين.

فلا تكن وبالاً على نفسك ثم على الإسلام بأميّتك في الدين!. ولا تكن إمّعة تنعق وراء كل ناعق، إذلالاً لنفسك وتسفيهاً لمتبوعك!، بلا دليل شرعي يقدمه بين يديه أو بين يديك! ولا تكن مقلدا مُتَكَلّساً ولا جاهلاً بليداعَيياً، فإنه لا أسوة في الشر!.

للحصول على الكتب خارج المغرب اتصلوا بنا مشكورين على مركز التوزيع
http://www.amrani.org : في amrani@Bookstore.org
وللمراسلة والمشاركة كاتبونا على البريد الإلكتروني : amrani@fcmail.com

LE DIALOGUE CIVILISATEUR: QUEL ISLAM?

الأحزاب الإسلامية ومهاديها!

البيعة للرضا من آل محمد

علي بن أبي طالب (40 هـ)

الحسن السّبط (52 هـ)
الحسن المُثنّى (90 هـ)
عبد الله الكامل 145)
إدريس الأول 172 هـ
محمد المهدي النفس الزكية 145 هـ
الأدارسة المغاربة
إبراهيم الإمام 145 هـ
المهدي محمد ابن القاسم 440 هـ
المهدي محمد بن إدريس المتأيد 444 هـ

الحسين الشهيد (61 هـ)
علي زين العابدين (95 هـ)
زيد الشهيد 122 هـ
محمد الباقر 114 هـ
جعفر الصادق 148 هـ
عبد الله الأفطح 148 هـ
موسى الكاظم (183هـ)
إسماعيل 143 هـ
علي 210 هـ
إسحاق ؟
محمدالديباج 203 هـ
علي الرضا 202 هـ
محمد الإمام المكتوم
موسى
محمد الجواد 220 هـ
علي الهادي 254 هـ
الحسن العسكري 260 هـ
الخرافة!

محمد بن حنفية (81 هـ)
علي؟
الحس؟
عبد الله أبو هاشم (99هـ)

عبد الله ابن عباس 68 هـ
علي 118 هـ
محمد 125هـ
عبد الله أبو جعفر المنصور 158 هـ
محمد المهدي 169 هـ

لاحظ كيف اختار المنصور العباسي تسمية ابنه " محمدا" المهدي إجهاضاً لدعاية حزب محمد النفس الزكية المستقل للخبر المنسوب كذباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

THE CIVILIZATIONIST DIALOGUE ; WHAT ISLAM ?